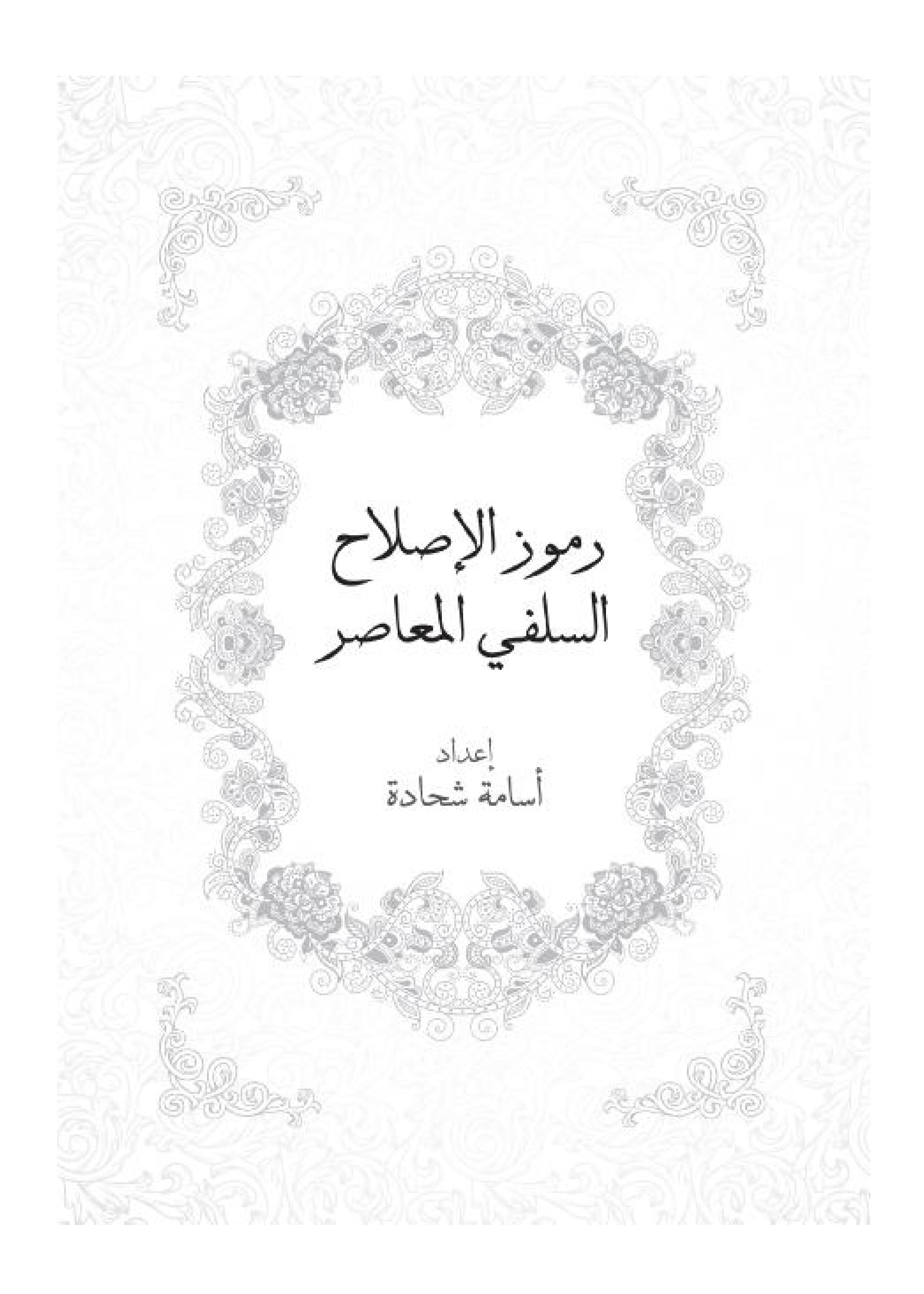
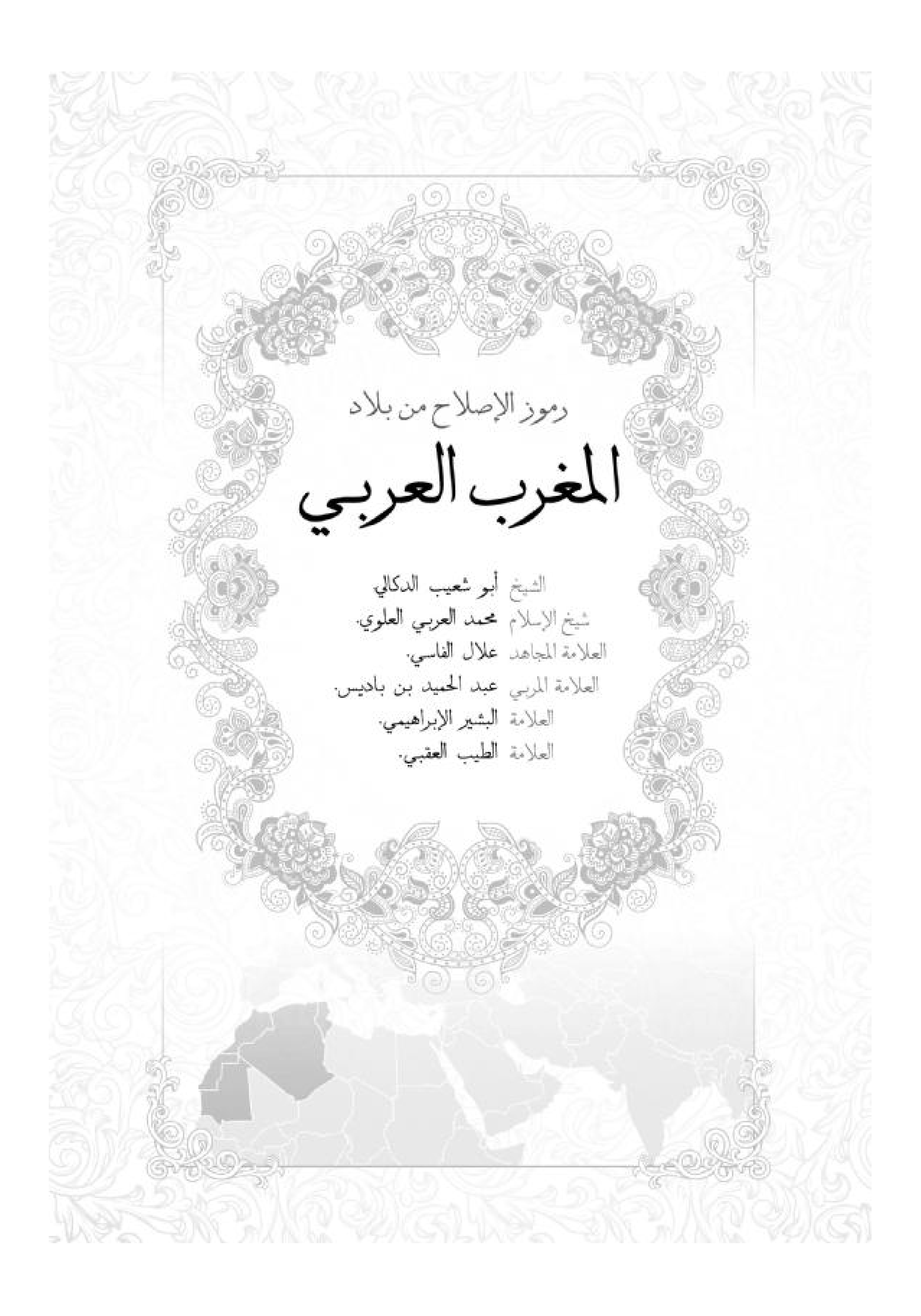

رموز الإصلاح
السلفي المعاصر
إعداد
أسامة شحادة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م





رموز الإصلاح من بلاد

المغرب العربي

الشيخ أبو شعيب الدكالي

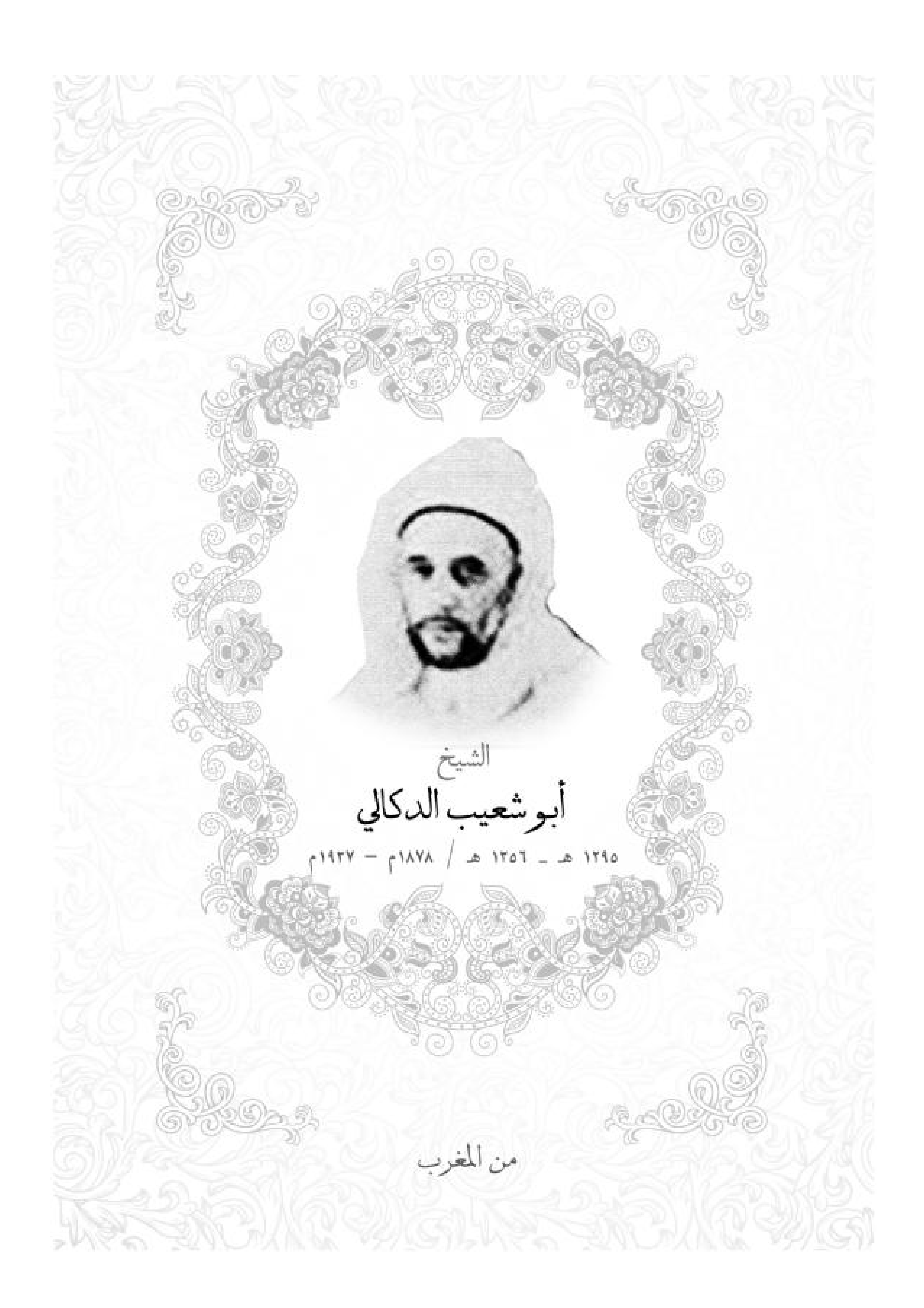
شيخ الإسلام محمد العربي العلوي.

العلامة المجاهد علال الفاسي.

العلامة المربي عبد الحميد بن باديس.

العلامة البشير الإبراهيمي.

العلامة الطيب العقبي.



الشيخ

أبو شعيب الدكالي

١٢٩٥ هـ - ١٣٥٦ هـ / ١٨٧٨م - ١٩٣٧م

من المغرب

١- الشيخ أبو شعيب الدكالي المغربي
(١٢٩٥هـ-١٣٥٦هـ/١٨٧٨م-١٩٣٧م)

في هذه المرحلة التي تشهد تقدم العمل الإسلامي على الصعيد الدعوي والاجتماعي والسياسي نجد أنه من المفيد لتقويم وتسديد مسيرة العمل الإسلامي التعريف ببعض رواد الإصلاح ورموزه؛ لوصل الحاضر بالماضي، والاستفادة من الدروس والتجارب السابقة والبناء عليها؛ حتى لا تضيع تلك الجهود المباركة ولكي نختصر كثيراً من الزمن والجهد.

تعريف بشخصيته:

الشيخ أبو شعيب بن عبد الرحمن الدكالي الصديقي، (١٢٩٥هـ-١٣٥٦هـ/ ١٨٧٨م-١٩٣٧م)، يعدُّ آخر حُفاظ المغرب ومحدثيه، ورائد الدعوة السلفية في مطلع هذا القرن بالمغرب؛ حتى لُقب بشيخ الإسلام.

تولى الإمامة والخطابة والإفتاء على المذاهب الأربعة في الحرم المكي، وقدم بعض الدروس بالأزهر في مصر، وفي جامع الزيتونة بتونس، وبعد عودته للمغرب وصلت له رئاسة الدروس السلطانية بالقصر الملكي على عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، والسلطان المولى يوسف، والعاهل محمد الخامس.

وتولى وزارة العدل والمعارف لعدة سنوات، وكان يلقبه بعض طلابه بـ (محمد عبده المغرب)، لدوره الإصلاحي العلمي والوطني؛ والذي أنتج عدداً من قادة المغرب العلميين والسياسيين.

نشأته:

ولد الشيخ أبو شعيب الدكالي بدار الفقيه بن الصديقي بدكالة في (٢٥ ذي القعدة عام ١٢٩٦هـ)، وهو من قبيلة أولاد عمرو، إحدى قبائل دكالة العربية، وهي قبيلة معروفة الأصل في المغرب منذ عهد المرابطين، وهم من رسخ الفكر السني في المغرب العربي منذ ذلك العهد.

نشأ يتيماً تحت كفالة عمه العلامة سيدي محمد بن عبد العزيز الصديقي، وتلقى تعليمه الأولي بمسقط رأسه قرية الصديقات بنواحي منطقة الغربية، إحدى بوادي جهة دكالة على يد شيوخ وعلماء القبيلة من أمثال: العلامة ابن عزّوز، والعلامة محمد الصديقي، ومحمد الطاهر الصديقي، وغيرهم.

ثم انتقل إلى الريف؛ حيث أتم حفظ القرآن بالقراءات والمتون الشائعة في زمنه، فعندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً استحضر السلطان مولاي الحسن الأول حفاظ مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي لأجل الاختبار، وكان ذلك سنة (١٣٠٨هـ)، فحضر أبو شعيب إلى مراكش مع من استقدم إليها من الحفاظ، وكان المشرف على الامتحان الفقيه علي بن حمو المسفيوي -وزير العدل-؛ فأعجب بأبي شعيب الدكالي لصغر سنه وتقدمه على من عداه حفظاً وفهماً، فسأله الوزير عن القرآن: عن حفظه، فأجاب على الفور أنه يحفظه وبالقراءات السبع، فأحضر من يعرفها ليمتحنه فيها.

وشاع خبر هذا الطفل العجيب في القصر؛ حتى بلغ إلى علم السلطان، فأمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه قال له السلطان: أعرب "الرمان حلو حامض"، فأعرب المثل، وكان قصد السلطان أن يطرح معه قضية معروفة في النحو تتعلق بالخبر حين يتعدد بالنسبة لمبتدأ واحد، ثم إن السلطان الحسن الأول أراد أن يمازحه ويثيره

فقال له: "أنت فقيه، ولست بنحوي"، فأجابه: "أنا أعلم بالنحو مني بالفقه، ولكني أنشد لمولانا قول الشاعر:

يداك يد للورى خيرها وأخرى لأعدائها غائرة

هنا تدخل بعض من كان حاضراً في المجلس وقال له: أفصح! ماذا تريد أن تقول لمولانا؟ فأجاب: "يكفني أن أتلو قول الله -تعالى-: { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ } [الأنعام:٣٩]".

فأعجب به السلطان أيما إعجاب، وضحك كثيراً، وأمر له بصلتين وكسوتين، ووقع على بطاقة التنفيذ بما نصه: "يضاعف لأبي شعيب لصغر سنه وكبر فنه".

رحلته لمصر:

في سنة (١٣١٤ هـ/١٨٩٦م) رحل إلى مصر فمكث بها ست سنوات، وأخذ فيها العلم عن علماء الأزهر مثل: شيخ الإسلام سليم البشري، والعلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمد محمود الشنقيطي اللغوي الشهير، والشيخ أحمد الرفاعي، وغيرهم كثير.

وقد كان الشيخ محمد عبده يرأس لجنة الامتحان التي تقدم إليها الشيخ شعيب لدخول الأزهر، وقد كان يرفض دخوله بسبب عجز اللجنة عن قراءة خطه المغربي؛ لولا تدخل الشيخ محمد عبده وطلب إجراء الاختبار له شفويّاً.

وقد كان لإقامته في مصر المنفتحة على أوربا والحضارة الغربية؛ والتي تحمل مجلاتها وجرائدها وكتبها أبحاثاً ودراسات ومقالات تعبر عما تمر به مصر من نهضة فكرية وإصلاحية أثره الكبير في نفس الطالب الشاب أبي شعيب الدكالي وتكوينه

العلمي وتوجيهه الفكري[1].

رحلته لمكة المكرمة:

طلب والي مكة الشريف عون الرفيق من الأزهر إماماً ومفتياً وخطيباً للحرم المكي، يكون عالماً مطلعاً على الكتاب والسنة؛ وذلك بسبب قوة ظهور الدعوة السلفية في نجد، مما أثر على وضع الحجاز، فرشح شيخُ الأزهر الشيخ سليم البشري أبا شعيب لهذه المهمة، فأصبح إماماً وخطيباً ومفتياً ومدرساً للمسلمين في أرض الحرمين الشريفين.

وقد حظي أبو شعيب عند أمير مكة بالحظوة الحسنة فأكرمه وبالغ في احترامه وتعظيمه، وقدمه في مجالس العلماء، وخطب له ابنة أحد وزرائه لتكون زوجة له.

وانتهز أبو شعيب الفرصة بمجاورة وقدوم عدد كبير من علماء المسلمين لمكة فأخذ العلم عنهم وهم من بلاد شتى، منهم: شيخ الحنابلة بالحجاز والشام الشيخ عبد الله صوفان القدومي النابلسي، والشيخ العلامة عبد الرزاق البيطار، والشيخ محمد بدر الدين الدمشقي، والشيخ أحمد بن عيسى النجدي.

وكانت له دروس متعددة بالحرمين الشريفين منها: التفسير، وشرح الكتب الستة، وشرح بعض كتب السيرة ككتاب «الشفا» للقاضي عياض، و«الشمائل» للترمذي، ودرس اللغة والأدب، ودروس في الفقه وأصوله والقراءات والمصطلح.

كما أجاز أبو شعيب عدداً كبيراً من طلبة العلم من مختلف بلاد العالم مثل: الحاج مسعود الوفقاوي -من علماء سوس-، والشيخ محمد العربي الناصري -عالم المغرب-،

---

(١) «أعلام المغرب العربي»، عبد الوهاب بن منصور، (ج٢ ص ١٩٨)، المطبعة الملكية بالرباط.

والشيخ يوسف القناعي -من الكويت-، والشيخ محمد الشنقيطي -من علماء موريتانيا؛ والذي بعثه أبو شعيب من منطقة الإحساء لمنطقة الزبير بالعراق للدعوة والتدريس-، والشيخ عبد الله بن حميد -مفتي الحنابلة بمكة المكرمة-، والشيخ محمد سلطان المعصومي -من علماء ما وراء النهر، صاحب كتاب «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين»-، وغيرهم كثير.

وبسبب جهوده المباركة ودروسه العلمية وطلابه النجباء وتأثيره في الحجاج والمعتمرين ذاع ذكره في العالم، وفي ما يلي نموذج من خطبه في الحرم المكي:

"اعملوا لدنياكم، اعملوا لآخرتكم، اعملوا لدنياكم ما يرقي بلدكم، اعملوا لدنياكم ما يرقي أولادكم، اعملوا لدنياكم ما يجعل يدكم عليا.

فقد قال ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»، فالمحترف أمير والسائل ذليل.

اعملوا لدنياكم ما يقلل البطالة في البلد التي كان يتردد فيها جبريل بالوحي والتنزيل.

اعملوا لدنياكم أحباب الديان، فأنتم تعلمون أن أسباب المعايشة أربعة: إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة.

فأما الإمارة؛ فلا يتعيش بها إلا الأنفار المحدودون دون الغير الكثير.

وأما الزراعة؛ فأنتم بِواد غير ذي زرع، كما حكى الحكيم الخبير.

فما بقي إلا الصناعة والتجارة، وهذه البلاد الطاهرة خالية من الصناعة، وتجارتها ضعيفة مزجاة البضاعة، فهلمّوا إلى ما ينفعكم وسلوا من واليكم الجديد المظفر المعان أن يساعدكم على إنشاء مكتب صناعي، فهذا الجلد المباع في بلدكم بالقرش والقرشين،

ويصنع ويرد إليكم فتشترونه بالمائة والمائتين، فكأنكم لم تقرؤوا قول الله -جل جلاله وعلا-: { مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } [النحل:٨٠]...".

ويتضح من هذه الخطبة طبيعة الخطاب الإصلاحي الذي كان يبثه أبو شعيب في المسلمين من ضرورة عمارة الدنيا والأخذ بأسباب القوة والتقدم والرقي على هدي الوحي المبارك في القرآن والسنة.

وقد حمل طلابه هذه المفاهيم معهم إلى بلدانهم، فها هو تلميذه الشيخ الشنقيطي يفتح المدارس والمعاهد في العراق والإحساء، وينشر الدعوة السلفية هناك، وأما تلميذه الشيخ القناعي والذي يعد مصلح الكويت الكبير؛ الذي أسس بعد عودته للكويت المدارس القرآنية والعلمية والمكتبات العامة، وكان من المؤسسين لمجلس الشورى بالكويت سنة (١٩٢١م)، ومن مؤسسي المجلس البلدي فيها.

وبسبب هذا السمعة الحسنة للشيخ أبي شعيب والتي بلغت المغرب كله من خلال طلابه والحجاج، طلب منه المولى عبد الحفيظ حين تولى ملك المغرب[١] -وهو الملك العالم الفاضل- أن يعود للمغرب حتى يكون معيناً له في إصلاحها.

عودته لوطنه:

وفي سنة (١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م) عاد أبو شعيب إلى بلده، واستقر في مدينة فاس، وقربه السلطان مولاي عبد الحفيظ، وتهافت عليه علماء فاس وطلبتها وأعيانها.

وقد كان لأبي شعيب زيارات متعددة سابقة لبلده أبقته على صلة بالمغرب قيادةً

(١) كان هناك عدد من سلاطين المغرب من أهل العلم والفضل، وعلى معتقد السلف الصالح منهم: السلطان عبد الحفيظ.

وشعباً، وإدراك لهموم المغرب وتحدياته تحت الحماية -الاستعمار- الفرنسي.

نشاطه الرسمي في الدولة:

وفور عودته ولاه السلطان قضاء مراكش، فاشتهر بالنزاهة والعدل.

وفي سنة (١٣٣٠ هـ/١٩١٢م) تم تعيينه وزيرا للعدل والمعارف، فعمل على إصلاح القضاء حين تولى وزارة العدل من خلال تجربته في القضاء، حيث راجع شروط تولية القضاء باشتراط الكفاءة الشرعية مع النزاهة في المرشحين للقضاء، واستحدث لجاناً للامتحان والترقي والتأديب للعاملين في القضاء، كما حصر الفتوى بالعلماء الثقات المشهورين.

كما وضع أسساً للتقاضي؛ حِفظاً للحقوق، وتعجيلاً بالانجاز حتى لا تطول مدة المحاكمات بلا داعٍ.

وفي سنة (١٣٣٢هـ) أصدر السلطان أمراً بتأسيس مجلس الاستئناف الأعلى الشرعي، وأسند رئاسته لأبي شعيب -مع بقائه وزيراً للعدل- لمراجعة ما يصدر من القضاة من أحكام.

وفي نفس السنة أضيف لمهامه: الإشراف على إدارة المعارف والشؤون الدينية، فعمل على زيادة مكافآت العلماء والموظفين الدينيين، والبدء بإصلاح التعليم الديني؛ والذي بدأ فيه في جامع القرويين، والذي يعد أقدم جامعة في العالم، وقد استعان بعدد من طلابه في إدارة القضاء والمعارف منهم: الشيخ محمد بن العربي العلوي، وكان يصطدم مع الفرنسيين كثيراً بسبب رفضه مسايرتهم في التحرر من الشريعة الإسلامية قضاءً وتعليماً.

وقد كان أبو شعيب ينوب أحياناً عن الصدر الأعظم -ما يعادل منصب رئيس الوزراء اليوم-؛ فيوقع المراسيم نيابة عنه.

وبقي يتولى وزارة العدل حتى سنة (١٣٤٢ هـ/١٩٢٣م)، حيث طلب إعفاءه لأسباب صحية فمنح إذ ذاك اعترافاً له بالجهود التي بذلها في مهامه لقب "وزير شرفي"، وقيل أن سبب طلبه الإعفاء: رفضه التوقيع على قرار بإنشاء دار للبغاء بدعم من الفرنسيين.

دوره العلمي والدعوي:

ورغم انخراط أبي شعيب في مناصب رسمية كثيرة إلا أنه لم ينقطع عن التدريس والخطابة والوعظ والدعوة ونشر العلم؛ سواء في الدروس الحسينية، أو في زياراته لمدن المغرب أو خارجها، فقد كان يدرس ثلاثة دروس في اليوم: بعد الفجر، وبين الظهرين، وبين العشاءين، هذا بالإضافة لعمله الرسمي.

ومن أهم جهوده في نشر العلم في المغرب: إحياؤه تدريس تفسير القرآن الكريم الذي كان ممنوعاً؛ بسبب خرافة سيطرت على بعض الجهلاء من العلماء والحكام بدعوى: أنه إذا فسر القرآن مات السلطان، إذ حدث في عهد السلطان سليمان أن دخل إلى بعض المساجد في فاس الشيخ أحمد التيجاني -وكان السلطان يعظمه- فوجد الشيخ الطيب بن كيران يدرس التفسير، فقال للسلطان مستغرباً ومستنكراً: "مثل هذا العالم يدرس التفسير؟ سيكون ذلك وَبالاً وخراباً على الأمة والسلطان"! فتوقفت دراسة التفسير في المغرب منذ ذلك الوقت، وأصبح يُقرأ تلاوةً وسرداً، وليس دراسة علمية، حتى جاء أبو شعيب فأحيا دراسته، وقال: "بسم الله نفسر القرآن ولا يموت السلطان"، ففسر القرآن وعاش السلطان.

وكان يدرس من «تفسير النسفي»، واستطاع أن يبعث وعياً فكريّاً جديداً في المغرب، باعتبار الوحي القرآني أول مصدر في مسيرة التصحيح والتقويم للعودة بالأمة إلى الطريق السليم، بعيداً عن الخرافات ومظاهر الشعوذة التي كانت شائعة يومئذ.

ثم قام أبو شعيب بتدريس السنة النبوية وعلومها، وشرح كتب الحديث، بعد أن كانت تقرأ متون الأحاديث فقط؛ على سبيل التبرك دون التمعن في معانيها أو الاستفادة من مراميها، فحصلت نهضة علمية سلفية كبيرة في المغرب.

وفي الفقه درّس أبو شعيب الفقه بالدليل، فقد شرح «مختصر خليل» -وهو المعتمد عند المالكية في المغرب-، بإرجاع كل مسألة إلى دليلها، كما درّس أبو شعيب الدكالي علوماً كثيرةً كالنحو، والأدب، والقراءات.

دوره الإصلاحي:

قام أبو شعيب بالإصلاح من خلال مؤسسات الدولة، ومن خلال نشاطه العلمي العام؛ فقد كان سبباً في إصلاح كثير من الأنظمة والمؤسسات في قطاعي القضاء والتعليم.

كما أن جهوده في نشر العلم والتعليم كان لها أكبر الأثر في ظهور القيادات الوطنية المخلصة، والتي كافحت الاستعمار لتحررها من ربقة الطرقية؛ التي تحالفت مع الاستعمار من خلال طلبته الذين درسوا عليه مختلف العلوم؛ سواء في مكة المكرمة أو في المغرب بعد عودته.

وبسبب تقلده منصب وزير العدل -والمغرب تحت الاستعمار الفرنسي- رماه بعض المتسرعين بالعمالة للفرنسيين، وهو حكم عجول، وله مخرج شرعي وعقلي؛ فإنه ليس من الحكمة أن يترك هذا المنصب للفرنسيين أو أتباعهم لأنه كان يحكم بين

المسلمين المغاربة، ومن خلال شغله لهذا المنصب حمى كثيراً من المصالح الشرعية والوطنية للمغاربة، فقد كانت كثير من أقضيته هي السبب -بعد الله U - في تثبيت الكثير من الأراضي المغربية كي لا يستولي عليها الفرنسيون بحجج شتى.

ومن دوره الإصلاحي: رفضه لبعض التصرفات التي يقوم بها بعض المتحمسين للجهاد ضد فرنسا، فتكون النتيجة الربح لفرنسا، وذلك في قصته المشهورة مع الشيخ أحمد الهيبة حين قال له: "إن قوماً يزعمون أنني أحارب المجاهدين، وهذا كذب؛ لأنني أحارب بعض الثوار الذين يكونون سبباً في تسليم البلد، والتعاون مع العدو كبوحمارة[1]، وبوعمامة"، ومصدر هذه الطعونات هو بعض المتصوفة الذين كانوا يعادونه بسبب منهجه السلفي.

كما كان مدافعاً عن وحدة الدولة أمام الاستعمار الفرنسي، ولذلك كان أول من عارض الظهير البربري -الظهير هو: المرسوم-، والذي هدف لتقسيم المغرب على أساس عرقي بجعل إدارة مناطق البربر للاستعمار الفرنسي؛ والذي سيعمل على إلغاء اللغة العربية والمحاكم الشرعية، وتبديلها بمحاكم ترجع للعادات البربرية؛ حتى لو تصادمت مع الإسلام، والاحتكام لقانون العقوبات الفرنسية!!

كما كان عضوا في جمعية "أحباس الحرمين الشريفين"؛ والتي كانت جمعية تونسية مغربية جزائرية، كما أنه كان متصدياً لمحاولات المستشرقين لضرب اللغة العربية حيث جعل هذا موضوع كلمته بمؤتمر اللغة والآداب بتونس سنة (١٩٣١م).

---

(١) أبو حمارة كان صنيع الاستعمار، قام بثورة وقد كلف خزينة الدولة الكثير، وأزهقت كثير من الأرواح للقضاء عليه، وانتهت فتنته في عهد السلطان عبد الحفيظ.

منهجه:

© قام منهج أبي شعيب على محاربة الشرك والخرافة والبدعة.

قال علال الفاسي في رثاء شيخه أبي شعيب:" كان الفقيد في الرعيل الأول من أشياخنا الذين نعوا على التقليد وحاربوا الجمود، ودعوا إلى التحرر من قيود العصور الأخيرة المنحطة، والسمو بالفكر إلى مستوى السلفية الأولى التي تعبد الله خالصاً له الدين، توحي بالعقل في الفهم والتفهيم، وترجع إلى القرآن والسنة في البرهنة والتدليل".

© كان يؤثر اللين والتلطف في عرض منهجه ومناقشة خصومه.

يقول الأستاذ أبو بكر القادري: "الشيخ شعيب الدكالي كان يلمح ويعرض دون أن يصرح، والفقيه ابن العربي كان يهاجم ويخاصم ويشتد دون تحفظ.

وهذا ما جعل الكثيرين من الفقهاء المتزمتين يناصبون ابن العربي العداء، ولا يتعرضون للشيخ شعيب الدكالي بمقالة سوء".

© التركيز على التعليم المباشر وعدم الانشغال بتأليف الكتب.

ويقول في هذا الصدد تلميذه الكبير الشيخ عبد الله كنون: "نحن -يقصد: طلاب أبي شعيب- ألسنا كلنا كتباً وآثاراً لفقيدنا العظيم؟".

© الوضوح والتبسيط منهج أبي شعيب في التدريس.

إذ قد عاهد أمام الملتزم بالحرم المكي شيخه الشيخ محمد بدر الدين الدمشقي أن يُفهم الناس الدين، "وألا تعمّي في ألفاظك حتى يفهم عنك الخاص والعام"؛ بناءً على طلب الشيخ.

© ضرورة الانشغال بواجب الوقت خاصة من العلماء والدعاة.

فحين انشغل بعض العلماء الكبار بالبحث عن النملة التي كلمت سليمان عليه السلام هل التاء فيها للوحدة أو التأنيث؟

قال لهم أبو شعيب: "لقد فرغ العلماء من البحث في هذا الموضوع منذ قرون عديدة! وكان ينبغي لنا نحن أن نبحث عن الطرق التي تمكننا من طرد الجيش الفرنسي الذي بدأ يحتل بلادنا منذ سنوات..".

© التواصل مع علماء عصره للعمل على نهضتها.

فقد كانت له صلات بالشيخ عبد الحميد بن باديس -رئيس جمعية علماء المسلمين بالجزائر-، وعلماء تونس.

© لقد كان من منهج أبي شعيب: التصدي للولاية العامة ولو تحت حكم الاستعمار الفرنسي للقيام بمصالح الإسلام والمسلمين.

لأنه إن لم يقم بها؛ اختار الفرنسيون من يكون لعبة بأيديهم في ذلك بما يلحق الضرر بالإسلام والمسلمين.

وهي رؤية مبكرة ومتقدمة على كثير من مفكري الحركات الإسلامية التي توصلوا لها مؤخراً!!

قالوا في أبي شعيب:

² المؤرخ عبد السلام بن سوده: "كل ما وُصف به فالرجل فوق ذلك".

² وقال -أيضاً-: "الشيخ الإمام علم الأعلام، المحدّث المفسّر الرّاوية على طريق أيمة الاجتهاد، آخر الحفاظ بالديار المغربية ومحدثها ومفسرها، من غير منازع ولا

معارض".

² عبد الحفيظ الفاسي: "إمام في علوم الحديث والسنة... متظاهر بالعمل بالحديث والتمذهب به؛ قولاً وعملاً، داعية إليه، ناصر له".

² عبد الله الجراري: "كان ينادي بردّ الناس إلى الكتاب والسنة، ويحضّهم على اتباع مذهب السلف الصالح، ونبذ ما يؤدّي إلى الخلاف، وما ينشأ عنه من الحيرة والدوران في منعرجات الطرق؛ لأن الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمتاً هو: طريق السنة والكتاب".

² عبد الله كنون: "قام الشيخ أبو شعيب الدكالي بدعوته التي كان لها غايتان شريفتان:

الأولى: إحياء علم الحديث ونشره على نطاق واسع.

والثانية: -وهي بيت القصيد-: الأخذ بالسنة والعلم بها في العقائد والعبادات، فقد جهر في ذلك بدعوة الحق، ودل على النهج القويم، والصراط المستقيم".

² محمد السائح: "وقد اتصل صدى حركة الإصلاح التي كان يقوم بها الشيخ بالقصر؛ فصدرت بها ظهائر شريفة تؤيد تلك الحركة، منها ظهير في منع ما يقوم به بعض أرباب الزوايا مما يعد قذىً في عين الدين وبهقاً في غرة محاسنه".

² الرحالي الفاروقي: "فقد كان هذا الشيخ Z علماً من أعلام المغرب الشاهقة، وفذاً من الأفذاذ الذين يفتخر بهم في ميادين المعرفة والإصلاح، وفي خدمة الكتاب والسنة ورفع رايتها ونشر معانيها وإقامة أحكامها؛ بل كان يعتبر من الرعيل الأول في المغرب الذين أخذوا على أنفسهم إحياء العقيدة السلفية وبعث الروح

الإسلامية الصحيحة في النفوس؛ باعتماد وحي الكتاب العزيز ووحي السنة الذي لا ينطق عن الهوى، ونبذ ما سوى ذلك من الأقوال الموهومة والعقائد المشبوهة والخرافات المدسوسة؛ التي أخرت سير المسلمين وشوهت سمعة الإسلام".

² عبد الكبير الزمراني: "ولن ننسى قضية (لالَّة خضراء)، وهي: صخرة ذات شكل هندسيّ افتَتن به النساء بمراكش، وكنّ يقربن لها القرابين، ويقدمن لها النذور ويقمن لها موسماً سنويّاً، إلى أن سمع بخبرها الشيخ Z فلم يتردد في تغيير هذه البدعة، والقيام بنفسه على إزالتها، ومن الغريب أنه كلما دعا عاملاً لكسرها امتنع من ذلك لِما علق بذهنه من الأوهام حولها؛ إذ ذاك رأى نفسه مضطراً لكسرها بيده، وفعلاً أخذ الفأس وكسرها، ثم وزّع أشلاءها خارج البلد".

² د. محمد رياض: "إن بعض الناس حين يذكرون السلفية والإصلاح يقدمون وينوهون بالدرجة الأولى بالشيخ سيدي محمد بن العربي العلوي بدل ذكر شيخه وأستاذه شيخ الإسلام أبي شعيب الدكالي في المقام الأول وهو في المقام الثاني.

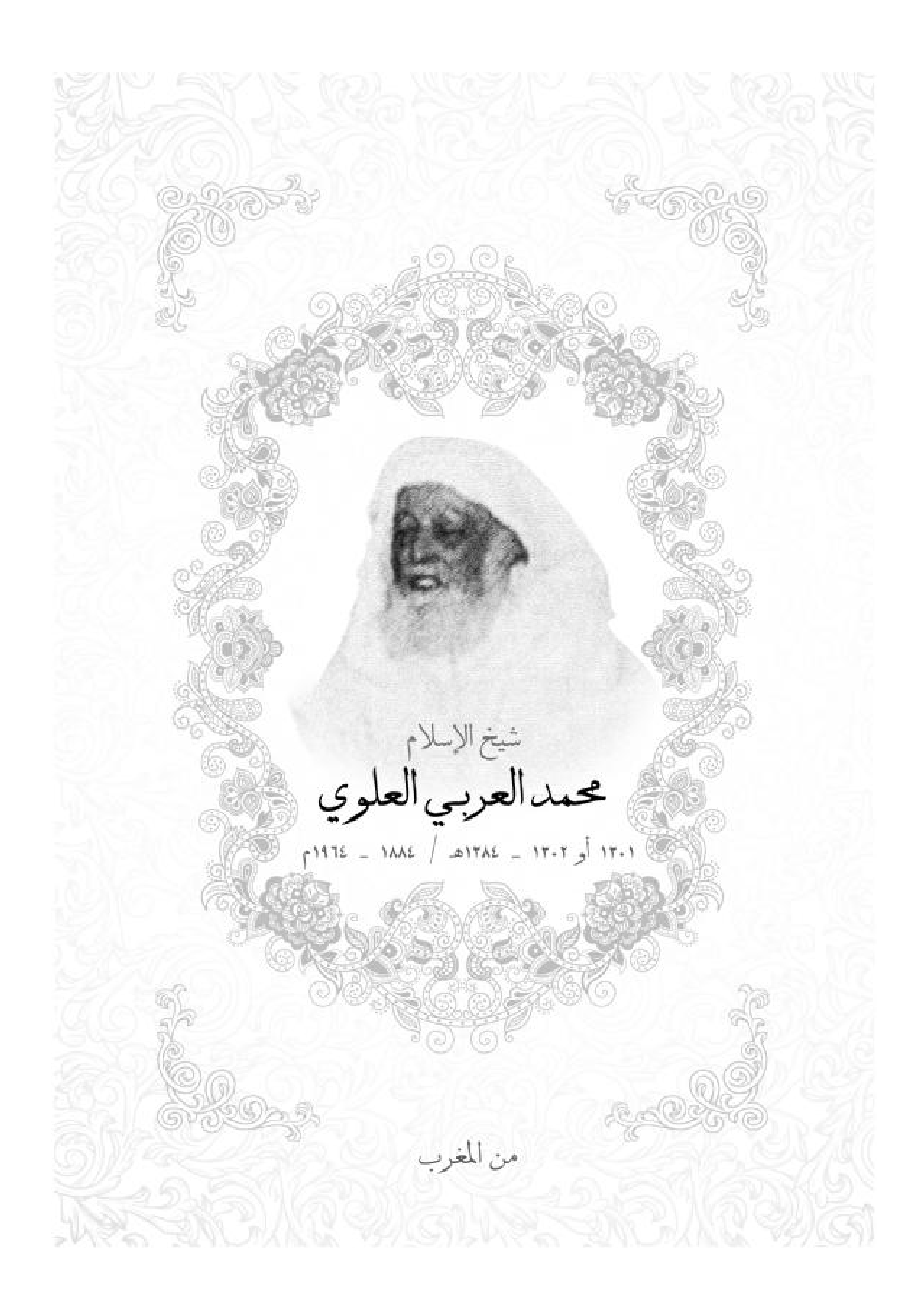
ذلك أن الشيخ سيدي محمد بن العربي العلوي تلميذ أبي شعيب الدكالي.

مصادر للتوسع:

o «شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي الصديقي»، د.محمد رياض، ط٢، (٢٠٠٩).

o «الحركة السلفية في المغرب العربي»، مجموعة مؤلفين، دار الأمان بالرباط، ط٢، (٢٠١٠).

o «من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر»، عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني، دار البيارق، ط١، (٢٠٠١).


شيخ الإسلام
محمد العربي العلوي
١٣٠١ أو ١٣٠٢ ـ ١٣٨٤هـ / ١٨٨٤ ـ ١٩٦٤م
من المغرب

٢- شيخ الإسلام محمد العربي العلوي[(١)]

(١٣٠١أو ١٣٠٢-١٣٨٤هـ/١٨٨٤-١٩٦٤م)

يزخر المغرب عبر تاريخه بعدد كبير من العلماء الأجلاء الذين ساهموا في بناء الدولة المغربية؛ بما يقدمونه من إسهامات علمية، ونضالات ومواقف بطولية، واجتهادات فقهية؛ خاصة وأن الملوك المغاربة كانوا يقربونهم دائماً إليهم، ويستشيرونهم في الأمور الهامة المتعلقة بالدولة، باعتبارهم أهل الحل والعقد.

ويعتبر "الشيخ محمد بن العربي العلوي" واحداً من الوجوه العلمية الكبيرة التي أفرزتها ظروف مغرب القرن العشرين، الذي تزايدت فيه الأطماع الاستعمارية بشكل خطير، والتي أفضت في النهاية إلى احتلال البلاد كنتيجة حتمية للضغوط العسكرية والسياسية، والمالية، والفكرية، والتجارية؛ التي مورست على النخبة الحاكمة في المغرب من قِبل الدول الأوربية الطامعة فيه.

ومما زاد الأمر تعقيداً أن أوضاع المجتمع المغربي الداخلية في هذه الفترة كانت متردية نتيجة الجمود الفكري، وانتشار الخرافات والشعوذة؛ بسبب كثرة الطرق والزوايا التي ابتعدت بشكل كبير عن روح الكتاب والسنة، مما أدى إلى تشويه الفهم الصحيح للإسلام.

---

(١) أصل مادة هذا المقال من مقال بعنوان: (الشيخ محمد بن العربي العلوي العالم العامل والسلفي المناضل ضد الجهل والاستعمار) لأحمد الأزمي، ونشر في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وقد عدلت عليه وأضفت إليه من مقالات أخرى في الإنترنت وبعض المراجع.

حالة المغرب هذه التي تدعو إلى الشفقة والحسرة اجتماعيّاً وفكريّاً؛ بسبب طغيان الجهل، وسياسيّاً واقتصاديّاً؛ من جراء الاحتلال الأجنبي، هي التي ستجعل شيخنا يعمل بكل ما أوتي من قوة ضمن الحركة الوطنية على شن حرب لا هوادة فيها ضد الجهل والطرقية، وضد المستعمر الغاشم للبلاد، مستعملاً في ذلك فكره السلفي، وحسه الوطني.

ميلاده، نشأته، ودراسته:

هو: الشريف المصلح شيخ الاسلام، أبو مصطفى محمد ابن العربي.

ويمتد نسبه Z إلى محمد بن عبد الله، الملقب بالنفس الزكية (أخو إدريس الداخل للمغرب، وجد الأدارسة).

ولد محمد بن العربي العلوي يوم (٧ من ذي الحجة عام ١٣٠١ أو ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م)، بالقصر الجديد بمدغرة، إحدى واحات "تافيلالت".

لعبت أسرته دوراً كبيراً في تكوين شخصيته وتوجيهه التوجيه العلي القويم؛ حيث كانت والدته تعينه على حفظ القرآن الكريم، وتحثه على التحلي بالفضائل والأخلاق الإسلامية.

ولم يكن دور والده سيدي العربي بأقل من دور والدته في الحرص على تربيته وتوجيهه التوجيه العلمي الصحيح؛ لأنه كان الأستاذ والمرجع الذي يستعين به الابن على فهم الدروس واستيعابها، وذلك بطرح بعض الأسئلة عليه، وتتبع عمله، ومراقبته عن قرب لاختبار مدى تقدمه في كل ما يدرسه.

وبعد أن أدرك الأب أن ابنه قد حفظ القرآن، وبدأ يشق طريقه في الاتجاه العلمي الصحيح، وإرضاءً لطموحات ولده وإرواءً لعطشه العلمي والفكري والسياسي

اصطحبه إلى فاس -العاصمة العلمية والسياسية في بداية القرن العشرين-، ليكون قريباً من أهل العلم ومصادر القرارات حول ما يجري في المغرب من أحداث وتطورات، بعد أن ترك زوجته وأولاده بمدغرة.

وبفاس استطاع الشيخ العربي أن يجد لابنه مسكنا في "مدرسة الصفارين"، وبقي مع ولده بفاس بضع سنوات، يخفف من ألم غربته، ويشد أزره، ويذلل معه كل الصعوبات التي تعترض دراسته التي كان يتابعها "بالمدرسة المصباحية"؛ المركز الرئيسي -آنذاك- للدراسات العلمية والأدبية والتاريخية والمنطقية والفلكية، بالإضافة إلى التفسير والحديث وغيرها من العلوم.

أما أساتذته "بجامعة القرويين" فنذكر منهم:

* الفقيه عبد السلام بناني، قرأ عليه «المختصر الخليلي» للخرشي والدردير، وجُل «صحيح البخاري»، و«شرح الألفية" للمكودي، وغير ذلك من المؤلفات.

* الفقيه محمد بناني، قرأ عليه «منظومة الخزرجية في العروض» بشرح الزموري.

* التهامي جنون، قرأ عليه بعض دروس من «المختصر» للخرشي، و«صحيح الإمام البخاري»، وغير هؤلاء العلماء الذين درس عليهم وهم كثير.

ويروى أن والده العربي دخل ذات يوم عليه فوجده منكباً على المطالعة والتحصيل، فقال له: "الآن أودعك لأنك تذوقتها"، يقصد: الدراسة، فما مرت بضع سنوات حتى أصبح محمد بن العربي لامعاً يشهد له بذلك شيوخه، وفي مقدمتهم شيخ الجماعة -آنذاك- أحمد بن الخياط.

اتجاهه الديني:

كان محمد بن العربي العلوي في بدايته صوفيّاً في "الطريقة التجانية"؛ التي عرفت

انتشاراً كبيراً في "تافيلالت" كباقي الطرق الأخرى مثل: "الدرقاوية"، و"العيساوية"، وغيرهما، وكان يدافع عن الطرق وأهلها، إلا أنه بعد عدة عقود من الزمن سوف يصبح -إضافة إلى أستاذه أبي شعيب الدكالي- من الذين يضرب بهم المثل في السلفية بالمغرب.

وكان السبب المباشر لهذه الهداية: كتاباً قدمه له إدريس برادة الكتبي آنذاك بالسبيطريين "بفاس"، وعنوان هذا الكتاب هو: "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" لابن تيمية، وبعد أن قرأ هذا الكتاب، وأمعن النظر فيه، رأى "الإسلام النظيف الذي يحكم العقل والمنطق والعلم، الإسلام الذي يحرر الإنسانية من العبودية والاستغلال والظلم، ثم اكتشف "المنار" و"الشهاب" و"العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وبذلك تفتحت بصيرته على كنز لم يحلم به".

ومن الأسباب التي يجب الإشارة إليها في هذا التحول: شخصية شيخ الإسلام أبي شعيب الدكالي الذي عاد من المشرق حاملاً لواء السلفية الداعية للرجوع إلى الإسلام كما كان في منبعه الأول، فقد اتصل به ابن العربي العلوي، وأخذ عنه «صحيح الامام البخاري» للقسطلاني و«الموطأ» و«جامع الترمذي» و«مقامات الحريري» و«النخبة في الاصطلاح» لابن حجر و«تفسير النسفي»، فأنار فكره، وقوّى عزيمته، وأخرجه من ربقة التقليد الأعمى، وبذلك انقلب من فقيه عادي إلى مفكر إسلامي، يفضح المشعوذين ويجادلهم بالحجة الدينية والعقلية، وانطلق كالنور يضيء عقول الشباب، وينقيها من الاعتقادات الفاسدة.

ومن بعد كان الشيخ العلوي سبباً في خروج الشيخ تقي الدين الهلالي من التيجانية -أيضاً-، بعد أن تناظرا في صحة دعوى التيجاني أنه رأى النبي ﷺ يقظة،

وعجز الهلالي عن دفع طعون العلوي بكذب هذه الدعوى، فتبين للهلالي ضلال التيجانية، وتحول لمنهج السلف، وتتلمذ على الشيخ العلوي حتى أصبح علماً من أعلام الدعوة السلفية.

يقول د. محمد عابد الجابري: "إن أصداء السلفية النهضوية في المشرق لم تتطور في المغرب إلى سلفية جديدة فعلاً إلا عبر الشيخ أبي شعيب الدكالي (١٨٧٨م-١٩٣٧م)"، ومع السلفي المناضل محمد بن العربي العلوي (١٨٨٤م-١٩٦٤م)، وتلاميذه...".

ويقول "... بالفعل، كان الشيخ محمد بن العربي العلوي نموذجاً للعالم السلفي المناضل الشعبي في المغرب؛ سواء أثناء عقد الحماية أو خلال عهد الاستقلال...".

ولإبراز أهمية هذا الشيخ ودوره في خدمة بلده أورد الباحث محمد الوديع الآسفي في كتابه «السلفي المناضل محمد بن العربي العلوي» شهادات لشخصيات وزعامات وطنية أخرى تشيد بالشيخ ابن العربي، وتجمع كلها على إخلاص الرجل وحبه لوطنه، وتسخير علمه لمحاربة الخونة والمشعوذين، ورد كيد المستعمر الغاشم.

ومن بين هذه الشخصيات:

* الأستاذ علال الفاسي.
* الأستاذ محمد المختار السوسي.
* المقاوم الدكتور عبد اللطيف بن جلون.
* الدكتور محمد زنيبر.
* الأديب المقاوم محمد زياد.

* الأستاذ أحمد زيادي.

* الأستاذ علي يعتة.

* المقاوم حسن العرائشي.

* شارل أندري جوليان.

الوظائف التي تولاها الشيخ:

تخرج محمد بن العربي العلوي من "جامعة القرويين" متوجاً بأعلى شهادة تمنحها الجامعة آنذاك، بعدما أنهى دراسته بها سنة (١٩١٢)، فكانت أول وظيفة أسندت إليه هي: تعيينه "عدلاً بأحباس فاس الجديد"، في آخر نفس السنة، ثم رئيساً للاستئناف الشرعي الأعلى بالرباط عام (١٩٢٨)، ووزيراً للعدل ابتداء من سنة (١٩٣٨).

كما أن الشيخ محمد بن العربي العلوي اختير "أستاذاً ومربيّاً لأبناء الأسرة الملكية منذ العهد الحفيظي"، بل يرجح محمد الوديع الآسفي أن يكون تواجد هذا الشاب الوطني الغيور قرب مولاي عبد الحفيظ عقب التوقيع على معاهدة الحماية في تلك المرحلة الصعبة؛ كان من جملة الأسباب التي دفعت بالملك المحاصَر إلى التنازل عن العرش، بعدما استشار واطلع وشاهد غضب الجماهير في كل أنحاء البلاد.

وكان الفقيه ابن العربي يُضرب به المثل في النزاهة والعدل في القضاء في فترات كان الارتشاء والمحسوبية أمراً عاديّاً، بل أصبح يضرب المثل بنزاهته بين قضاة قبائل الأمازيغ في أحواز فاس، فكان يقال: "هذا ما توصّلت إليه من حكم، وليس في استطاعتي -مع الأسف- أن أُحضر القاضي ابن العربي للحكم في قضيتك".

كما أسندت إليه -أيضاً- وظيفة أستاذ بثانوية مولاي إدريس بفاس، حيث وجد هناك شباباً متفتحاً، حبب إليه دراسة الثقافة العربية، وخلال هذه المدة كان يتطوع

لإلقاء دروس بالقرويين، فاجتمعت حوله ثلة من شباب الثانوية الإدريسية، وأخرى من شباب القرويين، في طليعتهم: علال الفاسي، ومحمد بن الحسن الوزاني، وغيرهم كثير؛ من الذين أصبحوا قادة المغرب فيما بعد وساروا على دربه.

ومن الوظائف التي تقلدها في عهد الاستقلال: منصب "وزير مستشار بمجلس التاج"، الذي ظل يشغله حتى سنة (١٩٦٠).

أعماله الفكرية:

لقد كان التدريس عند الشيخ محمد بن العربي العلوي جهاداً ووسيلة للتربية الخلقية والسياسية، لذلك عندما نقرأ سيرة حياته نجده متمسكاً به إلى حد كبير في جميع أطوار حياته؛ سواء عندما كان طالباً أو أستاذاً أو قاضيّاً أو وزيراً، أو رئيساً لمجلس الاستئناف الشرعي.

ففي أي مكان حل به كان التدريس هو شغله الشاغل؛ فقد كان يدرس في مسجد القرويين بفاس قبل تخرجه وبعده، ودرس في مساجد الرباط وسلا والدار البيضاء، وحتى أثناء عمله قاضياً كانت له ثلاثة دروس أسبوعيّاً في مادة الأدب مع توجيهات وإرشادات، وذلك بالمدرسة الثانوية الإدريسية بفاس، وكان يدرس حتى في منفاه كما حدث له عندما أبعد إلى إيموزار، وقرية القصابي ومدغرة، حيث كان يقوم بجمع الناس حوله والتحدث إليهم، بل كان يخرج في سبيل ذلك إلى الأسواق لتوعية الناس بأعداد كبيرة.

وقد تميزت دروسه دائماً بطابعها السلفي، في تجاوز كتب الفروع إلى الأصول في كل ما يتصل بالدين والفقه، فأحيى بذلك دروس التفسير التي كانت مهجورة، لِما شاع بين الفقهاء من أن تدريسها يعجل بموت السلطان.

وقد تميز محمد بن العربي العلوي بالتجاوب مع أذهان الطلبة والمتتبعين، ومن السير بهم إلى الأمام في التحصيل والمعرفة؛ من خلال حسن العبارة وانتخاب أساليبها، مما يسهل على الطلبة الانتفاع بها، والاستفادة منها لغةً وإنشاءً، وبياناً، وحسن إلقاء.

وكانت له عناية واهتمام بالتوسع في الدراسات اللغوية والأدبية، وهي دراسة لم تكن سوقها رائجة بالبلاد، وبذلك تجاوز بطلبته كتب عصر الانحطاط والركاكة إلى كتب تعتبر أصولاً للغة والآداب العربية، كـ: «الكامل» للمبرد، و«الأمالي» لأبي علي القالي، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«البيان والتبيين» للجاحظ، وهي كتب تزخر بالنماذج الأدبية الرائعة.

كما كان من المشاركين الدائمين في مجالس الوعظ والإرشاد ودروس الحديث التي كانت تنظم بالقصر الملكي بالرباط؛ خصوصاً في شهر رمضان، ناهيك عن دروس التوعية ضد الجهل وكيد الاستعمار؛ التي كان يعطيها بحماس وكثافة واستمرارية وفعالية -كما سنفصل ذلك لاحقاً-.

ولم تقتصر جهوده على طلبة العلم بل كان يحرص على هداية الجميع، ولذلك كانت له علاقة طيبة ببعض الشباب الذين انضموا تحت لواء بعض الأحزاب السياسية، فحرصاً منه على هدايتهم كان يزورهم في مقرهم ليحاضر فيهم، فخطب في مركز الاتحاد الاشتراكي، وكانت النتيجة ما ذكره المهدي بن بركة حين قال: "لولا محمد بن العربي العلوي لأصبح جل سياسيي الاتحاد الاشتراكي ملاحدة".

غير أن ما يثير الانتباه في شخصية محمد بن العربي العلوي هو: قلة آثاره المكتوبة، باستثناء بعض الأشعار المنسوبة له، والتي أوردها محمد بن الفاطمي بن الحاج السلمي، وبعض أحكامه الشرعية لما كان رئيساً للاستئناف الشرعي بالرباط.

فهل كان شيخناً هذا زاهداً في الإنتاج الفكري فعلاً، معتبراً أن الأجيال التي يكونها ويخرجها هي أحسن كتبه وأفيدها؟ أم أن انشغالاته الكثيرة حالت دون اهتمامه بالتأليف؟ أم أن الظروف لم تسمح بعد للباحثين لاكتشاف ما قد يكون خلفه هذا العالم من تآليف؟

بعض جوانب نضاله ضد الجهل والاستعمار:

نقسم مضمون هذا المحور إلى قسمين، نخصص الأول منهما لنضال هذا الشيخ ضد الجهل والشعوذة، وخرافات الطرقية الخارجة عن تعاليم الكتاب والسنة، ونتطرق في الثاني لتصديه للإدارة الاستعمارية وسياستها في المغرب، ومن دار في فلكها من المداهنين لفرنسا والمتزلفين لها.

١ - نضاله ضد الجهل:

فتح محمد بن العربي العلوي عينيه وترعرع وشبّ في مغرب يئن تحت وطأة التكالب الاستعماري، ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره حتى خضعت البلاد للحماية الفرنسية، وانبطحت بذلك تحت ضربات العدو، من دون أن يجد أية حيلة تمكنه من تجنيبه هذا المصير المشؤوم.

ولما كان محمد بن العربي العلوي شاهداً على كل التطورات التي أفضت إلى سقوط المغرب، ومتتبعاً لكل المراحل الصعبة التي مر بها حتى توقيع عهد الحماية؛ فإنه تألم وحز في نفسه أن يرى بلاد البطولات والأمجاد، وحامية الأمة العربية الإسلامية في جناحها الغربي ضد التوسع الاستعماري والمسيحية تسقط في براثن الاستعمار.

ومما زاده وعياً بهذا الوضع المغربي الرديء حكومةً ومجتمعاً واقتصاداً متابعته لدراسته بجامعة القرويين بفاس العاصمة السياسية والعلمية للبلاد، وتعرفه بنفس

الجامعة على الطالب "محمد بن عبد الكريم الخطابي" (بطل حرب الريف) لاحقاً، حيث دارت بين الشابين الغيورين على بلدهما محادثات وحوارات، تركزت كلها حول المصائب التي ألمّت بالبلاد، وما يجب القيام به مستقبلاً من أجل إنقاذها من السقوط في الهاوية، دون أن ننسى أن شيخنا كان معلماً لأبناء الأسرة المالكة في عهد مولاي عبد الحفيظ -كما سبقت الإشارة إلى ذلك-.

وإذا أضفنا إلى كل هذا تشبع ابن العربي بالفكر السلفي؛ إما أخذاً عن شيخه الكبير أبي شعيب الدكالي مباشرة، أو عن طريق قراءة كتابات ابن تيمية، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان -الذي زار المغرب-، وغيرهم؛ فإن شيخنا سوف يبذل كل ما في وسعه لتسخير هذه المعرفة وذلك الوعي من أجل يقظة الأمة المغربية.

ما هي مظاهر ذلك؟

نعتمد في الجواب على هذا السؤال العريض على كتابات قليلة، وفي مقدمتها: الكتاب القيم الذي ألفه محمد الوديع الآسفي حول هذه الشخصية الفذة، وهو الكتاب الذي ضمنه شهادات عدد غير قليل من المفكرين والزعماء الوطنيين، تجمع كلها على عظمة هذا الشيخ، وتضحياته الكبيرة، وفكره النير، وعمله الدؤوب من أجل الإسهام في تحرير البلاد والعباد، كما أن مؤلفين غيورين آخرين قدموا إسهامات لا يستهان بها في الموضوع، مثل: عبد القادر الصحراوي، وعبد السلام بن عبد القادر بن سودة، وعبد الله الجراري، ومحمد بن هاشم العلوي، وأحمد بناني، وعلال الفاسي، وعبد الكريم غلاب، وعبد الهادي التازي، وغيرهم.

ولولا تفضل هذه الثلة من العلماء بإسهاماتهم هذه لما عرفنا شيئاً عن هذه القامة

الوطنية الشامخة، خصوصاً وأن ابن العربي لم يكتب شيئاً عن نفسه.

الشهادات الواردة التي أثبتها محمد الوديع الآسفي كثيرة، نكتفي منها بـ:

* شهادة الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد: أن الشيخ ابن العربي كان يقول ويدعو ويبشر، فأصبح علماً من أعلام الوطنية المغربية، بإبراز الهوية الإسلامية عن طريق نشر اللغة العربية، والتشبث بالتعاليم النبوية الصحيحة.

* شهادة الدكتور المقاوم عبد اللطيف بن جلون: الشيخ ابن العربي كرس حياته ووقته وفكره وجهاده في سبيل إصلاح هذه الأمة، وتقويم اعوجاجها، وإيقاظها من رقادها، كما حاول ذلك قبله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، فأصبحت دروسه بمثابة ثورة فكرية ضد الجمود والخرافات والأوهام، قبل الاستقلال وبعده.

* شهادة الأستاذ محمد زنيبر: إن تعيين الشيخ ابن العربي العلوي وزيرا للعدل لم يثنه عن الاشتغال بالتدريس وإفادة الغير، ولعله كان يشعر بأن لديه رسالة نحو مواطنيه لا بد من تأديتها، وصار يلقي دروساً مشبعة بروح سلفية وثيقة، مما جعل الجمهور يقبل عليه ويلتف حول حلقته في المساجد.

* شهادة الأستاذ المقاوم محمد العلوي الزرهوني: كانت لهجة الشيخ قوية مقرونة بالتحدي، يتصدى للرجعيين من علماء الدين، فيقارع الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، كان ينبه جمهور المواطنين بأن هذه الجماعة ترمي من وراء ذلك إلى تجميد العقول، وبث التواكل والخمول، ودفع الناس إلى الرضوخ والاستسلام، فيتقاعس الناس عن النضال والكفاح، بدعوى أن الله قد قضى ما قضى، وقدر ما قدر، فكان Z ينعتهم بالجبناء، ويحمل على أهل الزوايا والطوائف الضالة؛ لكل ذلك كانت رحاب المسجد تغص بالمواطنين الذين كانوا يأتون من سائر الأحياء لسماع درره الغالية.

* أحمد زادي: ابن العربي العلوي كان له أثر عميق في تأصيل الوطنية المغربية وتسليحها بالمنهج السلفي المتحرر من رق الأضاليل والخرافات والأوهام.

* محمد الحمداوي: كان حرباً على الخرافة المحترفة للاكتساب والتضليل، في المسجد والبيت والمنتزه.

ومن الذين درسوا على الشيخ محمد بن العربي العلوي، وغرفوا من معينه فاعترفوا له بفضله، وما أسداه من أياد بيضاء لهم ولأقرانهم من الطلبة والمهنيين، في ثنايا الكتب التي ألفوها، نذكر على سبيل المثال: علال الفاسي في «الحركات الاستقلالية»، ومحمد المختار السوسي في «الإلغيات».

فالأول يذكر شيخه بإجلال، ويرى فيه الداعي الأساسي لحركة السلفية والمخرج لرجالها لما كان له من الجرأة والإقدام والثبات في مواجهة المستعمر، ورجال الطرق الصوفية المتحالفين معه، وكانت تجتمع بفاس ثلة من الشباب حوله، يضيف نفس المصدر.

ونفس الشيء يؤكد عليه صاحب «الإلغيات»، الذي يعترف بفضل شيخه ابن العربي عليه.

أما الأستاذ عبد الكريم غلاب، فنقرأ في كتابه ما يفيد أن الحركة السلفية والإصلاحية عامة انطلقت إلى المغرب عن طريق رائدين عظيمين هما: أبو شعيب الدكالي وابن العربي العلوي، وبخصوص هذا الأخير يرى فيه الداعية الأول للسلفية بالمغرب، مما عرضه لاضطهاد السلطات الاستعمارية عدة مرات لتضامنه مع الحركة الوطنية على الخصوص.

إن الكل يجمع على الدور الكبير الذي لعبه هذا الشيخ في الرفع من المستوى الفكري لأبناء بلاده، لإخراجهم من غياهب الجهل أولاً، ولتوعيتهم بضرورة طرد المستعمر.

وما كان له أن ينجح في مهمته هذه لو لم يتصف بالصراحة والجرأة الضروريتين، وهو يعلن حرباً لا هوادة فيها ضد الفكر الغيبي التواكلي، مما أدى به بعض الأحيان إلى منع وإيقاف عوائد الطرقيين الشنيعة، أثناء زيارتهم إحدى الأضرحة؛ كما فعل مع "الفرقة العيساوية" بفاس، في خروجها إلى مكناس في شهر ربيع النبوي، لزيارة ضريح شيخهم سيدي بن عيسى، وعندما قصد سدرة عظيمة كانت قبالة ضريح سيدي علي بوغالب بفاس، كان يؤمها الناس من أجل الزيارة والتبرك فحطمها بنفسه، وذلك اقتداء بشيخه أبي شعيب الدكالي الذي عمد إلى قطع شجرة كانت توجد بجوار "ضريح سيدي المنكود" المجاور للسور الأندلسي، بسبب ما يعلق عليها من تمائم وحروز وخرق، وغيرها للتبرك بها.

ومن ذلك -أيضاً-: أنه أفشل محاولات بعض الحاقدين الذين سعوا لتأليب الملك على الأستاذ علال الفاسي؛ بسبب دروسه التي كان يقدمها في القرويين، والتي هاجم فيها الخرافات وأصحابها من الأولياء المزيفين، فتدخل الشيخ العلوي بصفته عضواً بالمجلس الأعلى لجامعة القرويين ودافع عنه، ووضح الأمر للملك.

وفي إطار اهتمام شيخنا بمواطنيه رجالاً ونساءً، ورغم شدته في المحافظة على تعاليم الإسلام؛ فإنه عمل من أجل إخراج المرأة من غياهب الجهل التي كانت تعيش فيها، ولهذه الغاية ألقي مجموعة من المحاضرات في ضرورة تعليم الفتاة المربية.

٢ - نضاله ضد الاستعمار:

أشير في البداية إلى أنه لا يمكن الفصل بين نضاله ضد الجهل والخرافة، ومواقفه المعادية للاستعمار، لارتباط القضيتين ارتباطاً وثيقاً.

ورغم ذلك، سوف أعمل على رصد بعض هذه المواقف فقط؛ خصوصاً تلك التي اتسمت بالجرأة والشجاعة والإقدام ضد الاستعمار الفرنسي بالمغرب، وجرّت عليه الكثير من المحن والاضطهادات.

كانت "جامعة القرويين" هي مدرسة محمد بن العربي العلوي الأولى؛ التي ولّدت فيه الروح الثورية، وهو ما يزال طالباً بها، للوقوف في وجه المستعمر الذي جر على البلاد كل أصناف الذل والمهانة، وقد زاد هذا الشعور الثوري تأججاً لديه بعد التقائه بمحمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان يتابع دراسته بنفس الجامعة، إذ وجد فيه نفس الروح، ونفس الميولات والتطلعات التي يراها لإنقاذ البلاد من التدهور، فكانا يتبادلان فيما بينهما الأفكار الإسلامية المستقلة والآراء المتحررة من ربقة الجهل والخرافة والتقليد، والتي تدعو إلى الجهاد من أجل حرية الإنسان وكرامته، وعملا معاً على نشر أفكارهما بين الفئات الشعبية، وفي مقدمتها الطلبة، بحيث لم يمض غير قليل من الوقت حتى أصبح عدد هام من طلاب العلم وغيرهم من الحرفيين والعمال والفلاحين، يجتمعون لدراسة الأحداث الوطنية والدولية المستجدة.

هذا الشعور الجياش نحو وطنه، ورغبته الجامحة في ضرب المستعمر وهزمه أين ما كان؛ هي التي جعلته يبيع كل ما يملك من الكتب النفيسة حتى يستطيع شراء ما يحتاج إليه المقاتل المتطوع؛ ولذلك حاول أن يلتحق بجبهة القتال في حرب الريف، وفي

الأطلس، غير أن ظروف الحصار المضروب على البلاد من قبل العدو، حالت دون ذلك، كما أن القائد موحا وحمو الزيان أقدم على تغيير خطته القتالية، بعد أن اكتفى بأبناء المنطقة الثائرة، لمعرفتهم الدقيقة بمسالكها الوعرة.

من جهة أخرى، عمد ابن العربي العلوي إلى مراسلة الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، ليسمح له بالالتحاق بأرض فلسطين، بغية الجهاد مساهمة منه في تحريرها، لكن لم يصل له أي جواب.

يقول علال الفاسي: "... وما بدأ الجهاد في المغرب ضد الفرنسيين حتى اشترى بندقية، وتوجه مع المجاهدين لمقاومة المهاجمين، ملهباً حماس الجند، ضارباً المثل بشجاعته وصبره".

ومن أبرز المحطات النضالية التي سجلها له التاريخ ضد المستعمر: موقفه الشجاع سنة (١٩٤٤)؛ سواء أمام السلطان محمد الخامس، أو أمام المقيم العام الفرنسي، عندما وضعت "عريضة الاستقلال" التي قدمها حزب الاستقلال -الذي أسسه تلميذه علال الفاسي- على طاولة المناقشة، كان ابن العربي العلوي الوحيد من أعضاء الحكومة الذي آمن بالفكرة دون تردد، وأيد "حزب الاستقلال" بآرائه الصارمة في الموضوع، بخلاف بقية أعضاء الحكومة الذي تراجعوا أمام رفض المقيم العام للعريضة، وتهديده لكل من يساند مطالب هذه العريضة، باستثناء ابن العربي العلوي الذي تحدى تهديد المقيم العام، وقدم استقالته من حكومة الصدر الأعظم احتجاجا على هذا الموقف؛ الذي اتخذته فرنسا من هذا المطلب الوطني، واحتجاجاً على تخاذل الهيئة الوزارية وتراجعها.

أما رد السلطات الاستعمارية على هذا الموقف فكان نفي ابن العربي إلى قرية "القصابي" ثم إلى "ميسور"، وبعد ذلك إلى "مدغرة" مسقط رأسه.

ومن مواقفه الجريئة الأخرى -وما أكثرها-: افتاؤه بوجوب قتل محمد بن عرفة الذي حاولت فرنسا فرضه سلطاناً على المغرب بعد نفيها لملك البلاد محمد الخامس سنة (١٩٥٣)، تطبيقاً للحديث الشريف: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"، ورفض التوقيع على بيعة محمد بن عرفة سلطاناً على المغرب.

ومن مظاهر وفائه وحبه وإخلاصه لمحمد الخامس: معارضته لتأسيس "مجلس المحافظة على العرش"، بعد انسحاب بن عرفة.

كشف المؤرخ عبد الكريم الفيلالي في كتابه «التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير» أن هذه المؤامرة ضد السلطان كانت من تدبير التهامي الكلاوي؛ الذي أصدر بياناً وقع عليه (٢٧٠) من الباشاوات والقواد، فيه: "إننا معشر القواد في مختلف الجهات المغربية ومن في دائرتهم من المغاربة رجال حركة المعارضة والإصلاح الممضين أسفله تحت رئاسة سعادة الباشا الهمام السيد الحاج التهامي المزواري الكلاوي، نتقدم بكل شرف إلى سعادة المقيم العام للدولة الفرنسية الفخيمة بما يأتي:

بما أن السلطان سيدي محمد بن يوسف خرج عن جميع رجال المغرب العاملين، واتبع طريقاً مخالفاً للقواعد الدينية بانتمائه للأحزاب المتطرفة غير المعترف بها وتطبيق مبادئها في البلاد، الشيء الذي جعله يسير بالمغرب في طريق الهاوية، فإننا بصفتنا كبراء المغرب، وأصحاب الحل والعقد، ومن ذوي الغيرة على الدين الإسلامي نقدم لسعادة المقيم العام وللدولة الفرنسية طلب عزل السلطان عن الحكم، وتنحيته عن العرش، وإسناد هذا الأمر إلى من يستحقه".

بعد انكشاف مؤامرة الكلاوي ضد السلطان الشرعي خرجت فتوى شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي بكفر الكلاوي ومن معه، وإباحة دمائهم، وهي الفتوى التي تبناها (٣٠٠) عالم من كل أنحاء المغرب، وعززتها فتوى علماء الأزهر، "بكفر الكلاوي ومروقه".

وبسبب هذا الموقف والفتاوى نفاه الفرنسيون إلى القصابي قرب ميدلت، ثم نقلوه الى قصر السوق نحو عامين، ثم نفوه مرة ثانية من فاس، فاختار الإقامة بمصطاف إيموزار؛ وذلك لأنه كان يقوم بدروس بجامع القرويين، فتضايقت منها السلطات الاستعمارية، فطلبت منه الانقطاع عن تلك الدروس، فأبى الخنوع لإرادتها، فقررت نفيه، ونفذته في (١٨ رمضان ١٣٧١هـ)، ثم رجع الى فاس في آخر رمضان، وأقام بمنزله بدرب الورد بالمدينة الجديدة، لكنه بقي ممنوعاً من دخول المدينة العتيقة لأنها اعتبرت أن منزله خارج المدينة.

وعند محاولة فرنسا إبعاد الملك محمد الخامس عن عرشه جعلت الحراسة على باب منزله ومنعته من الخروج منه ومنع جميع الناس من الاتصال به، وبقي الأمر كذلك الى أن نفي مرة ثالثة في (١١ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ)، وكان المنفى بمدينة تزنيت، ثم رجع إلى منزله بفاس بعد أن قضى عاماً كاملاً.

وبعد عودة محمد الخامس من منفاه عام (١٣٧٦هـ)، وحصول المغرب على استقلاله كان ابن العربي في طليعة المستقبلين للملك المحبوب الذي استقبله بالأحضان، وأسند له بعد ذلك "وزارة التاج"، ليصبح مستشاراً خاصّاً به، وعينه قاضياً شرعيّاً بالقصر الملكي، وعضواً في لجنة مدونة الفقه الإسلامي، بيد أنه حضر في

الاجتماع مرة واحدة، ولم يوقع على القرارات لاصطدام بعض فصولها مع أفكاره، ولما عرض مشروع الدستور الذي نص على أن الحاكم يجوز له التشريع أفتى أن الحاكم هو الشريعة الإسلامية، فتعرض بسبب هذه الفتوى لجملة من المحن، وحاربه الوزير رضا أكديرة العلماني، ونعته بالضلال، فقدم استقالته من مجلس التاج في (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م)، وأعفي من منصب القضاء وأبى أن يتسلم راتبه بعد استقالته.

ورجع إلى منزله بفاس، وصار يقوم بدروس بين الآونة والأخرى بمسجد السنة بالمدينة الجديدة.

والشيخ العلوي كان محل إجماع وقبول من سياسيي المغرب الوطنيين؛ لسابق جهاده ومواقفه المشرفة، ولأنه لم ينحز إلى فريق عندما انقسمت الحركة الوطنية إلى حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال، بعد رجوع الزعيمين الوطنيين (علال الفاسي، ومحمد بن الحسن الوزاني) من منفاهما، وقد غابا فيه تسع سنوات (١٩٣٧- ١٩٤٦م)، ولذلك قبل الطرفان به رئيساً للجنة الوساطة بينهما، والتي للأسف لم تنجح.

منهجه:

© التركيز على نشر العلم من خلال التدريس، مع تبسيط العلم وعدم التعقيد في الشرح.

© الاهتمام بالشباب لأنهم عماد المستقبل، ولم تتمكن خرافات الطرقية من عقولهم.

© كانت لديه شدة على المخالفين؛ خاصة أصحاب البدع، وكان يعتقد أن اللين لا يجدي معهم.

© المشاركة السياسية ولو تحت قهر الاستعمار، والإصلاح من الداخل.

© التمسك بالثوابت الوطنية ضد المستعمر، ومحاربة الخونة.

© العمل الفردي، والذي تسبب فيما بعد بتغلب التيار الموالي للمستعمر على المغرب، وإقصائه Z .

وفاته Z :

بقي الشيخ ملازماً منزله يعيش حياة الكفاف، بعد أن رفض راتب التقاعد واعتاش من كد يده؛ حيث كان عنده حلب أربع بقرات وعدد من الدجاج، فيتعيش ببيع الحليب والبيض، إلى أن أجاب داعي ربه إثر مرض قصير، وذلك عشية يوم الخميس (٢٢ محرم الحرام ١٣٨٤هـ/ ٤ يونيو-حزيران ١٩٦٤م) بمدينة فاس.

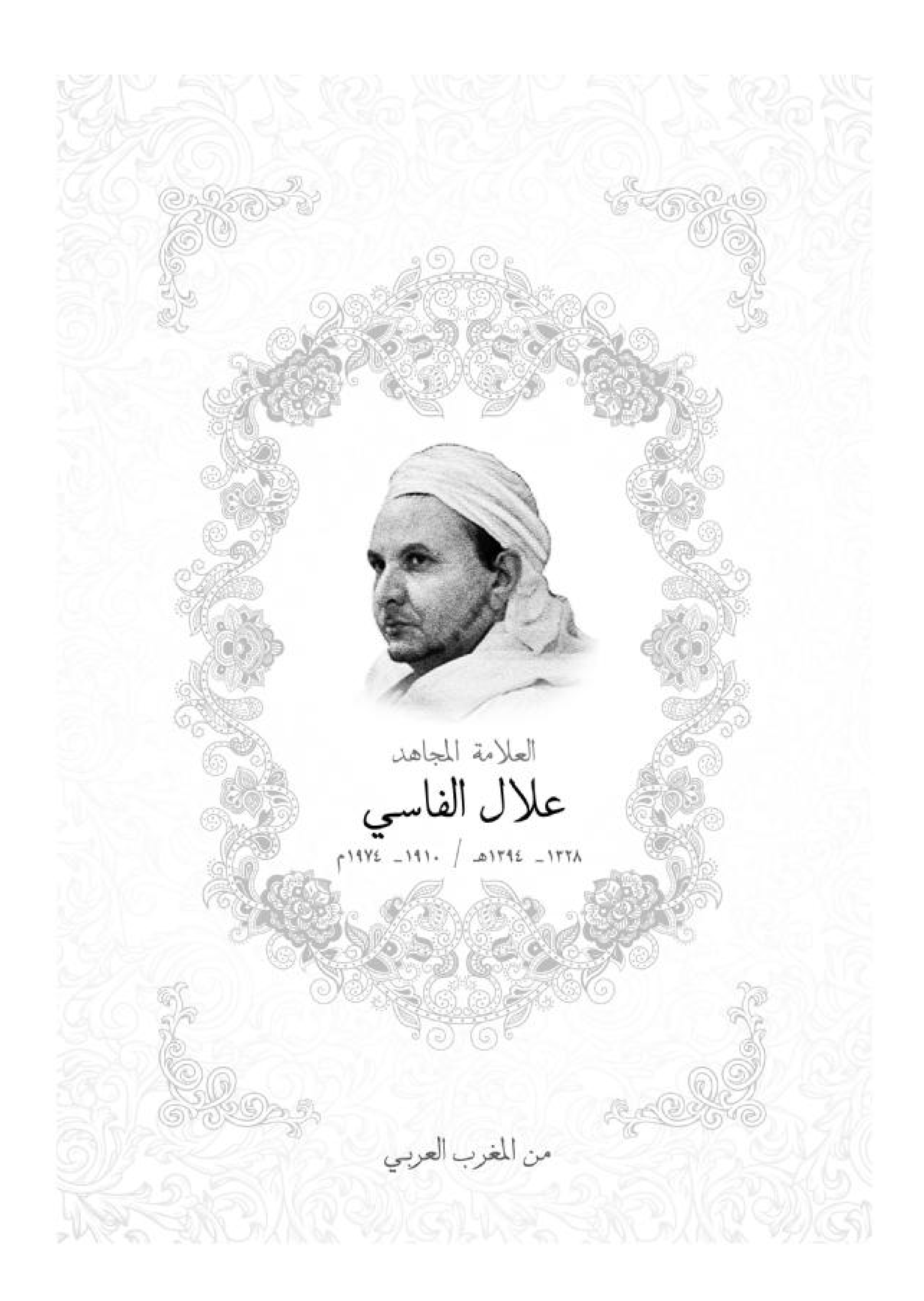
وفي صباح الجمعة شيعت جنازته من منزله بفاس إلى مرقده الأخير، حيث جعل في طائرة خاصة أقلته إلى قصر السوق، ثم حمل إلى مدغرة ودفن هناك بجانب والده تنفيذا لوصيته.

مصادر للتوسع:

o «السلفي المناضل الشيخ محمد بن العربي العلوي»، د.محمد الوديع الآسفي، دار النشر المغربية، (١٩٨٦).

o «السلفية والإصلاح»، د.عبد الجليل بادو، دار النشر سليكي، المغرب، ط١ (٢٠٠٧).

o «الحركة السلفية في المغرب»، عدة مؤلفين، الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، المغرب، ط٢، (٢٠١٠).


العلامة المجاهد
علال الفاسي
١٣٢٨ـ ١٣٩٤هـ / ١٩١٠ـ ١٩٧٤م
من المغرب العربي

٣- العلامة المجاهد علال الفاسي

(١٣٢٨- ١٣٩٤هـ/ ١٩١٠- ١٩٧٤م)

تمهيد

العلامة علال الفاسي هو: علال بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال، الفاسي الفهري، ينتمى لأسرة عربية عريقة، استقرت ببلاد الأندلس، ثم فرّت منها إلى المغرب بسبب محاكم التفتيش الإسبانية.

ومن هذه الأسرة: السيدة فاطمة بنت محمد الفهري، التي بنت بمالها "جامع القرويين" الشهير، عام (٢٤٥) هجرية.

ولد علال سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) لأحد كبار علماء المغرب في مدينة فاس، الذي كان مدرساً بالقرويين وقاضياً، كما كان أجدادُه من قبله.

والفترة التي ولد فيها علال كانت فترة تاريخية صعبة؛ حيث كانت البلاد الإسلامية تحت حكم الاحتلال الصليبي، وهذه البيئة الصعبة والعائلة العريقة والإرادة الربانية من قبل هي التي جعلت من علال أحد رموز الإصلاح في الأمة.

شخصية علال الفاسي تعاني من تعامل مجزوء معها، فالدور السياسي الكبير لعلال الفاسي في استقلال المغرب طغى على دوره الإسلامي الإصلاحي، وغابت صورة علال السلفي العالِم المجدد عن أذهان الكثيرين من السياسيين بل حتى عند الإسلاميين.

وغابت صورة علال السياسي -مؤسس الأحزاب، ومسعّر حرب الاستقلال، ورئيس لجنة كتابة الدستور، والوزير والمعارض- عن أذهان كثير من طلبة العلم المعجبين بعلال!!

إن علال يمتلك عدة شخصيات ضخمة، فهو يمتلك شخصية العالم المجدد، وشخصية المفكر الناقد المبدع، وشخصية المجاهد والمقاوم البطل، وشخصية السياسي الذكي.

رحلته العلمية:

درس علال بداية في الكُتَّاب، حيث تلقى مبادئ الكتابة والقراءة؛ فحفظ القرآن الكريم مبكراً، ثمّ نقله والده للمدرسة العربية الحرة بفاس القديمة، ثم في عام (١٣٣٨هـ) التحق بجامع القرويِّين، فالتقى بالعلامة السلفي محمد بن العربي العلوي؛ والذي درس عليه «المختصر» بشرح الدردير، و«التحفة» بشرح الشيخ التاودي بن سودة، و«جمع الجوامع» بشرح المحلي، و«الكامل في الأدب» للمبرد، و«مقامات الحريري»، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة.

ودرس على عدد من العلماء الأكابر في جامع القرويين علوماً متعددة، كان منهم: شيخ العربي العلوي، الشيخ العلامة المحدث أبو شعيب الدكالي؛ الذي قرأ عليه صحيح البخاري.

وقد حصل على الشهادة العالمية عام (١٩٣٢)، ولم يتجاوز عمره الثانية والعشرين.

موجز مسيرته العملية العلمية:

¤ عمل مدرساً بالمدرسة الناصرية، وذلك أثناء دراسته بالقرويين.

* بعد تخرجه وحصوله على إجازة من والده، ومن عمه الفقيه عبد الله الفاسي، ومن شيخيه العلامتين أبي شعيب الدكالي ومحمد بن جعفر الكتاني؛ صار يدرّس بجامع القرويين حول التاريخ الإسلامي.

* عمل أستاذاً محاضراً بكلية الشريعة التابعة لجامعة القرويين بفاس، كما عمل محاضراً بكليتي الحقوق والآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط، ومحاضراً بدار الحديث الحسنية بالرباط.

* هو صاحب فكرة إنشاء وزارة للشؤون الإسلامية بالمغرب.

* كان له فضل حث الملك الحسن الثاني سنة (١٩٦٤م) على إنشاء دار الحديث الحسنية.

* كان له دور بارز في تطوير جامعة القرويين، واستحداث كلية الشريعة وكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية.

* كان عضواً ومقرراً عامّاً في لجنة مدونة الفقه الإسلامي التي شُكلت في فجر الاستقلال المغربي.

* كما أن له باعاً طويلاً وقدماً راسخة في الفقه الإسلامي؛ وخاصة الفقه المالكي والفقه المقارن، وله اجتهادات فقهية يحتج بها علماء المغرب والجزائر وتونس.

* انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

* له عدد من المؤلفات منها: «عقيدة وجهاد»، «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها»، «دفاع عن الشريعة»، «محاضرتان عن مهمة علماء الإسلام»، «الإسلام

وتحديات العصر»، «دفاعاً عن الأصالة»، «شرح مدونة الأحوال الشخصية»، «تاريخ التشريع الإسلامي»، «المدخل للفقه الإسلامي»، «المدخل لعلوم القرآن والتفسير»، «بديل البديل»، «نضالية الإمام مالك»، «النقد الذاتي»، «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»، وغيرها، وله كتب باللغة الفرنسية.

كما أصدر مجلة «البينة»، وجريدة «صحراء المغرب»، و«الحسنى».

مسيرته السياسية:

مر معنا أن المغرب والعالم الإسلامي كان تحت الاحتلال، وأن علال درس على العلامتين أبي شعيب الدوكالي ومحمد العربي العلوي؛ اللذين كانا قادة العمل الوطني في المغرب، ولذلك سرعان ما انخرط علال الفاسي في العمل الوطني المغربي ومقاومة المحتل الفرنسي، وبدأت مسيرته المباركة في هذا الجهاد الطويل.

والباحثون في سيرته الوطنية يذكرون أنها مرت بعدة مراحل هي:

١ - تأليف جمعية من زملائه الطلبة في القرويين أطلق عليها: "جمعية القرويين لمقاومة المحتلين"، لدعم المجاهد المغربيّ الكبير، الملقّب ببطل الصحراء: عبد الكريم الخطّابي، في جهاده ضد الاحتلال الفرنسي.

٢ - أيد موقف شيوخه الدكالي والعلوي بمعارضة الظهير البربري، فألقى عدة خطب في التحذير منه، وبسبب فصاحته وخطابته المؤثرة كانت تستجيب له الجماهير فتخرج المظاهرات الحاشدة تندد بهذه السياسة الخبيثة، ولذلك اعتقلته السلطات الفرنسية وهو طالبٌ بالعالمية، ونفته إلى بلدة (تازة)، ثم عاد بعد الإفراج عنه إلى فاس سنة (١٩٣١م)، فمنعته من التدريس، فانصرف إلى جامع القرويين يلقي الدروس

العلمية الليلية عن تاريخ الإسلام، وعن سيرة النبي ﷺ، مقارناً بين حالة المسلمين الأوائل وواقع إخوانهم المعاصر.

وقد جذبت هذه الدروس اهتمام المغاربة من الرجال والنساء، ولم يكتف بهذا، فاختار نخبة من زملائه وأوفدهم إلى شتى القرى لنشر الوعي والأفكار الصحيحة وتأجيج الشعور الوطني.

٣- في عام (١٩٣٣م) حاولت الإدارة الفرنسية اعتقاله مجدداً، فسافر إلى إسبانيا وسويسرا، واتصل بالأمير شكيب أرسلان وإخوانه المناضلين العرب والمسلمين.

٤- عاد إلى المغرب عام (١٩٣٤م)، وأسس أول نقابة للعمال سنة (١٩٣٦م).

٥- أنشأ كتلة العمل الوطني سنة (١٩٣٧م) فأبعدته السلطات إلى (الغابون)، منفيّاً إلى سنة (١٩٤١م)، ثم إلى (الكونغو) حتى سنة (١٩٤٦م)، حبيساً في زنزانةٍ مظلمةٍ، ولم يسمحوا له بمصحفٍ إلا بعد عامٍ ونصف.

٦- بعد إطلاق سراحه أنشأ مع رفاقه حزب الاستقلال، ثم سافر متنقلاً بين البلاد العربية والأوروبية يدعو لاستقلال المغرب عن فرنسا، وقد استطاع في هذه الجولات أن يتصل بكثيرين من القادة والزعماء والمجاهدين في العالم الإسلامي.

عاد إلى المغرب سنة (١٩٤٩م) فمنعه الفرنسيون من الدخول، فأقام بمدينة (طنجة)، وكانت يومئذٍ منطقة دولية.

٧- في سنة (١٩٥٣م) قام الاستعمار الفرنسي بنفي الملك المغربي محمد الخامس خارج البلاد، فدعا علال الفاسي الشعب المغربي للثورة ضد فرنسا، وكان قائد الثورة حتى عودة الملك، واستقرار أمر البلاد.

٨- بعد نيل المغرب استقلاله سنة (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) ورجوع الملك محمد الخامس إلى عرشه عاد علال الفاسي إلى وطنه، بعد غياب عشر سنوات قضاها في القاهرة، وعاود نشاطه القديم فتولى رئاسة حزب الاستقلال الذي أنشئ من قبل، واختير عضواً رئيسيّاً في مجلس الدستور لوضع دستور البلاد، ثم انتخب رئيساً له؛ بسبب مركزية دوره وجهاده لفرنسا.

وقدم مشروع القانون الأساسي، وشارك في وضع الأسس الأولى لدستور سنة (١٩٦٢م)، ودخل الانتخابات التي أجريت سنة (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ودخل الوزارة، وإليه يرجع الفضل في إنشاء مشروع وزارة للدولة مكلفة بالشئون الإسلامية.

٩- بعد وفاة الملك محمد الخامس تولى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية عام (١٩٦١م)، ثم استقال عام (١٩٦٣م)، وانضمّ بحزبه حزب الاستقلال إلى صفوف المعارضة السّلميّة الناصحة[1].

١٠- له مشاركات مهمة في كثير من قضايا الأمة الإسلامية وخاصة فلسطين.

سلفية علال الفاسي:

ظهرت سلفيته في دروسه التي بدأ يلقيها في القرويين منذ كان طالباً سنة (١٩٣٣م)، وبسبب ذلك قام بعض الحاقدين بشكايته للملك بدعوى أنه ينال من الصالحين والأولياء، لكن دفاع شيخه محمد العربي العلوي عنه أحبط مساعيهم، وفي المستقبل سيصطدم علال ببعض مشايخ الطرقية الذين استعملهم الاستعمار الفرنسي لإضفاء الشرعية على إزاحة الملك محمد الخامس عن عرشه سنة (١٩٥٣م).

---

(١) انظر: مقال (من فقهاء العصر: محمد علال الفاسي) لصلاح عباس فقير، على شبكة الإنترنت.

وأيضاً حين هاجم الطرقيين زميله في الدراسة العلامة محمد المكي الناصري بسبب كتابه «إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة»، قام علال بكتابة مقال بعنوان: "الطرق والإسلام"، نشر في مجلة «إظهار الحق» بتاريخ (١٩/٣/١٩٢٦م).

ومنذ تلك المرحلة وعلال ورفقاؤه في حرب مع الخرافة والطرقية حلفاء المستعمر الفرنسي، وهذه السلفية هي التي صاغت الحركة الوطنية المغربية عامة، يقول علال في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»: "لئن كانت السلفية في باعثها الحنبلي ترمي لتطهير الدين من الخرافات التي ألصقت به، والعودة إلى روح السنة المطهرة؛ فإنها لا تقصد من وراء ذلك إلا تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام، بصفته المتكفل بصلاح الأمة في دينها ودنياها، وإعدادها لتكون لها الخلافة في هذه الأرض التي حكم الله ألا يرثها من عباده إلا الصالحون.

وبذلك فهي حركة تتناول نواحي المجهود الفردي لصلاح المجتمع، وتتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى إليه من جديد، وقياسه بمقياس المصلحة العامة لإرجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الإيمان وحظيرة العمل".

ويصرح علال بأن "الحركة السلفية التي علمت بدء نهضتنا أول تمهيد لهذا الكفاح العقلي والاجتماعي، ولكنها ستظل من غير فائدة إذا لم تتوج بحركة إصلاح شاملة، ومن درجة أقوى وأشد عتوّاً.

لقد عَلمت السلفية الشعب أن يستمع لنقد كثير مما كان يحرم على نفسه أن ينظر فيه أو يستمع لاستنكاره، وهي لم تقم إلا بواجب يفرضه الإسلام نفسه، إذ هو حركة مستمرة وتقدم دائب".

وانطلاقاً من سلفيته خاض معركة الـ "دفاع عن الشريعة" حين جاء وقت كتابة الدستور المغربي بعد الاستقلال، ومحاولة التيار الشيوعي في المغرب إلغاء هوية المغرب الإسلامية في الدستور، وكذلك ألف كتابيه «تاريخ التشريع الإسلامي»، و«المدخل للفقه الإسلامي» ليثبت للمخالفين سبق الإسلام للغرب في جانب القانون والدستور من خلال بيان اقتباس الغرب لكثير من فقه الإسلام في قوانينهم.

وبقيت السلفية منهج علال حتى وفاته، ففي محاضرته عن الأصالة سنة (١٩٧٣) أي: قبل وفاته بشهور، يقول: "وأول ما يجب أن نعتز به من تراثنا هو: ديننا الحنيف، فيجب أن نحافظ على التمسك به، واليقين في أفضلية مبادئه، ولكن يجب أن نفرق بين دين الكتاب والسنة، الإسلام الصافي الذي جاء به الرسول محمد ﷺ وأعطانا صورته في شخصه، وسار على غِراره الصحابة الكرام والتابعين ومن تبعهم بإحسان وكل المصلحين..

ولكن هذا الدين وهؤلاء المسلمين خُلق من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.. فمنهم المبتدع في العقيدة، ومنهم المنحرف في الشريعة، ومنهم المكثرون من الخرافات..".

لقد كانت سلفية علال تمزج بين تحرير الفرد من عوائق الشعوذة والخرافة الصوفية، وتحريره من عوائق التخلف والجهل، وتحريره من عوائق الاستعمار والاحتلال الأجنبي.

موسوعية علال الفاسي وعبقريته:

لقد تميز علال بموسوعية مدهشة وعبقرية فذّة، وساعده على ذلك ذكاؤه الفطري، ومطالعاته الواسعة، وتنقله بين البلاد بسبب النفي أو الهروب أو السفر، وقد

ظهر ذلك في كتبه المتنوعة، ولكن كتابه «النقد الذاتي» يعد أكبر دليل على موسوعية علال وعبقريته، فهو قد ناقش في هذا الكتاب النظريات المعروفة في عصره سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً وتربويّاً، ونقدها، وقدم البديل عنها للمجتمع المغربي، وذلك لتكون النظرية التي يسير عليها المغرب بعد استقلاله، وهذا يدل على عبقريته وتخطيطه المبكر لحاجة المغرب للنهوض والتقدم.

فعلال بعد أن درس حركات التحرر والاستقلال في المغرب العربي في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» وجد أن من واجبه "تكوين النظرية ووضع البرنامج المفصل الذي يسهل علينا تحقيق الإصلاحات العميقة التي تنشدها أمتنا..".

وهذا الكتاب لا غنى لكل دارس للفكر الإسلامي والإصلاحي من دراسته والعناية به، يقول العلامة عبد الله كنون عن هذا الكتاب: "هو أكثر من كتاب سياسي، إنه والحق يُقال منهاج للحكم والإصلاح الاجتماعي".

وفي هذا الكتاب وغيره من كتابات علال الكثير من التأصيل للاجتهاد السياسي الإسلامي الذي سبق فيه كثيراً من المعاصرين، ولكن للأسف لم ينل حظه من العناية.

حزب الاستقلال:

لقد نشأ حزب الاستقلال لغرض مقاومة الاحتلال الفرنسي، ولذلك لم يكن له غرض ديني أو هوية أيديولوجية، وكان فيه توجهات سياسية وفلسفية شديدة الاختلاف، كان همها الوحيد: التحرير من الاستعمار، الشيء الذي وحد بينها في نطاق حزب وطني كبير يخفي وراءه تناقضات داخلية كبيرة، ولذلك بعد الاستقلال حدثت عدة انشقاقات عن الحزب، وخرجت منه التيارات اليسارية، وفقد بعد ذلك علال السيطرة عليه، وهذا ما جعل علال في آخر عمره يصرح بندمه على عدم تأسيسه لحركة

إسلامية.

بداية حزب الإستقلال كانت من خلال كتلة العمل الوطني، التي تكونت بعد صدور الظهير البربري في سنة (١٩٣٠م)، وفي مطلع سنة (١٩٣٧م) شكلت اللجنة التنفيذية للكتلة، وكان علال الفاسي رئيساً لها، وضمت شخصيات متعددة التوجهات، وبعد شهرين قام الاحتلال الفرنسي بحل الكتلة وإقفال مكاتبها بالقوة.

ولما لم يمكن إعادة الكتلة للوجود تم تأسيس الحزب الوطني بعد شهر من حل الكتلة، وكان علال من قادته ولذلك تم نفيه لخارج المغرب في نفس السنة.

وفي (١١/١/١٩٤٤) أُعلن عن ولادة حزب الاستقلال؛ حيث تم تقديم ما عرف في تاريخ المغرب بـ "وثيقة المطالبة بالاستقلال" من قبل أنصار ورفقاء علال الذي لا يزال في المنفى.

وحين عاد علال للمغرب سنة (١٩٤٦م) قاد الحزب حتى وفاته عام (١٩٧٤م).

في (١٩٥٩م) غداة الاستقلال شهد الحزب انشقاقاً انبثق عنه حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية اليساري، الذي ستنشق عنه بدوره فيما بعد أحزاب يسارية أخرى، وذلك بسبب الخلاف بين التيار "التقليدي المحافظ"، والتيار "التقدمي اليساري" في حزب الاستقلال على توجهات ودستور المغرب المستقل.

ولذلك لم ينجح علال في ترؤس لجنة وضع الدستور؛ بسبب معارضة الحزب الشيوعي وحزب الاتحاد المنشق عن الاستقلال، لرفضهم الرؤية الإسلامية للدستور التي يتبناها علال الفاسي، ونتج عن ذلك انفراد القصر الملكي بوضع الدستور لصالح الملك في عدد من القضايا الخلافية؛ كاختصاصات الملك الواسعة، وطبيعة النظام السياسي، ودور البرلمان، ودور الأحزاب، وكيفية تشكيل الحكومة وصلاحياتها.

ويكاد هذا الوضع يتكرر الآن، بعد (٥٠) سنة في مصر في الصراع على اللجنة التأسيسية للدستور المصري!!

بعد ذلك دخل الحزب في صراعات سياسية حوّلته من مؤيد للقصر إلى معارض، ولم يعد علال الفاسي يسيطر على الحزب، ولم يعد الحزب يمثل توجهات علال؛ بسبب عدم وجود انتماء حقيقي لفكر علال بالحزب.

ولذلك أعلن مؤخراً في سنة (٢٠١٢م) عن تأسيس حركة تصحيحية أطلق عليها: «حركة ١١ يناير للفكر العلالي والقيم التعادلية لحزب الاستقلال»، تروم التشبث بالقيم الحقيقية لحزب الاستقلال، كما رسخها الزعيم علال الفاسي ورفاق دربه من القادة التاريخيين الموسومين بنظافة الذمة ونزاهة الفكر.

وفاته:

لقد أكرمه الله أن وافته منيته يوم الاثنين (٢٠ من ربيع الآخر ١٣٩٤هـ/١٣ من مايو ١٩٧٤م)، وهو يجاهد لقضايا وطنه وأمته؛ حيث توفي في بوخارست -عاصمة رومانيا-، في زيارة لشرح وبيان قضية المغرب والصحراء المغربية، وقضية الشعب الفلسطيني في مواجهة الصهيونية دفاعاً عن دينه وأرضه.

رحم الله العلامة المجاهد علال الفاسي رحمة واسعة.

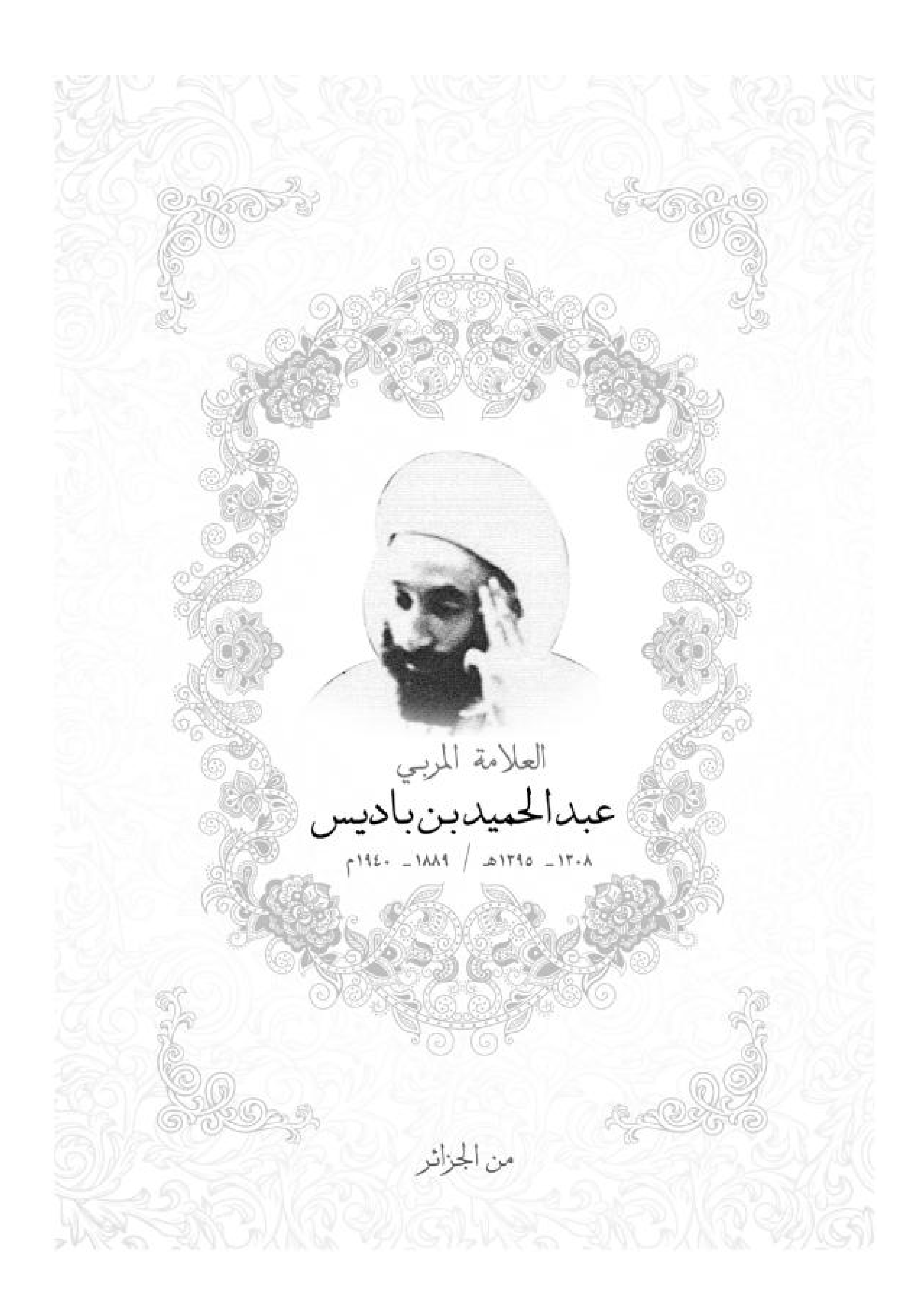
مراجع للاستزادة:

o «علال الفاسي استراتيجية مقاومة الاستعمار»، أسيم القرقري، دار أفريقيا العربية، الدار البيضاء، (٢٠١٠).

o «علال الفاسي رائد التنوير الفكري في المغرب، المفكر السلفي المجدد والزعيم السياسي»، أحمد بابانا العلوي، دار أبي قراقر، الرباط، (٢٠١٠).

o «أسرار وحقائق عن علال الفاسي»، محمد السلوي أبو عزام، دار الرشاد الحديثة، (١٩٨١).

o «علال الفاسي: ينبوع فكري متجدد»، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (٢٠٠١).


العلامة المربي
عبد الحميد بن باديس
١٣٠٨ـ ١٣٩٥هـ / ١٨٨٩ـ ١٩٤٠م
من الجزائر

٤- العلامة عبد الحميد بن باديس

(١٣٠٨- ١٣٩٥هـ/١٨٨٩- ١٩٤٠م)

تمهيد

دور العلامة ابن باديس في استقلال الجزائر عن فرنسا دور مركزي، إذ كان ابن باديس وطِيلة ربع قرن هو رافع لواء الهوية الإسلامية والعربية للجزائر في وجه فرنسا، والمحرض على رفض الذوبان والاندماج في الهوية الفرنسية؛ حتى كاد أن يعلن الثورة المسلحة عليها لولا أن توفاه الله U.

وهذا الدور المركزي لابن باديس لا يتضح إلا إذا فهمنا تاريخ الجزائر مع الاحتلال الفرنسي الذي استمر (١٣٠) عاماً، عانت فيه الجزائر وأهلها أشد المعاناة من التشريد والحبس والقتل ومصادرة الأموال والأراضي؛ فضلاً عن محاربة الإسلام والعروبة.

وكانت استراتيجية فرنسا ضم الجزائر لها نهائيّاً، وإرسال فرنسيين لها ليكونوا سكاناً للجزائر بدل أهلها، في نموذج سابق على جريمة المستوطنين الإسرائيليين في فلسطين اليوم.

ولم يقف الجزائريون أمام هذا الوضع مكتوفي الأيدي بل قاموا بمقاومة فرنسا عسكريّاً ومدنيّاً بحسب ما قدروا عليه، وهو الذي سنفصل فيه قليلاً لنفهم الخلفية التاريخية التي جاء فيها ابن باديس.

الاحتلال الفرنسي للجزائر:

بعد قيام الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) أصيبت فرنسا بانهيار اقتصادي، وتعرضت لمجاعة قاسية؛ نتيجة للحصار الاقتصادي والعسكري اللذين فرضتهما الدول الأوربية المعادية للثورة الفرنسية، ولم تجد فرنسا أمامها إلا اللجوء إلى الجزائر لشراء القمح منها، فما كان من والي الجزائر الداي حسين باشا إلا أن وضع تحت تصرفها فائض المحصول من الحبوب، وأقرضها ربع مليون فرنك دون فائدة لشراء ما يلزمهم، ومن أجل ذلك أسست الحكومة الفرنسية خطّاً ملاحيّاً خاصّاً لنقلها.

وكانت فرنسا قد اعتمدت شركة يملكها يهوديان وسيطة بينها وبين الجزائر، حيث كانت تشتري من الجزائر بسعر وتبيع لفرنسا بسعر مرتفع بالأجل، مما رتب على فرنسا ديوناً تجارية للجزائر، أخذت تماطل في سدادها.

وفي عام (١٨٢٧) حين قدم قناصل الدول الأجنبية لزيارة حاكم الجزائر الداي حسين لتهنئته بعيد الفطر، جرى حوار بينه وبين "دوقال" قنصل فرنسا، وطلب منه أن يبلغ حكومته بضرورة الإسراع في تسديد الديون التي عليها للجزائر، فأساء القنصل الفرنسي الرد، فأمره الداي حسين بالخروج من حضرته، لكن "دوقال" لم يستجب للأمر، فقام الباشا بضربه بالمروحة التي كانت في يده، فكتب القنصل إلى بلاده بما حدث، وادّعى أنه ضُرب ثلاث مرات.

فاتخذت فرنسا من هذه الحادثة ذريعة للتخلص من ديونها للجزائر من جهة، واستغلالها لمحاولة احتلال الجزائر والاستيلاء على خزينتها التي تحتوي على (١٥٠) مليون فرنك!!

فأرسلت فرنسا قطعة من أسطولها إلى الجزائر، وطلب قائده من الداي حسين

الاعتذار للقنصل إلا أنه رفض، فحاصر الفرنسيون الجزائر ثلاث سنوات تكبدت فيها فرنسا الكثير من النفقات، وضربت تجارة فرنسا، دون أن يعتذر الداي لهم.

وفي عام (١٨٣٠) قام ملك فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر، وأعطاها طابعاً دينيّاً؛ حيث اعتبرها "حملة مسيحية على بلاد البرابرة المسلمين"، وأنها في صالح كل العالم المسيحي.

ومما ساعد على فرض الحصار والاحتلال في النهاية: أن الأسطول الجزائري كان قد تحطم في معركة نافارين في شبه جزيرة المورة باليونان عام (١٨٢٧).

جرائم الإحتلال الفرنسي بالجزائر:

لنأخذ لمحة سريعة عن جرائم فرنسا تجاه الجزائر والجزائريين، ونقارن بين أقوال الفرنسيين أنفسهم؛ ففي حين كان المنشور الذي وزعه الفرنسيون في بداية الاحتلال يقول: "إننا نحن أصدقاءكم الفرنسيين نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر، إننا ذاهبون لكي نطرد الأتراك من هناك، إن الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم، والذي يسرقون أملاككم وإنتاج أرضكم، والذين يهددون حياتكم باستمرار، إننا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها.

إننا نقسم على ذلك بدمائنا، وإذا انضممتم إلينا، وإذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا فسيكون الحكم في أيديكم كما كان في السابق، وستكونون سادة مستقلين على وطنكم.

إن الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين؛ إخوانكم الأعزاء، الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طيلة الثلاثين سنة الماضية، منذ خرجنا من بلادهم، والذين ما يزالون يرسلون أبناءهم إلى فرنسا يتعلموا القراءة والكتابة، ولكل فن

وحرفة مفيدة، ونحن نعدكم باحترام نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس، لأن ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب، ويحمي كل دين.

فإذا كنتم لا تثقون في كلمتنا وفي قوة سلاحنا، فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا إلى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم، فابقوا هادئين.

إن الفرنسيين ليسوا في حاجة إلى مساعدة لضرب وطرد الأتراك، إن الفرنسيين هم سيظلون أصدقاءكم المخلصين، فتعالوا إلينا وسنكون مسرورين بكم، وسيكون ذلك فرصة لكم، وإذا أحضرتم إلينا الأطعمة والأغذية والأبقار والأغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق، وإذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود في مقابل التمويل الذي تأتون به".

قارن هذا بما جاء في تقرير اللجنة الإفريقية عام (١٨٣٣) إلى الحكومة الفرنسية التي كانت كلفتها بالتحقيق في الجرائم كما يلي:

"لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية، وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام.. وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون تعويض.. وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان.. وحاكمنا رجالاً يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم.. لأنهم كانوا شجعاناً..".

أما الضابط الفرنسي مونتايناك؛ فيقول: "هذه هي طريقتنا في الحرب ضد العرب.. قتل الرجال، وأخذ النساء والأطفال ووضعهم في بواخر ونفيهم إلى جزر الماركيز البولينيزية، باختصار: القضاء على كل من يرفض الركوع تحت أقدامنا كالكلاب.

لقد أحصينا القتلى من النساء والأطفال فوجدناهم ألفين وثلاثمائة، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة".

أما سيمون دو بوفوار؛ فكتبت تقول: "منذ عام (١٩٥٤) ونحن جميع الفرنسيين شركاء في جريمة قتل جماعي، أتت تارة باسم القمع، وطوراً باسم إشاعة السلام على أكثر من مليون ضحية؛ رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، حصدوا بالرشاشات خلال عمليات المداهمة والتفتيش، أو حرقوا أحياناً من قراهم، أو ذبحوا، أو بقرت بطونهم، أو عذبوا حتى الموت.

قبائل برمتها أسلمت للجوع والبرد، للضرب للوباء في مراكز التجميع التي ما هي في الواقع إلا معسكرات استئصال ومواخير عند الاقتضاء للنخبة من فرق الجيش، حيث يحتضر أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) جزائري وجزائرية".

ويمكن تعداد صنوف الإجرام الفرنسي تجاه الجزائر بالتالي:

١ - توطين الفرنسيين والأوروبيين في أملاك الجزائريين بعد طردهم منها أو قتلهم، وقد وصل عدد المستوطنين إلى مليون مستوطن.

٢ - إرهاق الجزائريين بالضرائب، رغم فقرهم، ومصادرة أموالهم والتساهل مع المستوطنين.

٣ - إصدار قانون الأهالي (الأنديجينا)، وهو قانون ظالم يكبّل حياة الجزائريين.

٤ - مصادرة الأوقاف، ومحاصرة القضاء الشرعي.

٥ - منع استخدام اللغة العربية أو تدريسها حتى في البيوت.

٦ - تمكين اليهود من الاستيطان في الجزائر ومنحهم الجنسية الفرنسية، حتى وصل عددهم إلى (٣٠) ألف يهودي.

الاحتلال الفرنسي يحارب التعليم ويدعم الطرق الصوفية:

عمل الاحتلال الفرنسي على ضرب التعليم في الجزائر، لأن الشعب المتعلم سيكون شوكة في حلق المستعمر والمحتل، ورغم أن الجزائريين كانوا يتفوقون على الفرنسيين بنسبة التعليم قبل الاحتلال الفرنسي لبلادهم.

يقول الجنرال فالز في سنة (١٨٣٤م) بأن كل العرب (الجزائريين) تقريباً يعرفون القراءة والكتابة، حيث إن هناك مدرستين في كل قرية...

وكتب الرحالة الألماني (فيلهلم شيمبرا) حين زار الجزائر في شهر كانون الأول عام (١٨٣١م)، يقول: "لقد بحثتُ قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب..".

وقد أحصيت أكثر من (٢٠٠٠) مدرسة في الجزائر سنة (١٨٣٠م)، ما بين ابتدائية وثانوية وعالية، لكن الاحتلال الفرنسي عمل بكل قوة على محاربة العلم والمعرفة في الجزائر، فالفرنسيون عندما دخلوا مدينة قسنطينة -في شمالي أفريقيا- أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم، في سلوك همجي بربري.

وحاربوا المدارس والتعليم؛ حتى أنه بعد أقل من قرن على (الاستعمار) أصبح أطفال الشعب الجزائري أميين، لا يعرف القراءة والكتابة منهم إلا (٥%) سنة (١٩١٤)، وذلك بفضل سياسات فرنسا، وتعاون الطرقيين معها؛ أحباب الجهل والخرافة!!

كان الفرنسيون يعرفون أن أصحاب الطرق من مشايخ الصوفية في الجزائر سيكونون خير سند لهم، لأنه يبحثون عن مصالحهم المادية وهو ما يمكن لفرنسا أن

تمنحهم إياه في مقابل تسكين الشعب الجزائري وقبوله للاحتلال الفرنسي؛ ولذلك زادت عدد الطرق وأتباعها بشكل مخيف في الجزائر في عهد الاحتلال، حتى أصبح في العاصمة لوحدها (٢٣) طريقة صوفية، لها (٣٤٩) زاوية، فيها (٥٧ ألف) شيخ و(٦ آلاف) مقدم، ويتبعها (٢٩٥) ألف مريد، وحصيلة تبرعاتهم (٧ ملايين)!!

يقول مالك بن نبي في مذكراته «مذكرات شاهد القرن» (ص١٨١): "هكذا كان الناس يشهدون كل عام موكب (القادرية) المهيب يأتي إلى (أفلو).

راية ترفرف، وعلى رأسها ابن شيخ الطريقة (المقدّم)، يلبس الثياب الخضراء من رأسه إلى قدميه، إنها ثياب أهل الجنة، وهو ذو ذكاء شيطاني؛ يعرف كيف يبتزّ من السذاجة العامة للناس كل ما يريد!

لقد كان يملك في تلك الفترة في (وادي سوف) بستاناً للنخيل، مؤلفاً من حوالي ألف نخلة، وهو من هبات أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الجنة في موكبه".

أما علاقتهم بفرنسا؛ فيلخصها شيخ الطريقة التيجانية محمد الكبير في حديثه للكولونيل يسكوني: "إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ماديّاً وأدبيّاً وسياسيّاً.

إن أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا، ففي عام (١٨٣٨م) كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائري)، وفي عام (١٨٧٠) حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبيّاً؛ فتزوج من (أوريلي بيكار)، وهو أول مسلم جزائري تزوج بأجنبية على يد الكردينال (لا فيجري) على حسب الطقوس المسيحية"، ولا نحتاج لتعليق على هذه الشهادة الصريحة في العمالة والخيانة!

ولذلك كانت معركة ابن باديس مع هؤلاء الطرقيين في البداية؛ ليطهّر الصف الجزائري قبل أن يصطدم بالفرنسيين.

حركات المقاومة الجزائرية ضد فرنسا:

لم يقف الجزائريون مكتوفي الأيدي أمام الاحتلال الفرنسي بل قاوموه وتصدوا له في عدة محاولات، كان أبرزها: مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري؛ والتي استمرت (١٥) عاماً (١٨٣٢-١٨٤٧)، ورافقها وتبعها عدد من المحاولات الجهادية لكنها لم تنجح في دحر الفرنسيين، وإنما إيقاع خسائر جسيمة بها.

كما كانت هناك عدة محاولات سياسية لمقاومة فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى مثل: حركة الأمير خالد -حفيد الأمير عبد القادر-، والتي عرفت باسم: "وحدة نواب المسلمين" سنة (١٩١٩)، وحركة "نجم شمال إفريقيا" التي أسسها عدد من العمال المغاربة المهاجرين في فرنسا سنة (١٩٢٦)، وحركة "اتحاد المنتخبين المسلمين الجزائريين" سنة (١٩٢٧).

الإصلاح السلفي في الجزائر قبل ابن باديس:

لقد دخلت الجزائر في الإسلام على يد التابعين تحت قيادة أبي المهاجر دينار، ولذلك شهدت الجزائر ظهور العديد من الشخصيات السلفية في تاريخها مثل: الفقيه أبي الفضل النحوي -من علماء القرن الخامس الهجري-، وأبي الحسن علي بن الحق الزويلي (ت ٧١٩هـ)، وتلميذه الحافظ ابن مرزوق الحفيد، وأحمد زروق -في القرن العاشر الهجري-، وتلميذه ابن علي الخروبي، مثلما ظهر عبد الرحمن الأخضري (ت ٩٥٣هـ)، وجاء بعده في القرن الحادي عشر الشيخ عبد الكريم بن الفكون (ت ١٠٧٣هـ)، والشيخ محمد بن عبد الله الجلالي -معاصر أحمد التيجاني الصوفي-.

ولذلك فالسلفية ليست طارئة على الجزائر بل إن المذهب المالكي الذي يتبعه غالبية الجزائريين هو عين السلفية، ولذلك حين ظهرت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية رأينا بعض الحجاج الجزائريين والمغاربة يؤيدها مثل: ملك المغرب المولى سليمان، والسيد محمد السنوسي -مؤسس الحركة السنوسية-، والمؤرخ الجزائري أبو رواس الناصري، الذي كان أول من عرّف الجزائريين بدعوة محمد بن عبد الوهاب.

وكان للطلبة الذين درسوا في جامع الزيتونة أو القرويين أو بتأثير الحركة السنوسية دور في حمل الدعوة السلفية والدعوة الإصلاحية، مثل: الشيخ ابن الموهوب، والشيخ صالح بن مهنا، والشيخ عبد القادر الجاوي (ت ١٩١٣)، والذي من طلابه: الشيخ حمدان الونيسي -شيخ ابن باديس-، والشيخ مصطفى بن الخوجة (ت ١٩١٥)، وعمر بن قدور (ت ١٩١٥)، وممن ظهر في هذه المرحلة من المصلحين السلفيين: الأستاذ محمد بن أبي شنب (ت ١٩٢٩)، والشيخ عبد الحليم بن سماية (ت ١٩٣٣).

ولا ننسى هنا أن مجلة «المنار» التي يصدرها العلامة رشيد رضا كانت تصل للجزائر، وأن محمد عبده زار الجزائر سنة (١٩٠٣)، وقد كان الجزائريون متعلقين بمجلة «المنار» بصورة كبيرة، لدرجة أنهم طالبوا رشيد رضا بألّا يتعرض لفرنسا حتى لا تنقطع عنهم «المنار»!!

مولد ونشأة ابن باديس:

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي ابن باديس سنة (١٣٠٨هـ/ ١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة لأسرة عريقة بالعلماء والأمراء والسلاطين.

ومن أشهر رجالات هذه الأسرة: المعز لدين الله ابن باديس -مؤسس الدولة

الصنهاجية- (حكم: ٤٠٦-٤٥٤هـ/١٠١٦-١٠٦٢م)، الذي قاوم البدعة ونصر السنة، وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً للدولة.

ومن أجداده العلماء: الشيخ المفتي بركات بن باديس، دفين مسجد سيدي قمّوش بقسنطينة، والشيخ أحمد بن باديس، الذي كان إماماً بقسنطينة أيام الشيخ عبد الكريم الفكون في القرن الحادي عشر الهجري.

وبقيت أسرته من الأسر التي تشارك في الحكم، فجدّه لأبيه: الشيخ المكي بن باديس كان قاضياً مشهوراً بمدينة قسنطينة، وعضواً في المجلس العام وفي المجلس البلدي.

وعمه أحميدة بن باديس كان نائباً عن مدينة قسنطينة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ورفع عريضة مع ثلاثة من النواب عام (١٨٩١م) بأنواع المظالم والاضطهادات التي أصبح يعانيها الشعب الجزائري على يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية ومن المستوطنين المهاجرين.

كما أن من عائلة ابن باديس من كانوا قادة كباراً في ثورة الأمير عبد القادر الجزائري، وتم أسرهم وسجنهم في باريس، وأفرج عنهم مع الأمير عبد القادر الجزائري في عام (١٨٥٢م)، وتم نفيهم إلى الشام.

لقي ابن باديس كل عناية ورعاية من والده الذي توسم فيه النباهة، حتى قال له: "يا عبد الحميد! أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك وأقوم بكل أمورك، ما طلبت شيئاً إلا لبيت طلبك كلمح البصر، فأكفني أمر الآخرة، كن الولد الصالح الذي ألقى به وجه الله".

وهو ما بقي يعترف به عبد الحميد؛ فقد قال في حفل ختم تفسير القرآن سنة (١٩٣٨)، وأمام حشد كبير من المدعوين، ثم نشره في مجلته «الشهاب»: "إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده، وبراني كالسهم، وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة... فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر".

أتم عبد الحميد بن باديس حفظ القرآن في سن الثالثة عشرة، ثم تتلمذ على الشيخ حمدان الونيسي، والذي نصحه بنصيحة سار عليها ابن باديس طيلة عمره، حين قال له: "اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة"، بل أخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا.

ثم تاقت نفسه للاستزادة من العلم، فسافر لتونس في سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٨م)، والتحق بجامع الزيتونة وبقي هناك أربع سنوات، فدرس على العلماء وخاصة العلاّمة محمّد النخلي القيرواني، والشيخ العلامة محمّد الطاهر بن عاشور، واستفاد من الشيخ الخضر حسين، والمؤرخ البشير صفر، والمصلح المجدد سعد الفياض، وقد كان جادّاً في التحصيل حتى أنه اختصر دراسة الزيتونة من سبع سنوات إلى ثلاث سنوات فقط، ومكث بعدها سنة يدرس تطوعاً على عادة جامع الزيتونة، وبذلك حصل على شهادة التطويع.

ولم يكتف بدروس الزيتونة بل ذهب للجمعية الخلدونية التي كانت تدرس العلوم العصرية مثل: الحساب والمساحة والجغرافيا والكيمياء والطبيعيات، فتعلم العلم الشرعي وأصبح على دراية بما يحيط بالأمة من أحوال وتحديات.

ثم في عام (١٩١٣) عاد لدياره ولم يتجاوز عمره (٢٣) سنة، ليباشر التدريس بالجامع الكبير، بسبب نفوذ والده وعلاقاته بالإدارة الفرنسية، لكن المغرضين من أصحاب الأهواء سرعان ما عارضوه وناصبوه العداء، حتى أنهم أطفأوا النور عليه وهو يدرس بالمسجد! فقرر السفر لبيت الله الحرام في نفس العام.

اللقاء بالبشير الإبراهيمي بالمدينة المنورة:

في المدينة لقي ابن باديس الكثير من العلماء المجاورين فيها أو الزائرين لها مثله، ومن أبرز من قابل فيها: شيخه القديم حمدان الونيسي الذي طلب منه الإقامة عنده في المدينة، وهو الأمر الذي عارضه الشيخ حسين الهندي الذي أشار عليه بالعودة للوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية، وهي النصيحة التي نفذها ابن باديس على أحسن وجه، وبقيت استراتيجيته؛ حيث قال عن نفسه: "فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية، بجميع مدعماتها، في هذا الوطن".

أبرز ما حدث مع ابن باديس في المدينة: تعرفه على رفيق دربه ونضاله -فيما بعد- الشيخ البشير الإبراهيمي، والذي سبق ابن باديس في سكن المدينة والاستقرار فيها مع والده قبل أكثر من سنة على لقائهما، وبقي هناك حتى (١٩٢٠)، حيث جاء للجزائر ليكمل مع ابن باديس طريق الدعوة التي بدأها.

فقد مكث ابن باديس والإبراهيمي ثلاثة أشهر يلتقيان يوميّاً بعد العشاء وحتى الفجر، يتدارسان أحوال الجزائر وكيفية إصلاحه وبث النهضة الدينية والعلمية والسياسية فيه.

وقد بين لنا البشير الإبراهيمي محتوى هذه اللقاءات حين قال: "وأشهدُ الله على

أن تلك الليالي من عام (١٩١٣) هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعيّة العلماء المسلمين، والتي لم تبرز للوجود إلا عام (١٩٣١)".

العودة للجزائر:

في عودته للجزائر زار ابن باديس بلاد الشام ومصر؛ حيث اجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية، وزار الأزهر واتصل بالشيخ بخيت المطيعي، حاملاً له رسالة من الشيخ الونيسي، فرحب به وأجازه، ومنحه العالمية الأزهرية.

وقد منحته هذه الرحلة معرفة واقع البلاد الإسلامية مما وسع مداركه وأكسبه خبرة غنية بتجارب سابقة، كما مكنته من التعرف بقادة الإصلاح فيها، ولذلك سنجد فيما بعد أن ابن باديس له صلات بكثير من رجالات الإصلاح في العالم العربي، وأن كثيراً من رجالات الإصلاح يتابع أخبار ومجلات ابن باديس.

حين وصل ابن باديس للجزائر قام بعدة جولات بالقطار لأرجاء الجزائر ليتعرف عليها ويتعمق في فهم مشكلاتها.

بداية الدعوة والجهادي الفردي:

منذ عودة ابن باديس نهاية عام (١٩١٣) وحتى تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة (١٩٣٠)، سيكون ابن باديس شعلة من النشاط والحركة في سبيل نهضة الجزائر وتحررها؛ من خلال إنشاء جيل جزائري جديد يقوم بهذه المهمة.

فمنذ عودته بدأ بإلقاء الدروس في المسجد الكبير، ثم تحول للمسجد الأخضر -وهو المركز الرئيس لنشاطه-، ومساجد سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن وسيدي بومعزة وسيدي فتح الله، حيث استحصل له أبوه على تصريح بذلك.

ولم تقتصر دروسه على الكبار، بل خصص دروساً للصغار -أيضاً- بعد

خروجهم من درس الكتاتيب القرآنية، وهذا أمر لم يكن معهوداً قبله.

وكانت دروسه تقام طوال النهار والليل، حيث كان يدرس عشرة دروس في اليوم، يتنقل فيها بين المساجد والنوادي، فانهال عليه الطلاب من كل مكان، حتى أصبح عنده أكثر من ألف طالب، وكان يستعين بأهل الخير على إيوائهم وإطعامهم.

وهذا تطلب منه التفكير في إنشاء مدرسة ابتدائية قرب مسجد بو معزة، ثم تنتقل إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست في عام (١٩١٧)، ثم في سنة (١٩٣٠) عرفت باسم: "مدرسة التربية والتعليم"، تضمن قانون الجمعية: أنها تسعى "لنشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية والفرنسية، والصنائع اليدوية، بين أبناء وبنات المسلمين"، وذلك من خلال تأسيس مدرسة للتعليم، وملجأ للأيتام، وناد للمحاضرات، ومعمل للصنائع، وإرسال بعثات طلابية للدراسة في الكليات والتدرب في المعامل الكبيرة على نفقة الجمعية.

ومن سعة أفق ابن باديس أن جعل تعليم الفتيات مجانيّاً بخلاف الطلاب الذين يدفع المقتدر منهم رسوماً رمزية، وذلك لتشجيع التعليم بين الفتيات.

وفي هذا يظهر سبق ابن باديس لإنشاء المدارس والجمعيات وتعليم الفتيات خصوصاً، على كثير من الدعوات والتجمعات العلمانية، ولكن للأسف أن هذا الميراث من السبق الحضاري يتنكر له كثير من محبي ابن باديس اليوم بلسان الحال إن لم يجمعوا لسان المقال أيضاً!

ومن هذه المدرسة نشأ جيل كامل في الجزائر متشبع بقيم الإسلام ولغته وآدابه، ويستطيع الخطابة ونظم الشعر وإلقاء المحاضرات، وقد أرسل بعض هؤلاء الطلبة

للتوسع في العلم بجامع الزيتونة، وبعض آخر للتدرب في المعامل الكبرى.

وقد اعتمد ابن باديس على هذا الجيل في إنشاء جمعية العلماء المسلمين، والقيام بمشروعه الإسلامي الكبير بمقاومة الاحتلال الفرنسي، بعد أن عمل بهدوء ودون ضجة لسنوات عديدة.

ومع تدريسه للطلاب إلا أنه -أيضاً- كان يخصص يوماً لتعليم العمال، ويوماً لتعليم النساء.

وبعد أن انتشرت الدروس في المساجد وأنشأ المدرسة فكر ابن باديس بالتوسع في نشر فكره ومشروعه؛ فدخل عالم الصحافة، ففي البداية تعاون مع جريدة «النجاح» (تأسست ١٩١٩) في الكتابة والتحرير، حيث كان يكتب بأسماء مستعارة هي: القسنطيني والعبسي والصنهاجي، ثم وجد أنها لا تلبي طموحه فقام بتأسيس صحيفة «المنتقد» الأسبوعية في عام (١٩٢٥)؛ والتي شنت حملة قوية على العقائد الفاسدة والخرافات الشائعة، واستمرت «المنتقد» (١٨) عدداً، ثم أوقفت بقرار تعسفي من الإدارة المحتلة.

وصحيفة «المنتقد» جاءت كمرحلة جديدة في دعوة ابن باديس وجهاده، إذ رأى ابن باديس أنه بعد (١٠) سنوات من التعليم حان الوقت لمهاجمة الطرقية وخرافاتها بقوة، ولذلك جاء هذا الاسم «المنتقد» والذي يهاجم بشكل مباشر وفي الصميم المبدأ الصوفي الطرقي الضال: "لا تعترض فتنطرد"، والذي يراد به: إلغاء العقول والتفكير، والاكتفاء بدور التبعية والتقليد للشيخ؛ مهما كان موقفه خطأً أو ضلالاً.

ولكن قناة ابن باديس لم تهن أو تلين، فبعد شهر يصدر جريدة «الشهاب»

الأسبوعية تحت شعار: "تستطيع الظروف أن تخيفنا، ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا"، وفي عام (١٩٢٩) تحولت إلى مجلة شهرية بسبب المضايقات من قبل الإدارة الفرنسية، وكان شعارها: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

ومن أجل ضمان استمرار صدور المجلتين أنشأ ابن باديس المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة (١٩٢٥)، ليتجنب عوائق صدورهما؛ إذا كانتا تطبعان في مطبعة مستأجرة!!

وفي هذه المرحلة يعود زميله الشيخ البشير الإبراهيمي سنة (١٩٢٠) ليتعاونا في الإصلاح، ويكون لهما لقاء كل أسبوعين أو شهر على الأكثر، لأن البشير الإبراهيمي جعل مركز نشاطه في مدينة سطيف، وفيما بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين سيتقاسم أقطاب الحركة الإصلاحية المسئولية العلمية في المقاطعات الجزائرية الثلاث؛ حيث سيبقى ابن باديس مشرفاً على مقاطعة قسنطينة بما تضم من القرى والمدن، فيما يتولى الإبراهيمي مسئولية مدينة تلمسان العاصمة العلمية في الغرب الجزائري، أما الشيخ الطيب العقبي فسيكون مشرفاً على مقاطعة الجزائر.

ومن الواضح في مسيرة ابن باديس أنه يحاول أن يتجاوز أخطاء وعثرات تجارب المصلحين الجزائريين السابقين، فهو يتجنب أن تكون دعوته ضيقة النطاق؛ سواء على صعيد الجغرافيا أو الشريحة المستفيدة.

كما أنه يتجنب أن تكون دعوته فردية مرتبطة بشخصه ولذلك ينشئ مؤسسات: مدرسة/مجلة/مطبعة...، ويسعى للتكامل مع زملائه وعدم حصر الدعوة في مكان محدد؛ فيتوزعون على المناطق ويلتقون دوريّاً، ويحاول أن يتطور مع الأحداث

والمستجدات؛ فلا يبقى بنفس الأسلوب مع تطور دعوته وقوته، ولذلك نجده يتنقل من المسجد لفتح جمعية، ثم مدرسة، ثم يرسل بعثات للخارج، جريدة ومجلة، ثم مطبعة.

إرهاصات تأسيس جمعية العلماء المسلمين:

هناك الكثير من المقدمات التي سبقت ظهور جمعية العلماء المسلمين في سنة (١٩٣١)، فبعد مسيرة ابن باديس الطويلة في الجهاد الفردي بالتعليم والدعوة والإعلام تكوّن في الجزائر تيار من العلماء الإصلاحيين وطلبتهم بقيادة ابن باديس، وكانت لهم لقاءات دورية لتدارس أحوال الجزائر وكيفية النهوض به، للوصول للغاية النهائية وهي: الاستقلال عن فرنسا، وإعادة الجزائر دولة مسلمة قوية ومتقدمة.

ولقد صرح ابن باديس لمن استفسروا منه عن موقفه من المطالبة باستقلال الجزائر قائلاً: "وهل يمكن من شرع في تشييد منزل أن يتركه من دون سقف؟ وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال"، وذلك في سنة (١٩٣٣).

ومن هذه الإرهاصات: محاولة ابن باديس التي لم تنجح سنة (١٩٢٤) لإنشاء جمعية (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة العاصمة، وتجمع شمل العلماء والطلبة، وتوحد جهودهم، وتقرب بين آرائهم في التعليم والتفكير، وتوثق الأواصر بينهم.

وقد طلب ابن باديس من الشيخ البشير الإبراهيمي كتابة قانونها الأساسي، لكن لم يكتب لهذه المحاولة النجاح، وكانت الخلاصة التي خرج بها ابن باديس والإبراهيمي: أن استعدادنا لمثل هذه الأعمال لم ينضج بعد، ولكن التجربة لم تذهب بلا فائدة.

فعاود ابن باديس التركيز على النشاط في الصحافة والمجلات؛ لتكوين رأي عام وداعم لهذه المحاولات في المرات القادمة، حيث دعا ابن باديس في مقالاته إلى اتحاد العلماء وتجمعهم، والاتفاق على خطة عمل لإصلاح الأوضاع الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية، في تمهيد لفكرة جمعية العلماء، فكتب في مجلته «الشهاب»: "أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري: إن التعارف أساس التآلف، والاتحاد شرط النجاح؛ فهلموا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديني محض". «الشهاب»، عدد (٣)، (٢٦/ ١١/ ١٩٢٥).

وقام بعض أصدقاء ابن باديس في العاصمة سنة (١٩٢٧) بإنشاء «نادي الترقي» بهدف "مساعدة الأعمال التمدينية التي تقوم بها فرنسا، وذلك بالسعي في تثقيف مسلمي الجزائر عمليّاً، واقتصاديّاً، واجتماعيّاً"، وقد حاضر ابن باديس في حفل تأسيسه، ومن ثم طلب أعضاء النادي من الشيخ الطيب العقبي -رفيق ابن باديس- أن يكون محاضراً في النادي لسكنه في العاصمة، وسيكون النادى فيما بعد مقر الاجتماع لتأسيس جمعية العلماء.

وفي خطوة تالية سنة (١٩٢٧) دعا ابن باديس الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لندوة في مكتبه يدرسون فيها أوضاع الجزائر، وما يمكن عمله، فلبى الدعوة البشير الإبراهيمي، ومبارك الميلي، والعربي بن بلقاسم التبسي، ومحمد السعيد الواهري، ومحمد خير الدين.

وكانت نتيجة هذا الاجتماع الاتفاق على خطة عمل لنشر الدعوة الإصلاحية، واستخدام الصحافة والنوادي، وإنشاء فرق الكشافة الإسلامية، واتفقوا على تحديد

محاور الفكر الإصلاحي الذي يجب أن يكون في الجزائر، وهو مما يعتبر خطوة تمهيدية لجمعية العلماء مستقبلاً، وفعلاً كانت تلك هي محاور البرنامج الذي اتبعته الجمعية بعد ميلادها.

شرارة التأسيس:

في سنة (١٩٣٠) قررت فرنسا إقامة احتفالات ضخمة بمناسبة مرور (١٠٠) عام على احتلالها للجزائر، وكان مقرراً لها أن تستمر مدة (٦) شهور، وأنفقوا فيها (١٣٠) مليون فرنك فرنسي، وقد وضح أحد قادتهم القصد من هذه الاحتفالات بقوله: "إن احتفالنا اليوم ليس احتفالاً بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام"!!

لكن ابن باديس ورفاقه تصدوا لهذه الاحتفالات، يقول البشير الإبراهيمي: "استطعنا بدعايتنا السرية أن نفسد عليها كثيراً من برامجها، فلم تدم هذه الاحتفالات إلا شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولنا، ونلفت أنظاره إلينا".

وكان الرد العملي على هذه الاحتفالات: دعوة مجلة «الشهاب» عدد (١٩٣١/٢) لتأسيس جمعية العلماء، وفعلاً تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين في (١٩٣١/٥/٥).

قصة ميلاد الجمعية:

تأسست جمعية العلماء المسلمين في اجتماع عقد في نادي الترقي بالعاصمة الجزائرية، حضره (٧٠) عالماً من مختلف مناطق الجزائر، ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية: مالكيين وإباضيين، مصلحين وطرقيين، موظفين حكوميين وغير موظفين، وكان رئيس الاجتماع الشيخ أبو يعلى الزواوي.

ويحكى الشيخ خير الدين -أحد المؤسسين الذين حضروا الجلسات العامة والخاصة لتأسيس الجمعية- قصتها؛ فيقول: "كنت أنا والشيخ مبارك الميلي في مكتب ابن باديس بقسنطينة يوم دعا الشيخ أحد المصلحين -محمد عبابسة الأخضري- وطلب إليه أن يقوم بالدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العاصمة، وكلفه أن يختار ثلة من جماعة نادي الترقي الذين لا يثير ذكر أسمائهم شكوك الحكومة، أو مخاوف أصحاب الزوايا، وتتولى هذه الجماعة توجيه الدعوة إلى العلماء لتأسيس الجمعية في نادي الترقي بالعاصمة؛ حتى يتم الاجتماع في هدوء وسلام، وتتحقق الغاية المرجوة من نجاح التأسيس".

وقد تخلف ابن باديس عن الحضور في أول يومين للاجتماع حتى لا يستثير وجوده العلماء الرسميين أو الطرقيين، وفضل أن يستدعى في اليوم التالي على أن يكون داعياً للاجتماع، وفي هذا بعد نظر منه.

وكان هناك مسودة لقانون الجمعية عرض في الاجتماع وتم إقراره، ومن ثم تم اختيار أعضاء مجلس الإدارة، حيث وقع الاختيار على ابن باديس ليرأسها؛ رغم عدم حضوره.

وهكذا ظهرت جمعية العلماء بحنكة ابن باديس وذكائه، حين تجنب الاصطدام بإدارة الاحتلال وبالعلماء الموالين لها وبأصحاب الزوايا، وأيضاً نص قانونها على تجنب العمل السياسي، حتى يطمئن السلطات الفرنسية أكثر، لكن الحقيقة كانت كما جاء في تقرير المتصرف الفرنسي لمدينة مزاله: "وعلى الرغم من أنها -الجمعية- تدعي أنها لا سياسية؛ فإنها نواة للأحزاب الوطنية، وقاعدة ينمو فوقها الشعور الوطني".

ومنهج ابن باديس هذا لم يكن عن خوف أو جبن عن خوض العمل السياسي، بل هو منهج ارتضاه عن دراسة وتأمل، يقول ابن باديس: "فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكاً بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا؛ من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد، والسير في خط مستقيم".

وفي نهاية سنتها الأولى حاول العلماء الموالون لفرنسا وأرباب الطرق والزوايا الاستيلاء على الجمعية وحرفها عن مسارها، لكنهم فشلوا في ذلك، فانشقوا عن الجمعية، وأسسوا (جمعية علماء السنة)، برئاسة الشيخ مولود الحافظي؛ الذي كان من المؤسسين لجمعية العلماء، لكن هذه الجمعية سرعان ما فشلت واندثرت.

ثم في سنة (١٩٣٦) تجددت صلة بعض زعمائها بزعيم كتلة نواب قسنطينة د. ابن جلول، فأصبح لهم مؤسستان في الجزائر العاصمة وفي قسنطينة، وأنشأوا نادي الصفا؛ الذي غير اسمه إلى نادي الرشاد، وأصبح مقرّاً لحبك المكائد لجمعية العلماء.

ولذلك يعتبر العام الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو ميلادها الحقيقي، حيث أصبحت الجمعية مقتصرة فقط على التيار الإصلاحي.

وتم تقسيم الإشراف على متابعة نشاطات الجمعية بين الشيخ الطيب العقبي؛ الذي تولى الإشراف على نشاط الجمعية في العاصمة وما جاورها، والشيخ البشير الإبراهيمي؛ الذي تولى الإشراف على نشاطات الجهة الغربية من البلاد، انطلاقاً من تلمسان، وبقيت قسنطينة وما جاورها تحت إشراف ابن باديس.

الجمعية وإنشاء المدارس والتعليم:

وعندما استقرت أمور الجمعية وانطلقت في نشاطاتها تكاثرت فروعها حتى بلغت بعد (٥) سنوات (٣٣) شعبة، وذلك في سنة (١٩٣٦).

وفي سنة (١٩٣٨) زاد العدد إلى (٥٨) شعبة، فقد أقبل الشعب الجزائري على التعلم وحضور الندوات والمحاضرات في شعب الجمعية، وذلك برغم الاضطهادات والعراقيل التي كانت توضع في طريقها.

وقد عدد البشير الإبراهيمي أهمّ أنشطة الجمعية وأعمالها في ثماني نقاط هي:

١ - تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد، في المساجد، والأندية، والأماكن العامة والخاصة؛ حتى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية.

٢ - الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار، فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

٣- تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

٤ - العمل على تعميم التعليم العربي للشبان، على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥ - مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

٦ - مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها، لتصرف في مصارفها التي وُقِفَت عليها. (وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة).

٧- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي، في الأحوال الشخصية مبدئيّاً.

٨- مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

ومن أجل ذلك قامت الجمعية بإنشاء المدارس التابعة لها، فبعد ثلاث سنوات كان يتبع الجمعية (١٥٠) مدرسة، يتعلم فيها تقريباً (٥٠) ألف طالب.

وكان ابن باديس ينتقد طريقة التعليم السائدة في عصره، والتي ترتكز على بعض المواد الشرعية فقط، والتي تدرس بطريقة كئيبة لا تخرج سوى طلبة كالببغاوات يرددون ما حفظوا دون فهم أو قدرة على الاجتهاد، يقول ابن باديس عن الغاية من تدريسه القرآن للطلاب: "وأن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تُعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودهم".

فأدخل تعليم المواد العصرية إلى دروسه ودروس مدارسه، فمن المواد التي أصبحت تدرس: الحساب والجغرافيا والتاريخ والمنطق واللغة الفرنسية، ومن الكتب التي يطالعها الطلبة: «مقدمة ابن خلدون»، وطوّر ابن باديس طريقة التعليم بحيث تنمي ملكات الطلبة وتؤهلهم للفهم والاجتهاد، ولذلك ظهر في طلابه الأدباء والشعراء والفقهاء والمصلحون.

ويقول الشيخ الإبراهيمي: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة (١٩١٣) في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة".

وكان ابن باديس يهتم بتغيير عقلية التخلف عند الناس، ففي رثائه لصاحب «المنار» رشيد رضا كتب يقول: "إذا كان التفكير لازماً للإنسان في جميع شؤونه، وكل ما يتصل به إدراكه؛ فهو لطالب العلم ألزم من كل إنسان...".

وأيضاً: "فالتفكير التفكير يا طلبة العلم! فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منها الجاهل البسيط".

وكان يرسل المتفوقين للدراسة في جامع الزيتونة بتونس، ويجعل عليهم مشرفين وعرفاء.

وبقيت عناية الجمعية بالتعليم تتزايد حتى عقدت سنة (١٩٣٧) مؤتمراً لمعلمي التعليم العربي؛ لدراسة واقعه ومشكلاته والنهوض به، وأصدرت أبحاثه في كتاب خاص.

واعتنت الجمعية بتعليم الفتيات بل أعفتهن جميعاً من الرسوم بخلاف الأولاد الذين أعفت الفقراء منهم فقط، كما أن ابن باديس سعى في أن يبعث بعض الفتيات لمواصلة التعليم في دمشق لدى جمعية دوحة الآداب بمرافقة مشرفة؛ إلا أن ظروف الحرب العالمية حالت دون ذلك.

الجمعية وإنشاء الصحف:

تعاونت الجمعية في البداية مع عدد من الصحف الإصلاحية في بث دعوتها، كمجلة «الشهاب» التي يرأسها ابن باديس، وصحف أخرى كـ «المرصاد» و«الجحيم» و«الليالي» و«الدفاع الفرنسية».

لكن الجمعية أصدرت سنة (١٩٣٣) أول صحفها وهي صحيفة «السنة النبوية» لتصدر أسبوعيّاً، برئاسة ابن باديس، لتكون الناطقة بلسانها، وتخوض الصراع مع الطرقية وجمعيتها علماء السنة، لكن سرعان ما أوقفتها السلطات الفرنسية بعد عدة أشهر فقط.

وبعد أسبوع فقط من إيقاف السنة النبوية أصدرت الجمعية صحيفة «الشريعة المحمدية»، بنفس الإدارة التي تولت السنة النبوية، وأيضاً تم إيقافها بعد شهر ونصف.

وعلى إثرها أصدرت الجمعية جريدة «الصراط السوي»، لكنها عطلت بعدة عدة

أشهر مرة أخرى مطلع سنة (١٩٣٤).

وبعد سنتين لم تلِن فيها إرادة الجمعية صدرت مجلة «البصائر» الأسبوعية، لتكون لسان الجمعية، والتي استمرت لغاية سنة (١٩٣٩)؛ حيث قررت الجمعية إيقافها لأن "التعطيل خير من نشر الأباطيل"؛ كما قال البشير الإبراهيمي، حيث رفضت الجمعية تأييد فرنسا في الحرب.

وكانت صحف الجمعية كصحف ابن باديس تعالج مختلف القضايا الدينية والسياسية الجزائرية والإسلامية، وتهتم بنشر العقيدة السليمة ومحاربة البدعة والخرافة، وإصلاح التعليم في الجزائر وتونس وكل مكان، كما كان لقضية فلسطين حضور بارز على صفحاتها.

الجمعية ومقاومة الطرقية والصوفية المنحرفة:

كان ابن باديس يدرك أن الجزائر تواجه استعماراً ماديّاً فرنسيّاً، واستعماراً معنويّاً طرقيّاً صوفيّاً، وأنهما متحالفان معاً ضد الشعب الجزائري.

ورأى ابن باديس أن البدء بمحاربة الطرقية والصوفية المنحرفة هو المدخل السليم لمحاربة الاستعمار الفرنسي.

وهذا المنهج من ابن باديس سابق على إنشاء الجمعية، لكنه مع إنشاء الجمعية أصبح منهجاً جماعيّاً تقوم به جمعية تضم عدداً من العلماء ومئات المدرسين؛ من خلال مدارس الجمعية، ولم يعد أمراً فرديّاً يقوم به ابن باديس.

وبسبب تصدي ابن باديس للطرقية وخاصة الطريقة العليوية؛ التي جمعت بين الانحراف الديني والولاء للفرنسيين، ففي سنة (١٩٢٠) نشر الشيخ أحمد بن عليوة -رئيس زاوية مستغانم- ديوانه الشعري، والذي فيه توعد وتهديد للنبي ﷺ إن هلك

ابن عليوة بسبب شوقه للنبي!!

قال ابن عليوة:

إنْ مُتّ بالشَّوْق منكد من هو بالملك موحّد

إن تبق في هجري زائد عبس بالقول تساعد

ما عذر ينجيك للمولى ندعيك ينظر في أمريك ما نرجوه فيك!!

وضمنه عقيدة وحدة الوجود والحلول، كقوله:

فتشت عليك يا الله لقيت روحي أنا الله (والعياذ بالله!)

كما أن الطريقة العليوية بسبب هذا الانحراف والولاء للمحتل الفرنسي كانت تفتح له الأبواب وتمهد لهم السبل، في الوقت الذي كان الشرفاء من الصوفية يعانون الأذي من الفرنسيين ومثلهم العلماء المصلحون.

وحين سئل ابن باديس في سنة (١٩٢٢) عن ديوان ابن عليوة، أجاب برسالة سميت: "جواب سؤال على سوء مقال"، رد فيها عليه لسوء أدبه مع النبي ﷺ، وعلى بعض شطحاته الحلولية المنافية للعقيدة الإسلامية.

ولأهمية هذه الرسالة قرضها عدد من كبار علماء المغرب وتونس والجزائر، مثل: الطاهر بن عاشور والخضر حسين ومحمد النيفر، وأشادت بها مجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب.

وحقد ابن عليوة وأتباعه على ابن باديس، وأرسلوا له من يقتله في عام (١٩٢٦)، وفعلاً تربص به القاتل في مساء (٩ جمادى الآخرة ١٣٤١هـ/ الموافق ليوم ١٤/ ١٢/ ١٩٢٦م)، وضربه بهراوة على رأسه وصدعه، فشج رأسه وأدماه، لكن ابن باديس أمسك به وصرخ طلباً للمساعدة، ونجى من القتل، ثم عفا عن القاتل لأنه مستأجر.

واستمر ابن باديس في حربه للطرقية والصوفية المنحرفة، فلما تأسست الجمعية نصت في منهجها على محاربة الطرقية، فجاء في الأصل السادس عشر: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ...".

وقد اتبع ابن باديس مع الطرقية أسلوب المهادنة والتعاون في بداية تأسيس الجمعية، وذلك لقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي من استغلال صراع الإصلاحيين مع الطرقيين، ولكن بشرط أن لا يكونوا عوناً للمستعمر.

ولكنهم حين أخلوا بالشرط وتعاونوا مع الفرنسيين أظهر العلماء للشعب الحقيقة، وأن شيوخ الطرق تبع للفرنسيين وباحثون عن مصالحهم الشخصية من المال والمناصب، فنبذهم الشعب الجزائري، وتقلص نفوذ الطرقية في الجزائر، ولم يعد لها تأثير على الشارع الجزائري.

وهو الأمر الذي ساهم في تحرير الجزائر حين اعترف أحد قادتهم سنة (١٩٥٥) أنهم لم يجدوا شيوخ طرق وصوفية يوقفون ثورة الجزائر ضد فرنسا؛ بسبب أعمال جمعية العلماء، في حين وجد الاستعمار الفرنسي شيوخاً صوفيين في المغرب ليتمكن من إيقاف الثورة ضد فرنسا!!

لكن اليوم تعود الصوفية للشارع الجزائري بقوة وبدعم من النظام، وذلك لإضعاف التيار الإسلامي في الجزائر، فبدلاً من علاج التطرف بالعلم يتم اللجوء للخرافة من قبل أنظمة علمانية واشتراكية!!

الجمعية تفتح فرعاً لها في فرنسا:

حين زار وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري فرنسا سنة (١٩٣٦) وكان فيه ابن باديس والإبراهيمي والعقبي طلب المهاجرون الجزائريون من ابن باديس ورفاقه أن

يهتموا بهم ويرسلوا لهم من طلابهم، من يعلمهم ويرشدهم.

وبعد عودة ابن باديس للجزائر أرسل لهم تلميذه الفضيل الورتلاني -والذي سيكون له دور بارز لاحقاً مع حسن البنا -مؤسس جماعة الإخوان- في نشر الدعوة الإسلامية-، وقد أسس الورتلاني جمعية (نادي التهذيب) في باريس، التي كانت تعد بمثابة فرع لجمعية العلماء بالجزائر، لأن التوجيه والمناهج والقائمين على النادي كله من جمعية العلماء بالجزائر، وسرعان ما أصبح لها ستة فروع في ضواحي باريس، وثم أصبحت (١١) فرعاً، حين أغلقت بسبب احتلال الألمان لفرنسا سنة (١٩٤٠).

وقد تطلبت هذ الفروع مجيء عدد آخر من طلاب جمعية العلماء بالجزائر، والذين أشرفوا على نشر التعليم والدعوة بين جموع المهاجرين الجزائريين وغيرهم، وكانت هذه التجربة من أوائل المؤسسات الدعوية الإسلامية في أوروبا؛ إن لم تكن الأولى.

الجمعية وفرنسا:

حرص ابن باديس على تأجيل اصطدامه بفرنسا حتى يتمكن من بناء قاعدة صلبة يستطيع الاعتماد عليها، ولذلك تنوعت سياسته مع فرنسا بحسب ظروف كل مرحلة.

ففي البداية كان يطالب فرنسا بأن تعدل مع الجزائريين بناء على شعاراتها وقيمها التي تنادي بها، ومع تأكيده على أن العلاقة بينهما هي علاقة بين أمتين وليست بين أمة واحدة، وكان ينادي بالمساواة في الحقوق السياسية لا القومية مع الفرنسيين.

وهو يحاول بهذه الطريقة أن يصل لحقِّ الشعب الجزائري بالتعليم والمشاركة السياسية والتنعم بخيرات بلاده، واستمرت هذه السياسة لبعد قيام الجمعية بعدة سنوات.

ورغم ذلك لم تكن فرنسا راضية عن نشاطات ابن باديس، وحاولت أن تصرفه

عن مشروعه عبر الإغراء ببعض المناصب مثل: منصب المفتي، أو تسميته بشيخ الإسلام، ولما لم يستجب لذلك قامت بالتضييق على عائلته في أعمالها وتجارتها، فلم يرضخ أيضاً.

وقد حرص ابن باديس على أن يميز بين نشاطه الخاص ضد فرنسا وبين نشاط الجمعية، فكان يخوض بعض الصدامات مع فرنسا باسمه الشخصي؛ من خلال مجلته الخاصة «الشهاب»، في الوقت الذي لا تتدخل الجمعية ومجلاتها في تلك الصدامات، وذلك للحفاظ على الجمعية وعدم تعريضها للخطر، وهذا من حنكته ودهائه.

ومع ذلك شهدت الجمعية الكثير من مظاهر التضييق على عملها؛ كإيقاف ترخيص المدارس، ومراقبة ومتابعة أعضائها، والتعطيل المتكرر لمجلاتها، ومنع علمائها من دخول مناطق جزائرية؛ خاصة الصحراء، وقبول فرنسا توصية جمعية علماء السنة الطرقية بمنع غير الموظفين الرسميين من التدريس في المساجد، ولكن هذا فتح باب إنشاء المساجد الحرة غير التابعة للسلطات، وكان فيها خير عظيم.

كما صدر قرار باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر سنة (١٩٣٣)، ما عرض أنشطة وعلماء الجمعية لمتاعب كبيرة جدّاً من قبل السلطات الفرنسية.

ومنذ سنة (١٩٣٦) تغيرت سياسة ابن باديس، وذلك عقب محاولة فرنسا إلغاء الهوية الجزائرية تماماً، وإلحاقها بفرنسا بالكلية، واعتبار الجزائر مقاطعة من فرنسا، فأعلن ابن باديس رفضه لهذا المسعى، وأنه يرفض التجنس بالجنسية الفرنسية، وأنه يتبرأ من بعض قادة الجزائر الذين قبلوا ذلك.

ودعا ابن باديس إلى عقد مؤتمر عام لدراسة الأوضاع، فعقد في (١٩٣٦/٧/٧)

المؤتمر الإسلامي الجزائري الأول في نادي (الترقي)، وكان هذا المؤتمر نقطة تحول في تاريخ الجزائر، وتقرر إرسال وفد جزائري إلى فرنسا لشرح وجهة النظر الجزائرية، وكان في الوفد ابن باديس والإبراهيمي بشكل شخصي، واستطاع الوفد بثقل العلماء الحاضرين أن يجبروا النواب الجزائريين على الالتزام بمقررات المؤتمر التي تحافظ على هوية الجزائر الإسلامية ولغتها العربية.

وأصبح نشاط العلماء ضد سياسة الفرنسة ظاهراً ومكشوفاً، وأنهم لن يتنازلوا عن حقوقهم في المواطنة والديمقراطية التي تدعيها فرنسا، وهو تحول مهم في سياسة ابن باديس تجاه فرنسا، وما كان يمكن القيام به لولا تلك الجهود الطويلة، والتي أفرزت قوة على الأرض لا يستهان بها.

ولذلك لجأت الإدارة الفرنسية لضرب جهود ابن باديس والجمعية بعد عودتهم من فرنسا، باتهامهم بقتل مفتي العاصمة ابن مكحول، واعتقال الشيخ الطيب العقبي باعتباره المتهم بذلك، ولم تحاكم الرجل أو تقبض عليه، وتركت الاتهام معلقاً، وذلك حتى تُشَوِّهَ سمعة الرجل وجمعيته، وهو ما دفع به إلى الاستقالة عام (١٩٣٨)، وتم إغلاق نادي (الترقي) لمنع تجمع المصلحين فيه، وحرضت الطرق الصوفية على مهاجمة ابن باديس؛ حتى إنها أطلقت عليه لقب "ابن إبليس"!

ولذلك توجه ابن باديس والجمعية لمقاطعة السلطات الفرنسية والمجالس التابعة لها، والاتصال بالحركات الوطنية الإسلامية في تونس والمغرب.

ومن ثم صدر أمر بمنع تقديم المشروبات في النوادي مجاناً أو بالبيع؛ إلا بإذن خاص من الوالي الفرنسي، بهدف القضاء على تجمعات الإصلاحيين من خلال إفلاس

النوادي والمقاهي التي تجمعهم، وتبعه قرار منع فتح المدارس والتضييق على القائم منها وإغلاقه.

ثم جاءت سنة (١٩٣٨) ونذر الحرب العالمية الثانية، وأرادت فرنسا أن تكسب ولاء الجزائريين لها تمهيداً لإشراكهم في صفوف القتال الفرنسية، فتوجهت للشيخ العقبي والذي يحاكم بتهمة قتل المفتي، وطلبت منه أن تعلن الجمعية تأييدها لفرنسا، وأن براءته رهن بذلك.

وقصدت فرنسا تحقيق عدة غايات من ذلك، إذا صدر التأييد فهذا مكسب كبير لها، وإذا رفض فإن خلافاً قد يقع بين العقبي والجمعية أو بين بعض أفرادها، أو سيختلف قادة الجمعية بين مؤيد ومعارض، وكل ذلك مفيد لفرنسا!!

وقد كانت محاكمة العقبي قضية هامة ومفصلية لكونها محاكمة للجمعية في شخص العقبي، لما له من مكانة حتى أن ابن باديس الذي لم يقطع درسه حين توفي ولده الوحيد وعمره (١٧) سنة، قطع درسه لحضور محاكمة العقبي.

فرفض ابن باديس والجمعية ذلك -وهو ما أزعج العقبي الذي تلاعبت به فرنسا عبر بعض المغرضين، ولم تنتبه الجمعية لضرورة مساندته في ذلك، فاستقال من الجمعية-، وحتى لا تضطر الجمعية لإعلان موقف لا تريده قررت إيقاف صحفها، وكذلك فعل ابن باديس.

وبدأ ابن باديس يفكر بالثورة على فرنسا إذا أعلنت إيطاليا الحرب عليها، وذلك بدلاً من قبول بعض الجزائريين الانخراط في الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية.

وفي خضم هذا الصراع المتصاعد مع فرنسا؛ والذي أصبح صريحاً ومكشوفاً لم

يتوقف ابن باديس عن التفكير في المستقبل وما بعد الاستعمار الفرنسي، فقدم ابن باديس رؤيته لأسس الدستور المرتقب للجزائر المستقلة بعنوان: "أصول الولاية في الإسلام" في مجلته «الشهاب»، عدد (١٩٣٨/١)، وجعلها (١٣) أصلاً، منها:

الأصل الأول: لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل...

الأصل الثاني: الذي يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه، لا خيرها في سلوكه، فإذا كان شخصان اشتركا في الخيرية والكفاءة، وكان أحدهما أرجح في الخيرية، والآخر أرجح في الكفاءة لذلك الأمر؛ قدم الأرجح في الكفاءة على الأرجح في الخيرية...

الأصل الرابع: حق الأمة في مراقبة أولي الأمر، لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم.

الأصل السابع: حق الأمة في مناقشة أولي الأمر، ومحاسبتهم في أعمالهم وحملهم على ما تراه هي، لا ما يرونه هم، فالكلمة الأخيرة لها لا لهم، وهذا كله من مقتضى تسديدهم وتقويمهم عندما تقتنع بأنهم على باطل...

الأصل التاسع: لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها، وما الولاة إلا منفذون لإرادتها، فهي تطيع القانون لأنه قانونها، لا لأن سلطة أخرى لفرد أو لجماعة فرضته عليها كائناً من كان ذلك الفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة...

الأصل الثاني عشر: حفظ التوازن بين طبقات الأمة، فيؤخذ الحق من القوي؛

دون أن يقسو عليه لقوته فيتعدى عليه حتى يضعف وينكسر، ويعطى الضعيف حقه؛ دون أن يذل لضعفه، فيطغى عليه، وينقلب معتدياً على غيره...

ومع تعاظم دور الجمعية في الجزائر ورفض الجمعية وابن باديس الانصياع لرغبات فرنسا في ابتلاع الجزائر، وعدم استسلام ابن باديس والجمعية لليأس والقنوط؛ أصدرت السلطات الفرنسية قراراً بحل الجمعية في سنة (١٩٤٠)، وفرض الإقامة الجبرية على ابن باديس، ونفي البشير الإبراهيمي إلى جنوب الجزائر.

أثر ابن باديس على الجزائر

آثار ابن باديس على الجزائر ضخمة جدّاً، ولعل أبرزها أنه تمكن -بعون الله U- من تربية جيل جزائري كامل، وتكوين أمة تدرك شخصيتها الإسلامية والعربية، وذلك بعد أن حارب الطرقية والخرافة والجهل، وفضح وكشف ألاعيب المحتلين الفرنسيين وأذنابهم.

كما أنه أرسى في الجزائر العمل الدعوي المؤسسي، ودعم الإعلام الهادف وسخّره لمصلحة الجزائر.

وفاته z :

وفي مساء يوم الثلاثاء (٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/ الموافق ١٦ أبريل ١٩٤٠م)، وبعد أشهر معدودة من حلّ الجمعية توفي ابن باديس وهو تحت الإقامة الجبرية، وكان قد بلغ الخمسين من عمره، وكان يعاني z من عدة أمراض مستعصية مما جعل هناك ظنوناً بأنه لم يمت ميتة طبيعية! وقد شيع جنازته خمسون ألفاً من الجزائريين، أو يزيد، جاؤوا من كافة مناطق الجزائر.

وقد دفن z في مقبرة آل باديس بمدينة قسنطينة.

مراجع للتوسع:

o «جهـاد ابـن بـاديس ضـد الاسـتعمار الفـرنسي في الجزائـر (١٩١٣-١٩٤٠)»، عبد الرشيد زروقة، دار الشهاب، بيروت، ط ١، (١٩٩٩).

o «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية»، مـازن مطبقاني، دار القلم، دمشق، ط ١، (١٩٨٨).

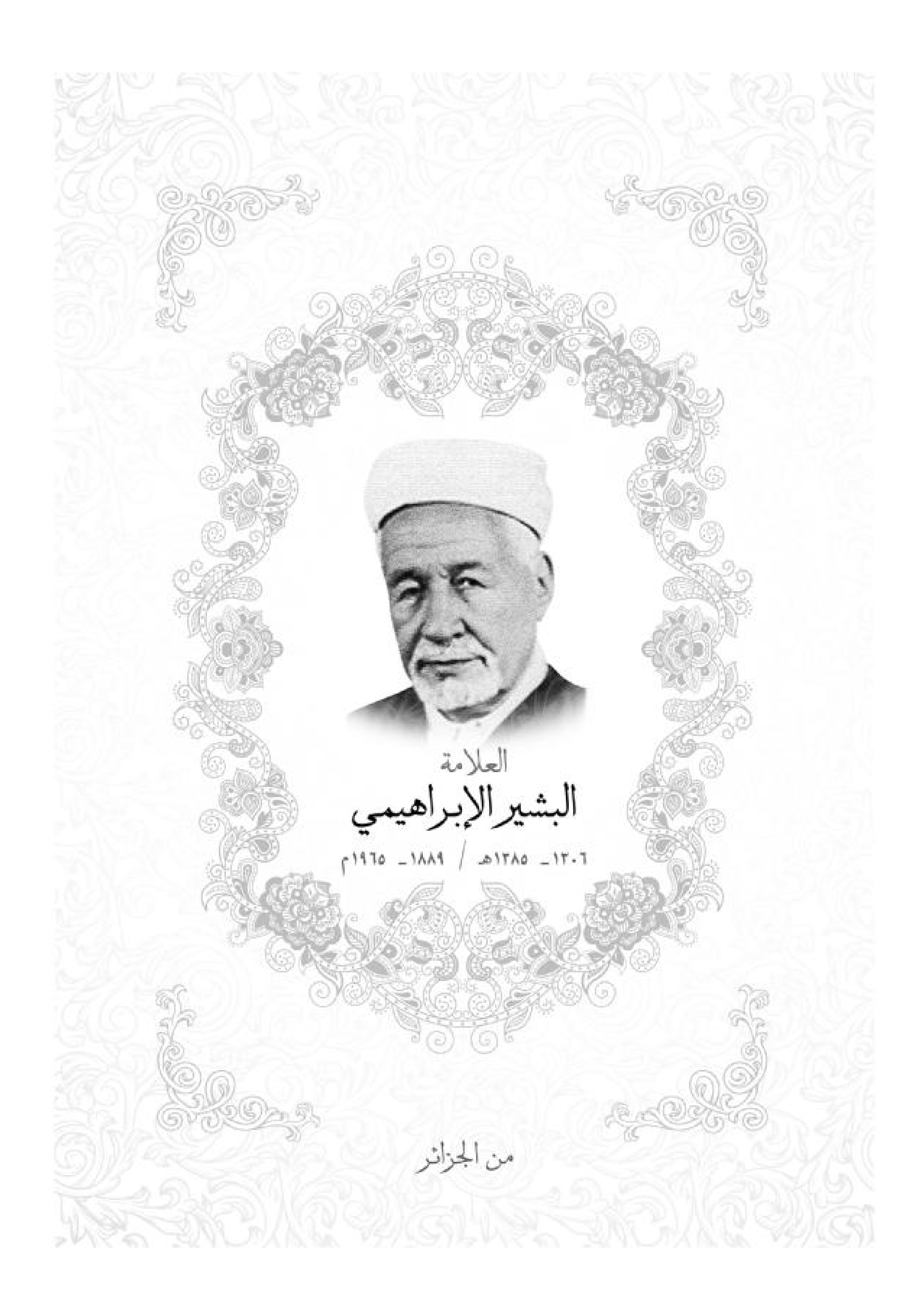
o «ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير»، د.محمد بهي الدين سـالم، دار الشروق، القاهرة، ط ١، (١٩٩٩).

o «عبـد الحميـد بـن بـاديس وآراؤه الفلسـفية بـين النظريـة والتطبيـق (١٨٨٩-١٩٤٠)»، د.عبد الحميد النساج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، (٢٠١٠).

o «نشاط جمعية العلماء الجزائريين في فرنسا (١٩٣٦-١٩٥٦)»، سـعيد بورنـان، دار هومه، الجزائر، (٢٠١١).

o «مقدمة مجلـة الشـهاب»، عبـد الـرحمن شـيبان، دار الغـرب الإسـلامي، بـيروت ط١، (٢٠٠٠).

o «آثار ابن باديس»، عمار الطالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائريـة، الجزائـر، ط ١، (١٩٦٨).


العلامة
البشير الإبراهيمي
١٣٠٦ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ـ ١٩٦٥م
من الجزائر

٥- العلامة محمد البشير الإبراهيمي

(١٣٠٦-١٣٨٥هـ/١٨٨٩-١٩٦٥م)

تمهيد

العلامة محمد البشير الإبراهيمي هو الرجل الثاني في تاريخ الدعوة الإسلامية المعاصرة في الجزائر وجمعية العلماء المسلمين فيها، بعد العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

وقد مرت حياة البشير بعدة محطات، هي: النشأة والهجرة لخارج الجزائر، العودة للجزائر والتعاون مع العلامة ابن باديس، تولي رئاسة جمعية العلماء المسلمين بعد وفاة ابن باديس، مغادرة الجزائر ودعم الثورة الجزائرية، العودة للجزائر بعد الاستقلال.

وللأسف فإن الكتابات المعمقة عن دوره في الثورة الجزائرية ورفضه لانحراف جبهة التحرير عن المبادئ الكبرى وهي: الإسلام والعدل والحرية؛ لم تتوفر بين يديّ، فجاء الكلام فيها مجملاً غير مفصل على أهميته وضرورته في هذه المرحلة من حياة أمتنا؛ والتي تشهد ثورات سلمية على الطغيان والاستبداد الذي تولاه أُناس من جلدتنا عقب زوال الاستعمار.

المحطة الأولى:

ولد محمد البشير الإبراهيمي سنة (١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) بمواطن قبيلة «أولاد إبراهيم» غرب مدينة قسنطينة بالجزائر، في بيت علم ودين.

ويرجع نسبه إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم العربية، وحفظ الكثير من الشعر على يد عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، الذي كان من أبرز علماء الجزائر في زمانه، ومن هنا جاء نبوغ الإبراهيمي في الأدب واللغة.

بعد وفاة عمه خلفه في التدريس الإبراهيمي، وكان بالكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى جاوز عمره عشرين سنة في (١٩١٢).

وكان والده قد غادر الجزائر سنة (١٩٠٨) إلى المدينة المنورة هرباً من ظلم الفرنسيين له، فلحقه محمد البشير سنة (١٩١١)، وفي طريقه للالتحاق بوالده أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر والتقى العلماء وزعماء النهضة الفكرية والأدبية فيها، ومن هؤلاء مشايخ الأزهر: سليم البشري ومحمد بخيت، وحضر عدة دروس في مدرسة الدعوة والإرشاد التي أسسها العلامة محمد رشيد رضا صاحب «المنار»، والشاعران شوقي وحافظ.

ومن ثم واصل سفره عن طريق البحر إلى حيفا، ومنها بالقطار للمدينة المنورة.

في المدينة المنورة لازم الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، وكان يقضي جل وقته في إلقاء الدروس والمطالعة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت وأمثالها.

وهناك في المدينة سنة (١٩١٣) التقى الإبراهيمي بالشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي، وكان قد سبقهما في الهجرة إلى المدينة، فكانوا يلتقون للبحث في شؤون الجزائر وسبل النهوض بها، ومن هذه اللقاءات تأسست جمعية العلماء المسلمين بعد سبعة عشر عاماً -كما مر معنا في ترجمة ابن باديس-.

بعد قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين في سنة (١٩١٧) قامت السلطات العثمانية بترحيل سكان المدينة المنورة إلى دمشق، لعجزها عن توفير الطعام للجيش والسكان، فرحلت أسرة الإبراهيمي فيمن رُحل.

في دمشق تعرف البشير الإبراهيمي على عدد وافر من العلماء على رأسهم: علامة الشام الشيخ بهجة البيطار، وهناك باشر الإبراهيمي بالوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، والتدريس بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، فتخرج على يديه عدد من فطاحل الشام وقادته مثل: د.جميل صليبا، ود. عدنان الأتاسي.

وقد شارك الإبراهيمي في جهود الإصلاح والنهضة من خلال مشاركته في الندوات والمجالس والنوادى التي كانت تسعى إلى توحيد العرب والمسلمين.

ولما دخل الأمير فيصل دمشق طلب من البشير الإبراهيمي أن يعود للمدينة وأن يتولى إدارة المعارف بها، لكنه فضل العودة إلى وطنه الجزائر.

المحطة الثانية:

عاد الإبراهيمي إلى الجزائر في مستهل سنة (١٩٢٠)، وكانت لا تزال تحت الاحتلال الفرنسي الظالم، والذي قام البشير دائماً بالكتابة عن شروره وأخطاره وعدوانه على الجزائريين، ومما قال فيه: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت،...

والاستعمار سلّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير".

وقال -أيضاً-: "جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكن وهذا للتمكين"، وقد قام الاحتلال بـ "استقدام عدد كبير من الرهبان والمعلمين والأطباء، فالراهب ينشر النصرانية ويشكك المسلمين في عقيدتهم، والمعلم يفسد العقول ويبعد الأمة عن لغتها ويشوه التاريخ ويزهد في الدين، والطبيب يداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بجراثيم".

أما فظائع الاحتلال الفرنسي فقد سبق الحديث عنها في ترجمة ابن باديس.

وعقب عودته للجزائر تعاون الإبراهيمي مع ابن باديس في استكمال المشروع الذي بدأه لنشر العلم الديني واللغة العربية؛ بحسب جلساتهما في المدينة المنورة، فبدأ الإبراهيمي بالتعليم في مدينة «سطيف»، وكانت له لقاءات دورية مع ابن باديس لمتابعة أخبار النشاط الإصلاحي وتأثيره على الشعب، يقول الإبراهيمي: "فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث، والمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين".

يقول الإبراهيمي: "كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا بالمدينة المنورة (١٣٣١هـ-١٩١٣م): أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين؛ يمتصان دمه، ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه:

١ - استعمار مادي، هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار.

٢ - واستعمار روحاني، يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب، المتجرون بالدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضىً وطواعية...

فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني".

وهذا كله يدل على أن ابن باديس والإبراهيمي كانا يتصفان بأعلى مهارات التخطيط الاستراتيجي، وكانا يضعان الخطة والخطة البديلة، ولم يكن عملهما ردة فعل بل فعلاً محسوباً ومقدراً، ولذلك يقول: "كانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة، فخيبنا ظنها والحمد لله"، وهذه المنهجية الاستراتيجية المستقبلية ستتضح أكثر بعد رئاسته للجمعية وتوسع نشاطها.

وفي سنة (١٩٢٤) حثه ابن باديس على تأسيس جمعية «الإخاء العلمي»، ورغم أنها كانت محاولة غير ناجحة لكنها أكسبت الإبراهيمي خبرة وضع قانون جمعية العلماء المسلمين بعد عدة سنوات، والتي تأسست في سنة (١٩٣١) كردة فعل على الاحتفال المئوي لاحتلال فرنسا للجزائر، واختير الإبراهيمي نائباً لرئيسها ابن باديس، وأنيطت به مهمة الإشراف على نشاط الجمعية في الغرب الجزائري، فرحل إلى تلمسان -العاصمة العلمية القديمة-، وسكن فيها.

ولذلك تعد هذه المرحلة (١٩٣١-١٩٤٠) من عمر جمعية العلماء الجزائريين مرحلة تأسيس للثورة الجزائرية ضد فرنسا، فرغم أن الجمعية كانت تعلن عدم الاشتغال بالسياسة، إلا أن مطالب وأهداف الجمعية على الحقيقة "هي نصف الاستقلال"؛ بتعبير الإبراهيمي.

في تلمسان سرعان ما نجح الإبراهيمي في إنشاء دار الحديث، والتي ضمت

مسجداً وقاعة للمحاضرات وأقساماً لطلبة العلم، والتي كانت أول مدرسة للجمعية تبنى بالكامل وليست مبنى مستأجراً أو قائماً، وقد شيدت على الطريقة الأندلسية، وحضر حفل افتتاحها (٣٠٠٠) شخص، منهم (٧٠٠) من الضيوف على تلمسان في مقدمتهم ابن باديس.

وكان الإبراهيمي يلقي فيها عشرة دروس في اليوم، وبعد العشاء يقدم محاضرة في أحد النوادي عن التاريخ الإسلامي.. هكذا كان الإبراهيمي يفهم منهج التربية والتعليم!!

ذلك كله والإبراهيمي عرضة لكثير من المضايقات من الفرنسيين، ولذلك كان يتظاهر بالعمل بالتجارة حتى يبعد أنظار الاحتلال عن دروسه وطلابه.

فلما جاءت نذر الحرب العالمية الثانية يقول الإبراهيمي: "اجتمعت بالشيخ ابن باديس في داري بتلمسان، فقررنا ماذا نصنع إذا قامت الحرب، وقررنا من يخلفنا إذا قبض علينا، وقلبنا وجوه الرأي في الاحتمالات كلها، وقدرنا لكل حالة حكمها، وكتبنا بكل ما اتفقنا عليه نسختين".

وفعلاً فما نشبت الحرب سنة (١٩٤٠) إلا وصدر القرار بالإقامة الجبرية على ابن باديس، ونفي الإبراهيمي إلى الصحراء الجنوبية بقرية آفلو، لأنه رفض أن يلقي أحاديث في الإذاعة لتأييد فرنسا في الحرب، وكان ابن باديس والإبراهيمي قد استبقا الأحداث بتعطيل جرائد الجمعية وجريدة «الشهاب» الخاصة بابن باديس؛ حتى لا يتعرضا للضغط بتأييد فرنسا، فكان القرار "لتعطيل خير من نشر الأباطيل" في سنة (١٩٣٩).

وقد كتب ابن باديس للإبراهيمي حين علم بنفيه رسالة قال فيها:

"الأخ الكريم الأستاذ البشير الإبراهيمي -سلمه الله-.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد..

فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل، فأقول لكم: "الآن يا عمر"[1].

فقد صنت العلم والدين، صانك الله وحفظك وتَرِكَتَك، وعظَّمتها عظَّم الله قدرك في الدنيا والآخرة، وأعززتهما أعزك الله أمام التاريخ الصادق، وبيضت محُيَّاهما بيض الله محياك يوم لقائه، وثبتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتك، والله المستعان.

والسلام من أخيك عبد الحميد بن باديس".

وبعد أسبوع من نفيه توفي ابن باديس، فانتخبه إخوانه في الجمعية رئيساً للجمعية في غيبته، لأنهم يعلمون مكانته ومنزلته، كما سبق أن انتخبوا ابن باديس رئيساً للجمعية عند تأسيسها في غيبته ودون علمه، فتولى إدارة الجمعية بالمراسلة من منفاه لثلاث سنوات حتى أفرج عنه سنة (١٩٤٣).

وقد كتب الشيخ العربي التبسي باسم إدارة الجمعية برقية تعزية للإبراهيمي بابن باديس وتنصيبه رئيساً للجمعية قال فيها: "... وإن إخوانك أعضاء الإدارة المجتمعين هنا بقسنطينة قد أسندوا إليكم رئاسة الجمعية، كما أحلوك محل أخيك الراحل في إدارة

---

(١) يقصد: قول عمر الذي رواه «المصنف» في (الأيمان والنذور): أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لا والذي نفسي بيده! حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**».

الجمعية بقسنطينة، وبتولي الإشراف على ما هو للجمعية، وما أمكنها أن تتوصل إليه، على معنى أنك تحل محله في كل الأعمال العلمية والإدارية التي كان هو متوليها..".

وهذا يدل على مقدار مكانته عند أعضاء الجمعية، ومقدار إخلاص وتفاني بقية الأعضاء واحترامهم لرموزهم وقادتهم.

وفي ذلك المنفى لم ينقطع عن العلم والتعليم بقدر ما سمح له من لقاءات ومراسلات، وقد أنتج فيها بعض الأعمال العلمية والتي لم تنشر مثل: «رواية الثلاثة» وهي مسرحية شعرية في (٨٨١) بيتاً، وملحمة شعرية على وزن الرجز في (٣٦ ألف) بيت، ورسالة «الضب».

المحطة الثالثة:

بعد إطلاق سراحه في أوائل سنة (١٩٤٣) وضع تحت المراقبة الإدارية حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، فانتقل الإبراهيمي إلى العاصمة الجزائر ليتولى إدارة الجمعية مباشرة، ورعاية مدارسها الحرة، ومساجدها الحرة التي لا تتبع للاحتلال، والنوادي والصحف.

فعمل على تنشيط إنشاء مدارس للجمعية جديدة، فأنشأ بدعم من الشعب في سنة واحدة (٧٣) مدرسة بتصميم موحد، في رسالة "للأجيال أنها نتاج فكرة واحدة"، وتواصلت المسيرة حتى بلغ عدد المدارس التابعة للجمعية (٤٠٠) مدرسة فيها مئات الآلاف من الطلبة بنين وبنات، ويعلّم فيها أكثر من ألف ومئتي معلم، حتى بلغت ميزانية مدارس الجمعية لوحدها في سنة (١٩٥٢): مئة مليون فرنك فرنسي.

ولم يمض على رجوعه من المنفي بضعة سنوات حتى سيق الإبراهيمي للسجن

مرة أخرى، ضمن (٧٠ ألف) جزائري أغلبهم من أتباع الجمعية؛ فضلاً عن (٦٠ ألف) قتيل جزائري، قتلتهم فرنسا في ثورة مدبرة لعقاب الشعب الجزائري سنة (١٩٤٥م)، وبقي في السجن قرابة السنة، لقي فيها أهوالاً ومتاعب شديدة، ونقل للمستشفى عدة مرات خلالها.

وخرج من السجن بعزيمة قوية فأعاد المدارس والاجتماعات والمجلات التابعة للجمعية، وفرعها في باريس، فتولى إدارة مجلة «البصائر» مع إدارته للجمعية، وكان على طريقة رشيد رضا في مجلة «المنار»، فيقوم بكل أعمال المجلة من كتابة ومراجعة، رغم سفراته المتعددة في داخل الجزائر لمتابعة فروع الجمعية ومدارسها؛ حتى كان يمر عليه عدة ليالٍ لا ينام فيها!!

وقام بتأسيس (لجنة التعليم العليا) لوضع برنامج التعليم ومتابعة تطبيقه في مدارس الجمعية، فكان نتاج هذه الجهود العظيمة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين: أن أصبح هناك عشرات الآلاف من الطلبة الذين أنهوا المرحلة الابتدائية، ويطلبون الزيادة في العلم، ولذلك خطت جمعية العلماء في سنة (١٩٤٨م) خطوة رائدة في مجال التربية والتعليم بافتتاح «معهد عبد الحميد بن باديس» للتعليم الثانوي في قسنطينة، وذلك اعترافاً بفضل ابن باديس، وكان الطلاب قبل ذلك يوفدون إلى «الزيتونة» بتونس و«القرويين» بفاس، وكانت أولى البعثات العلمية الجزائرية إلى الجامعات في المشرق العربي من خريجي معهد ابن باديس.

وبلغ عدد طلاب المعهد في السنة الأولى أكثر من ألف طالب، من مختلف مناطق الجزائر، وكان يتبع المعهد سكن يستوعب (٧٠٠) طالب، وهو مجهز بالكامل من أسرة، ودواليب، ومطابخ، ومرافق صحية.

وقد تنبه الإبراهيمي لضرورة حماية هذا المعهد من عدوان الاحتلال الفرنسي، فطلب من شيخ جامع الزيتونة الطاهر بن عاشور أن يكون معهد ابن باديس تابعاً لجامع الزيتونة، فوافق وكتب لهم خطاباً رسميّاً بذلك.

والذي تولى التنسيق مع شيخ الزيتونة هي جمعية الطلبة الجزائريين بالزيتونة، والذين هم مبتعثون من جمعية العلماء الجزائريين، وهذا جانب آخر من نشاطات الجمعية واهتمامات الإبراهيمي، والذي كان يرسل الطلبة لإكمال دراستهم ويتابعهم ويحثهم على تكوين هيئات ومؤسسات لهم تحفظهم وتقويهم.

وأيضاً تابع الإبراهيمي مراكز الجمعية وفروعها بفرنسا، والتي كانت أول مراكز إسلامية في أوروبا، والتي تعطلت بسبب الحرب العالمية، فأوفدت الجمعية سنة (١٩٤٧) مراقبها العام الشيخ سعيد صالحي إلى فرنسا "ليدرس الأحوال ويمهد الأمور"، وسرعان ما عاد النشاط وتوسع، ولم يقتصر على العمال الجزائريين بل شمل حتى طلبة الكليات بفرنسا من أبناء الجزائر.

واهتمام الإبراهيمي بالجزائر لم يصرفه عن متابعة قضايا المسلمين، ولذلك نجده في سنة (١٩٤٨م) عضواً في جمعية إعانة فلسطين مع قادة الجزائر، فجمعت التبرعات وأوفدت حوالي (١٠٠) مجاهد إلى فلسطين، والعديد من البرقيات لنصرة فلسطين للجهات الدولية والعربية، وقام الإبراهيمي بكتابة الكثير من المقالات في القضية الفلسطينية.

ولم تتوقف مكائد الإدارة الفرنسية ضد الجمعية، مما استدعى سفر الإبراهيمي لفرنسا سنة (١٩٥٠) لبحث قضيتين، قضية رفع يد الحكومة الفرنسية عن القضايا

الدينية الإسلامية وحرية التعليم العربي للجزائريين، لأن فرنسا ترفع راية العلمانية، ومع ذلك فالصلاة والحج والإفتاء والوقف كله يخضع لفرنسا!!

ولبحث قضية حق الجزائريين في فرنسا بتعلم دينهم ولغتهم في فروع الجمعية بفرنسا، والتي سبق أن تأسست في عهد ابن باديس سنة (١٩٣٦) حين زار فرنسا بصحبة الإبراهيمي، وكانت له لقاءات بالجالية الجزائرية ومحاضرات.

وقد زار الإبراهيمي فرنسا مرة ثانية سنة (١٩٥٢) لحضور اجتماع الدورة السادسة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، واللقاء بالوفود المشاركة، ولذلك استضاف الوفود العربية، وشرح لهم مأساة الجزائر على مأدبة عشاء في فرع الجمعية بباريس.

ومن عناية الإبراهيمي بفرع الجمعية بباريس: أنه رشح الشيخ الربيع بوشامة للسفر لباريس وتولي العمل هناك قبل سفره للمشرق، لأن الربيع سبق له العمل في فرع باريس من قبل، ولأهمية دور مكتب باريس.

ولأن الإبراهيمي رجل استراتيجي من الطراز الرفيع فقد تنبه لضرورة البحث عن مستقبل جهود جمعية العلماء الجزائريين، كي يحافظ على مئات المدارس الموجودة والتي تضم آلاف الطلبة والذين يحتاجون إلى نفقات كبيرة لا يمكن للجزائريين وحدهم توفيرها، كما أن الطلبة الذين لم تشملهم مدارس الجميعة هم أضعاف مضاعفة، وكان الإبراهيمي يعرف أن الاحتلال ينتظر اللحظة التي تصل فيها الجمعية لمرحلة العجز المالي فيتوقف عملها دون تدخل منه، وبذلك ينهار المشروع الإصلاحي كاملا وتعود الجزائر لمرحلة الضياع.

وقد قدر الإبراهيمي ورفاقه حاجة الجزائر في السنوات الخمس القادمة إلى (١٥٠) مدرسة ابتدائية على الأقل في كل سنة، ليصل المجموع إلى ألف مدرسة، وثلاثة معاهد ثانوية للذكور ومعهدين، ومعهدين كبيرين للمعلمين ومعهد للمعلمات، أما رجال التعليم العالي فهذه تتكفل بها البعثات.

وتدارس الإبراهيمي ورفاقه في الجمعية، وتوصلوا لضرورة طلب العون من الحكومات العربية بالدعم المالي، وتقديم المنح للطلبة في بلدانهم، فتقرر سفر الإبراهيمي للمشرق العربي للتعريف بالجزائر ومشكلتها والبحث عن يد العون، فغادر سنة (١٩٥٢)، ومكث ثلاث سنوات في هذا المسعي زار فيها مصر والسعودية والكويت والعراق والأردن، وكانت سمعة الرجل قد سبقته، فكان -حيثما حلّ- مثار الإعجاب والاعتزاز، ومحل الترحيب والإكرام.

وكانت الحصيلة: بضعة عشر ألف جنيه مصري؛ لا تبني مدرسة واحدة، ومائة منحة للطلبة الجزائريين؛ لا تكفيهم منحهم مصاريف الحياة، فالإبراهيمي ينفق عليهم آلاف الجنيهات كل سنة!!

وخلال سفرته هذه قامت الثورة الجزائرية، ولم يستطع الإبراهيمي العودة للجزائر، فاستقر بالقاهرة مشرفاً على مكتب «جمعية العلماء»، ساهراً على البعثات العلمية الجزائرية إلى عواصم العالم العربي، وكان منزله بمصر الجديدة ملتقى العلماء والأدباء وقبلة طلبة العلم وأبناء الثورة الجزائرية وقادتها.

وكان الإبراهيمي موضع إجلال واحترام لسعة علمه وجهاده الكبير، فتوسط حين وقع الخلاف سنة (١٩٥٤) بين الإخوان المسلمين وجمال عبد الناصر، لكن لم تنجح محاولته؛ وبدأت مرحلة جديدة.

المحطة الرابعة:

مع قيام الثورة ضد فرنسا بالجزائر في (١/١١/١٩٥٤) أصبحت مهمة الإبراهيمي الكبرى: دعم الثورة، والتحريض على نصرتها، فكان أول قائد جزائري يحتضن الثورة ويؤيدها، مما كان بمثابة الفتوى الشرعية بالنفير العام والجهاد بالمال والنفس والولد، وكان في طليعة من وقع على ميثاق جبهة تحرير الجزائر، لأن الإبراهيمي كان يعتقد أن الثورة هي النتيجة الطبيعية لجهود جمعية العلماء طيلة ثلاثين سنة؛ بتعليم الشباب وبث المعرفة بينهم.

إن مكانة الإبراهيمي في الثورة الجزائرية لا يمكن وصفها إلا بأنه «روح الثورة».

ولقد شهد رئيس الوفد العراقي في الأمم المتحدة د. فاضل الجمالي أن الإبراهيمي قال في كلمة له بمناسبة استقلال ليبيا في عام (١٩٥١): «إنّ الجزائر ستقوم قريباً بما يدهشكم من تضحيات وبطولات في سبيل نيل استقلالها، وإبراز شخصيتها العربية الإسلامية»، وذلك أنه كان يتلمس الانفجار الشعبي في أية لحظة.

وشارك الإبراهيمي في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، والذي يضم تونس والمغرب والجزائر؛ للتحرر من قبضة فرنسا، وافتتاح إذاعة صوت الجزائر من الإذاعة المصرية، وقد كان أول صوت يصدر من هذه الإذاعة هو: صوت البشير الإبراهيمي، منادياً الثوار: "لا نسمع عنكم أنكم تراجعتم، أو تخاذلتم".

وأصبح الإبراهيمي لسان الثورة في المقابلات الصحفية والإذاعة المصرية والمنتديات والدول التي زارها، داعياً لدعم الثورة، فالتقى بالملوك والرؤساء العرب والشعوب والعلماء والمفكرين، وحين زار باكستان لهذا الغرض أصيب بحادث سيارة

وكسر عموده الفقري وألزمه الفراش شهوراً، فطلب أن لا ينشر خبر إصابته، فتشمت فرنسا بالثورة الجزائرية.

ولدور الجمعية المحوري والهام في الثورة الجزائرية فقد كان أفراد الجمعية هم نواة جيش التحرير الجزائري، وقد أعلنت الجمعية بياناً رسميّاً عن دعمها للثورة في مجلتها «البصائر» في عدد (٧/١/١٩٥٦)، فقام الاحتلال الفرنسي بحل الجمعية وسحب ترخيصها سنة (١٩٥٦م).

وقد شارك فرع فرنسا بدعم الثورة من خلال تنظيم الجالية المتواجدة في فرنسا وتأطيرها لصالح الثورة.

وبقي الإبراهيمي في مصر حتى تحقق الاستقلال، وعاد للجزائر سنة (١٩٦٢)، وطيلة تلك الفترة بقي الإبراهيمي شعلة حماس للإسلام والعروبة والجزائر، وشارك مع عدد من العلماء والمفكرين بعقد ندوة أسبوعية فكرية وثقافية بعنوان: "ندوة الأصفياء"، وتم تكريمه بمنحه عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٩٦١م)، بعد أن كان عضواً مراسلاً منذ سنة (١٩٥٤)، وسبق ذلك أن كان عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق منذ سنة (١٩٤٥).

أما العناوين الكبرى التي عمل الإبراهيمي للدفاع عنها فهي: الدين، اللغة، الوطن، واصطدم من أجل ذلك بالاحتلال والطرق الصوفية المتعاونة معه، والمنبهرين بالغرب من المتفرنسين وغيرهم.

المحطة الخامسة:

عاد الإبراهيمي إلى بلده الجزائر بعد انتصار الثورة الجزائرية وإعلان الاستقلال،

وألقى خطبة أول جمعة تقام في جامع «كتشاوة» في العاصمة، وهو المسجد الذي حوله الاحتلال الفرنسي إلى كاتدرائية ضمن سياسته بحرب الإسلام وتنصير الجزائر؛ حيث داهمت الجيوش الفرنسية الجامع يوم جمعة وهو غاص بالمصلين، فاحتلته وحوّلته إلى كاتدرائية، فكانت خطبته بمثابة إنهاء للمشروع الفرنسي بتنصير الجزائر، ولكن بقي الصراع على هوية الجزائر ومكان الإسلام فيها بين الجمعية وقادة جبهة التحرير.

وللأسف فإن المعلومات عن الخلاف بين الإبراهيمي والجمعية من جهة، وقادة جبهة التحرير من جهة أخرى ليست متوفرة وواضحة.

فعقب انتصار الثورة الجزائرية وقعت في صفوفها خلافات واسعة، لم يحسمها إلا انحياز هواري بومدين -رئيس قيادة الأركان- لأحمد بن بلة، وتنصيبه رئيساً للجزائر، ومن هنا حصلت القطيعة مع الإبراهيمي والجمعية بسبب هوس بن بلة بالفكر الاشتراكي اليساري، فحصلت القطيعة عندما اتهم الابراهيمي أحمد بن بلّة بتغييب الإسلام عن معادلات القرار الجزائري، وذكّر بن بلة بدور الإسلام في تحرير الجزائر والجزائريين من ربقة الاستعمار الفرنسي، وبسبب هذا التصادم وضع الإبراهيمي تحت الإقامة الجبرية، وقطع عنه الراتب الشهري، وبقي كذلك بدون راتب وتحت الإقامة الجبرية إلى وفاته.

فلازم الإبراهيمي بيته، لكن الوفود لم تنقطع عن زيارته، ومع ذلك فقد كتب الإبراهيمي رسالة لقادة الجزائر في سنة (١٩٦٤) بسبب تفاقم الخلافات فيما بينهم، وبسبب الانحراف عن منهج الإسلام الذي عمل في سبيله طيلة عمره، فكتب إليهم يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، ويومئذ كنت أستطيع أن أواجه المنيّة مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق والنهوض باللغة -ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله- إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن، ولذلك قررت أن ألتزم الصمت.

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس Z أنّه يجب عليّ أن أقطع الصمت.

إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة، ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل، ولكنّ المسؤولين فيما يبدو لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تبعث من صميم جذورنا العربية والإسلامية لا من مذاهب أجنبيّة.

لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة، وألّا يقيموا وزناً إلّا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم.

وقد آن أن يرجع إلى كلمة الأخوة التي أبتذلت -معناها الحق-، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبيّ ﷺ.

وقد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيّدوا جميعاً مدينة تسودها العدالة والحرية، مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان.." إ. هـ

وفاته:

وفي يوم الجمعة من (٢٠ محرّم سنة ١٣٨٥ هجرية / الموافق لـ ٢١ مايو-أيّار سنة ١٩٦٥) توفي الإبراهيمي، عن ستة وسبعين سنة في الجزائر، ودفن في مقبرة «سيدي أمحمد» في جنازة مشهودة.

آثاره:

للإبراهيمي خمسة عشر مؤلفاً في اللغة والأدب والدين، ذكرها في ترجمته لنفسه، وفي حفل عضويته بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولكن أكثرها فُقد.

وقد جمع هو وبعض أحبابه تراثه في أربعة مجلدات، منها: كتاب «عيون البصائر»، وهو ما جمعه الإبراهيمي من مقالاته الافتتاحية بجريدة «البصائر».

بعض من كلماته:

¤ كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟

فلو أنهم اتبعوا القرآن وأقاموا القرآن لما سخر منهم الزمان، وأنزلهم منزلة الضعة والهوان.

ولكن الأولين آمنوا فأمنوا واتبعوا فارتفعوا، ونحن فقد آمنا إيماناً معلولاً، واتبعنا اتباعاً مدخولاً، وكل يجني عواقب ما زرع!

¤ تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الأمة وآخرها، وإنه لفرق هائل!

فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل.

وإننا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه، ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات. { فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ

أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف:١٥٧].

¤ أسوأ ما وقع فيه دعاة الثقافة الغربية من عيوب هو: الجهل المطبق بحقائق الإسلام، وأن أسوأ ما وقع فيه أنصار الثقافة الإسلامية هو: الجهل المطبق بمشاكل العصر ومستلزماته.

¤ إن الأوطان تجمع الأبدان، وإن اللغات تجمع الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرّفها هو: الدين، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة، ولكن التمسوها في الدين والتمسوها من القرآن تجدوا الأفق أوسع.

¤ إذا كان الإسلام ديناً وسياسةً، فجمعية العلماء دينية وسياسية، قضية مقنعة لا تحتاج لسؤال وجواب.

وجمعية العلماء ترى أن العالِم الديني إذا لم يكن عالماً بالسياسة ولا عاملاً بها فليس بعالم، وإذا تخلى العالم الديني عن السياسة فمن يصرفها و يديرها؟!

¤ وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟

كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم "غول السياسة"، وتفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات، وكم أضاعت هذه الترهات على الغافلين من فرص؟

¤ إنَّنا نجتمع مع الوهابيين في الطريق الجامعة من سنة رسول الله ﷺ، ونُنكر عليهم غلوَّهم في الحقِّ، كما أنكرنا عليكم غلوَّكم في الباطل، فقعوا أو طيروا، فما ذلك بضائرنا، وما هو بنافعكم.

مراجع للتوسع:

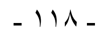
o «في قلب المعركة»، محمد البشير الإبراهيمي، شركة دار الأمة، الجزائر، ط١، (٢٠٠٧).

o «الإبراهيمي ونضال الكلمة»، د. محمد زرمان، دار الأعلام، الأردن، ط ١، (٢٠١٠).

o «الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه»، شركة دار الأمة، الجزائر، ط٢، (٢٠٠٧).

o «البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه»، محمد مهداوي، دار الفكر، سورية، ط١، (١٩٨٨).

o «من سير الخالدين بأقلامهم»، حسن سويدان، دار القادري، سورية، ط١، (١٩٩٨).




العلامة
الطيب العقبي
١٣٠٧ - ١٣٨١هـ/ ١٨٩٠ - ١٩٦١م
من الجزائر

٦- العلاّمة الطيب العقبي

(١٣٠٧-١٣٩١هـ/١٨٩٠-١٩٦١م)

تمهيد

الشيخ الطيب العقبي من أركان الإصلاح في الجزائر، ومن أعمدة جمعية العلماء المسلمين فيها، كان صاحب مواقف قوية ضد الشرك والبدع والخرافات؛ حتى كان الطرقيون والمبتدعة يطلقون على دعاة التوحيد لقب: "عقبي"!!

مولد العقبي ونشأته:

هو: الطيب بن محمد بن إبراهيم، ولد في شهر شوال سنة (١٣٠٧هـ/ الموافق لـ ١٨٩٠م) في الجزائر بضواحي بلدة «سيدي عقبة» التي ينسب إليها.

هاجرت أسرته إلى الحجاز للحج سنة (١٣١٣هـ) وكان صغيراً، ثم في السنة التالية سكنت عائلته المدينة النبوية في أول سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٥م)، هرباً من حملات الفرنسيين بتجنيد الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي، ولا يزال بعض أقاربه في السعودية لليوم، ويحملون جنسيتها.

وفي المدينة المنورة قبر أبويه وعمه وعم والده وأخته، وجلّ من هاجر من أفراد عائلته، كلهم دفنوا هناك ببقيع الغرقد -رحمة الله عليهم-.

وقد توفي والده والعقبي في سن الثالثة عشر، وبعد وفاة والده أصبح يتيماً، فتربى في حجر أمه، وقد سخر الله له شقيقه الأصغر حيث كان هو من يقوم بقضاء ما يلزم

من الضروريات المنزلية فتفرغ للعلم.

فقرأ القرآن على أساتذة مصريين برواية (حفص)، ثم شرع بحضور دروس بعض العلماء بالحرم النبوي، مثل: الشيخ محمد بن عبد الله زيدان الشنقيطي؛ الذي أخذ عنه الأدب والسيرة، والشيخ حمدان الونيسي؛ والذي كان من أبرز العلماء السلفيين في الجزائر، وكان مربي ابن باديس.

ثم هاجر للمدينة المنورة، وقد قابله ابن باديس في المدينة حين قدم للحج، وفي المدينة المنورة كان أول لقاء للعقبي مع ابن باديس والبشير الإبراهيمي، وكان لتأثرهم بالشيخ حمدان الونيسي أن اجتمعت أفكارهم ونشاطهم السلفي على الإصلاح.

وقد نبغ العقبي في العلم برغم عدم انتظام دراسته في معاهد علمية، وتميز في نظم الشعر والأدب، ثم عمل العقبي بالتدريس، وبدأ مسيرته الإصلاحية بالكتابة في الصحف الحجازية، داعياً للإصلاح والعمل، فلقيت مقالاته قبولاً عند المسلمين، وفتحت له صداقة ومراسلة مع بعض المصلحين المعروفين كشكيب أرسلان ومحبّ الدين الخطيب.

وأصبح من أنصار ودعاة فكرة الجامعة الإسلامية ضد أنصار الاستعمار والقوميات الضيقة؛ كحزب الاتحاد والترقي، وبذلك ترسخ منهجه السلفي الإصلاحي، وانتشر صيته ودوره بين المصلحين والنهضويين.

ولهذا قام ساسة ورجال حزب تركيا الفتاة بنفيه إلى شبه الجزيرة التركية أكثر من سنتين، عقب ثورة الشريف حسين بسبب مقالاته في الصحف ولعدم تعاونه معهم، وقد لحقت به عائلته بعد خراب المدينة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد إلى مكة

المكرمة، فأكرمه الشريف حسين، وتولى رئاسة تحرير جريدة «القبلة» وإدارة «المطبعة الأميرية» في مكة، خلفاً للعلامة محب الدين الخطيب.

وفي مكة زاد اطلاعه على الدعوة السلفية في نجد (دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب)، حتى لقب في الجزائر بالوهابي؛ بسبب نشاطه الكبير في الدعوة للعقيدة السلفية ونبذ الشرك.

ومن الطريف أن العقبي يشابه الإمام ابن عبد الوهاب من حيث أنه حين عاد لبلده عاد سلفيّاً يحمل الدعوة للتوحيد ونبذ الشرك فعاداه قومه، وانظر للعقبي يلخص دعوته ومنهجه في أبيات شعرية فيقول:

ماتت السنة في هذي البلاد ... قبر العلم وساد الجهل ساد

أيها السائل عن معتقدي ... يبتغي مني ما يحوي الفؤاد

إنني لست ببدعي ولا ... خارجي دأبه طول العناد

منهجي شرع النبي المصطفى ... واعتقادي سلفي ذو سداد

لم أطُف قط بقبر لا ولا ... أرتجي ما كان من نوع الجماد

لا أنادي صاحب القبر أغث ... أنت قطب أنت غوث وسناد

لا أسوق الهدي قرباناً له ... زردة يدعونها أهل البلاد

ويقول:

مذهبي شرع النبي المصطفى ... واعتقادي سلفي ذو سدادْ

خطتي علمٌ وفكرٌ ونظرْ في ... شؤون الكون بحثٌ واجتهادْ

وطريق الحق عندي واحدٌ ... مشربي مشربُ قربٍ لا ابتعادْ

رجوعه إلى الجزائر:

رجع الشيخ العقبي إلى الجزائر في (٣/١٩٢٠م) بهدف حماية أملاك العائلة من اعتداء البعض عليها، وبسبب اضطراب الأوضاع في الحجاز بين الشريف حسين والملك عبد العزيز بن سعود، فعاد للجزائر بنية حماية أملاكهم المعتدى عليها، ثم الرجوع إلى الحجاز.

لكن لم يكتب له العودة للحجاز وبقي في الجزائر، وقد جوبه العقبي بمعاملة فظة من الاستعمار الفرنسي؛ إذ عاملوه معاملة مهينة، واستقبلوه باعتقال لنحو شهرين، واستجواب وتفتيش ووضع تحت المراقبة!

ثم اصطدام بالجهلة والمزيفين من أهل العلم، فأثرت على نفسيته، فانزوى وانقطع عن العلم والكتابة في الصحف، وحين كتب بعد عدة سنوات بعض الآراء والأفكار في مسائل تخص العلم والدين ثارت ثائرة الجامدين ضده.

وقد عاد العقبي للجزائر بشخصية حجازية في ملبسه ومنطقه وفكره، وبقي يحنّ للحجاز والعودة إليهم، وقد وصف الشيخ ابن باديس حنين العقبي للحجاز أثناء سفرهم إلى باريس ضمن وفد المؤتمر الإسلامي، في سنة (١٩٣٦م) وهم على متن السفينة التي تقلّهم قائلاً: "فلما ترنحت السفينة على الأمواج وهبّ النسيم العليل؛ هب العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره، ويطربنا بنغمته الحجازية مرة والنجدية أخرى، ويرتجل البيتين والثلاثة، وهاج بالرجل الشوق إلى الحجاز، فلو ملك قيادة الباخرة لما سار بها إلا إلى جدة.

وإن رجلاً يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها لرجل ضحّى في سبيل الجزائر أي تضحية".

ومن شعر العقبي في الحجاز قوله:

سلام على أرض الحجاز سلام ... ولست على حبي الحجاز أُلام

سلام على آل وصحب عهدتهم ... وإن بعدت منهم عليك خيام

بداية نشاطه الدعوي:

أقام بمنطقة بسكرة حين رجع إلى الجزائر، وكانت دروسه العلمية والوعظية لطلبة العلم والعامة في مسجد «بكار»، والذي لم يكن يخضع للطريقة التيجانية، فكان يدرّس كتاب «الجوهر المكنون» وكتاب «القطر في النحو»، ودرس في التفسير للعامة من تفسير «المنار»، وكان يعقد مجالس أدبية يحضرها أدباء ومثقفون أمثال: الأمين العمودي، ومحمد العيد آل خليفة.

وبسبب هذا النشاط سرعان ما قامت السلطة الفرنسية باعتقاله قرابة شهر، ثم أفرج عنه، فعاد أقوى مما كان في الدعوة للتوحيد والأخلاق الفاضلة، وحرب الطرقية والخرافات، في المساجد والصحف التي يشرف عليها العلامة ابن باديس -«المنتقد والشهاب»-، وكانت مقالاته من المقالات الهامة فيها، فتجمع حوله مجموعة من الأدباء والمصلحين، وتحالف ضده الطرقيون الخرافيون والجامدون.

وقد سعى الطرقيون إلى الطلب من والد ابن باديس أن يوقف هذه المقالات، فاستجاب ابن باديس لهم ونشر بياناً بعنوان «في سبيل الوفاق»، يطلب من العقبي وبقية كتّاب «المنتقد والشهاب» الكتابة في مواضيع أخرى، جاء فيه: "بما أنّ هذا الموضوع قد أخذ حظّه من البحث والنّقاش فإنّ الجريدة تعتذر لقرّائها عن اضطرارها لإغلاق هذا الباب،...

وعلى كتّابها الأكارم أن يواصلوا مراسلاتهم في غير هذا الموضوع، فالمواضيع

واسعة وخدمة المجتمع فيها أجدى وأنفع..."، فرفض العقبي ذلك، واعتبر الطلب مهادنة للطرقيين وتوقف عن الكتابة، فما كان من ابن باديس إلا أن ذهب إليه في بسكرة وقابله للعودة للكتابة، فكانت النتيجة أن تراجع ابن باديس عن توقيف المقالات ومعاودة الكتابة ضد مفاسد ودجل الطرقيين.

يرى بعض الباحثين أن اختلاف البيئة التي نشأ فيها كل من العقبي وابن باديس هو سبب تنوع طرائقهم في الدعوة والإصلاح، فالعقبي نشأ في بيئة حجازية لم تكن بمستوى مظاهر الكهنوتية الشركية التي ابتدعتها الطرق الصوفية في الجزائر، تضلل الناس بها وتبتز أموالهم، وتسوقهم سوق الأنعام في صور مجموعات بشرية ساذجة، والأكثر من ذلك أنها تجعلهم يستطيبون العيش تحت حذاء الأجنبي الكافر!

بينما كان ابن باديس -ابن مدينة قسنطينة- أكثر اطلاعاً ومعرفة بعقلية الجزائريين، ولذلك كان العقبي يتخذ طابع الصراحة التامة وترك المجاملة مع المعارضين؛ خصوصاً في الأمور الدينية، في حين كان ابن باديس يتبع اللين والمرحلية مع المعارضين، وقد جعل أولويته: نشر التعليم والتربية للناشئة، وتهيئتها لخوض غمار المستقبل، بينما كان همّ العقبي: نشر الإصلاح وتعميقه وتعميمه على الجميع، فكان السلاح الأول خفيّاً بطيء التأثير، وكان السلاح الثاني ظاهراً سريع التأثير.

وبسبب هذه الحادثة سعى العقبي لتأسيس مجلة له ولإخوانه في بسكرة، فظهرت جريدة «صدى الصحراء» في (ديسمبر ١٩٢٥م)، ثم انفرد بتأسيس جريدة «الإصلاح» وذلك في (٨ سبتمبر ١٩٢٧م)، وقد صدر من هذه الأخيرة (١٤) عدداً، ثم أوقفتها السلطة الفرنسية وذلك في سنة (١٩٢٨م).

وحين أسس «الإصلاح» اعتذرت المطبعة الإسلامية بقسنطينة عن طباعتها فطبعها في تونس، ولذلك عزم على تأسيس مطبعة، وفعلاً تم تأسيس «المطبعة العلميّة» مع مجموعة من زملائه، ولكن هذا استغرق منهم ثلاث سنوات، ولذلك صدر العدد الثاني في السنة الثالثة من عمر المجلة.

وهذا يدلنا على الإرادة والإصرار اللذين كان يتحلى بهما العقبي، ومنهجه القائم على البحث عن الحلول، وعدم البقاء في مربع المشاكل والعوائق.

وهذا الاهتمام من العقبي بالصحف كان بسبب رؤية عميقة لدور الإعلام في نهضة الأمة، يقول العقبي في جريدة «المنتقد»، العدد (٥): "إن الجرائد في الأعصر الأخيرة هي مبدأ نهضة الشعوب، والعامل القوي في رقيّها، والحبل المتين في اتصال أفرادها، والسبب الأول في تقدمها.

والصحافة هي المدرسة السيارة والواعظ البليغ، وهي الخطيب المصقع والنذير العريان لذوي الكسل والبطالة، وهي سلاح الضعيف ضد القوي، ونصرة من لا ناصر له، وهي تأخذ الحق وتعطيه، وترمي الغرض فلا تخطيه، وهي المحامي القدير عن كل قضية حق وعدل".

مشاركته في تأسيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر:

لقد كان العقبي بما له من دور بارز وهام في حمل راية الإصلاح والدعوة والتوحيد في الجزائر، من المؤسسين البارزين لجمعية العلماء، ولذلك انتخب ضمن مجلس الإدارة، وعين نائب الكاتب العام وممثلها في عمالة الجزائر، وتولى رئاسة تحرير صحف الجمعية «السنة والشريعة والصراط»، ثم جريدة «البصائر» من أول عدد لها صدر في (٢٧ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥م) إلى العدد (٨٣) الصادر في (٣٠ سبتمبر ١٩٣٧م)،

حيث انتقلت إدارتها إلى قسنطينة.

وكان العقبي في مقارعة شجاعة مع مختلف صحف الطرقيين «الإخلاص، المعيار، البلاغ الجزائري» التي حظيت بدعم سلطة الاحتلال بعكس صحافة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ومن نشاطاته في جمعية العلماء: إشرافه على مدرسة الشبيبة الإسلامية، ودعا إلى إنشاء منظمة شباب الموحدين..

وكانت له أنشطة أخرى خارج نطاق جمعية العلماء، فقد كان رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية، ومحاضرا دائماً في نادي الترقي منذ مجيئه للعاصمة سنة (١٩٣١م)، بعد تأسيس جمعية العلماء وحتى أقعده المرض سنة (١٩٥٨).

أما سبب كونه خطيب ومحاضر النادي فهو: أن أهل النادي كانوا يبحثون عن عالم يتولى مهمة المحاضرة والتدريس فيه، فلما حضر العقبي اجتماع جمعية العلماء المسلمين الأول، وألقى محاضرة خلبت الألباب وأثرت في النفوس، رأى فيه أهل النادي الأهلية لأداء تلك المهام، فاتفقوا معه على أن ينتقل إلى العاصمة.

وكانت له دروس في مساجد العاصمة كالمسجد الجديد والمسجد الكبير، في التفسير والعقيدة والفقه، والتي لمس سكان العاصمة تأثيرها بينهم.

عداء الفرنسيين له:

كان للشيخ نشاط كبير ودائم وتأثير بالغ في سكان العاصمة، خشي منه الفرنسيون على سلطانهم، بحيث يحرض العقبي الجزائريين على الثورة، ومن آثار تأثير العقبي في حياة الجزائريين: هجر الناس لشرب الخمر والميسر ومواطنها، ورجع أكثرهم إلى بيوت الله؛ بعد أن خلت منهم، وقد كان الفرنسيون هم من يسهل وجود الخمر بين

الجزائريين، كحال المستعمر في كل مكان وعلى غرار إغراق الصين بالأفيون من قبل البريطانيين.

يقول الشيخ أحمد حماني: "فأقبل الناس عليه، وأثّر في الوسط تأثيراً كبيراً، وقلّ الفساد والسكر والاعتداء؛ وكان مستشرياً بالعاصمة، وانخفضت نسبة الجرائم، وتفتحت العقول والأذهان، وزالت منها كثير من الخرافات والبدع والأوهام، وصار للحركة جمهور غفير، خصوصاً من العمال والشباب الذي سماه الشيخ العقبي: (الجيش الأزرق)؛ لما كان يمتاز به العمال من لباس البذل الزرقاء".

وبسبب تحالف الطرقيين والسلطات الفرنسية ضده، (وقد حاولوا استمالته فعرضوا عليه منصب الإفتاء فرفض)، أصدر الوالي «ميشال» قراراً بمنع الشيخ من التدريس سنة (١٩٣٣م)، وجعل السبب أن العقبي ينشر المذهب الوهابي! في دلالة واضحة على تحالف الطرقية الصوفية مع المحتل الفرنسي ضد دعوة العقبي، لكن احتجاجات سكان العاصمة ونوابهم أجبرت السلطات على إلغاء القرار.

ولمّا لم تنجح هذه المحاولات دُبرت مؤامرة لاتهام العقبي بقتل المفتي محمود بن دالي (كحول)، والذي كان مخالفاً للجمعية ومحسوباً على الطرقية، وذلك بهدف تعطيل نتائج المؤتمر الإسلامي الذي شارك فيه العقبي مع ابن باديس والإبراهيمي في فرنسا، ولعب فيه دوراً بارزاً للتصدي للاحتلال الفرنسي للجزائر.

وفعلاً فقد نجحت فرنسا في زعزعة المؤتمر الإسلامي، وبث الفرقة بين العلماء والساسة وكبار المتبرعين للمؤتمر، وهو الأمر المهم لاحقاً لإقصاء الجمعية عن قيادة الجزائر بعد حرب التحرير وصعود التيار العلماني.

وكحُّول المفتي كان عميلاً رخيصاً لفرنسا، ولأنه كان معارضاً للمؤتمر الإسلامي رأت فرنسا أن توعز لأحد مجرميها ويدعى (عكاشة) بقتله؛ لتستفيد من موته أكثر من حياته، ومن ثم تتهم العقبي بقتله، وادعى عكاشة أنه تسلم من العقبي خنجراً ومبلغ (٣٠٠٠٠) فرنكاً، فاعتقل العقبي وزميل له، وتعمد الفرنسيون إهانته عند اعتقاله من نادى الترقي، اذ أخرجته حاسر الرأس؛ وهذه كبيرة من الكبائر عند الجزائريين، وأخرجته مكبل اليدين مع شتمه على يد شرطة سنغالية كانت فرنسا تستعملهم دوماً في المهمات القذرة.

يقول ابنه: "إن الشرطة الفرنسية داست بأقدامها برنوس الشيخ أثناء خروجه من النَّادي، كما خاطبته بأسلوب جاف وشتمته أمام الملأ، وقد حزن الشيخ حزناً عميقاً لذلك"، وأغلق نادي الترقي، وضيق على أعضاء الجمعية في العاصمة.

وقد ثارت الجماهير احتجاجاً على اعتقال الشيخ العقبي وصاحبه، فكادت تحدث فتنة عمياء لولا أن توجه إليهم ابن باديس والإبراهيمي بأن يقابلوا الصدمة بالصبر والتزام الهدوء والسكينة، مما أفشل على السلطات إغلاق الجمعية بحجة الشغب والفوضى.

وقضى العقبي في سجن بربروس ستة أيام، قبل أن يتراجع عكاشة عن اتهامه للشيخ وصاحبه، فأفرج عنهما بصفة مؤقتة، بتعهد عدم مغادرة العاصمة ووُضِعا تحت المراقبة، ولكن السلطات أخذت تماطل في إنهاء القضية سنة ونصف؛ حتى صدر حكم بالبراءة للعقبي، لكن فرنسا سرعان ما اعترضت على الحكم، واتهمته مرة أخرى لتستمر المعاناة ثلاث سنوات حتى صدر حكم ببراءة العقبي وصاحبه، وحكم بالسجن المؤبد على شخصين، وبعشرين سنة على شخص ثالث.

وفي هذه السنوات الثلاث (١٩٣٦-١٩٣٩) استمر العقبي يحاضر ويدرّس في نادي الترقي برغم ما يعانيه من قلق الحكم عليه ظلماً بالإعدام أو السجن المؤبد، لكن العقبي كان يعلم أنها سنة الله U، فهو القائل: "قد ابتلانا اللهُ -تعالى- بهذا ليمتحنَ إيمانَنَا وصدقَنَا، وهذه سُنّةُ الله فيمن سبقنا من الأنبياءِ والعظماء!".

كتب البشير الإبراهيمي حول النتائج الإيجابية لهذه المؤامرة على الشيخ العقبي فقال [«الآثار» (١/ ٢٧٩)]: "ومن آثار هذه الحادثة على الأستاذ العقبي: أنها طارت باسمه كل مطار، ووسعت له دائرة الشهرة حتى فيما وراء البحار، وكان يوم اعتقاله يوما اجتمعت فيه القلوب على الألم والامتعاض، وكان يوم خروجه يوماً اجتمعت فيه النفوس على الابتهاج والسرور".

ومما يؤكد كلام الإبراهيمي عن دور العقبي في الجزائر ووقوف الجزائريين والعلماء معه: أن ابن باديس الذي لم يوقف دروسه طيلة عمره حتى عندما توفي بكره الوحيد وعمره (١٧) سنة، أوقف دروسه في قسنطينة لحضور محاكمة العقبي في العاصمة.

خلاف العقبي مع إخوانه في جمعية العلماء حول دعم فرنسا بالحرب العالمية الثانية:

أثناء محاكمة العقبي ظهرت نذر الحرب العالمية الثانية، فاستدعت السلطات الفرنسية العقبي وطلبت منه التوقيع على برقية تأييد لفرنسا ودعمها فوافق، ولكن السلطات طلبت -أيضاً- توقيع رئيس الجمعية ابن باديس، لكن ابن باديس رفض ذلك.

ومع إصرار العقبي طرح ابن باديس الموضوع على إدارة الجمعية، وتم إجراء تصويت حول إرسال برقية تأييد من الجمعية لفرنسا، فكانت النتيجة: (١٢) صوتاً

معارضاً لذلك ومع رأي ابن باديس، و(٤) أصوات موافقة لرأي العقبي، فلم تُرسل البرقية.

وكان منطلق الشيخ العقبي أن الشعب الجزائري ليس مستعداً بعد لمقاومة الاحتلال، وأن الجمعية لا ينبغي لها أن تخوض الآن في العمل السياسي، وأنه ليس من مصلحة الجمعية استعداء فرنسا في هذا الظرف.

ويقال: إن الشيخ العقبي قال لابن باديس: أنت ليس لك أبناء، أما أنا فإني مسؤول عن ثمانية أولاد! فرد الإمام ابن باديس قائلاً: أنا عندي ٨ ملايين ابن -يقصد: كل أفراد الشعب الجزائري آنذاك-!

ويقال: إن فرنسا طلبت من العقبي أن يرسل برقية باسمه بعد استقالته من إدارة جمعية العلماء، لكنه رفض، في دلالة على أنه كان مخلصاً في رأيه لمصلحة الجمعية، وليس لمصلحته الخاصة.

ويروي الشيخ عبد الرحمن شيبان -رئيس جمعية العلماء الحالي- قصة واقعية لحقيقة موقف العقبي من تأييد فرنسا في الحرب العالمية، فيقول:

"في بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) كنتُ مجنداً في إحدى الثكنات العسكرية بالبليدة، فساروا بنا إلى حضور مهرجان إعلامي دعائي أقيم في قاعة سينمائية كبيرة، للتنويه بمحاربة الحلفاء للدولة الألمانية الباغية، وما هي إلا لحظات حتى رأيتُ مندهشاً فيمن يرى المصلح الكبير الشيخ الطيب العقبي يصعد إلى المنصة ليطلب إلى الجزائريين الحاضرين من المدنيين والعسكريين تأييداً كاملاً مطلقاً لفرنسا وحلفائها، في حربها الدفاعية من أجل الحرية والعدل والديمقراطية في العالم.

فإذا بالعالم المصلح الشيخ الطيب العقبي يفتتح خطبته بلمحة تاريخية للعالم العربي والإسلامي مع السياسة الاستعمارية الغاشمة التي درجت عليها فرنسا وبريطانيا في المشرق والمغرب، منددا بخيانة الحلفاء لوعودهم لمن ضحوا بدمائهم من الشعوب المستعمرة في سبيل انتصارهم سنة (١٩١٨م).

فكانت مقدمة خطاب الشيخ العقبي خيبة مريرة للسلطة المدنية والعسكرية التي نظمت المهرجان الإعلامي والدعائي، مما جعل منظمي المهرجان يقطعون التيار الكهربائي؛ فانطفأت الأضواء، وانقطع صوت الشيخ الجليل، وتفرق الجمع، بابتهاج الجزائريين وحسرة من الاستعماريين مدنيين وعسكريين".

ولكن في تلك الظروف والملابسات ظن بعض الناس أن موقف العقبي بتأييد فرنسا في حربها ضد ألمانيا هو بسبب محاكمته، وأن فرنسا استمالته بأن يقف هذا الموقف لتخفف عنه العقوبة، ويبدو أن بعضهم تورط في الطعن بالشيخ العقبي، مما سبب له جرحاً وولّد في قلبه مرارة عبّر عنها بقصيدة قال فيها:

أسفى على الآداب والأخلاق	أسفي على الذوق السليم الراقي
أسفي على بعض الرفاق فإنهم	فقدوا سجية كاملي الأذواق
عهدي بهم والرفق من أخلاقهم	فإذا بهم خَلْق بدون خَلاق
لا يؤثرون رفيقهم ولو اقتضى	حال الرفاق الرفد بالإرفاق
فتراهم يستأثرون وإن عدوا نهج	الهدى ومكارم الأخلاق
حسبوا الزعامة في الظهور وما	دروا أن الظهور وسيلة الإخفاق
ما ساد من لم يحتفظ لرفيقه	بحقوقه وبعهد ود باق

كـلا ولا نـال الزعامـة غـير مـن ضـحى بصـالح نفسـه لرفـاق

وبسبب ذلك تخلى العقبي عن إدارةِ جريدة «البصائر» في (ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٧م)، ثم استقال من إدارة الجمعية حتى لا يتسبب بخلافات وصراعات داخلية للجمعية، مع بقائه عضواً فيها.

وفيما يلى وجهة نظره في الخلاف مع إخوانه في الجمعية:

"فلم تطاوعني نفسي على تعطيلِ الجريدةِ.. وكافحتُ جهدي حتّى أوصلتُها إلى الاجتماع العامّ، واستعملتُ كلّ الوسائل لتعديلِ ميزانيّتِها؛ فلم أقدر على ذلك، كما أنّني لم أقدر وأنا معَ ما أنا عليهِ من شواغب وشواغل أنْهَكَت قوايَ وأضعفَت جسمي أن أقومَ بعملِ جماعةٍ وحدي...".

"قد تأسّست جمعيّةُ العلماء علميّة دينيّة لا غير، ولكنّ أعداءها كثرت أصنافهم وتنوّعت مكائدهم، واتّحدت مقاصدهم للقضاءِ عليها، وأوّلُوا بعض إجراءاتِها بما هي بريئة من مقصدها وبعيدة عن إرادتها، ولقد كنتُ دائماً معارضاً لها.

وفي اعتقادي أنّ البلاءَ انصبَّ على جمعية العلماء من بعض إجراءاتها أوّلها المضادُّون لها بصور غير لائقة، وكم كنتُ أتألّمُ لمثل هذه الإجراءات، وكم كنتُ أحذِّر وأُنذر لأنّني أعلمُ كثيراً ممّا لا يعلمُون، ولكنَّها كانت تقعُ رغم أنفي؛ لأنّ الأغلبيَّةَ كانت على خلافِ رأيي.."، يقصد: بعض النشاطات السياسية.

"أؤكد لكل إخواني إني وقفت هذا الموقف وأنا غير متأثر مطلقاً بأيِ إيعاز من الإيعازات الحكومية، ولا قاصد علم الله وهو العليم بما في الضمائر المطلع على ما في الصدور إلى تملق أي ناحية إدارية، ولكن شفقتي على البقيّة من ثمرات هذه الأمة

وحرصي على المصلحةِ العامَّةِ، مع تقديري للظُّروف والوضعيَّةِ الحاضرةِ، كلّ أولئك حملني على الإصاخةِ لصوتِ ضميري فقط... غيرَ آبهٍ بما قيلَ وبما عسَى أَن يُقَالَ".

[2] "وقد آليتُ على نفسي أن لا أعودَ إليها كعضوٍ إداريٍّ ما دمتُ حيّاً، هذا مع إيماني بأنّ مبادئَ هذه الجمعيّة الّتي أسّست للعمل بها والسّير عليها إنّما هي مبادئُ الإسلام الحقَّة... وإنّ أعضاءها هم إخوانٌ لي في الحركة الإصلاحيّة، والمبدأ الحقّ الّذي عاهدنا اللهَ على العملِ به والتّضامنِ فيه حتّى النّفس الأخير من حياتِنا... ولْتَقَرَّ أَعْينُهُمْ ببُعْدِ العُقبيِّ عن إدارةِ هذه الجمعيّةِ الّتي ترَكَها والأستاذُ Z ابن باديس قويٌّ يعمَلُ مُتَوَدِّداً ومُتقرّباً إليَّ بكُلِّ ما في وُسعِهِ من أسبابِ التّودُّدِ والتّقرّبِ...".

[2] "ماتَ ابن باديس ودفن مبكياً مأسوفاً عليه؛ فلتمت ولتدفن حفائظ وحزازات وأحقاد كوّنتها أغراض شخصيّة ومقاصد سيّئة لمن يلذّ لهم دائماً الاصطياد في الماء العكر، وليتّقوا اللهَ في أنفسِهِم وفي إخوانهم المسلمين الّذين هم في هذا الوقت أحوج ما يكونون إلى الاتّحاد والاتّفاق وجمع الكلمة، وليعلمُوا أنّ بلادَنا الفقيرة من الرّجال العاملين كلّما فقد منها رجل من رجالها القليلين تفقد معه ناحية من الكمال لا يقدر غيره على تعويضها؛ وسدّ الفراغ الّذي يترك من وراء فقدها.

وبعد هذا كلّه فلينته المرجفون في المدن والقرى عن إرجافهم وباطلهم، وليعلموا أنّا وهم ميّتون؛ وإنّا إلى الله جميعاً راجعون!!..."، تعليقاً على عدم حضوره جنازة صديقه ابن باديس.

[2] "يَهْرِفُ النَّاسُ ويُثَرْثِرُونَ بِمَا بَيْنِي وبَيْنَ الشّيخِ عبدِ الحميد من خلافٍ وخصامٍ، وسوف لا ينتهي كلامُ النّاس ما دامُوا عبيدَ أنفسهم ومختلف أهوائِهِم...".

[2] "فاجأتنا أنباء قسنطينة التلفونية والبرقية بوفاة رئيس جمعية العلماء الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد بن باديس، فعزّ علينا نعيه، وآلمنا فقده في هذه الظروف التي نحن أحوج ما نكون فيها إلى علم العلماء وإصلاح المصلحين الذين ضحوا بكل مرتخص وغال في سبيل الحركة الإصلاحية..

فمَن للعلماء وجمعيتهم بعد ابن باديس؟ ومَن للجامع الأخضر ودروسه بعد الراحل الكريم والفقيد العظيم الذي ترك فراغاً لا يسده سواه، وخلف وحشة على العلماء والمصلحين لا مؤنس لهم من ورائها إلا الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون..".

والحقيقة في علاقة العقبي وابن باديس وخلافهما هي ما قاله رفيق العقبي وتلميذه الأول محمد العيد آل خليفة:

خصمان فيما يفيد الأمة اختصما   إياك أن تنقص الخصمين إياك

كلاهما في سبيل الله مجتهد   فلا تلومن لا هذا و لا ذاك

وبقيت روح التعاون والمودة موجودة بين العقبي وقادة جمعية العلماء، فقد هنأ الإبراهيمي رئيسُ الجمعية بعد ابن باديس العقبي على صدور جريدة «الإصلاح»، وكان العقبي والإبراهيمي عضوين في الهيئة العليا لإعانة فلسطين، حيث كان الشيخ الإبراهيمي رئيسها وكان الشيخ العقبي أمين مالها، وقد شهد له الإبراهيمي بأنه الروح المدبرة لتلك الهيئة، كما شارك إخوانه رجال الجمعية في أعمال أخرى منها مواصلة المطالبة بتحرير المساجد وفتحها للعلماء الأحرار.

العقبي بعد استقالته من إدارة الجمعية:

بعد استقالته من إدارة الجمعية لم يتوقف نشاط العقبي في الدعوة الإسلامية والعمل الإصلاحي، فأعاد إصدار جريدته «الإصلاح» في (٢٨ ديسمبر/كانون الأول

١٩٣٩)؛ والتي استمرت إلى العدد (٧٣) الصادر في (٣ مارس/آذار ١٩٤٨).

وأسس في نادي الترقي سنة (١٩٤٧م): "لجنة الدفاع عن فلسطين"؛ والتي تطورت لتصبح "الهيئة العليا لإغاثة فلسطين"، كهيئة جزائرية مشتركة بين عدة اتجاهات سنة (١٩٤٨)، والتي تمكنت من جمع ثمانية ملايين فرنك كتبرعات من الشعب الجزائري الذي هبّ لدعم ومساندة فلسطين ماديّاً ومعنويّاً؛ رغم ظروفه القاسية.

وقد قام العقبي ضمن وفد الهيئة بزيارة الأردن سنة (١٩٥٠م) لإيصال الأموال لمستحقيها، وزيارة اللاجئين الفلسطينيين هناك.

وكوّن الشيخ الطيب العقبي منظمة "شباب الموحدين" (١٩٥٠- ١٩٥٢م) لنشر الدعوة السلفية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصدرت عدة جرائد مثل: «الداعي» و«القبس» و«المنار» و«اللواء»، وكان مديرها ورئيس تحريرها الشيخ أبو بكر الجزائري -شفاه الله-.

وبقيت مقالاته تطالب بحرية التعليم العربي، ومقاومة فرْنسة المجتمع الجزائري.

ولم يتوقف عن الدعوة إلا بسبب وطأة مرض السكري عليه؛ والذي أصيب به سنة (١٩٥٣)، والذي أقعده سنة (١٩٥٨) عن الدعوة وألزمه الفراش في بيته بحي بولوغين.

تراث الشيخ وتلاميذه:

ترك الشيخ العقبي آثاراً كثيرة مكتوبة، لو تتبعت وجمعت لجاءت في مجلدات، لأنها في غالبها مقالات في الصحف والمجلات.

ومن أبرز تلاميذه: فرحات بن الدراجي (١٩٠٩-١٩٥١)، وعمر بن البسكري

(١٨٨٩-١٩٦٨)، ومحمد العيد آل خليفة (١٩٠٤-١٩٧٩)، أبو بكر الجزائري -شفاه الله تعالى-، المدرس بالمسجد النبوي.

من أقوال العلماء عنه:

* قال صديقه ابن باديس: "من ذا الذي لا يتمثل في ذهنه العلم الصَّحيح والعقل الطاهر، والصَّراحة في الحقّ والصَّرامة في الدِّين، والتّحقّق بالسّنّة، والشّدّة على البدعة، والطِّيبة في العِشرة، والصِّدق في الصُّحبة إذا ذُكِرَ الأستاذُ العُقبيُّ".

* قال الشيخ الإبراهيمي: "هو من أكبر الممثلين لهديها -أي: الجمعية- وسيرتها والقائمين بدعوتها، بل هو أبعد رجالها صيتاً في عالم الإصلاح الديني وأعلاهم صوتاً في الدعوة إليه...

وإنما خلق قوّالاً للحق، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وقافاً عند حدود دينه، وإن شدته في الحق لا تعدو بيان الحق وعدم المداراة فيه، وعدم المبالاة بمن يقف في سبيله".

* قال الشيخ المبارك الميلي: "ولكن أتى الوادي فطم على القرى، إذ حمل العدد الثامن في نحره المشرق قصيدة «إلى الدين الخالص» للأخ في الله داعية الإصلاح وخطيب المصلحين الشيخ الطيب العقبي -أمد الله في أنفاسه-، فكانت تلك القصيدة أول المعول مؤثرة في هيكل المقدسات الطرقية، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة، ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية؛ إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه، وحالته في الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود».

* قال أحمد توفيق المدني:"كان خطيباً مصقعاً من خطباء الجماهير، عالي الصوت سريع الكلام، حاد العبارة يطلق القول على عواهنه كجواد جامح دون ترتيب أو

مقدمة أو تبويب أو خاتمة، وموضوعه المفضل هو: الدين الصافي النقي، ومحاربة الطرقية ونسف خرافاتها، والدعوة السافرة لمحاربتها ومحْقها».

* قال الشيخ أبو يعلى الزواوي: "العلامة السلفي الصالح داعية الإصلاح الديني".

* قال العلامة شكيب أرسلان: "...فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري حملة عرش الأدب الجزائري الأربعة".

* قال الشيخ محمد تقي الدين الهلالي: "الأستاذ السلفي الداعية النبيل الشيخ الطيب العقبي".

وفاته:

وقد كان العقبي داعيةً في حياته وموته، فقد أوصى بشدة وإلحاح بأن تكون جنازته على السنة بعيدة عن البدع، فلا يكون فيها ذكر جهري ولا قراءة البردة، ولا حتى قراءة القرآن حال التجهيز أو حين الدفن، وأن لا يؤذن لأي واحد من الحاضرين أن يقوم بتأبينه قبل الدفن أو بعده.

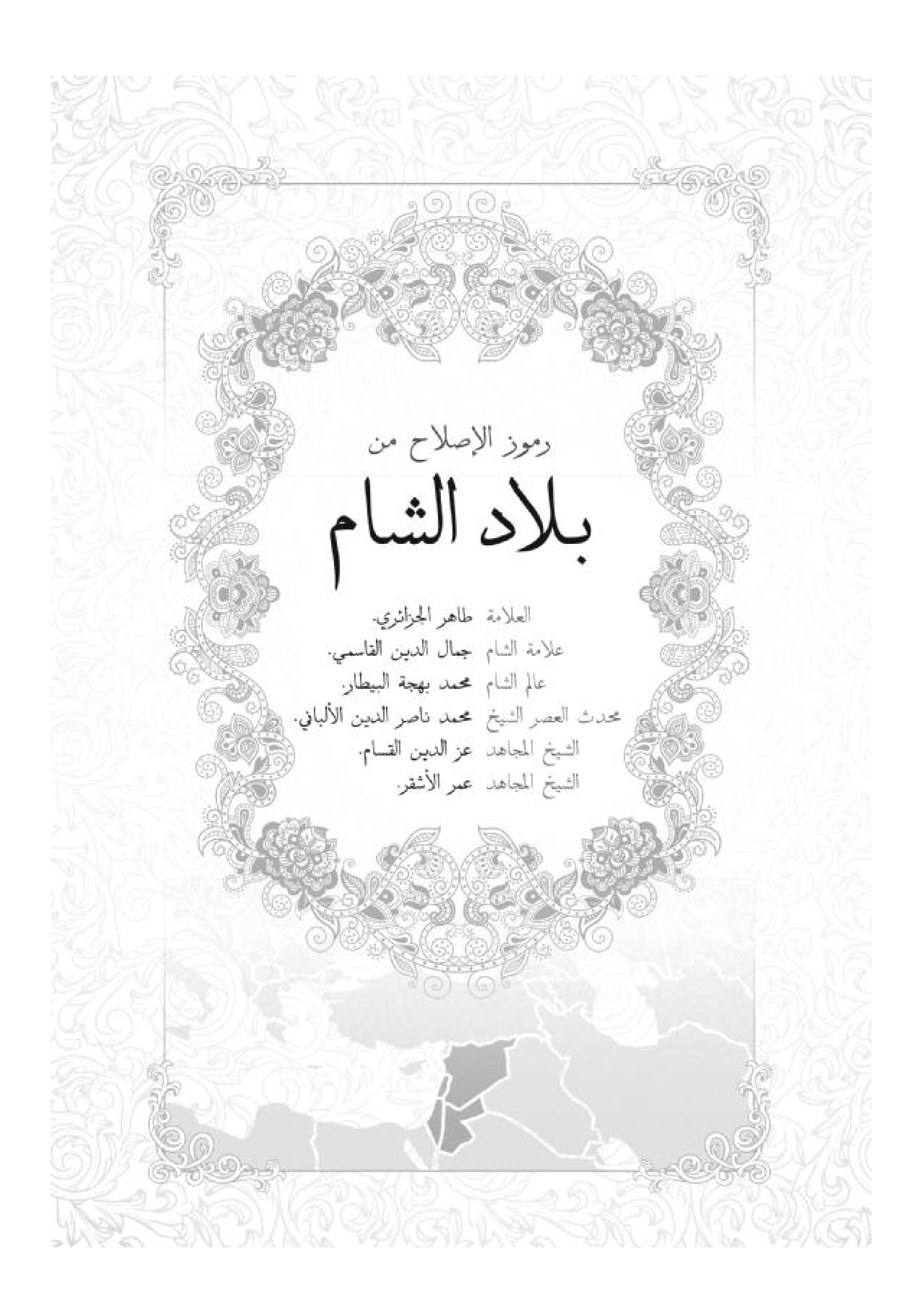
وقد توفي الشيخ الطيب العقبي Z في (٢١ مايو/أيار ١٩٦١م)، ودفن في مقبرة «ميرامار» بالرايس حميدو؛ لأنها مقبرة شعبية خالية -بتأثير العقبي- من الشركيات والبدع التي يأتيها الجهلة على القبور، وكانت جنازته جنازة مهيبة، حضرها قرابة خمسة آلاف شخص.

مراجع للتوسع:

o ترجمة ذاتية، كتبها بنفسه ونشرت في الجزء الأول من كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» لمؤلفه الأديب الجزائري الكبير الأستاذ محمد الهادي السنوسي

الزاهري.

o مجموعة مقالات متنوعة عن الشيخ الطيب العقبي في شبكة الإنترنت، تجدها في موقع الشيخ الطيب العقبي.



رموز الإصلاح من

بلاد الشام

العلامة طاهر الجزائري.

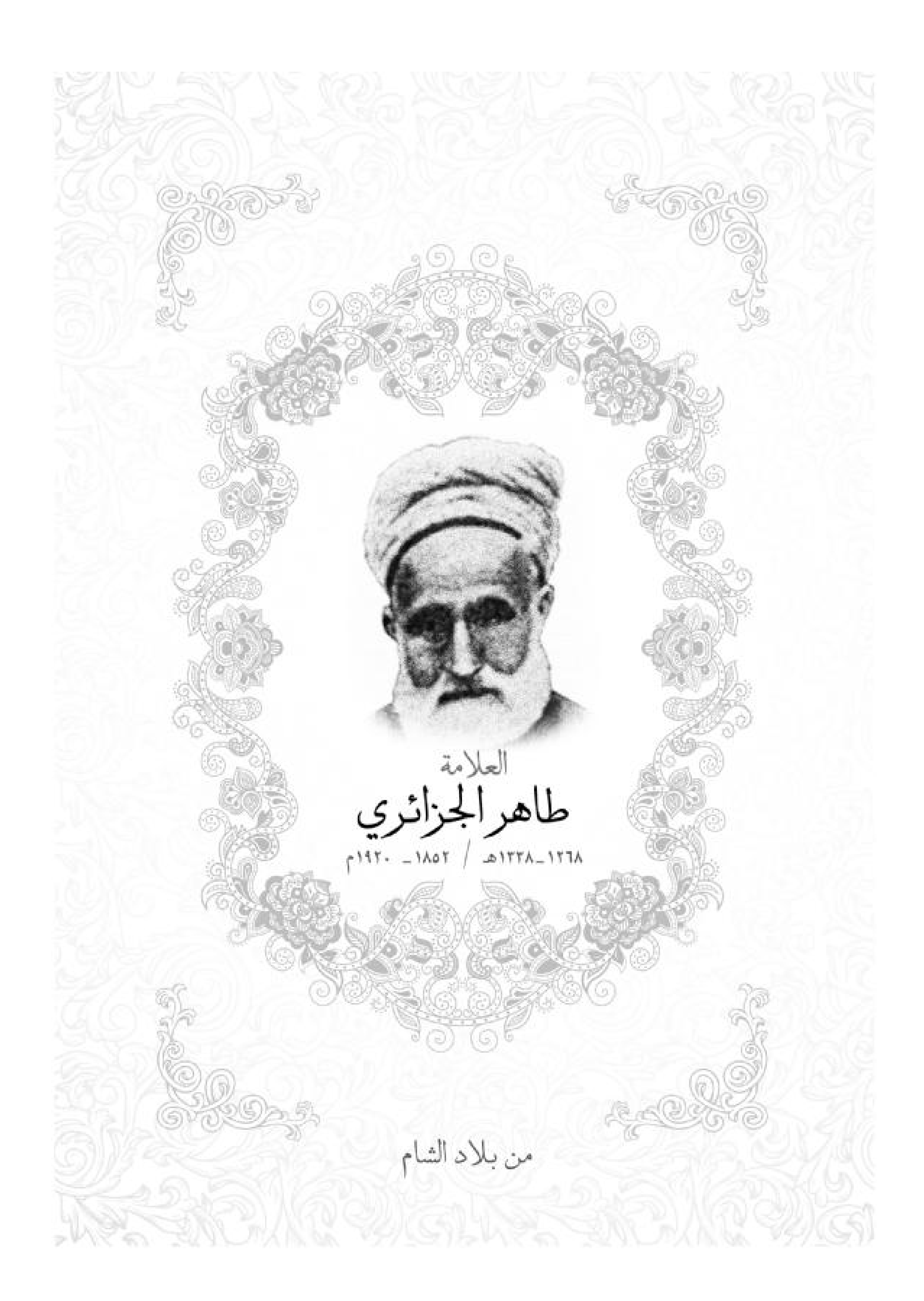
علامة الشام جمال الدين القاسمي.

عالم الشام محمد بهجة البيطار.

محدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

الشيخ المجاهد عز الدين القسام.

الشيخ المجاهد عمر الأشقر.


العلامة
طاهر الجزائري
١٢٦٨_١٣٣٨هـ / ١٨٥٢_ ١٩٢٠م
من بلاد الشام

٧- العلامة طاهر الجزائري

(١٢٦٨-١٣٣٨هـ/١٨٥٢-١٩٢٠م)

تمهيد

يعد الشيخ طاهر الجزائري من الشخصيات المحورية التي صنعت النهضة واليقظة في البلاد العربية في القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين، وتميز بكونه أستاذاً وموجهاً لعدد كبير من الشخصيات الإصلاحية، وبكونه رائداً في إقامة المؤسسات الثقافية والتعليمية حتى تستمر هذه الجهود ولا تتوقف بوفاته، رغم كونه فرداً وليس مؤسسة ولا صاحب سلطة.

وهو يصدر في مشروعه الفكري من الانتماء لهوية الأمة وعقيدتها، والاعتزاز بتراث الأباء والأجداد، مع انفتاح على ما عند الآخرين، بخلاف غيره من الذين كانت دعوتهم للنهضة نتاج انبهار بحضارة الغزاة الأوروبيين.

لكنه لم يشتهر ويعرفه للناس على غرار أقرانه: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما، وقد يكون هذا لعدة أسباب منها: كونه كان في الشام بما كانت تعيشه من جهل وظلم، وهم كانوا تحت الأضواء في القاهرة، ومنها: كونه سلفي التوجه والمشرب، ومنها: قلة انتشار مؤلفاته المطبوعة لليوم، وكونه صاحب مشاريع عملية، بالإضافة لطبيعته الانعزالية نوعاً ما.

ومما ساهم في عدم انتشار صيته خارج دائرة النخب العلمية والثقافية لليوم: شحة

المعلومات عنه، فالمتوفر عن نشأته وحياته قليل جدّاً، مقارنة بأمثاله من المصلحين.

ولادته ونسبه:

الشيخ طاهر هو من أصول جزائرية، فقد رحل والده وأهله من الجزائر هرباً من ظلم وبطش الاستعمار الفرنسي سنة (١٢٦٣هـ/١٨٤٦م)، في الهجرة الجزائرية الأولى والتي ضمت (٥٠٠) أسرة، وهذا سبب نسبته للجزائر.

ولد في دمشق سنة (١٢٦٨هـ/١٨٥٢م)، وأبوه هو: الشيخ صالح بن أحمد بن حسين بن موسى بن أبي القاسم، ويقال أن نسبهم يتصل بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

نشأته العلمية وشيوخه:

كانت بداية تعلم الشيخ طاهر على أبيه الشيخ صالح، فدرس عليه علوم الشريعة واللغة، وكان والده من علماء الجزائر، فهو فقيه اشتهر بعلم الفلك وعلم الميقات وله رسالة في هذا العلم، كما له معرفة وميل إلى علوم الطبيعة والرياضيات، وكان مفتي المالكية في دمشق، لأن معظم المهاجرين الجزائريين كانوا على المذهب المالكي، وكان يعيد درس «صحيح البخاري» للشيخ أحمد مسلم الكزبري في الجامع الأموي، وهذه مكانة علمية رفيعة عند علماء دمشق.

ثم دخل مدرسة رشدية الابتدائية، وبعدها التحق بالمدرسة الجقمقية الإعدادية، ودرس عند الشيخ عبد الرحمن البوسنوي، والذي كان له أثر بالغ في شخصية طاهر الجزائري، فأخذ عنه العربية، والفارسية، والتركية، وتبحر في العلوم الشرعية.

ثم درس على الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، حتى توفي Z سنة (١٢٩٨هـ/١٨٨١م)، والذي كان يعد عالم عصره؛ فضلاً عن اتصافه بالتقوى

والورع، والذي حرره من التعصب المذهبي، ووجهه للتقيد بالدليل الشرعي، وفتح عقله للنظر والبحث والاجتهاد.

وكان والده صوفيّاً من أتباع الطريقة الخلوتية، لكن وفاة والده سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) وعمره حوالى (١٤) سنة، سهل عليه التحرر من التصوف والانتقال للمنهج السلفي على يد شيخه الميداني، والذي كان صوفيّاً ثم نبذ التصوف نحو منهج الكتاب والسنة.

وبسبب هذه التربية والمنهجية العلمية أصبح همّ طاهر الجزائري وهو في المرحلة الابتدائية: شراء الكتب والمخطوطات ومطالعتها، حتى أصبح لديه مكتبة ضخمة تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات، مما ظهر أثره عليه فيما بعد بسعة اطلاعه، وتبحره في فنون العلم، وسعيه الدؤوب لإنشاء مكتبات عامة تجمع شتات الكتب والمخطوطات، وحث الأغنياء والدولة على طبع الكتب وتوزيعها.

مستواه العلمي:

لعل وصف المحقق محمد كرد علي والأستاذ محمد سعيد الباني -وهما من أبرز تلاميذ طاهر الجزائري- يوضح لنا المستوى العلمي الذي وصل إليه الشيخ طاهر، يصف كرد علي شيخه بأنه: "مجموعة نفيسة من العلوم، ومكتبة سيّارة ضمت خباياها المفسّر والمحدث والأصولي والفقيه والفيلسوف والأديب واللغوي والكاتب والشاعر والمؤرخ والأثري والطبيعي والرياضي والفلكي والاجتماعي والأخلاقي".

ويقول -أيضاً-: "كان يتقن علوم العربية، ويحفظ وقائع التاريخ، أتقن علوم الدين والدنيا".

أما تلميذه الآخر محمد سعيد الباني؛ فيقول عنه: "قلّ من يدانيه من معاصريه

بإحاطته وسعة اطلاعه، جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لبابه ونبذ لفاظته... فهو دائرة المعارف، ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون وقاموس الأعلام".

لقد جمع الشيخ الجزائري جلّ معارف عصره القديمة والحديثة، فهو مع تبحره في الشريعة الإسلامية واللُّغة العربية كان متقناً لعدد من اللغات؛ كالتركية والفارسية والسريانية، والعبرية، والحبشية، والبربرية -لغة أهله-، والفرنسية، مما مكنه من الاطلاع على الثقافات المتعددة القديمة منها والحديثة، وفتحت له هذه المعرفة باللغات والخطوط القديمة كنوز المخطوطات، فبز أقرانه، وتقدم على نظرائه، وأصبح الكثير من العلماء والمستشرقين عالة على رأيه ومعرفته بالمخطوطات.

وقد كان يدون في كناشات (بطاقات) فوائد ونقول ما طالعه من كتب ومخطوطات؛ خاصة ما لم يتمكن من اقتنائها، فتحصل له منها الشيء الكثير، وقد طبعت مؤخراً باسم: (تذكرة طاهر الجزائري) في مجلدين كبيرين.

كما أنه تأثر بوالده الذي كان له اطلاع ودراية بالعلوم الدنيوية، ولذلك نال طاهر الجزائري نصيباً وافراً من العلوم في التاريخ والجغرافية والآثار، ودرس في الرياضيات والفيزياء، وكان خبيراً بالسياسة الدولية، وأحوال الشرق والغرب، ومطلعاً على علل المجتمعات وأمراضها، فحين فرح بعض أصدقائه وتلاميذه بانقلاب الاتحاديين الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) -رغم أنه كان معارضاً للحكم الحميدي بسبب الوشايات الشائعة-، وعادوا لدمشق؛ فإن الشيخ رفض العودة إلى دمشق، وكان يقول لهم: إن الحالة ستزداد سوءاً بوصول الاتحاديين إلى الحكم

وباستبدادهم به؛ حيث كانوا أشد سوءاً وأعظم خطراً من استبداد الفرد؛ خاصة بما كانوا يحملونه من أفكار عنصرية وقومية طورانية ضيقة، ومبادئ لا دينية لا تتفق مع ما كان يؤمن به الشيخ طاهر ويدعو إليه، وقد ثبت بُعد نظره إذ سرعان ما نصبت المشانق لطلابه في دمشق في (٦ أيار عام ١٩١٦) على يد السفاح جمال باشا -والي الاتحاديين-.

وحين تم اغتيال ولي عهد النمسا في سراييفو بالبوسنة سنة (١٩١٤م) قال لمن حوله: "إن حرباً أوربية طاحنة ستنشب لا محالة"، وفعلاً كانت تلك هي شرارة الحرب العالمية الأولى!!

صفاته وأخلاقه:

كان Z حسن الطلعة، معتدل القامة والجسم، حنطي اللون، واسع الجبهة، أسود الشعر والعينين، ذا لحية كثيفة، عصبي المزاج، سريع الحركة، واسع الخطوة.

وكان زاهداً ورعاً، مبتعداً عن التساهل في أحكام الدين، وكان لا يبالي بالتأنق والتزين في ملبسه، ولا يهتم لهذه الشكليات، وبقي عزباً لم يتزوج، وكان يرفض أن يأخذ مساعدة من أحد مهما كان، وعاش سنيناً في مصر من بيع كتبه ومخطوطاته، وكان مع قلة حيلته وفقره يتصدق على الفقراء والمساكين.

وكان حريصاً على وقته الذي يقضيه في التدريس والتعليم، أو طلب العلم بالقراءة والبحث؛ حتى وهو على فراش نومه، حيث كان محاطاً بالكتب والأوراق والمحابر والأقلام.

وفي الأربعين سنة الأخيرة من حياته كان لا ينام إلا بعد الفجر، حيث يسهر مع أصحابه ثم يقرأ ويكتب حتى الفجر في حجرته بمدرسة عبد الله باشا العظم.

وكان يتميز بأنه غير متقوقع على فئة دون أخرى، بل كانت دائرة معارفه واسعة

جدّاً تضم كافة طبقات وفئات المجتمع، بل وحتى غير المسلمين من الصابئة واليهود والنصارى والمستشرقين؛ حيث كانت له بهم صلات وطيدة، وكان يسخّرها لخدمة الإسلام بتخفيف غلوائهم وعدائهم للإسلام.

وكان الشيخ طاهر الجزائري يحب السفر جدّاً، فزار كثيراً من القرى والمدن السورية مشياً؛ إذ كان يحب المشي، وزار لبنان وفلسطين، ومصر، والحجاز، وتركيا، وفرنسا، وكان يهتم في أسفاره بالبحث عن الكتب والمخطوطات واللقاء بالعلماء والمثقفين.

منهجه:

يقوم منهج طاهر الجزائري على نشر العلم والتربية، فيقول: "تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلّمه، ولو لغة مالطة، فقد يجيء زمان تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع، والمرء يتعلّم ما حسنت به الحياة".

ويقول: "الإصلاح على اختلاف أنواعه لا بدّ أن يكون على سبيل التدرج، وفقاً لمقتضى السنن الطبيعية؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يلبث أن يرجع من حيث أتى".

ويبين محمد كرد علي منهج الشيخ طاهر في دعوة الناس بقوله: "وخطته الإخلاص، والعمل على النهوض بالأمة عن طريق العلم، وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: "إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة"، وكان يبذل جهده لتعم دعوته أهل الحضر والبادية، والأغنياء والفقراء".

وكان الشيخ طاهر الجزائري يفضل تغيير قناعات المخالفين برفق، فقد كان يذكر

في مجالسه بعض أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية دون أن ينسبها له، فيتقبلها المخالف لقوتها وسلامتها، وحين يسأل عن مصدرها كان يوضح له أنها لابن تيمية، مما جعل الكثيرين يتقبلون ابن تيمية.

وكذلك كان ينسخ بعض رسائل ابن تيمية وابن القيم وأبي شامة المقدسي وأمثالهم، ويرسل من يبيعها في السوق بسعر زهيد، فانتشرت وانتفع بها الكثيرون.

نقل كرد علي عن شيخه أنه قال له مراراً: "إذا أردت إدخال الإصلاح إلى بيوت الأعيان، وفيهم الجاه والمال؛ فاجهد لأن يتعلم ولو فرد واحد من كل أسرة تقلب به كيانها"، وكثيراً ما قال: "لنخرجن من بيوت الأغنياء أولاداً يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة".

وهو على فراش الموت نصح عُوّاده بحكمة بليغة فيها خلاصة تجربة وحياة، فقال: "عُدوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم، وعضواً عليهم بالنواجذ، لتستفيد الأمة منهم، ولا تنفروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم".

دوره الإصلاحي:

عاش طاهر الجزائري إبان احتلال أوروبا لكثير من بلاد الإسلام بسبب حالة الضعف والهزيمة؛ بسبب شيوع الجهل والخرافة وعجز الدولة العثمانية، ولذلك اجتهد في دراسة حال الأمة وكيفية العمل على إصلاحها، وتوصل إلى أن العلم هو مفتاح النهضة للأمة، العلم الشرعي الصحيح الذي يحيي روح الأمة وقلبها، والعلم الدنيوي السليم الذي يعالج جسدها وأعضاءها.

ويمكـن أن نعـدد مظـاهر إصـلاح طـاهر الجزائـري العلمـي في الجوانـب التالية:

أولاً: في قطاع التعليم:

١ - دوره الكبير في إقناع الآبـاء بأهميـة وضرورة تعلـيم أولادهـم في المدارس، مما كان له واسع الأثر على النهضة التعليمية في سورية، وقـد لقيـت هـذه الـدعوة معارضـة شديدة من بعض الجهلة الذين رأو في نشر العلم ضرراً علـيهم؛ حيـث كـانوا يحتكـرون بعض الوظائف التعليمية والشرعية لأنفسهم ولأولادهم!!

٢ - توليــه مهمــة التــدريس في المدرســة الظَّاهريــة الابتدائيــة بدمشــق ســنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٨م)، حيث قام ببثّ أفكـاره الإصـلاحية بـين الطلبـة، ورغـم مكانتـه الكبيرة فقد قام بتعليم طلاب الابتدائية لتشجيع المعلمين على ذلك.

يقـول الشـيخ عـلي الطنطـاوي: "كـان التعلـيم في دمشـق: الكتاتيـب للصـغار، وحلقـات المسـاجد للكبـار، فكـان -طـاهر الجزائـري- مـن أكـبر العـاملين عـلى افتتـاح المدارس العصرية".

٣- قيامه مع عـدد مـن الفضـلاء مـنهم: الشـيخ عـلاء الـدِّين عابـدين، وبهـاء بـك -سـكرتير والي دمشـق- بتأسـيس (الجمعيـة الخيريـة الإسـلامية)، لتتصـدى لنشـاط الإرسـاليات التَّبشـيرية الأجنبية؛ والتي كانـت تسـتقطب الطـلاب مـن الأقليـات غـير المسلمة والمسلمين، فتجعل منهم أبواقاً وخدماً لأفكارهـا ومبادئهـا، وتهيـؤهـم ليكونـوا أصحاب المناصب القادمة بسبب تعلمهم.

فسعى طاهر الجزائري لتوفير مدارس وطنية تنشر العلـم والمعرفـة، وتحفـظ الجيـل

من الغزو الوافد، وتهيئ قيادات وطنية مخلصة متسلحة بالعلم.

وهذا يدل على وعي الجيل المؤسس للنهضة بأهمية العمل الجماعي، وأنه يقوم بما لا يقوم به الفرد مهما كان قويّاً.

وقد تمكنت الجمعية من فتح ثماني مدارس للذكور ومدرستين للإناث، بتشجيع ودعم الوالي مدحت باشا -وهو من الولاة المصلحين، والذي ترك خلفه ذكراً حسناً بين الناس-، وقد كان الشيخ طاهر وزملاؤه يقظين لأهمية تعليم الفتيات لكونهم أمهات الجيل القادم.

ثم تحولت الجمعية الخيرية عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٩م) إلى ديوان المعارف (ما يشبه وزارة التعليم اليوم)، وأصبح الشيخ طاهر مفتشاً عامّاً على المدارس الابتدائية، مما ساعده على التعرف على أوضاع بلاد الشام كلها، وأتاح له نقل أفكاره وتوجيهاته لغالب المدرسين وإرشاداته لهم بطرق التدريس الصحيحة، ومن هنا يأتي اتساع نطاق تأثير الشيخ طاهر في هذا الجيل.

٤ - قيام الشيخ طاهر بتأليف عدد من الكتب كمناهج لصفوف الابتدائية في العلوم الشرعية والرياضية والطبيعية، وذلك بعد أن لمس الحاجة لتطوير المناهج، وعدم البقاء في أسر كتب المختصرات القديمة؛ والتي لم تعد صالحة ولا مناسبة للجيل الجديد وللحاجة لإضافة علوم جديدة يتعلمها الناشئة.

٥ - ونجح مسعى الشيخ طاهر في إنشاء مطبعة حكومية تقوم بطبع المؤلفات العامة والكتب المدرسية.

٦ - استمر الشيخ طاهر في الاهتمام بتعليم الطلاب وتربيتهم، فرغم أنه فصل من

وظيفته وهرب من دمشق، إلا أنه كان لا يبخل بتقديم النصيحة الصادقة لترشيد التعليم في دمشق، فلما أصبح تلميذه الأستاذ كرد علي وزيراً للمعارف لم تنقطع الرسائل بينهما، والتي كان يطلب فيها كرد علي النصيحة والمشورة من شيخه.

ومما نقله كرد علي في كتابه «كنوز الأجداد»: اقتراح الجزائري بتعليم طلبة الابتدائية مبادئ الصناعة، وأنه يمكن تجربة ذلك في مدرسة واحدة بداية، وضرورة الحرص على التربية الخُلقية للطلاب، وعدم الاقتصار على التعليم فقط.

ثانياً: في قطاع المكتبات العامة:

١ - بعد أن لاحظ الشيخ طاهر الجزائرى إهمال عدد من المشرفين على دور الكتب الوقفية في المساجد والمدارس من جهة، وزهد كثير من أهل دمشق بكنوز مكتبات المنازل؛ سعى مع عدد من رفاقه لدى والي دمشق مدحت باشا لتكوين مكتبة عامة تجمع الكتب المخطوطة والنادرة في مكان واحد، وفعلاً تم في سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٨٠م) تأسيس المكتبة الظاهرية كأول مكتبةٍ عامةٍ في تاريخ دمشق الحديث، وذلك في مقر المدرسة الظاهرية، والتي أصبحت من أهم المكتبات التي تحتوي على المخطوطات العربية والإسلامية، وعين أميناً لها الشيخ أبو الفتح الخطيب -من رجالات دمشق، وهو والد العلامة محب الدين الخطيب صاحب المكتبة والمطبعة السلفية-.

وقد لقي هذ المسعى معارضة شديدة من المنتفعين بسرقة الكتب من نظار المكاتب وتوعدوه وهددوه بالقتل.

٢ - استمر الشيخ طاهر بتزويد المكتبة الظاهرية بما تقع يده عليه من نفائس الكتب والمخطوطات، ويحث الناس على شراء الكتب وإهدائها إلى المكتبة.

٣- لإداركه المبكر لأهمية الضبط الببليوجرافي سعى في تصنيف وطباعة فهارس للمكتبة الظاهرية، مما شهرها بين العلماء والطلاب والمستشرقين، وجعلهم يفدون إليها أو يراسلون الجزائري مراسلات خاصة ليطلبوا منه مخطوطات بعينها، ومنهم: المستشرق جولدتسيهر، للاستفادة من ذخائرها.

٤- وحرص الشيخ طاهر على أن تكون هناك مكتبة عامة في كل مدينة، ولذلك كان في جولاته الدعوية لحمص وحماة وطرابلس وغيرها من المدن يحث الناس على تأسيس المكتبات والمدارس.

وبسبب هذا الحرص تم تعيينه -أيضاً- مفتشاً في سنة (١٨٨٠م) على خزائن الكتب في ولاية سورية ومتصرفية القدس، وفي زيارته للقدس حث الشيخ راغب الخالدي على إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، وعاونه في ذلك، ووضع لها فهرساً خاصّاً.

٥- وأورد كرد علي في كتابه «كنوز الأجداد» رسالة من الشيخ طاهر يقترح فيها عمل مكتبة عامة في الآستانة، تجمع فيها الكتب النادرة فقط أو أحد نسخها إذا كانت مكررة من المكتبات العامة في المساجد والمدارس، ويوضع لها سجل يوزع على جميع المكتبات، وبذلك لا تفرغ المساجد والمدارس من الكتب، ولا يتضرر العامة لعدم حاجتهم لهذه الكتب في الغالب، وتحفظ هذه النوادر وتتاح للمهتمين.

ثالثاً: في قطاع العلماء والشباب الواعد:

من أبرز نتائج جهود الشيخ طاهر الجزائري: أنه صنع جيلاً من الشباب أصبح فيما بعد من قادة النهضة واليقظة، وكان لهم بالغ الأثر في بلادهم ومجتمعاتهم، مثل:

محمد سعيد الباني، ومحمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، مما يدل على نجاح أسلوب الشيخ طاهر، وعلى الأثر الكبير الذي خلفه وراءه في نفوس الشباب.

فقد كان الشيخ طاهر يقيم اجتماعاً أسبوعيّاً بعد صلاة الجمعة في منزل رفيق العظم، عرفت باسم: (حلقة طاهر الجزائري)، يحضرها كبار علماء دمشق مثل: الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال القاسمي، والشيخ سليم البخاري، والشيخ أبو الخير عابدين، والشيخ عبد القادر بدران، وعدد من الشباب الواعد أمثال: محمد علي مسلم، ورفيق العظم، محمد كرد علي، أحمد النويلاتي، وشكري العسلي، وسليم الجزائري، وفارس الخوري، ومحب الدين الخطيب، وعبد الحميد الزهراوي، يتدارسون العلم والمعرفة، ويبحثون في شؤون الأمة وقضاياها، عرفت باسم: (حلقة الشيخ طاهر)، وبقيت تقام حتى بعد سفر الشيخ إلى مصر.

ونتج عن هذه الحلقة: تواصل العلماء لحلول لبعض القضايا العلمية والمشاكل التي تعترض رفعة البلاد العربية، كما أنها جذرت لدعوة الاجتهاد والبحث والنظر والعودة للكتاب والسنة، وحرب الجهل والخرافة والبدع، وكانت تندد بالقمع والاستبداد وسوء الإدارة، وتطالب بالحرية والعدل والنظام.

وكان يستقبل الطلبة بغرفته بمدرسة عبد الله باشا، ولا يبخل عليهم بالنصح والتوجيه، وأيضاً لما درس الشيخ طاهر الجزائري في مكتب عنبر؛ والذي يعد أول ثانوية في دمشق، والتي تخرج منها قادة الشام وعلماؤها، كان حريصاً على أن يكسب عقول وقلوب طلابه.

ومن أمثلة رعاية الشيخ لطلابه: موقفه مع محب الدين الخطيب بعد وفاة والده،

وانقطاعه عن الدراسة في مكتب عنبر؛ حيث سعى شيخه الجزائري ليخلف محب الدين أباه في دار الكتب الظاهرية، ولأنه صغير سينوب عنه من يقوم بها حتى يبلغ سن الرشد، وفي فترة انتظار بدأ الدراسة للالتحاق مرة ثانية بمكتب عنبر، صار الشيخ طاهر ينتقي لتلميذه محب الدين الخطيب من مخطوطات الظاهرية لشيخ الإسلام ابن تيمية وأضرابه فيكلفه بنسخها، فتوسعت ثقافة محب الدين العلمية، وانتفع بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته السلفيّة، وأشغل وقته وانتفع بأجرة النسخ.

وأوصاه بالتردد على العلماء: أحمد النويلاتي، وجمال الدين القاسمي، ومحمد علي مسلم، حيث كانت لهم غرف في مدرسة عبد الله باشا العظم؛ حتى يطور من علمه.

ولذلك كان محب الدين الخطيب يقول عنه: "مِن هذا الشيخ الحكيم عرفت عروبتي وإسلامي".

أما محمد كرد علي؛ فيقول عن أستاذه الجزائري: "وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (١٣٣٨هجري) حميد الأثر".

وكان يحث أهل الكفاءة على إنشاء الصحف السياسية والاجتماعية والمجلات العلمية والأدبية، ومطالعة الصحف والمجلات المفيدة.

ومما نُقل عن الشيخ طاهر في إرشاد المدرسين بكيفية التعامل مع الطلبة قوله: "إن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له: إن هذا مستحيل! بل علموه، فلعل اشتغاله هذه الثلاثة الأيام بالنحو، تحببه إليه".

رابعاً: في قطاع التأليف:

مرّ معنا أن الشيخ طاهر الجزائري ألف الكثير من الكتب المدرسية ليرفع من مستوى العملية التعليمية، ودوره في نشر وبعث تراث شيخ الإسلام في أوساط طلبة العلم.

وأيضاً كان له دور مهم في إعادة طباعة ونشر بعض الكتب المهمة التي ساهمت بقوة في ترسيخ اللغة العربية والأخلاق، وفتح الأذهان للبحث والنظر وترك الجمود والتعصب، وكان ذلك إما بنشره كاملاً أو اختصاره وتهذيبه، مثلاً: نشر كتاب «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» للراغب الأصفهاني، وكتاب «الأدب والمروءة»، وكتابي «الأدب» الكبير والصغير لابن المقفع، وكتاب «روضة العقلاء».

واختصر كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «أمثال الميداني».

وألف عدداً من الكتب لتقريب وتحقيق بعض المسائل والعلوم بعيداً عن الحشو والتكرار مثل كتبه: «التّبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان»، و«توجيه النَّظر إلى أصول الأثر»، و«الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية»، و«التقريب لأصول التَعريب»، و«تمهيد العُروض في فنِ العَروض».

وألف في العلوم الطبيعية كتابه: «دائرة في معرفة الأوقات والأيام»، وهو في علم الميقات.

وكان حريصاً على حث المسؤولين على طباعة الكتب ونشرها، ومن ذلك: أنه عاتب شيخ العروبة أحمد زكي باشا حين تلكأ في طباعة عدد من الكتب النادرة، بعد أن

تم اعتماد مبلغ عشرة آلاف جنيه لها من قبل وزير المعارف في مصر، لكن بسبب التأخير في الطبع بحجة التحقيق والتدقيق تم إلغاء الاعتماد بعد خروج الوزير من الوزارة، فعاتبه الشيخ طاهر وقال له: "لقد أسأت إلى الأمة العربية بإبطائك في إخراج الكتب للناس! وإذا ادعيت أنك تقصد: نشرها سالمة مشفوعة باختلاف النسخ والتعاليق، فالتأنق لا حد له، ويكفى أن ينتفع الناس بالموجود"، وبقي غاضباً منه ولا يكلمه إلا بتكلف!!

رحيله عن دمشق إلى مصر:

في عام (١٨٨٦م) أقالت الحكومة العثمانية الشيخ طاهر من وظيفة التفتيش بالمدارس الابتدائية؛ لضيقها من أفكاره الإصلاحية، فلم يفت ذلك في عضده بل زاد نشاطه، فترك التدريس ومن يومها رفض قبول أي وظيفة حكومية، ولكنه بقي يدرس ويقوم بجولاته في مدن سوريا لنشر العلم، حتى قامت السلطات العثمانية بتفتيش بيته -وهو غائب عنه- سنة (١٩٠٧م) بحثاً عن منشورات ضدها، وذلك بسبب وشايات كاذبة عن صلة الشيخ ببعض الجمعيات الساعية لمعارضة السياسية العثمانية والمطالبة باللامركزية العثمانية، وأشيع بأن دعوة الشيخ إلى الإصلاحات السياسية والإدارية تتعارض مع الأمن والاستقرار.

فقرر السفر لمصر، حيث كان يتواجد فيها عدد من أصدقائه وطلابه أمثال: محب الدين الخطيب، ومحمد كرد علي، ورفيق العظم، ومحمود الجزائري، وحقي العظم، ورشيد رضا، وغيرهم، وسار على طريقته ومنهجه في نشر العلم والدعوة إليه، وألف في مصر عدة كتب، وكتب عدة مقالات لجريدة «المؤيَّد»، وغيرها.

وقد رفض في مصر أن يقبل الهبات أو الوظائف على فقره، وكان يعتاش من بيع

بعض كتبه ومخطوطاته، كما كان يفعل في دمشق بعد إقالته من وظيفته، وساعده في ذلك عدم تزوجه وزهده في متاع الدنيا، ولكنه لم يكن يبيع كتبه إلا لمن يعرف قيمتها من العلماء والباحثين أو لبعض المكتبات العامة، وكان -أيضاً- يبيعها لهم بثمن زهيد بالنسبة لما يمكن أن يدفعه له المستشرقون وتجار المخطوطات والنوادر، ولكن من إخلاصه للعلم ولأمته كان يضن بهذه الكتب أن تفارق بلاد العروبة والإسلام.

وسرعان ما عرف فضله ومكانته العلمية أعلام مصر ومثقفوها أمثال: الشيخ علي يوسف، وأحمد زكي باشا، وأحمد تيمور باشا، والشيخ أحمد شاكر -محدث الديار المصرية- يعد من تلاميذ الشيخ طاهر الجزائري في مصر.

وفي مصر قابل الأمير عباس الخديوي، ولأن طاهر الجزائري رجل مؤسسات فقد اقترح عليه تأسيس مدرسة للغة العربية تكون مقصداً للطلاب من كل جهة، وتأسيس دار للترجمة مع مطبعة تطبع الكتب المترجمة، مما يدل على رجاحة عقل الجزائري الذي سعى لبعث العربية والاستفادة من العلوم المعاصرة في نفس الوقت.

وكان الخديوى سأله عن ملاحظاته على مصر، فأجابه الجزائري بقوله: "شيئان:

أحدهما: عدم إكمال الأعمال.

والثاني: احتقار الأشغال الجزئية؛ والأمور الكلية إنما تتم إذا أخذت أولاً من أقرب وجه".

وهذا يدل على صحة ما وصف به الجزائري من تفحصه لعلل المجتمعات والدول، ولعل هاتين الملاحظتين لا تزالان سبب ضعف مصر وكثير من البلاد العربية لليوم!

عودته لدمشق ووفاته:

حين وصلت أنباء دخول الجيوش العربية بقيادة فيصل بن الحسين لدمشق سنة (١٩١٨م)، وزوال حكم الاتحاديين عنها؛ قرر الشيخ العودة إلى دمشق -مسقط رأسه-، لكنه مرض ولم يستطع السفر إلا بعد منتصف عام (١٩١٩م).

واعترافاً بفضله ودوره في النهضة واليقظة عيّنته الحكومة العربية: مديراً عاماً لدار الكتب الظَّاهرية التي أسسها قبل أربعين سنة، كما قرر المجمع العلمي العربي الأول الذي يرأسه تلميذه محمد كرد علي ضم الشيخ إليه عضواً عاملاً.

لم تطل إقامة الشيخ في دمشق، فبعد عام وقليل اشتد المرض عليه، وتوفي يوم الإثنين (الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨هـ/الخامس من كانون الأول عام ١٩٢٠م)، ودفن في سفح جبل قاسيون حسب وصيته -رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء-.

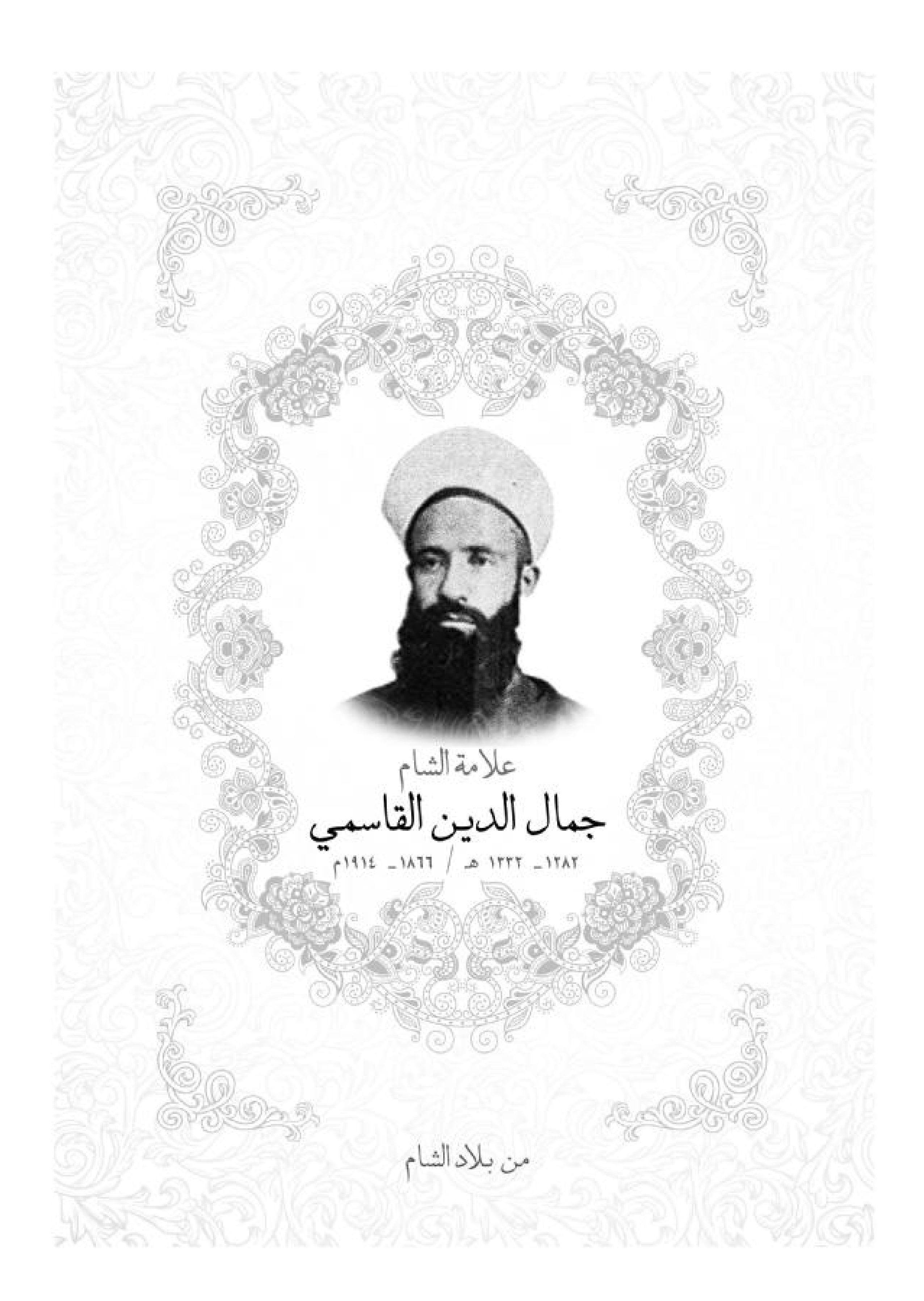
مراجع للتوسع:

o «الشيخ طاهر الجزائري، رائد التَّجديد الدِّيني في بلاد الشَّام في العصر الحديث»، حازم زكريا محيي الدِّين، (٢٠٠١م).

o «كنوز الأجداد»، محمد كرد علي، أضواء السلف، (٢٠١٠م).

o «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، د.محمد رجب بيومي، دار القلم، (١٩٩٩م).

o «علماء الشام في القرن العشرين»، محمد حامد الناصر، دار المعالي، (٢٠٠٣م).


علامة الشام
جمال الدين القاسمي
١٢٨٢ـ ١٣٣٢ هـ / ١٨٦٦ـ ١٩١٤م
من بلاد الشام

٨ - علامة الشام جمال الدين القاسمي

(١٢٨٢-١٣٣٢هـ/١٨٦٦-١٩١٤م)

تمهيد

هو: أبو الفرج محمد جمال الدين القاسمي الكيلاني الحسني الدمشقي، وهو من أحفاد الشيخ عبد القادر الجيلاني -من سلالة الحسن السبط-.

كان إمام الشام في عصره، نشأ مقلداً وصوفيّاً لكنه تحول لمنهج السلف فأصبح داعياً للعلم والاجتهاد، ومحاربة الجهل والتعصب، وقف حياته على العلم والتعليم، وكان هيناً ليناً في دعوته، وبرغم ما ألحقه به أعداؤه من الجهلة والمتعصبة من أذى إلا أنه لم ينشغل بهم.

كان من رجالات الإصلاح في نهاية عصر الدولة العثمانية، وله صلات ومراسلات بعلماء عصره المصلحين في العديد من البلدان، فقد زار لبنان ومصر وفلسطين والأردن والمدينة المنورة، ورغم قصر عمره (٤٩ سنة) إلا أنه ألف ما يزيد عن (١٠٠) مؤلف.

لخص العلامة رشيد رضا منهج القاسمي الإصلاحي في التأليف مقارنة مع شيخه وصديقه العلامة طاهر الجزائري؛ فقال: "والعلامتان الجزائري والقاسمي كانا سيين في سعة الاطلاع وحسن الاختيار، إلا أن الجزائري كان أكثر اطلاعاً على الكتب وولوعاً بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحرياً للإصلاح، وعناية بما ينفع جماهير

الناس"[1].

وقد ترك القاسمي بعد وفاته عدداً من التلاميذ أصبحوا هم علماء الشام، وعدداً آخر أصبحوا هم ساسة الشام وقادته.

ولادته ونشأته العلمية:

ولد جمال الدين القاسمي في دمشق سنة (١٢٨٢هـ/١٨٦٦م)، في بيت علم وتقوى[2]، فقد كان جده عالماً فاضلاً، وكذلك كان أبوه، وهذه ميزة لجمال الدين، فقد درجت العادة في ذلك الزمان أن يتوارث الأبناء وظائف آبائهم الدينية؛ كالإمامة والخطابة والإفتاء والقضاء، فوصل لهذه المناصب الجهلة والحمقى بالوراثة لا بالكفاءة، فانتشر الجهل والتعصب وقلة الدين، حتى كنت لا تجد في مدن وقرى بكاملها من يحسن القراءة والكتابة! بل وصل الحال أن المدارس على ندرتها كانت تدرس اللغة العربية ونحوها بالتركية على شيخ تركي!!

وقد فاقم من انتشار الجهل تواطؤ أصحاب المناصب الشرعية والسياسية على بقاء الجهل مخيماً، حفاظاً على مكاسبهم ونفوذهم، ولذلك كانوا دوماً أعداء لكل مصلح ومحب للعلم.

درس القاسمي بداية على والده الشيخ محمد سعيد القاسمي، ثم درس في مكتب بالمدرسة الظاهرية، وحضر دروس الشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار -شيخ الشام-، والشيخ محمد الخاني؛ الذي علمه أوراد الطريقة النقشبندية، والتي تركها

(١) مقدمة رشيد رضا لكتاب القاسمي «قواعد التحديث».

(٢) ألف الشيخ محمد ناصر العجمي كتاباً في عائلة القاسمي بعنوان: «آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل»، ترجم فيه لجده وأبيه وأعمامه وأبنائهم وأبناء جمال الدين.

لاحقاً.

كان القاسمي يطالع كثيراً من الصغر ولا ينشغل باللعب مع أقرانه، ولذلك وجد في أوراقه عدة دفاتر فيها ملخصات ومنتخبات من مطالعته في الكتب -طبعاً نقصد: المخطوطات- أطلق عليها اسم: "سفينة"، وعمره (١٥) سنة!!

وقد كان محافظاً على وقته، وله همة عالية في القراءة، قال عن نفسه: "وقد اتفق لي -بحمده تعالى- قراءة «صحيح مسلم» بتمامه رواية ودراية في أربعين يوماً، وقراءة «سنن ابن ماجه» كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة «الموطأ» كذلك في تسعة عشر يوماً... فدع عنك الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل".

وقد حبب للقاسمي القراءة حتى قيل: إنه قرأ واقتنى غالب ما طبع في عصره من كتب، وبيته يحتوي على مكتبة أسسها جده الشيخ قاسم، ووسعها أبوه، ونماها القاسمي بعد وفاة والده حتى تركها وفيها (٢٠٠٠) مجلد، وجعل لها غرفة خاصة، وصنع فهرساً بكتبها.

وتتميز مكتبة آل القاسمي بتنوعها الواسع، وعدم اقتصارها على الكتب الشرعية، وأوقفها على ذريته وطلبة العلم، ونشر إعلاناً بذلك في الصحف، وهي لليوم مفتوحة للباحثين، فجزى الله أحفاد القاسمي على رعايتهم لوصية ووقف جدهم.

ولتميزه في طلب العلم وعدم اكتفائه بمكانة أبيه طلب بعض الطلبة منه أن يشرح لهم بعض مقدمات العلوم وعمره (١٤) سنة، فكان يدرسهم بعد المغرب قبل موعد درس أبيه، الذي كان يواظب على حضوره.

نشاطه العلمي والدعوي:

بدأ نشاطه الدعوي وعمره (٢١) سنة حين طلب بعض الفضلاء من والده سنة (١٣٠٣هـ) أن يرسل جمال الدين ليكون إماماً لهم في مسجدهم في الصلوات الخمس، ويقيم الدروس لهم، فأذن له والده، فأحيى جمال الدين مسجدهم بإمامة الصلوات وبدروسه في الصباح وبين العشائين.

ثم أصبح مدرساً في مدرسة عبد الله باشا العظيم؛ والتي كانت إحدى حصون الدعوة إلى الإصلاح في العاصمة الأموية؛ بحسب وصف العلامة محب الدين الخطيب، إذ كان من المستفيدين منها، وكان من المدرسين فيها العلامتان: طاهر الجزائري وجمال الدين القاسمي، ولكل واحد منهما غرفة يستقبل فيها تلاميذه.

وبسبب تميزه في التعليم والإصلاح تم اختياره -فيما يبدو- من قبل الوالي ضمن عدد من الفضلاء سنة (١٣٠٩هـ) لإلقاء دروس عامة في شهر رمضان في بعض النواحي من سوريا، فذهب إلى وادي العجم، وسجل يوميات تلك الرحلة في كتاب بعنوان: «بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم»، وفي السنة التالية اختار أن يذهب إلى قضاء النبك، وألف فيها «حُسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك»، وطلب -أيضاً- في السنة التي تليها فذهب إلى بعلبك، وكرر الذهاب إليها في السنة التي تليها.

ثم يبدو أنه طمع في تلك الرحلات بعض الطامعين البطالين الذين لا يهمّهم سوى المكافأة المالية! فأبطلت الدولة تلك الرحلات، ويعلق القاسمي على ذلك بقوله: "مع أن بها النفع العام، لمن قام بها حق القيام".

ويبدو أن هذه الرحلات فتحت عيون القاسمي لأحوال البلد ومقدار الجهل والخرافة والظلم الذي يحيق بالناس.

وفي سنة (١٣١٧هـ) توفي والده فحزن عليه كثيراً، وقد قام العلامة عبد الرزاق البيطار والعلامة طاهر الجزائري بزيارة والي الشام برفقة القاسمي لتنصيبه مقام والده في إمامة وخطابة وتدريس مسجد السنانية -وهو المسجد الذي كان يؤمه والده وجده من قبله-، فتولى الإمامة والتدريس فيه للطلبة والعامة، وألف فيه كثيراً من كتبه وأهمها: تفسيره «محاسن التأويل» بين عامي (١٣١٧-١٣٢٩هـ).

تحوله لمنهج السلف، وما لقي من مصاعب بسبب ذلك:

نشأ القاسمي -مثل أهل عصره- على المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية والطريقة النقشبندية، ولكن لكونه طالب علم ذكيّاً ومتميزاً، ولأن والده وجده كانا من العلماء، ولكونه كثير المطالعة؛ فقد سهل عليه أن يكتشف خطأ ما هو عليه، وأن الحق هو في اتباع القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح.

وليس بين أيدينا تصريح له أو لغيره بكيفية أو بتاريخ انتقاله لمنهج السلف على غرار قصة تحول رشيد رضا التي كتبها بنفسه، لكن لدينا بعض الإشارات التي قد تساعد على ذلك.

وقد يكون السبب في عدم تدوين هذه القصة هو: طبيعة البيئة التي عاش في ظلها القاسمي، فهو كان في بيئة مقلقة له أمنيّاً، فالرسائل والكتب مراقبة، وبيته مهدد في أي لحظة بالتفتيش والبحث عن كتب أو رسائل من دعاة الإصلاح، فمثلاً: حين كان يتراسل القاسمي مع بعض أصدقائه ويراد الإشارة إلى محمد كرد علي فإنهم يعبرون عنه بقولهم "صاحب اسم مفعول اقتبس"، نسبة لمجلته «المقتبس»!!

فإذا بحثنا عن سبب تحوله لمنهج السلف سنجد أن القاسمي عاصر الشيخ طاهر

الجزائري؛ والذي اشتهر ببعث كتب شيخ الإسلام من خلال نسخها وبيعها بأثمان رخيصة في سوق الوراقين، كما نجد أن القاسمي كان يحضر حلقة الشيخ طاهر الكبرى، بل كان زميلاً له في مدرسة عبد الله باشا، وله غرفة يلتقي الطلاب فيها سنة (١٣١١هـ) تقريباً، ونجد أن طاهر الجزائري هو الذي سعى في تنصيب القاسمي إماماً محل أبيه، وسنجد أن القاسمي رافق الشيخ طاهر الجزائري ليل نهار في سنة (١٣٢٣هـ) قبل هجرة الجزائري لمصر، كما أن الجزائري شارك القاسمي في تنقيح بعض مباحث كتابه «قواعد التحديث».

ومن المتفق عليه بين المؤرخين لتلك الفترة: أن الشيخ عبد الرزاق البيطار -وهو من أجل علماء الشام- كان والقاسمي صديقين حميمين؛ برغم أن البيطار أسن من القاسمي بثلاثين سنة!! ومعلوم أن البيطار كان -أيضاً- على خلاف منهج السلف ثم تحول إليه، لكنه عرف ذلك متأخراً بخلاف القاسمي، وقد اشتهرت كلمة البيطار للقاسمي بخصوص تحوله لمنهج السلف مبكراً: "يا جمال.. احمد الله على أن انتهيت وأنت في سعة من عمرك، ولحيتك سوداء، فتتمكن من الاستمتاع بعقلك، ويتسع الوقت لنشر فضلك".

ومعلوم أن البيطار -أيضاً- كان من رواد حلقة طاهر الجزائري، فالراجح عندي: أن لطاهر الجزائري دوراً مركزيّاً في تحول البيطار والقاسمي لمنهج السلف، برغم أن القاسمي هو الذي اختص واشتهر بنشر منهج السلف في الشام بعد عصر ابن تيمية وابن القيم، لأن القاسمي كان رجل عامة والجزائري كان رجل خاصة.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل القاسمي يقول عن طاهر الجزائري: "الشيخ المفيد والمرقي الوحيد"!!

أما متى كان ذلك؟ فليس هناك تاريخ مؤكد إلا إشارات عامة أيضاً، ففي سنة (١٣٠٦هـ) ختم القاسمي أحد كتبه بقوله: "تم على يد مختصره الفقير محمد جمال الدين أبي الفرج القاسمي الأشعري الدمشقي النقشبندي الخالدي الشافعي"، وهذا يحدد لنا أن نبحث عن تاريخ تحوله بعد هذا التاريخ.

سنجد أن طاهر الجزائري في سنة (١٣١١هـ) تقريباً أمر محب الدين الخطيب -وكان عمره (٩) سنوات- بالتردد على غرفة الأستاذ أحمد النويلاتي وجمال القاسمي بمدرسة عبد الله باشا، ونجد أن القاسمي والبيطار في سنة (١٣١٣هـ) يتعرضون لمحنة عرفت باسم: "حادثة المجتهدين"، حيث لفق لهم بعض الحاسدين تهمة ادعاء الاجتهاد!! وهي تهمة كانت رائجة في عصر الجمود والتعصب والتخلف، بينما يتهم السلفيون اليوم بالجمود!!

ونجد أن القاسمي يكتب في رسالة منه للعلامة نعمان الآلوسي سنة (١٣١٦هـ) فيقول: "فإلى الله المشتكى من جماعة نبذوا الآثار ظهريّاً، وأضحى مذهب السلف بينهم نسياً منسيّاً! خلا جماعة من أحبابنا الصادقين، فإنهم في مشربهم السلفي عقد الشام الثمين، وقد نالتنا وإياهم محنة سلفت من نحو ثلاثة أعوام"، ويقصد: حادثة المجددين.

وهذه الرسالة هي رد على الرسالة التي أجاز فيها الآلوسي القاسمي، وأوصاه في آخرها بمنهج السلف؛ فقال له: "وأوصي المجاز -القاسمي- باتباع مذهب السلف، فإنه أسلم، بل أعلم وأحكم، والسلوك في طريقهم الأقوم"؛ وذلك سنة (١٣١٥هـ).

وهذا يدل على أن القاسمي لم يعد سلفيّاً فحسب بل إن حوله مجموعة سلفية.

وأيضاً نجد القاسمي في ترجمته لوالده "بيت القصيد في ترجمة الوالد السعيد" يصرح بأن والده انتهج منهج السلف في آخر حياته، ووالده توفي سنة (١٣١٧هـ)، وكان والده وأخوه محمد عيد قد انتصروا له حين أوقفه المفتي سنة (١٣١٣) من دون بقية زملائه في حادثة المجتهدين، وهذا فيه إشارة لتأييدهم لمذهب جمال؛ خاصة أن والد جمال كان يحضُر هذه المجالس.

ومن هذا كله يمكن أن نقول: إن القاسمي بدأ في التحول للسلفية من سنة (١٣١٠) تقريباً أو قبلها بقليل، ولكنه بقي يتطور حتى وصل لمرحلة رضي فيها عن نفسه وهي عام (١٣٢٠)، ولذلك نجده يصرح أنه غير راض عن كل ما كتبه قبل ذلك العام.

وبعد أن حاولنا تلمس كيفية وتاريخ تحول القاسمي للسلفية، نعرض للمحن التي تعرض لها بسبب ذلك، وقد لخص القاسمي ما تعرض له من اضطهاد في رسالة شخصية لرشيد رضا:

١ - في سنة (١٣١٣) اتهم وبعض أصدقائه الذين وصفهم بالسلفيين بالاجتهاد، ولأنه كان أصغرهم سناً فقد أوقف ليلة من دونهم.

ويجب أن نلاحظ أن التهمة الأولى للقاسمي ورفاقه وعلى رأسهم الشيخ عبد الرزاق البيطار كانت هي: تهمة الاجتهاد، ومحاولة قراءة كتب تفسير القرآن والحديث وكتب أصول الفقه، ولم توجه لهم تهمة الوهابية إلا بعد سنوات، كما أنهم في الجلسات التي اتهموا فيها بالاجتهاد كانوا -أيضاً- يدرسون كتاب «كشف الغمة» للشعراني الصوفي، وهذا يؤكد تطورهم التدريجي للسلفية بترك التعصب والجمود الفقهي بداية.

٢ - في سنة (١٣١٨) تم إيقاف السيد عبد الحميد الزهراوي، مما أثار الخوف في نفوس أصدقائه ومنهم القاسمي؛ والذي جاءه البوليس ليلاً وطلب منه نسخته من كتاب الزهراوي الذي أوقف بسببه، مما يدل على شدة محاربة الأفكار الإصلاحية في ذلك الوقت.

٣- وفي سنة (١٣٢٢) زار دمشق قادماً من مصر المحامي أحمد الحسيني، وكان القاسمي تعرف به في القاهرة قبلها بسنة، وأكرم القاسمي ورحب به، فلما جاء الشام ذهب لزيارته قياماً بواجبه، فاستدعي من الوالي وحقق معه حول سبب زيارته له، وأمر القاسمي بقطع الصلة به، حيث اتهم بعض الوشاة الحسيني بأنه معادٍ للحكومة ومن دعاة الاجتهاد!

٤ - وفي سنة (١٣٢٤) اتهم الشيخ عبد الرزاق البيطار بأنه وهابي، وحقق معه ومع بعض طلابه، مما أثار الخوف والقلق في نفوسهم، واتهم القاسمي معه في ذلك، لكن ما أنقذه من التحقيق أنه كان مسافراً مع الشيخ طاهر الجزائري إلى صيدا، وبقي هناك لمدة شهرين قلقاً؛ حتى هدأت الأمور وعاد.

٥ - وفي رمضان من نفس السنة (١٣٢٤) أقام عليه الجامدون والمتعصبون والذين يسميهم القاسمي بالحشوية -كان يطلق قديماً على أهل السنة، فأصبح اليوم لقب أعدائهم- بسبب كتاب مجموع الأصول، والذي جمع فيه بعض الرسائل حول الاجتهاد ومن ضمنها: رسالة لابن عربي الصوفي، لأن منهج القاسمي صدم هؤلاء المتعصبة الصوفية بكلام رموزهم.

فكانوا يجتمعون في المسجد الأموي من العصر وحتى آخر الليل يسبون القاسمي ويتوعدونه لولا تدخل بعض الفضلاء.

وقد كان القاسمي في تلك الفترة يعيش فترة صعبة قال عنها: "ولكن كيف كان الصحب والآل، في هذه الليالي؟ حدث ولا حرج!".

٦- في عام (١٣٢٦) تم تفتيش منزله ومسجده بحثاً عن كتب ومراسلات ممنوعة، وصادروا ثلاثة أكياس كتب مطبوعة ومخطوطة، بقيت شهرين عندهم، ولما تقرر إرجاعها اعترض بعض الحشوية، فتقرر تحويلها للمحكمة الشرعية لفحصها، فبرأه القاضي.

ولكن يقول القاسمي: "فماذا كان حال العائلة والأهل في هذه الأشهر؟".

٧- وفي رمضان من عام (١٣٢٦) يزور محمد رشيد رضا دمشق، ويعقد له درس في المسجد الأموي، فقامت قائمة الحشوية وهيجوا الناس عليه واتهموه بالوهابية، حتى اضطر لمغادرة دمشق، ولزم القاسمي بيته ثلاثة شهور.

أما البيطار فبقي (١٣٠) يوماً لم يخرج من بيته، وذلك خوفاً من أن يتعرضا لاعتداء من أحد في الشارع.

وقد نظم الأمير عادل أرسلان -شقيق أمير البيان الأمير شكيب أرسلان- قصيدة يسخر بها من هؤلاء الحشوية، وتكشف عن عمق الروابط بين المصلحين في ذلك الزمان قال فيها:

يا أيها الفقهاء أول من درى	أن البطاطا شرح متن البامية
إني رأيت الشورباء حزينة	أضحت على أذيالكم مترامية
فكلوا المحاشي والمواشي جملة	تهتز من فوق بقول نامية
أظننتم الدستور حرم أكلها	لا والذي خلق العقول السامية

مــا دخـــل وهـــابيتي في أمـــركم ماذا اخترمـت لتنكـروا إسـلاميه
هــي شـيعة لا تشـتم الكوسـا فـما الـداعي لتكفـيري ودق عظاميـة
مـــاختنتكم في صـــحبة المــــحشي ولا أفسـدت بالتقليـل منه صياميه

هذه الحوادث تعطينا تصوراً عن الأحوال التي كان يعيشها القاسمي ورفاقه من قبل الجهلة والمبتدعة، والذين كانوا رافضين لنشر العلم وفتح باب الاجتهاد.

أما ما تعرض له القاسمي ورفاقه من تنكيل من قبل الحكومة في عهد السلطان عبد الحميد وحكومة الاتحاد والترقي؛ فقد كان شديداً، ففي عام (١٣٢٧) يتهم القاسمي والبيطار بالتحريض على تأسيس جمعية النهضة السورية المناهضة لحكم الاتحاديين والمطالبة بالاستقلال الإداري وقيام حكومة عربية، وأنهم على صلة بأمراء من نجد.

فأنكر هذه التهم، وبين عدم صلته بجمعية النهضة، والتي كان رئيسها محب الدين الخطيب وسكرتيرها صلاح القاسمي شقيقه الأصغر.

دور القاسمي الإصلاحي:

برغم حياة القاسمي القصيرة حيت عاش (٤٩) سنة فقط وكانت مليئة بالحوادث والمحن؛ إلا أنه عُدّ علامة الشام، فقد وفقه الله U مبكراً لطلب العلم والاطلاع الواسع ومنحه الذكاء الحاد، ويسر له معرفة منهج السلف والحق مبكراً وهو شاب.

وهذا كله جعل تأثير القاسمي ممتداً لليوم، فقد تمثل الدور الإصلاحي للقاسمي في ثلاثة محاور:

١ - نشر الكتب المهمة لعلماء الأمة، وتأليف الكتب المهمة لحياة الأمة اليوم:

يلخص لنا القاسمي رؤيته لدور الكتاب في نهضة الأمة ونشر منهج الحق في رسالة للشيخ محمد نصيف -من أعيان مدينة جُدة- يحثه فيها على طباعة الكتب؛ فيقول: "ولا يخفى فضلكم أن أعظم واسطة لنشر المذهب السلفي هو: طبع كتبه، وأن كتاباً واحداً تتناوله الأيدي على طبقاتها خير من مئة داعٍ وخطيبٍ، لأن الكتاب يبقى أثره، ويأخذه الموافق والمخالف، وأعرف كثيراً من الجامدين اهتدوا بواسطة ما طبعناه ونشرناه، اهتداء ما كان يظن، والحمد لله على ذلك".

ويبدو أن تحول القاسمي لمنهج السلف أصلاً كان بسبب بعض الكتب التي كان الشيخ طاهر الجزائري ينشرها، ويمكن أن نتحدث عن اهتمام القاسمي بالكتب في النقاط التالية:

أ- حرص القاسمي على نشر الكتب النافعة؛ وخاصة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكان هذا غالب موضوعات رسائله للعلامة الآلوسي، وقد نصحه الآلوسي مراسلة الشيخ نصيف بخصوص طباعة آثار ابن تيمية، فكتب له القاسمي سنة (١٣٢٧هـ): "أخي تعلمون أن شيخ الإسلام توفي بدمشق وأن رسائله -بحمد الله- معظمها -والحمد لله- في دمشق، وإن فقد منها شيء أو طار من الشام لغيرها إلا أن في المكتبة العمومية -يقصد: المكتبة الظاهرية التي أسسها طاهر الجزائري- عندنا من رسائله وقواعده في كتاب «الكواكب»؛ الذي جمعه الشيخ ابن عروة، وكتب فيه جملة وافرة من تآليف شيخ الإسلام، وبها ما يكفي ويشفي...

فإن رأيتم أن نسعى لنسخ كل ما هو عندنا بالشام بحيث لا نبقي له -قدس الله روحه- شيئاً؛ يكون ذلك من أكبر حسناتكم".

ب- كما أن القاسمي كان يحث بعض الأمراء والملوك على طباعة الكتب ونشرها بين العلماء، كما فعل مع سلطان مراكش حين زار دمشق.

جـ- وكان القاسمي يحرص على طباعة كتب بعض العلماء المتبوعين من المقلدة والمتعصبة، انظر ماذا كتب القاسمي لأحد أصدقائه في رسالة سنة (١٣٢٨): "ظفرنا بنسخة ورسالة مهمة للبركوي، انتصر فيها للشيخين فيما ذهب إليه، لا بل زاد عليهما كما ترون من مطالعتها، وقد عانيت كثيراً في تصحيحها، لأن الأصل المطبوع محرف للغاية.

وهذه الرسالة تأثيرها على الجامدين والجهمية أكثر من تأثير مؤلفات الشيخين في الموضوع، لأن الإمام البركوي شهرته عظيمة، ولا يظن الجامدون بمثله أن يصدع بما صدع به، لأنهم يحسبون أن هذا البحث لم ينفرد به إلا الحنابلة، وأما رجل حنفي تركي يوافق على ذلك، فلا يخالونه، إلا أن هذا الرجل رحمه الله لقد أبان عن فضل عظيم، ودين قويم، وقلب سليم".

د- أما كتب القاسمي نفسه فقد زادت عن مئة كتاب، وغالبها مما يحتاجه الناس ويسد ثغرة عندهم، ويقدم بديلاً عن الباطل الذي اعتادوه، ومن أمثلة ذلك:

© **كتاباه: «منتخب التوسلات» و«الأوراد المأثورة»**: فحين وجد أن الناس تتمسك بأوراد للقطب الفلاني والولي العلاني، رغب بأن يستبدل لهم ذلك بأدعية من القرآن وأدعية الفرج بعد الشدة، وسماها: «منتخب التوسلات»، وذلك في سنة (١٣١٥).

ثم جمع أوراد الصباح والمساء وما يقال في السَّحر مما صحح وثبت، وسماها: «الأوراد المأثورة» في سنة (١٣١٩)، وكتب القاسمي عن ذلك: "وحبذا اليوم الذي نرى فيه لا ينتشر إلا المأثور، ولا يعتقد إلا الحق، وما ذلك على الله بعزيز"؛ والحمد لله اليوم غالب الفضائيات والإذاعات تنشر ما ورد في السنة الصحيحة مما تقر به عين القاسمي، ولعلها تكون في ميزان حسناته -إن شاء الله-.

© **كتابه «دلائل التوحيد»**: وقد كتبه سنة (١٣٢٦) ردّاً على مقال في صحيفة «المؤيد» تتضمن إنكار وجود الله، وبعض الشبه عن الإسلام، وذلك حين رفض أحد كبار علماء الشام الرد بمقال على المقال الذى انتشر في آلاف النسخ من الجريدة، واكتفى بالرد عليه في درسه بالمسجد الأموي!!

وهذا المنطق الأعوج لا يزال لليوم هناك من يسير عليه! أما القاسمي فقد انتصب للدفاع والرد بكتاب يطبع بالآلاف، ويكون بين يدى الناس الذين يحتاجونه وهم المثقفون الذين يقرؤون الجرائد التي تنتشر فيها هذه التفاهات.

© **كتابه «قواعد التحديث»**: وقد صنفه عام (١٣٢٠)، وراجعه مع الجزائري سنة (١٣٢٤)، وطبع سنة (١٣٥٢)، أي: بعد وفاته بعشرين سنة.

والكتاب يقوم على جمع كلام العلماء السابقين، وهو ما عابه محمد كرد علي على القاسمي، لكن حجة القاسمي أنه أراد: أن يجابه المتعصبة الجامدين الحشويين الرافضين للبحث في الأحاديث وتمييز الصحيح من السقيم بأقوال علمائهم المتبوعين والمشهورين.

© «**شذرة من السيرة النبوية**»: رسالة صغيرة، ألفها وطبعها في مطبعة «المنار»

أثناء زيارته للقاهرة سنة (١٣٢١)، وكان الغرض منها: أن يكون بديلاً لما يقرأ في الموالد من كتب بدعية تحتوي على الكثير من الخرافات والأكاذيب.

وهي من فصلين: إعجاز القرآن، وغرر من الوصايا النبوية.

وختمها بأربع فوائد: أصل قصة المولد، التحذير من البدع في تلاوة قصة المولد، حكم القيام عند ذكر الولادة، من أحدث المولد.

© «**إصلاح المساجد من البدع والعوائد**»: وذكر القاسمي أن سبب تأليف هذا الكتاب هو: كثرة البدع في المساجد، مما جعل إزالتها أولوية لدى المصلحين.

© «**موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين**»: كان القاسمي لما زار مصر سنة (١٣٢١) برفقة الشيخ عبد الرزاق البيطار التقى بالشيخ محمد عبده، وحضر بعض دروسه، وزاره في بيته، وأصبح بينهما صلة قوية على غرار صلة البيطار بعبده الوثيقة من قبل، ومن الأشياء التي سأل عنها القاسمي عبده: هل هناك كتاب تنصح أن ندرسه للعامة؟ فكان جواب محمد عبده: إن أحسن ما ينفع العامة كتب الغزالي بشرط تجريدها من الواهيات.

ويبدو أن هذا صادف قبولاً وقناعة سابقة للقاسمي تجاه كتب الغزالي، ولذلك فبعد عودته بسنتين شرع في اختصار كتاب «إحياء علوم الدين»، وأخرج لنا كتابه المتميز «موعظة المؤمنين».

© «**قاموس الصناعات الشامية**»: من حرص القاسمي على التأليف ونفع المسلمين ومن بره بأبيه: أنه اقترح عليه تأليف كتاب في نهاية حياته حول الصناعات والحرف في الشام، فسأله أبوه كيف أفعل؟ فأجابه: تستأجر دابة وتذهب لمحل الحرفيين

وتسجل أسماء الصناعات والحرف ثم تدرسها.

وقد فعل والده ذلك، لكنه مات وقد وصل لحرف السين، فأتمه جمال، وخليل العظم، وهو زوج شقيقة القاسمي.

وقد أصبح هذا الكتاب فريداً في بابه، ولم يعرف له مثيل، وهذا يدل على سعة أفق القاسمي واهتمامه بالحياة والصناعة ونهضتها، وعلم التاريخ والاجتماع، وقد قامت دراسات تحليلية كثيرة حول الكتاب عربية وغربية.

© «**إرشاد الخلق للعمل بخبر البرق**»: ألفه سنة (١٣٢٩) لبيان جواز الاعتماد على الوسائل الحديثة للاتصالات في نقل خبر ثبوت شهر رمضان والعيد.

وهو مما يدل على معاصرته للقضايا المستجدة ومواكبته للمخترعات الحديثة، وكان طاهر الجزائري قد حثه على تأليفه.

© «**الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس**»: وذلك لبيان حقيقة الطلاق بالثلاثة وأنه لا يقع، وإلا لأصبح غالب الناس أولاد زنا؛ بسبب قلة دينهم!

© «**محاسن التأويل**»: وهو تفسير قيم كتبه في أربع عشرة سنة، ولم يطبع إلا بعد وفاته بأكثر من أربعين سنة، وقد كانت عائلة القاسمي تعتبره كنزاً، فلما تعرض حيهم للقصف الفرنسي سنة (١٩٢٥)، لم يحمل أولاد القاسمي من بيتهم إلا تفسير والدهم والذي كان في (١٢) مجلداً بخط القاسمي نفسه، ولم يكن له نسخة أخرى.

والتزم القاسمي أن يضمن تفسيره كل ما يقع عليه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم مما يتعلق بتفسير القرآن في موضعه.

كُتب القاسمي كثيرة، ولكن هذه بعضاً منها تدل على سعة أفقه ومعايشته لأحوال

أمته، وحرصه على نهضتها ورفعتها من خلال التأليف كوسيلة إصلاحية، لا فائدة دنيوية من ورائها كحالنا اليوم حيث التأليف عند كثيرين وسيلة لمنصب أو ترقية أو مال.

يقول القاسمي عن أحد الكتب في رسالة لمحمد نصيف: "ويعلم الحق أني لو أوتيت ما يمكنني القيام بطبعه على نفقتي لما تأخرت في طبع كل ما جمعت، ولكن يكفي -كما يقول الأستاذ طاهر الجزائري- الفقير: أن يجمع ويؤلف..".

هـ- وكان القاسمي يطلب من بعض طلبته نسخ بعض الكتب ويعطيه أجراً، بدلاً من أن يذله بقبول الصدقة والزكاة، وكان يحث ويشجع بعض طلبته على تأليف الكتب، وقد شجع تلميذه بهجة البيطار على تأليف بعض الكتب، وأثنى عليه في رسائله الشخصية لبعض أصدقائه.

دور القاسمي الإصلاحي:

٢- نشره للعلم ورعايته لطلابه وتنشئتهم ليكونوا قادة ودعاة متميزين:

لقد تميز القاسمي باهتمامه بطلبته ورعايته لهم في مختلف جوانب حياتهم، ولذلك استمروا على الوفاء لمنهج شيخهم بعد وفاته، وكانوا قادة الشام وعلماءه.

ومن مظاهر اهتمام القاسمي بطلابه ما يلي:

١) كان القاسمي يدرّس في غالب أوقاته وفي كل مكان؛ في مسجده، وبيته وبيوت أصدقائه، وفي الرحلات والمتنزهات، وكان بيته يستقبل أفواج الطلاب من الصباح إلى ما بعد العشاء.

رثاه أخوه صلاح الدين فقال:

كان يقضى النهار والليل بالدرس ... ويحيي الأسحار بالتهليل

قد أذابت حياته لوعة البحث ... فناب الضلوع داء النحول

٢) كان القاسمي يدرّس جميع الطبقات من العامة والخاصة وطلبة الشريعة وطلاب المدارس العصرية، ولكن كان له عناية خاصة بالأذكياء من طلبته.

٣) كان القاسمي يعامل طلابه على أنهم أصحابه وأصدقاؤه؛ فيقول في إجازة كتبها لتلميذه: "طلب مني مصاحبنا وقريبنا الشيخ حامد التقي الإجازة".

٤) كان يحث طلبته على النقاش والحوار معه؛ فمن ذلك قوله لهم: "عليكم أن تفكروا بتفكير خصوم السلفية، وتأتوني بحججهم وشبههم لأرد عليها".

٥) كان يعدّ طلابه ليكونوا دعاة وموجهين للمجتمع، فلما اشتكى إليه أحدهم أن الناس لا يتقبلون منه تدريسه ووعظه، وأنه يريد العودة للدراسة على الشيخ؛ كتب إليه يقول: "إنني علمتك السنين الطويلة لترينا خدمتك للعلم وآثارك في مثل هذه البلاد المتعطشة لأمثالك؛ فاثبت في وظيفتك".

٦) كان القاسمي يهتم جدّاً بتحلي طلابه بالأدب والعقل والذكاء، ولكنه يعرف أن هذا يحتاج إلى تفاعل الطالب مع شيخه، ولذلك نبه القاسمي أحد طلابه بقوله: "بقي علم لا أستطيع تعليمك إياه وهو: أن تكون ذكيّاً بحّاثاً لبقاً، فكن من نفسك كذلك".

٧) كان يحرص على أن يتيح لطلبته الالتقاء بالعلماء والمصلحين الذين يزورونه حتى يرفع من سويّتهم العلمية، وحتى يستفيدوا من أكثر من شيخ، ولا يكونوا أسرى لأسلوبه وطريقته.

٨) ضرب القاسمي للناس المثل بنفسه بطلب العلم وتعليمه، فلما جاءه عبد الوهاب الإنكليزي وصادق النقشبندي -وهما من خريجي المدارس العصرية- لتعلم ما ينقصهم من علوم الدين، طلب منهم القاسمي أن يدرسوه ما ينقصه من علوم الدنيا، فدرس عليهم الجغرافيا والرياضيات، رغم أنهم من جيل طلابه وتلاميذه!!

٩) وكانت النتيجة: أن طلاب القاسمي أكملوا مسيرة شيخهم بنشر الإصلاح والعلم، وإقامة الجمعيات الثقافية، ونشر المؤلفات النافعة؛ مما أحدث نهضة إصلاحية في الشام قضى عليها حافظ الأسد ببعثيته الدموية وعلويته الطائفية، هذه النهضة لا يزال يتحسر عليها المخلصون!!

١٠) مما يبين أهمية وجود تلاميذ للمصلحين يحملون دعوتهم ويبرهنون على نجاح مسعاهم: قول القاسمي: "وقد ظهر لي أخيراً شيء آخر، وهو: أن حق من يصنف في تراجم الرجال أن لا يُترجم إلا ذوي الأثر أو التأثير، فالأول يدخل فيه: من صنف وألف في أي فن كان، بشرط الإجادة لما صنفه أو اخترعه، ما لم يسبق فيه، ويدخل في الثاني: كل عالم غير مؤلف، ولكنه أنجب تلامذة، أو وقف نفسه على التعليم في فن أو فنون، وكان سالكاً سبيل السلف في النصح والصدق والإخلاص والأخلاق"، وقد جمع الله U للقاسمي كل ذلك -إن شاء الله-.

طلاب القاسمي:

قال الأديب حسني كنعان: "تلاميذ العلامة الكبير المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي في دمشق كثيرون، وهم صفوة علماء البلاد الشامية وفضلائها".

ولذلك أرى أنه يمكن أن نقسم طلاب القاسمي إلى ثلاث مجموعات هي:

أولاً: طلابه الذين أصبحوا من علماء الشام:

١ - العلامة محمد بهجة البيطار:

وهو: حفيد العلامة عبد الرزاق البيطار -رفيق درب القاسمي-، كان من أبرز وأكبر طلاب القاسمي، درس عليه أربع سنوات، تولى الخطابة والتدريس في مسجد الدقاق بأمر من جده البيطار، وعمل مدرساً في عدد من المدارس الأهلية والنظامية، فدرس الدين والعربية والفرنسية.

وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق، وكانت باكورة أعماله في المجمع: محاضرة عن "حياة شيخ الإسلام ابن تيمية"، طلب منه الملك عبد العزيز بن سعود سنة (١٣٤٤هـ) إدارة المعهد العلمي بمكة المكرمة، فأقام بها سنين، ودرس بالحرم المكي والمدني، وأصبح عضواً بمحكمة مكة المكرمة -وسنفصل في سيرته في الصفحات القادمة-.

قال عنه ظافر ابن العلامة جمال القاسمي: "كان تلميذاً لوالدي جمال الدين القاسمي، لا بل كان من أخص تلاميذه، إن لم يكن أخصهم على الإطلاق".

وقال ولده عاصم البيطار عن علاقة أبيه بشيخه القاسمي: "غرس في نفسه حب السلفية، ونقاء العقيدة، والبعد عن الزيف والقشور، وحسن الانتفاع بالوقت".

قال في شيخه القاسمي: "ولو طال عمره لرأينا من آثاره النافعة أكثر مما رأينا، ومن نفاسة تآليفه فوق ما شاهدنا، فإن الإستاذ كان في تجدد مستمر، استمده من علوم العصر وحقائقه، وانكشف له به عن كثير من أسرار الشريعة وغوامضها".

وقال -أيضاً-: "أستاذنا الإمام، عالم الشام، وعلم الأعلام".

وكان يذكر شيخه القاسمي دوماً ويترحم عليه، ولذلك سارع إلى مساعدة تلميذه

ظافر القاسمي في نشر تراث أبيه خاصة كتاب «قواعد التحديث»، وتفسير القاسمي «محاسن التأويل».

٢- الشيخ حامد التقي:

كان من أقارب القاسمي وأسن طلابه، درس عليه ولازمه (١٧) سنة، ولذلك كان من أعرف الناس بشيخه.

واصل حمل رسالة شيخه الإصلاحية في التدريس والخطابة في المساجد والتعليم في المدارس، وكان كثير الثناء والمدح للقاسمي حتى سأله سائل: ألا يوجد عالم في دمشق سوى شيخك القاسمي؟

فأجابه: "بلى يوجد في دمشق كثير من العلماء... ولكن هؤلاء العلماء على كثرتهم لم يقم منهم أحد بجهد علمي مثل الجهود التي قام بها أستاذنا المرحوم، فكان مدرساً وواعظاً، وخطيباً وموجهاً، ومصلحاً ومؤلفاً،...

وكان إلى هذا يدرس بالمسجد للعامة وفي البيت للخاصة، والحلقة التي يعقدها في داره يؤمه فيها كبار الشخصيات السورية الذين لهم صيتهم وشهرتهم بالأقطار العربية والعالم الإسلامي، أمثال السادة المرحومين: الأمير شكيب أرسلان، والشيخ طاهر الجزائري؛ للمشاركة في التوجيه، وعبد الرحمن الشهبندر، ومحمد كرد علي، والشيخ جميل الشطي". إ. هـ

ومن تلاميذ الشيخ حامد: الشيخ علي الصابوني، والشيخ محمد مهدى إستانبولي.

٣- الشيخ توفيق البرزة:

كان من طلاب القاسمي المبرزين، والذين كان القاسمي يستشيرهم في المسائل والقضايا.

درس -أيضاً- على الشيخ كامل القصاب -رفيق الشيخ عز الدين القسام-، واشتهر بالدفاع والمناظرة عن الإسلام ضد شبهات المستشرقين والمنحرفين من أهل البدع.

قال عن القاسمي: "إن من يلازمه ويرى علمه وسيرته قلّ أن يعجبه كثير من الشيوخ؛ الذين يدعون التربية وهم غلاظ الأكباد، قساة القلوب!".

٤ - الشيخ عبد الفتاح الإمام:

لازم القاسمي زماناً، وأصبح من حملة منهج وفكر القاسمي الإصلاحي، كان يشبه العلامة طاهر الجزائري في هيئته البسيطة والمتواضعة وترك الزواج.

اهتم بالشأن العام وتأسيس الجمعيات، وحث الناس كثيراً على ذلك، ثم كان من المؤسسين لجمعية "التمدن الإسلامي"، وكتب في مجلتها "التمدن الإسلامي" مقالات قوية، وشارك -أيضاً- في تأسيس جمعية "أنصار الفضيلة"، وجمعية "الشبان المسلمين" وأصبح رئيساً لها.

تفرغ للكتابة والتأليف ونشر الكتب، وكان حريصاً على الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه في تلك المرحلة التي وفدت فيها الأفكار الغربية للشام.

٥ - الشيخ محمد جميل الشطي:

لازم القاسمي واستفاد منه كثيراً، وأصبح مفتي الحنابلة في زمانه.

قال في رثاء شيخه القاسمي:

مهلاً عداة المصلحين عدمتكم ... إني لكم والله غير مسالم

ها نحن بالمرصاد أنصار الهدى ... ندعو إلى الجولان كل مزاحم

إن كان مات القاسمي فإنكم ستـرون منـا كـل يـوم قاسمـي

نحمي طريقته ونرعى عهـده في الحق لا نخشى ملامة لائم

ثانياً: تلاميذه الذين أصبحوا علماء في بلادهم:

١ - الشيخ محمد بخيت المطيعي:

مفتـي الـديار المصريـة، التقـي بالقاسـمي ودرس عليـه العلـوم الفلسـفية لمـا زار القاهرة.

٢ - العلامة أحمد شاكر:

محـدث الـديار المصرية، لازم القاسـمي في القـاهرة، يقـول أحمـد شـاكر: "أسـتاذنا القاسمي Z ، كنت ممن اتصـل بـه مـن طـلاب العلـم، ولـزم حضرتـه، واسـتفاد مـن توجيهه إلى الطريق السوي، والسبيل القويم".

٣ - الشيخ عبد العزيز السناني:

من علماء نجد، رحل إلى القاسمي وأخذ عنه، واستمرت بينهما المراسلة.

٤ - الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع:

من علماء نجد، زار دمشق ولازم القاسمي فيها مدة، ودرس عليه ورغّبه بالعلم.

ثالثاً: من الشخصيات العامة التي تأثرت بدعوته ومؤلفاته:

كان للقاسمي لقاءات وجلسات عامة مع كثير من النخب والشباب الذكي النابه، الذين درسوا في المدارس العصريـة التابعـة للإرسـاليات التبشـيرية أو الدولـة؛ والتـي لم تكن تهتم بالعلوم الشرعية، أو في الجامعات.

كما تأثر الكثير منهم بكتب القاسمي، وذلك أن القاسمي كـان يـدرك مـدى أهميـة

كسب هـؤلاء الشـباب الـذكي المتعلم لصف الإصـلاح الإسـلامي في مقاومـة الخرافـة والجهل في الداخل والغزو الفكري الأوروبي الوافد.

وكانت علاقة القاسمي بهم لا تقتصر على التعليم بل حتى التشـجيع عـلى الكتابـة ومراجعة ما ينشرون، فيكتب القاسـمي في يومياتـه: "زارني بعـد العشـاء سـليم أفنـدي الجزائري ومعه أسعد أفندي بنباشي وبقية رفقتهم، وتـم ما صححته له من مقالة (ميزان التعقل)، وفيها عبارات أشرت عليه بحذفها، والاستعاضة عنهـا، فـلا أدري أيمتثـل أم لا!

نسأله تعـالى أن يجعـل كُتابنـا ونبهاءنـا ممـن يعضـد الـدين، ويـدعم قواعـد اليقـين، ويوقف نفسه على محاسن الإسلام، بمنّه وكرمه".

من أبرز هؤلاء الشباب:

١ - العلامة محب الدين الخطيب:

صاحب المطبعة السـلفية ومكتبتهـا، والـذي كـان لـه دور بـارز في تأسـيس مسـيرة الصحوة الإسلامية المعاصرة.

كان محب الدين صديق شقيق القاسمي الأصغر صلاح الدين، وكان محب الـدين مؤسس جمعية النهضة والتي كان صلاح الدين أمين السر فيها، وبسبب مشاركة شـقيق القاسمي فيها وصغر سن المؤسسين لها حيث كـانوا في العشريـن مـن عمـرهم؛ فقـد تـم اتهام القاسمي واستجوابه من قبل وزارة العدل بدمشق بأنه المحرض والمدبر للجمعيـة من وراء الكواليس، وهو الأمر الذي نفاه القاسمي.

ولكن بالتأكيد أن القاسـمي كـان راضـياً عـن الجمعيـة وأعمالهـا، وهـو مـا سـيتأكد

لاحقاً بدعم القاسمي لمسار أخيه السياسي -الذي تولى رعايته وتنشئته- حين أعلن عودة الدستور سنة (١٣٢٦هـ)، وانضمامه لبعض الأحزاب.

وقد كان محب الدين يحضر بعض جلسات حلقة الشيخ طاهر الجزائري والتي يشارك بها القاسمي، وكان يتردد محب الدين على مدرسة عبد الله باشا؛ التي يدرس بها القاسمي، وكان يلتقي به في بيته مع زملائه الشباب في الإجازات التي يقضونها في دمشق بعد سفرهم للدراسة في إسطنبول.

كتب محب الدين لزميله صلاح الدين معزياً له في وفاة القاسمي؛ فقال: "ذاكرين الليالي الجميلة التي جمعتني وإياك بجامعة الصداقة والإخاء بين جدران جامع السنانية، وفي حلقة الدرس الذي كان فقيد دولة الإصلاح جمال الدين يخترق فيه بحكمته سجف أرواحنا، وحجب أفئدتنا، فيبني هناك ما هدمه جهل معلمينا الآخرين من سعادة الإيمان وطمأنينة اليقين، جزاه الله عن الإسلام بأحسن ما يجزي الله به أولياءه".

ويقول عن فضل القاسمي عليه: "لولا أن الله -سبحانه- تداركنا فقيض لنا آباء روحيين أنقذونا من هذا الجو الخانق، وأقربهم إلى أخي صلاح الدين شقيقه الأكبر علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي وإخوان له في حلقة نورانية كانت تسمى: (حلقة الشيخ طاهر الجزائري)".

ويصف الخطيب دور القاسمي؛ فيقول: "والسيد جمال الدين القاسمي Z مصباح من مصابيح الإصلاح الإسلامي التي ارتفعت فوق دياجير حياتنا الحاضرة في الثلث الأول من القرن الهجري الرابع عشر، فنفع الله بعلمه وعمله ما شاء أن ينفعهم، ثم انتقل إلى رحمة الله تاركاً من آثاره العلمية المطبوعة ما لا تكاد تخلو منه مكتبة قائل بالإصلاح في العالم الإسلامي".

٢- الأستاذ خير الدين الزركلي:

المؤرخ المشهور صاحب كتاب «الأعلام»، تعرف على القاسمي من كتبه وخاصة كتابه «دلائل التوحيد»، ثم التقى به واستفاد منه كثيراً، ترجم له في كتابه «الإعلام» فقال: "إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب، كان سلفي العقيدة، اتهمه حسدته بتأسيس مذهب جديد في الدين سموه: "المذهب الجمالي"، فقبضت عليه الحكومة سنة (١٣١٣هـ) وسألته، فرد التهمة، فأخلي سبيله، واعتذر إليه والي دمشق".

وأكتفي بهؤلاء من قائمة طويلة تضم: د.عبد الرحمن شهبندر؛ الذي أصبح وزير خارجية سوريا سنة (١٩٢٠)، وشكري العسلي؛ الذي أصبح النائب في مجلس المبعوثان، وكان من القادة الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في دمشق سنة (١٩١٦م)، وفارس الخوري المسيحي؛ الذي شارك في تأسيس المجمع العلمي بدمشق، وأصبح وزيراً وممثل سوريا في مجلس الأمن وترأسه فترة، وتولى رئاسة حكومة سوريا، وكان وطنياً فريداً، ومحمد كرد علي العلامة اللغوي المعروف، وغيرهم من المصلحين والأعلام الذين استفادوا من القاسمي ومنهجه وعلمه.

٣- فتح باب الاجتهاد والعمل على مواكبة قضايا العصر وتقديم حلول لمشاكله:

هذا هو المحور الثالث من محاور الإصلاح الذي قام به القاسمي، فالاجتهاد وكسر الجمود والتقليد ومعالجة المشاكل العصرية كانت هي المهيمنة على مسار القاسمي، فلم يكن يقبل بالانزواء عن حياة الناس وقضاياهم، بل كان يدرك تماماً

وظيفة العالم في إرشاد الخلق وهدايتهم، ودوره الطليعي في قيادة الجماهير لا الركض خلفها.

وأجمل بعض معالم هذا الدور الإصلاحي في النقاط التالية:

١ - مواكبة العلوم والمعارف العصرية، ولذلك كان يحرص على مطالعة المجلات والصحف، ومتابعة أخبار المخترعات العصرية، وكان القاسمي يقول: "أسباب الرقي انتشار هذه الثلاثة: المطابع، والجرائد، والمدارس؛ إذا وجهت توجيهاً صحيحاً".

ومن ذلك: قصته في إدراك فائدة الهاتف حين قام بزيارة لمنزل الشيخ محمد عبده -مفتي مصر- في مصر (سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٤م) دون موعد سابق، فلم يجده، وكان بعيداً، فتأسف على ضياع الوقت -وهو الحريص على وقته-، بينما صديق له اتصل بمنزل المفتي وعلم أنه غير موجود فلم يذهب، فعلق القاسمي على ذلك في كتابه عن رحلته لمصر: "فتوفر له الأجرة التي صرفت، والوقت الذي أضعناه، وهذه ثمرة العلوم المكتشفة، والتي عادت على الناس بفوائد لا تحصى".

ويعلق القاسمي على اكتشاف التلغراف؛ فيقول: "ما ظهر من التلغراف هو قطرة من بحر ما سيظهر في العصور التالية من المكتشفات والمخترعات { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل:٨]؛ مما فيه مرتفق للناس، ومنتفع لهم، وخدمة لعامة طبقاتهم".

فيكشف القاسمي بذلك عن بصيرة نورانية ترتبط بالقرآن الكريم، وتحلق في سماء العلم والتقدم.

٢ - كان القاسمي متابعاً للأفكار الجديدة في السياسة والاقتصاد، كما كان دارساً للأفكار القديمة لأهل البدع، يقول القاسمي عن نبز الجامدين للمصلحين: "وإن رأوا

حثه على البذل والإنفاق في سبيل الله، ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء؛ لقبوه: اشتراكيّاً".

مما يدل على معرفته لمفهوم الاشتراكية في ذلك الزمان المتقدم!!

وعلى نفس المنوال نجد القاسمي في كتابه «جوامع الآداب» يفصل في آداب النائب البرلماني لمجلس المبعوثان العثماني؛ فيقول: "النائب مشرع للقوانين أول ما تجب عليه معرفته: أن يحسن علم الحقوق، ويعرف حركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية، ويحسن تاريخ أمته واجتماعها، ويعرف ما يدليها ويرفعها، ويدرك علائق حكومتنا بحكومات أوروبا، وما تم بينا وبينها من المعاهدات، وما نالوه منا من الامتيازات، ويكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والإدارة والقضاء بإحدى اللغات الأجنبية".

مما يدل على عميق إدراك القاسمي للعملية الديمقراطية وآلياتها مبكراً.

٣- كان القاسمي على منهج الأنبياء في إصلاح دين الناس ودنياهم، فلم يكتفِ بتعليم الدين ووعظ المسلمين، بل كان يحرص على إصلاح حال المسلمين بإرشادهم لاستخدام الوسائل العصرية في شؤون دينهم ودنياهم، فها هو القاسمي يؤلف كتاب «إرشاد الخلق للعمل بخبر البرق»، وكتاب «فتاوى الأشراف بالعمل بالتلغراف»، لتسخير الوسائل الحديثة للاتصالات في خدمة الإسلام والمسلمين.

وبالمقابل؛ نجد القاسمي يحث الناس على استخدام السماد الكيماوي بأنواعه، والآلات الزراعية، وضرورة مكافحة الآفات والحشرات المضرة بالزراعة، مما يساعد على نمو الزراعة والعمران في الشام، ومن أجل هذا حث والده على تأليف كتاب «قاموس الصناعات الشامية»؛ والذي يعد لليوم فريداً في بابه.

ولما زار المدينة المنورة كتب في وصف رحلته يقول: "والمدينة في حاجة كبرى إلى مصلح، وأمير غيور، يسعى في تنوير طرقها، واتساع عمرانها، وتمهيد سبل رقيها المادي والأدبي".

٤ - كان القاسمي مؤيداً لسنّ دستور للدولة العثمانية، يتم من خلاله تحديد المسؤوليات والحقوق للناس والحكومة والسلطان، ولذلك حين أعلن الدستور سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) أيده القاسمي، ونقد الذين عارضوا الدستور العثماني من بعض العلماء المأجورين أتباع أبي الهدي الصيادي؛ والذين روجو أن الدستور يحتوي على مخالفات شرعية، فتصدى لهم القاسمي وبين أن الدستور والقانون يشبهان الفروع المدونة في كتب الفقه التي مأخوذها الاجتهاد من المصادر الأربعة: الكتاب والسنة والقياس والإجماع، وأنه قام به علماء بالشرع لهم.

وقد حضر القاسمي حفلاً بمناسبة إعلان الدستور لحزب الأحرار، ألقي فيه صلاح القاسمي كلمة بعنوان: "منزلة القانون من الدين"، ووجد ظافر القاسمي مسودة الخطاب بخط أبيه جمال القاسمي!!

وقد فرح القاسمي بزوال حالة الخوف والكبت، وشيوع الحرية للبحث والعلم، والدعوة التي تدعم انتشار الإصلاح، وهو حال يشابه حالنا اليوم بازدياد مساحة حرية التعبير والدعوة، ونسأل الله -تعالى- أن يجنبنا حالة الكبت من جديد بسبب المكائد والمؤامرات التي يحيكها بعض الفاسدين في الداخل؛ بحثٌ من الأعداء في الخارج والغفلة عن ذلك من قبل المسلمين، كما حدث للشام بعد حكم الاتحاديين حتى ترحم الناس على السلطان عبد الحميد وعرفوا فضله!!

٥ - حث القاسمي المصلحين على تولي المناصب والمسؤوليات العامة من أجل دعم حركة الإصلاح، وعدم ترك المجال للمفسدين، فنراه يكاتب أحد أصدقائه مصبراً إياه على البقاء في منصبه؛ فيقول: "ولا أحب أن تظهروا الاستقالة، أو التأفف...

وهكذا مشربي ونصيحتي لإخواني الذين يستشيروني في الاستقالة من المناصب في الحكومة، مع علمي أن بقاءهم رحمة، وأنه لا يأتي خلف لهم يحاكيهم، ولربما كانت استقالة المصلح أو الخيّر أو التقي بلاء، وثلمة لا تسد.

فوجود الكامل في وظيفة أو منصب يعلم الناس كيف يكون الكمال، كيف يكون الورع، كيف تكون الرحمة بالناس، كيف تكون المعاملة بالحسنى، وهكذا...

فالحمد لله الذي أرانا أناساً يقتدى بفعالهم مثلكم".

وهذا الخطاب كأنه موجه اليوم لإخواننا من الإسلاميين الذي وصلوا لسدة الحكم في عدد من البلاد، فعليهم أن يتقوا الله ربهم، ويحسنوا إلى عباده، فينالوا أجر الإتقان وأداء الأمانة، وأجر الدعوة للخير، وتقديم الأسوة الحسنة.

وحدث أن دخل القاسمي على شيخه بكري العطار فرآه مضطرباً بسبب موظف بالمحكمة الشرعية يعطل معاملة له عنده من شهر؛ من أجل الحصول على رشوة، فإذا كنت أنا شيخ علماء دمشق لا أستطيع تمرير معاملة إلا برشوة، فكيف يصنع عامة الناس؟!

فعاتبه القاسمي، وقال له: "قد عاملك بما تستحق، لأن ديدنك في دروسك العامة والخاصة أنك تنفر الناس من قبول وظائف المحاكم الشرعية، وتقول: إن المحاكم "مصاطب" جهنم، فإذا لم يتقدم لطلب أمثال هذه المناصب الأتقياء تقدم الجاهل الفاسد أمثال هذا الرجل الذي تشكو منه!

فقال له شيخه: أصبت، فإننا نحن مقصرون في عدم قبول هذه الوظائف للقيام بحق العباد.

٦ - تبنى الشيخ القاسمي جواز دفع الزكاة للمصالح العامة للمسلمين، وأن ذلك يدخل في مصرف (في سبيل الله)، وقد رد على الشيخ رشيد رضا منعه من ذلك، وكتب إليه يقول: "فإذن "سبيل الله" كل أمر فيه تقرب إلى الله، فإذا دفع الإنسان من ماله إعانة لمدرس، أو طريق، أو مشروع خيري، أو طبع كتاباً، أو اشترى شيئاً منها لمحتاج، أو نحوه؛ فكله في سبيل الله، يجوز حسبانه من الزكاة المفروضة...

وهذه الفتوى تسهل على كثير من الأغنياء الدفع من أموالهم لبعض المهمات التي يحتاج إليها، ويحسبونه أنه لا يحسب من زكاتهم، فيتوقفون أو يدفعون على كره".

٧- في مطلع القرن العشرين أعلنت اليابان أنها ستعيد النظر في وضعها الديني، وتبحث عن دين يلبي حاجة اليابانيين الذين اهتزت قناعاتهم بالبوذية والوثنية بسبب تطور الحالة العلمية والعقلية للشعب الياباني المتجه باطراد نحو الصناعة والتقدم والرقي.

وقد شغل ذلك فكر القاسمي وعدد من العلماء، فكتب القاسمي في يومياته يقول: "زرت في الضحوة الشيخ عبد الله الخاني، وكانت المذاكرة أهمها: في إسلام اليابان، وأن الأولى انتخاب رجال أكفاء حكماء من كل بلدة مهمة من بلاد الدولة، يتعاضدون ويتذاكرون، ويكتبون جداول في مزايا الإسلام، ورفع الشبه الحديثة والقديمة التي يختلقها أعداؤه، وأن يستفيدوا بمبادلة آرائهم ما يعود عليهم بالفائدة، وإلا فوجود جماعة قليلين رسميّاً قد لا يجدي، والله العليم".

مما ينبئ عن شعور عالٍ بالمسؤولية عن نشر الإسلام في ربوع الدنيا.

وكتب القاسمي في رسالة لأحد رفاقه يقول: "لما جمعت الهمة للرد على الدهريين في كتابهم المرسل من اليابان، أعياني أن أجد ضالتي في الكتب المتداولة، إذ رأيتها كأنها جمعت لزمن غير هذا الزمان، أو لبلاد غير هذه البلاد، فطفقت أنقب وأبحث عما يرد الشبه تلك الضالة"، فخرج لنا بكتابه الرائع «دلائل التوحيد».

٨- ومما تميز به القاسمي: مخالطة الناس، ومعرفة حاجاتهم، والتيسير عليهم بترك الجمود والتعصب الفقهي دون دليل بالفتوى الميسرة المقرونة بالدليل الشرعي.

ففي كتابه «المسح على الجوربين» يشير القاسمي لأثر التشدد بدون حق في منع المسح على الخفين على الصغار من تلاميذ المدارس؛ فيقول: "رثى بعض أساتذة المدارس ما يعانيه الأطفال والبنات في الوضوء أيام الشتاء من مشقة غسل الرجلين، وما ينالها من الألم والبرودة... قيل: لو أنهم يعلمون رخصة لتيسر لهم الأمر، وترفع عنهم الإصر؛ لما وجدوا عذراً في ترك الصلاة التي هي من أعظم دعائم الإيمان وأشهر شعائر الإسلام".

وقد لا يفهم البعض أهمية هذا التيسير لأنه لم يعش زمن التعصب المقيت الذي كان يبطل صلاة من مسح على الخفين والجوارب، مما جعل الكثير يتفلت من الصلاة هرباً من مشقة الوضوء في البرد!!

٩- بمخالطة الناس أدرك القاسمي عجز القضاء الشرعي الجامد على التقليد الرافض للاجتهاد عن حل مشاكل الناس؛ بسبب تمسكه بأقوال الرجال بدلاً من نصوص الوحي، فدعا إلى إصلاح القضاء، وألف في ذلك كتابه «أوامر في إصلاح القضاء الشرعي في تنفيذ بعض العقود على مذهب الشافعية وغيرهم»، ولذلك دعا إلى

اجتهاد القاضي والاعتماد على الدليل الصحيح، وعدم الالتزام بالمذهب فقط، ودعا إلى اعتماد كافة المذاهب في القضاء، وعدم قصرها على المذهب الحنفي، وهو ما استجابت له حكومة الباب العالي بالدولة العثمانية.

ونكتفي بهذه الملامح من الدور الإصلاحي الاجتهادي الذي قام به جمال الدين القاسمي Z .

وقفة مع المآخذات على القاسمي:

أخذ على القاسمي في زمنه واليوم أناس من قصيري النظر بعض الاجتهادات والأقوال التي تخالف منهج السلف؛ كدفاعه عن الجهم بن صفوان في كتابه «تاريخ الجهمية»، وكذلك ثنائه على ابن عربي، وميله للتقريب مع الشيعة والتهوين من شأنهم، ومسائل أخرى.

وبداية أقول: لا شك أن القاسمي أخطأ في هذه المسائل، ولكن هل هذا يجعله دخيلا على السلفية، والسلفية منه براء!!

لماذا نفترض العصمة والكمال للبشر؟ القاسمي كغيره من العلماء يصيب ويخطئ، ومن المقرر: أن الخطأ في المسائل العلمية والعملية مما يغفر للعلماء والمجتهدين، فلماذا التشنيع والنكال؟!

وحال القاسمي تقدم له الكثير من العذر والمسامحة على هذه الزلات، فهو قد نشأ على خلاف منهج السلف، ثم تعرف عليه في وقت غربة وشدة.

وثانياً: مات شاباً لم يمتد به الحياة ليدرك خطأه في تلك المسائل، وكان في وقت لا زالت فيه كثير من المخطوطات التي تبين الصواب والحق غير متوفرة.

وأخيراً؛ فإن هذه المسائل لم تكن عمدة منهجه ولا هي مما قام طلابه بنشرها، بل

طويت ولم تجد من يحملها وينشرها.

وأظن أن نفسية القاسمي التي عانت من الاضطهاد السياسي في الحقبة الحميدية جعلته يتعاطف مع جهم والجعد بوصفه مثقفاً مضطهداً؛ كحال القاسمي ضد الوالي خالد القسري الظالم!!

وأما تساهله مع الشيعة؛ فكان بسبب طمعه في محاولة جمع كلمة الأمة الإسلامية المشتتة ضد خصومها الذين يقضمون أطرافها كل يوم، ولنتذكر أنه كان يناقش في كتابة «نقد النصائح الكافية» بعض شيعة حضرموت المقيمين في أندونيسيا، وكان هذا مسلك رشيد رضا، ولكن ظهر فيما بعد لرشيد رضا أنه لا أمل من الشيعة وتقريبهم؛ فنبذهم، فيما لم يمتد العمر بالقاسمي!

وفاته:

توفي Z في (٢٣ جمادى الأولى ١٣٣٢هـ/الموافق ١٨/٤/١٩١٤م)، وكان عمره (٤٩) عاماً، وذلك بعد مرض استمر معه عدة أشهر، ودفن في مقبرة الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة جداً، ونعاه أهل العلم في دمشق وبيروت ومصر والعراق.

وأكتفي بتعزية العلامة السيد محمود شكري الألوسي للسيد رشيد رضا بوفاة القاسمي؛ والذي كتب إليه يقول: "أما بعد؛ فقد نعت إلينا صحف البلاد الشامية وفاة العلامة السيد جمال الدين القاسمي -قدّس الله روحه الزكية-، فأمضّ ذلك الخبر قلبي وأفض لبّي، وجرح فؤادي وطرد رقادي....

وحيث كان المشار إليه من أعزة أحبابكم، وخُلّص أصفيائكم، مع ما كان عليه من الفضل الوافر، والأدب الباهر، والورع الظاهر، والنسب الطاهر، والذب عن الشرع

المبين، وقوة الإيمان واليقين، ومناضلة الحائدين والملحدين، وأنه حسبما اعترف له الموافق والمخالف: أحيا به الله الشريعة والهدى، وأقام فيه شعائر الإسلام...

هذا مع أسفي عليه كل الأسف، وتصاعد أنفاسي بمزيد اللهف، وقد جرت عليه من العيون عيون، فإنا لله وإنا إليه راجعون!".

مراجع للتوسع:

o «جمال الدين القاسمي وعصره»، ظافر القاسمي، ط١، (١٩٦٥).

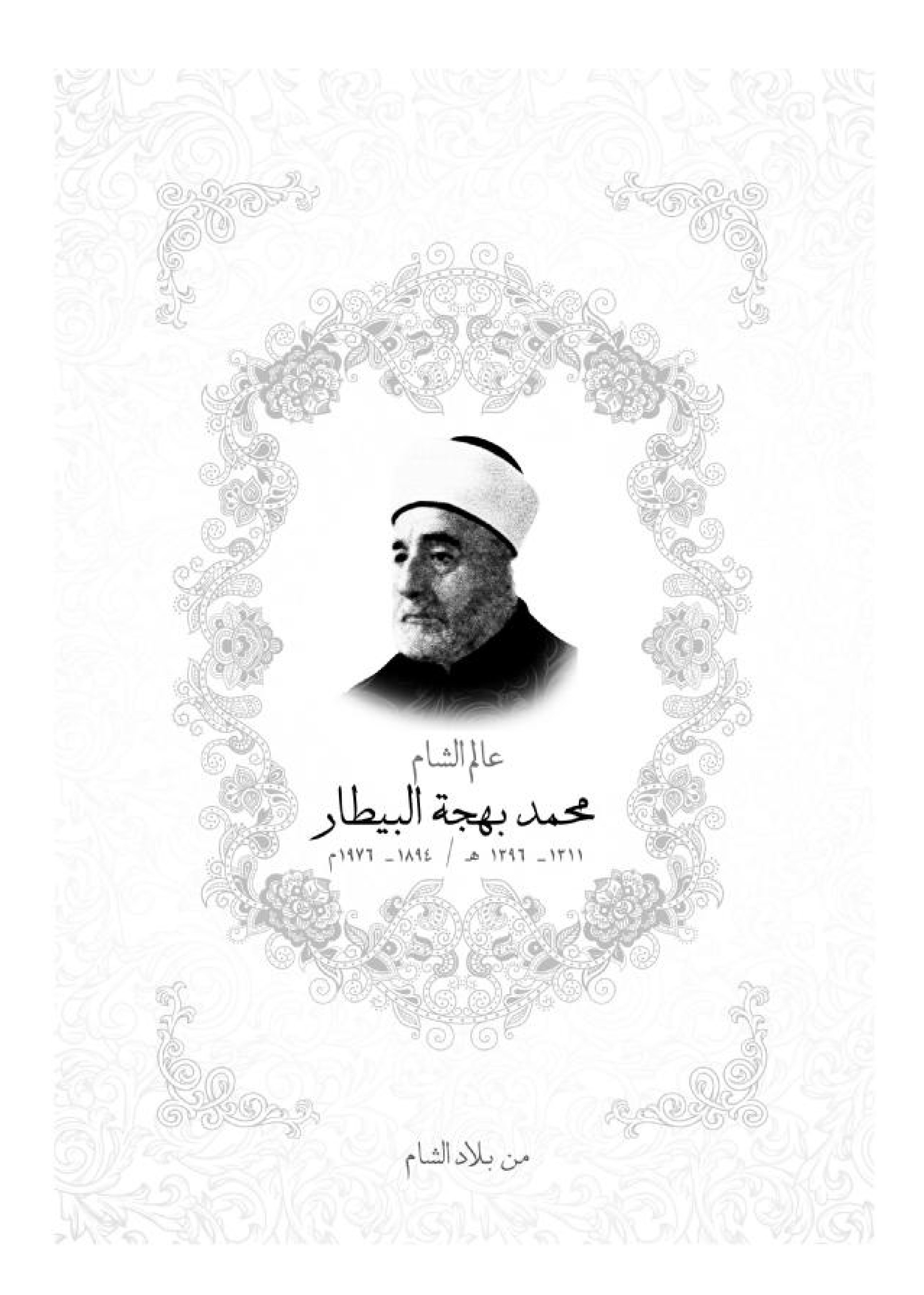
o «جمال الدين القاسمي: أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام»، د. نزار أباظة، دار القلم، دمشق، ط١ (١٩٩٧).

o «إمام الشام في عصره: جمال الدين القاسمي-سيرة ذاتية بقلمه»، تحقيق محمد العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، (٢٠١٠).

o «آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل»، محمد العجمي، دار البشائر، بيروت، ط١ (١٩٩٩).

o «القاسمي وآراؤه الإعتقادية»، علي دبدوب.

o «الشيخ جمال الدين القاسمي واختياراته الفقهية»، سامي الفريضي.


عالم الشام
محمد بهجة البيطار
١٣١١ـ ١٣٩٦ هـ / ١٨٩٤ـ ١٩٧٦م
من بلاد الشام

٩ - عالم الشام محمد بهجة البيطار

(١٣١١-١٣٩٦هـ/١٨٩٤-١٩٧٦م)

تمهيد

يعد العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار أحد أبرز وأشهر تلاميذ العلامة جمال الدين القاسمي، وأحد رواد الإصلاح الديني والتربوي في الشام والجزيرة العربية.

وقد كان Z فقيهاً وبحاثةً ومحققاً ومؤرخاً ولغويّاً، ورغم هذا فإنه لم يأخذ حقه من الترجمة ولم يدون في سيرته إلا كتاب وحيد للدكتور عدنان الخطيب لا يفي بحق البيطار.

ولد محمد بهجة البيطار بدمشق سنة (١٨٩٤) لأسرة دمشقية عريقة تعود جذورها للجزائر قبل أكثر من مائتي عام، وعرف كثير من أفرادها بالعلم والأدب والتقوى، فوالده هو الشيخ محمد بهاء الدين بن عبد الغني حسن إبراهيم الشهير بابن البيطار، والذي كان يعد من رؤوس الصوفية في زمانه، والذي كان عالماً أديباً.

وكان جده عالماً معروفاً تولى الإمامة والخطابة، وخلفه فيها ابنه والد علامتنا محمد بهجة، ووالدته هي ابنة عم أبيه الشيخ عبد الرزاق ابن حسن البيطار، رفيق العلامتين طاهر الجزائري وجمال الدين القاسمي.

كانت بدايته العلمية الدراسة على يد والده؛ فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة، ثم درس الابتدائية في المدرسة الريحانية، ودرس الثانوية في المدرسة الكاملية بدمشق؛

والتي أسسها الشيخ كامل القصاب -رفيق الشيخ المجاهد عز الدين القسام-.

وتعلم الفرنسية في المدرسة العيزرية النصرانية على يد المسيو موريس، والذي أسلم على يد الشيخ بهجة، وأصبح الأستاذ عبد الله الريحاني.

تحوله لمنهج السلف وشيوخه:

نشأ بهجة البيطار -بحسب ترجمته لجده- في عصر راج فيه "جمود على القديم، وتلقي الأقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم"، وكان أبوه من غلاة الصوفية القائلين بوحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين والحلاج وغيرهم، فنشأ على طريقة أبيه، لكن الله لطف به وهداه لمنهج السلف وذلك بواسطة جده لأمه الشيخ عبد الرزاق البيطار، والذي ترك التعصب المذهبي والغلو الصوفي بعد بلوغه سن الخمسين؛ كما ترجم بهجة البيطار لجده في مجلة «المنار»، ونشرها في مقدمة تحقيقه لكتاب جده «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»، إذ توفي والده سنة (١٩١٠م) وعمر بهجة حوالى (١٦) سنة، فتولى جده رعايته، فترك التصوف وسار في طريق طلب العلم بالدليل، وترك البدع والخرافات والأحاديث الضعيفة.

وتابع بهجة البيطار دراسة العلوم الدينية والعربية على يد جده الشيخ عبد الرزاق البيطار، وعلى رفيقه الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، الذي لازمه بهجة آخر ثلاث سنوات من حياته؛ كما ذكر ذلك في ترجمته لجده، وحيث توفي القاسمي سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، فعلى هذا يكون بهجة البيطار تحول لمنهج السلف وعمره حوالى (١٦-١٧) سنة تقريباً، وقد تركت هذه السنوات الثلاث على شخصية بهجة أثراً كبيراً طوال حياته.

يقول ابنه عاصم البيطار: "وكان والدي ملازماً للشيخ جمال الدين، شديد التعلق

به، وكان للشيخ Z أثر كبير، غرس في نفسه حب السلف ونقاء العقيدة، والبعد عن الزيف والقشور، وحسن الانتفاع بالوقت والثبات على العقيدة، والصبر على المكاره في سبيلها، وكم كنت أراه يبكي وهو يذكر أستاذه القاسمي".

ودرس بهجة البيطار على محدث الديار الشامية الشيخ محمد بدر الحسيني، وعلى الشيخ محمد الخضر حسين التونسي؛ والذي تولى مشيخة الأزهر لاحقاً، وقد كان مجيء الخضر لدمشق قبيل وفاة القاسمي فعوض الله به أهل دمشق عن فقد القاسمي.

يحدثنا بهجة البيطار عن شيوخه والبيئة التي عاش فيها؛ فيقول: "أستاذنا الجليل الشيخ محمد الخضر حسين، عَلَمٌ من أعلام الإسلام، هاجر إلى دمشق في عهد علامتي الشام المرحومين: جدي عبد الرزاق البيطار، وأستاذي الشيخ جمال الدين القاسمي؛ فاغتبطا بلقائه، واغتبط بلقائهما، وكنا نلقاه، ونزوره معهما، ونحضر مجالسه عندهما، فَأُحْكِمَتْ بيننا روابط الصحبة والألفة والود من ذلك العهد.

ولما توفي شيخنا القاسمي -تغمده المولى برضوانه- أوائل سنة (١٣٣٢هـ) لم نجد نحن معشر تلاميذه مَنْ نقرأ عليه أحب إلينا ولا آثر عندنا من الأستاذ الخضر؛ لما هو متصف به من الرسوخ في العلم، والتواضع في الخلق، واللطف في الحديث، والرقة في الطبع، والإخلاص في المحبة، والبر بالإخوان، والإحسان إلى الناس، فكان مصداق قول الشاعر:

كأنك من كل الطباع مركبٌ   فأنت إلى كلِّ النفوس محبَّبُ

وأخذنا من ذلك الحين نقتطف ثمار العلوم والآداب من تلكم الروضة الأُنُف، ونرتشف كؤوس الأخلاق من سلسبيل الهدى والتقوى، ولم يكن طلاب المدارس العالية في دمشق بأقل رغبة في دروسه، وإجلالاً لمقامه، وإعجاباً بأخلاقه من إخوانهم

طلاب العلوم الشرعية، بل كانوا كلهم مغتبطين في هذه المحبة والصحبة، مجتمعين حول هذا البدر المنير.

وقد قرأنا عليه في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، طائفة من أفضل ما صنف في موضوعه، وهي لعمر الحق دالة على حسن اختياره، وسلامة ذوقه، وقوة علمه، وشدة حرصه على النهوض بطلابه، وإعدادهم للنهوض بأمتهم.

وقد كنت نظمت أبياتاً جمعت فيها بين ذكر هذه الكتب، ووصف دروس الأستاذ، وجعلتها ذكرى لنفسي ولمن شاركوني في الطلب والتحصيل عند أستاذنا الجليل، فقلت:

يا سائلي عَنْ درسِ ربِّ الفضْل مولانا الإمام

ابن الحسين التونسيِّ محمد الخضر الهمام

سَلْ عنهُ مُسْتصفى الأصول لليث معترك الزحام

أعني الغزاليَّ الحكيم رئيس أعلام الكلام

وكذاك في فن الخلاف بداية العالي المقام

أعني ابنَ رُشْدٍ مَنْ غدا بطل الفلاسفة العظام

وكذا صحيح أبي حسينٍ مسلمٍ حَبْرِ الأنام

وكذلك المغني إلى شيخ النحاة ابن الهشام

وكذا كتاب أبي يزيد ابن المبرّد في الختام

تلك الدروس كما الشموس تنير أفلاك الظلام

يدني إليك بها حقائق كل علم بانسجام

فتكون منك حقائق المعنى على طرف الثمام

فالحق عوضنا به من شيخنا شيخ الشآم

فعليه ما ذرّ الغزالة رحمة الملك السلام

وهكذا كان تحول مسار محمد بهجة البيطار بسبب بوفاة والده وتحول جده وملازمته للقاسمي ودراسته على الخضر حسين، فغدا مع الأيام -بتوفيق الله ومن ثم جده واجتهاده- عالم الشام محمد بهجة البيطار.

مساره العملي والدعوي والتربوي:

١- عقب وفاة والده سنة (١٩١٠) تولى البيطار الخطابة والتدريس في جامع القاعة بحي الميدان، خلفاً لوالده وعمره (١٦) سنة، ثم تولى سنة (١٩١٧) الخطابة والتدريس في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق، خلفاً لخاله، والذي بقي بهجة يخطب ويدرس فيه حتى توفي.

وجامع الدقاق هو مسجد الحي التي تسكنه أسرة البيطار، والذي توارث فيه آل البيطار الإمامة والخطابة لأكثر من مائة عام.

٢- في هذه المرحلة تعرف البيطار على كثير من المصلحين والقادة والمفكرين، فقد كان القاسمي وجده عبد الرزاق البيطار يتيحون له لقاء أعلام العصر حين يزورون دمشق، وكانوا يذكرون أخبار طلابهم في مراسلاتهم مع أقرانهم.

فهذا القاسمي يكتب للشيخ محمد ناصيف يقول: "مما قدمناه لكم: كتاب «نقد عين الميزان» للشيخ محمد بهجة البيطار، أحد ملازمي دروسنا الليلية والنهارية، وهو ممن يرجى له مستقبل علم حسن -إن شاء الله-".

وكتب الألوسي للقاسمي يثني على كتاب بهجة البيطار؛ فقال: "إني أبارك لكم وأهنيكم على أن نبغ من تلامذتكم مثل: العلامة الشيخ البيطار -بارك الله فيك وفيه-،

وقد ألقم الرافضي الحجر، ورد منه العجر والبجر".

وقد صدر هذا الكتاب سنة (١٣٣١هـ) وعمر البيطار (٢٠) سنة! ولاحظ تشجيع القاسمي والألوسي للبيطار والثناء عليه مما يفتقده كثير من المربين والمدرسين اليوم تجاه طلابهم وتلاميذهم!!

وهذا الرد من بهجة البيطار كان برضى شيخه القاسمي، وهذه الخطابات تكشف عن حقيقة وعي القاسمي بانحراف الشيعة، وأن الظلم والكذب من طبعهم، فالقاسمي ألف رسالته «ميزان الجرح والتعديل» عام (١٣٣٠هـ) والتي تلطف معهم فيها بل جاملهم! مما جعل بعض علماء عصره ينتقده عليها لكن الشيعة شنوا عليه حملة ظالمة؛ فتصدى لهم البيطار عام (١٣٣١هـ) وهو في العشرين من عمره، ثم ما لبث أن توفي القاسمي في العام التالي (١٣٣٢هـ).

٣- وبسبب دعم وتوجيه وتقديم شيوخ البيطار له عند المصلحين نجد العلامة محمد رشيد رضا بالاتفاق مع الأمير فيصل بن الحسين يكلف محمد بهجة البيطار وشلاش النجدي أن يحملا رسالة سياسية ودينية للأمير عبد العزيز بن سعود في نجد، لإرساء التعاون والتفاهم، و"عقد اتفاق عام بين جميع أمراء الجزيرة العربية وأئمتها الكرام، دفعاً للعدوان الأجنبي"، وذلك سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م).

وهذا الاختيار للبيطار هو بسبب سلفيته، مما يفتح المجال لتقبلها لدى عبد العزيز.

وقد كانت هذه المهمة الأولى للبيطار لخدمة الإسلام على يد "سيدنا الإمام"، ويقصد: رشيد رضا؛ كما دونها في كتابه الذي وصف به رحلته وسماه: «الرحلة الحجازية النجدية، صور من حياة البادية (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠ م)»، وواضح اهتمام

البيطار المبكر بعلم الاجتماع والعمران، والذي سيكون حاضراً في حياة ومنهج البيطار طيلة حياته.

وكتب رشيد رضا في «المنار» عن هذه المهمة في مقالاته (العبرة بسيرة الملك فيصل -رحمه الله تعالى-) فقال: "وذكرت له -يقصد: الأمير عبد العزيز بن سعود- فيه أنني مرسل إياه مع الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار (وهو خير ثقة من أهل العلم والصلاح هنا، فثقوا به فيما يبلغكم عني ويبلغني عنكم، وإن كان غير متمرس بالسياسة على أنني لقنته ما لا بد له من العلم به من الأحوال الحاضرة)".

وفعلاً بقي الشيخ بهجة غير متمرس بالسياسة، ومن ذلك: ما رواه الشيخ علي الطنطاوي -تليمذ الشيخ بهجة- عن خداع الروس للشيخ لما زار روسيا؛ فقال: "لقد خدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ، حتى شيخنا الشيخ بهجة.

وكانت لي دروس ليلية في مسجد الجامعة بدمشق، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية، فدخل شيخنا الشيخ بهجة، ففرحت، وقلت له: تفضل يا سيدي أهلاً وسهلاً، حدثهم عما رأيت في روسيا؟

فكان مما قال: أنه لم ير عورة بادية ولا ذراعاً عارياً، ما رأى إلا الحجاب السابغ.

فتألمت ووجدت أنه -غفر الله له- سيهدم عليّ ما بنيت، وينفض ما أبرمت!

فسألته لأنبّه الشباب السامعين، وكم هي درجة الحرارة هناك يا سيدي؟ فقال: عشرون تحت الصفر.

فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة".

وهذا لا ينقص من قدر الشيخ فقد فتح الله U له في باب التعليم والتربية ما لم

يفتح له في باب السياسة، ولذلك لم يتصدر لها ويخض فيها لا يحسن، وكان مهتماً بدراسة علم الإجتماع والتعرف على أسرار الشعوب والعمران، وله في ذلك مقالات مهمة في مجلة «المنار» وغيرها.

٤ - درس الشيخ في المدرسة الكاملية وغيرها من المدارس الأهلية، ثم طلبت منه مديرية التعليم بدمشق سنة (١٩٢١) -زمن تولي العلامة محمد كرد علي لها- أن يدرس في مدرسة الميدان الابتدائية الدروس الدينية والعربية والفرنسية، بمدرسة خالد بن الوليد، وكان الشيخ بهجة يدرك مدى أهمية هذه الوظيفة؛ فأقبل عليها بكليته.

ويشرح لنا الشيخ الطنطاوي نظرتهم للتعليم الابتدائي آنذاك؛ فيقول: "لقد عرفتم أن الذين كانوا يعملون معي أو كنت أنا أعمل معهم في المدارس الابتدائية هم من جلّة مشايخنا ومن كبار زملائنا، علماء كبار وأدباء معروفون.

حسبكم أن منهم: شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وشيخنا حامد التقي، وأن منهم الطبيب الشيخ رفيق السباعي...

ما كنت ولا كان كثير من إخواني نعد أنفسنا معلمين فقط، وما كنا نرانا مسؤولين أمام وزارة المعارف وحدها، نطبق مناهجها ونطيع أوامرها، بل كنا نعد الجواب للسؤال يوم العرض على الله: السؤال عن تربية الأولاد على ما يرضيه، على الشريعة التي بعث بها خاتم رسله، عن تخريج أمة جديدة تؤمن بالله إيماناً خالياً من الشرك كله، الظاهر منه والخفي، تخاف الله ولا تخاف في الحق أحداً إلا الله...

كنا نلقنهم العقيدة سالمة من الشوائب، ونعودهم العبادات بعيدة عن الرياء، والسلوك الذي يحببهم إلى الناس، ولا يكرههم إلى الله".

أما سِرّ تفرد الشيخ البيطار بالقبول بين التلاميذ فتكشفه لنا نصيحة الشيخ لابنه عاصم لما تخرج من جامعة دمشق سنة (١٩٥٢م)، وعزم على العمل في سلك التعليم؛ فأوصاه بقوله: "هناك أمر مهمٌّ يجب أن تضعه في حسبانك، وأن توليَه قَدْراً كبيراً من عنايتك واهتمامِك، هو: أن تَكسبَ قلوبَ طلّابك، وأن تَحملَهُم على محبّتك واحترامك، فإذا ما نَجحتَ في هذا الأمر أدَّيتَ رسالتَكَ على الوجه الأكمَل الأتَمِّ؛ لأن طلاّبَك إذا ما أحبُّوكَ أحبُّوا مادَّتَك، واعتَنَوا بما تُقدِّم لهم من علم ونُصح وفائدة، وانتَفَعوا بها".

٥- وفي سنة (١٣٤٤هـ/١٩٢٦م) طلب منه أن يمثل سوريا بالمؤتمر الإسلامي العالم الأول الذي دعا إلى عقده في مكة المكرمة الملك عبد العزيز بن سعود، لبحث قضايا المسلمين في العالم بعد إلغاء الخلافة العثمانية.

وبعد انتهاء المؤتمر طلب منه الملك عبد العزيز البقاء في مكة المكرمة للمساعدة على نهضة الحجاز بتوصية من الشيخ كامل القصاب -الذي كان يتولى إدارة المعارف بالحجاز-؛ خاصة أن البيطار في كتابه «الرحلة الحجازية النجدية» زار مدارس المدينة المنورة، وكتب عن مشاهداته فيها وما تحتاجه من عناية وتطوير في مناهجها، وأحوال المعلمين، كما كتب عن "المتدينة" وهم البدو الذين انخرطوا في الدعوة السلفية الوهابية، لكن بعضهم لم يجد من يعلمه حقيقة الدعوة، فخلط عاداته البدوية القديمة غير المنضبطة بالشرع بالدعوة الوهابية، مما أنتج خليطاً مشوهاً من السلوك المنسوب للشرع والوهابية؛ وهما بريئان منها، وبسبب هذا السلوك المنحرف خشي البيطار على نفسه أن يقتل إذا مر في أراضيهم، ورأى البيطار أن انتشار الدعاة والعلماء بينهم ضرورة ملحة.

٦ - أسند إليه القصاب تأسيس وإدارة المعهد العلمي بمكة، والذي يعتبر أول مدرسة حكومية، وبقي في إدارة المعهد خمس سنوات، وكان طيلة هذه السنوات يدرس بالحرم المكي، وتولى إمامة صلاة الظهر فيه بالنيابة في سنة (١٣٤٥هـ)، ولما زار المدينة شهراً درّس في الحرم النبوي.

وفي هذه الأثناء (سنة ١٣٤٦هـ) عين -أيضاً- عضواً بمحكمة مكة الشرعية الكبرى ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، وقد رفض الشيخ راتب القضاء وبقي على راتب التعليم، برغم أنه نصف راتب القضاء، وذلك أن الزهد في الدنيا وزخرفها من سمات البيطار.

وفي سنة (١٣٤٧) عين -أيضاً- مفتشاً للعلوم الدينية بمدارس الحجاز، ومدرساً للتوحيد والتربية العلمية، كما عين عضواً بمجلس المعارف العمومية.

٦ - بعد خمس سنوات عاد محمد بهجة البيطار إلى دمشق سنة (١٩٣١م)، فوجد أن وظيفته أسندت لغيره، وفقد عشرة أعوام من سنوات تقاعده، لكن هذا لم يؤثر عليه حيث عاد لمسجد الدقاق يؤم ويدرس ويخطب فيه.

وكانت خطب الشيخ دعوة للعودة للقرآن والسنة والاجتهاد، وترك التعصب والتحذير من البدع والخرافات والشركيات، مما أدى لتغيير هائل في أهل دمشق، وممن تأثر بهذه الخطب: الشيخ علي الطنطاوي؛ والذي يصف تفرد طريقة البيطار في الخطابة عن خطباء عصره؛ فيقول: "لم يكن يقرأ الخطبة من ديوان قديم كما كان يصنع أكثر الخطباء، ولا من ورقة مكتوبة يضع عينه فيها، ولا يرفع رأسه عنها، بل كان يخطب ارتجالاً، ولم يكن يلقي كلامه ذلك الإلقاء الملحن الممطوط الذي يسبب النعاس ويستدعي الملل،...

عرفته في تلك الأيام فوجدتني معجباً به، ولكني مخالف له، لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه، فقد كنت في العقائد على ما قرره الأشاعرة والماتريدية، وهو شيء يعتمد في تثبيت التوحيد من قريب أو بعيد على الفلسفة اليونانية، وهي فلسفة بدائية، وكنت موقناً بما ألقوه علينا، وهو أن طريقة السلف في توحيد الصفات أسلم، وطريقة الخلف أحكم، فجاء الشيخ بهجة يقول لي بأن ما عليه السلف هو الأسلم وهو الأحكم.

وكنت قد نشأت على النفرة من ابن تيمية، والهرب منه، بل وبغضه، فجاء يعظمه لي، ويحببه إلي، وكنت حنفيّاً متعصباً للمذهب الحنفي، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبي، وأن أعتمد على الدليل لا على ما قيل.

وتأثرت به وذهبت مع الأيام مذهبه مقتنعاً به، ولكن لم يكن هذا التحول هيناً ولا سهلاً، وما كنت سهل القياد ولا سريع الانقياد، بل ناضلت دون ما كنت أعتقده، وأمضيت عشرات الجلسات والسهرات في المجادلات والمناظرات، أنا باندفاعي وحماستي وعنفي، والشيخ بهجة بسعة صدره وطول أناته وغزير علمه وقوة حجته... فغدوت سلفي العقيدة متمسكاً بالدليل".

وقد كانت العادة أن الخطيب بعد صلاة الجمعة يستقبل المصلين في بيته، ويسجل لنا عاصم البيطار ذكرياته عن هذه الجلسات؛ فيقول: "كانت تُعقَد في بيت سيدي الوالد Z (ت ١٩٧٦م) من بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع حتى صلاة العصر، وكان أركان هذه الجلسات الفتية الدائمون الأساتذة الأجلاء: عز الدين علم الدين التنوخي، والشيخ علي الطنطاوي، وشاعر الشام أنور العطار، وأستاذنا الأفغاني -رحمهم الله جميعاً-.

كانوا يؤدون صلاة الجمعة في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق، وكان والدي مدرّساً فيه وخطيب الجمعة على منبره مدةً تزيد على ستين عاماً، فإذا قُضِيت الصلاة شرّفوا دارنا، وتناولوا طعام الغداء، ثم تبدأ الجلسة العملية التي كانت روضة من رياض المعرفة.

ومن الطريف أنهم كانوا يشترطون أن يكون الطعام لوناً واحداً لا يتغير، وهو (الكوسا المحشوّ)، ولطالما سمعت الأستاذ الطنطاوي يردد: لا صلاة إلا في الدقاق، ولا طعام إلا الكوسا...

وكان الطنطاوي بحقٍّ هو المحرك لهذه الجلسات التي استمرت أعواماً، وكم يحزّ في النفس الآن أن وسائل التسجيل لم تكن متوافرة عندنا في تلك الأيام، ولو سُجّل ما كان يدور في هذه الاجتماعات لوقفنا على كنوزٍ من العلوم والمعارف.

وقد تجاوزت أخبار هذه الجلسات الأسبوعية الحدود، ووصلت إلى أسماع الكثير من أصدقاء الوالد في العالمين العربي والإسلامي، ولذا كان يحضرها علماء كبار ممن يُلمُّون بدمشق، وإنني لأذكر ممن حضر عدداً من هذه الجلسات: أميرَ البيان شكيب أرسلان، وعين أعيان جدة الشيخ محمد نصيف، والعلامة الجليل أبا الحسن الندوي، ونائب رئيس جمعية العلماء الجزائريين ثم رئيسها -بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس- الشيخ البشير الإبراهيمي؛ الذي أقام في دمشق فترة بعد أن نفاه الفرنسيون".

أما الشيخ علي الطنطاوي فيحدث عن خطب البيطار والجلسات التي تعقبها في بيته، وأثرها في الشباب أمثاله؛ فيقول: "وكنت كلما حضرت خطبته وانصرف إلى داره انصرف معه جماعة من الناس، فوجدوا المائدة معدة، ففي كل جمعة وليمة، ويبقون يتحدثون ويستمعون إلى الشيخ، فيستفيدون حتى يؤذن العصر، فيصلوا ويذهبوا.

وكنت آخذ إليه كل من عنده شبهة في الدين، أو كلام في الإسلام سمعه من غير المسلمين، فيزيل الشيخ الشبهة، ويدفع الاعتراض".

والطنطاوي في موضع آخر يقول أنه حضر خطبة البيطار أكثر من ثلث قرن، وكان هذا دأب البيطار: كرم وضيافة وتعليم.

٧- وبعد ثلاث سنوات دعته جمعية المقاصد في (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) لتدريس العلوم الشرعية والأدب في كليتي المقاصد الخيرية للبنين والبنات في مدينة بيروت، وفي نفس السنة طلبت منه وزارة المعارف التدريس بثانوية البنات ودار المعلمات بدمشق، فكان يسافر عصر الجمعة لبيروت، ويعود منها مساء الثلاثاء من كل أسبوع.

وقد كان بدأ في مراجعة وتحقيق كتاب «قواعد التحديث» للقاسمي بطلب من ولده ظافر، فأصبح يستغل مكوثه في السيارة والقطار بين بيروت ودمشق لإكمال المراجعة والتصحيح.

٨- ثم عين مدرساً في الكلية الشرعية في سنة (١٣٦١هـ)، وبدأ يدرس تفسير القرآن من الوجهة الأدبية في دار المعلمين العليا سنة (١٩٤٢م).

وقد كان البيطار متميزاً في تدريسه للطلاب حتى قال فيه أحد الأدباء من طلابه:

وما أستاذنا البيطار إلا	وحيد الشام في علم الكتاب
فيشرح حين يشرح كل صدر	بمعنى من معانيه العذاب
ويبعث همة الآساد فينا	كان الشيخ في شرخ الشباب

٩- وبسبب حسن عمله السابق في تأسيس المعهد العلمي بمكة أعاد الملك عبد العزيز بن سعود في عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) استدعاءه للحجاز ليتولى تأسيس

دار التوحيد بالطائف لتعليم الطلبة؛ ليكونوا قضاة ومفتين ودعاة، وبقي البيطار ثلاث سنوات هناك أسس فيها الدار حتى أصبحت ثانوية كبيرة، وقد رافقه في هذه المهمة ولداه يسار وعاصم.

وقد كان للبيطار صلة شخصية بالملك عبد العزيز بل كانت من المتانة بحيث أنه شجع ويسر للشيخ علي الطنطاوي الكتابة والتواصل مع الملك.

ومن القضايا الجديرة بالبحث والدراسة هي: الدور الكبير والريادي للعلماء السلفيين في دعم ومساعدة الدولة السعودية في نشأتها، فقد كان من سياسة الملك عبد العزيز الاستعانة بالعلماء السلفيين من الشام ومصر وغيرها في إنشاء المؤسسات العلمية والدعوية والتعليمية والإعلامية والسياسية، فقد كان من رجاله العلماء الأجلاء: كامل القصاب، محمد بهجة البيطار، خير الدين الزركلي، حامد الفقي، عبد الظاهر أبو السمح، تقي الدين الهلالي، وكان لرشيد رضا دور كبير في الدعاية للدولة السعودية ومنهجها.

١٠ - وبعد أن أمضى ثلاث سنوات في الطائف عاد لدمشق، فعهدت إليه جامعة دمشق في عام (١٩٤٧) تدريس مادتي التفسير والحديث في كلية الآداب، وفي سنة (١٩٥٣) أُحيل للتقاعد.

١١ - لكن الشيخ البيطار بقي يقدم بعض المحاضرات في التفسير في كلية الشريعة، واستمر يدرس ويخطب الجمعة بمسجد الدقاق، وإلقاء الأحاديث الدينية والاجتماعية في الإذاعة السورية، بالإضافة لنشاطه الكبير لخدمة المجمع العلمي بإلقاء المحاضرات والإشراف على مجلة المجمع ومطبوعاته حتى وفاته.

وكان البيطار قد انتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة (١٩٢٣م)، وانتخب عضواً مراسلاً للمجمع العراقي سنة (١٩٥٤م).

كما كان البيطار عضواً في جمعية العلماء، ثم في رابطة العلماء في دمشق.

وبدأ البيطار يكتب في مجلة المجمع من سنة (١٩٣٣م)، وقد كتب مقالات كثيرة في التعريف بالكتب والمؤلفات الحديثة، ومما عرف به البيطار بحسب المسرد الذي وضعه د.عدنان الخطيب لمقالات البيطار نجد هذه الكتب: «عبدة الشيطان» لعبد الرزاق الحسني، «الخلافة» لتوماس آرنولد، «بصائر جغرافية» لرشيد العابري، «الوحدة الإسلامية بين الأخذ والرد» لمحمود الملاح، «مذكرات سائح في الشرق العربي» لأبي الحسن الندوي، «توضيح الكافية الشافية» لعبد الرحمن السعدي، «رسائل الإيمان» تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ويتضح منها سعة اطلاع الشيخ وتنوع مطالعاته.

١٢- وتقديرا للشيخ ومكانته التربوية فقد تم استدعاؤه للرياض من قبل الملك سعود بن عبد العزيز سنة (١٩٦١) للمشاركة في مشاورات تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، قدم خلالها تصوره والمنهج المقترح للجامعة.

وفي السنة التالية زار المدينة المنورة، وزار الجامعة واطلع على سير الأمور فيها، وألقى بعض المحاضرات على الطلبة.

١٣- أتيح للشيخ زيارة الحجاز عدة مرات، وزار العراق والكويت ومصر وفلسطين والأردن وباكستان والهند وروسيا وأمريكا وكندا، وذلك لحضور بعض المؤتمرات، وإلقاء بعض المحاضرات.

١٤- تميز الشيخ بزهده في الدنيا وزخارفها؛ برغم علاقته بالملوك والرؤساء، فقد رفض تقاضي راتب القضاء بمكة واكتفى براتب التعليم؛ برغم أنه نصف راتب القضاء، ولما أهداه الملك سيارة وهبها لدار التوحيد بالطائف، ولما صرف له المجمع العلمي بروسيا ألف ليرة لشراء الهدايا رفض استلامها، وحين دخل في شراكة لتأسيس مدرسة أهلية بعد رجوعه من الحجاز سنة (١٩٣١م) وقدر أنها لم تنجح، تحمل الخسارة وحده، ولم يطالب شركاه بتحمل الخسارة معه؛ حفاظاً على صداقته بهم.

١٥- كان الشيخ آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكن يقتصر على فئة دون أخرى، ففي حفل تأبين الشيخ المحدث بدر الدين الحسيني حضر الحفلَ ولدُه رئيس الجمهورية السورية آنذاك الشيخ تاج الدين الحسيني، ورئيس الحكومة والوزراء، عدد الشيخ البيطار في كلمته مناقب شيخه الحسيني ثم التفت نحو مقاعد الرئيس والحكومة ووجه الحديث إليهم؛ أن الفقيد كان إذا قابل المسؤولين قال لهم: أيها الرؤساء أيها الوزراء والأمراء أيها الأغنياء! أنتم خلفاء الله في أرضه على عباده... فانظروا ماذا تقولون في خلافتكم... وعدلتم في الرعية؛ جعلكم مع عباده الأبرار في جنات تجرى من تحتها الأنهار... وإن انحرفتم عن الطريق السوي؛ أدخلكم ناراً وقودها الناس والحجارة...

ثم عاد البيطار بوجهه للجمهور أمامه وقال: هكذا كان شيخنا الشيخ بدر الدين يقول -تغمده الله برحمته-".

١٦- كان للشيخ علاقات مع الهيئات السلفية خارج سوريا، فالبيطار كان من أوائل من تولى الفتيا على صفحات مجلة «الهدي النبوي» التابعة لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، منذ الأعداد الأولى لصدورها، وذلك من خلال علاقة البيطار ببعض

علماء الجماعة مثل: الشيخ عبد الرزاق عفيفي الذي كان معلماً في دار التوحيد بالطائف؛ والتي أسسها البيطار.

وكذلك تم منح البيطار منح لقب "الرئيس الشرفي" لجمعية العلماء المسلمين بالجزائر سنة (١٩٥١م)، مع بعض العلماء غير الجزائريين الذين يشتركون معها في الفكر والمنهج والهدف، بهدف توسيع نشاطها الإعلامي، ولفك حصار الاحتلال الفرنسي لها.

والذين منحوا هذا اللقب: محمد بهجة البيطار (سوريا)، محمد تقي الدين الهلالي (العراق)، محمد عبد اللطيف دراز (مصر)، محمد أمين الحسيني (فلسطين)، محمد بن العربي العلوي (المغرب)، عبد القادر المغربي (سوريا)، عبد العزيز جعيط (تونس)، مسعود الندوي (باكستان)، أحمد بن محمد التيجاني (المغرب)، محمد نصيف (الحجاز).

وقد كان للبيطار علاقة وثيقة جداً بالشيخ البشير الإبراهيمي حين استقر بالشام سنة (١٩١٦م) قبل عودته للجزائر.

١٧ - من ثمرات هذه المسيرة الطويلة للبيطار: كوكبة من العلماء الأفذاذ في مجالات علمية متعددة، فمن تلاميذ البيطار: ولداه يسار وعاصم؛ واللذان كانا متميزين في خلقهما وعلمهما، حيث كان عاصم يعد أفضل مدرسي النحو في السعودية والشام، والشيخ الأديب علي الطنطاوي، وعميد مجمع اللغة العربية عز الدين التنوخي، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، والشيخ محمد نسيب الرفاعي، والشيخ الألباني؛ حيث كان يحضر دروسه مع عدد من أساتذة المجمع العلمي بدمشق، وكان الشيخ البيطار من الذين اقترحو تخريج أحاديث كتاب «منار السبيل»، وهو من أهم

كتب الحنابلة، فخرجه الشيخ الألباني في كتابه العظيم «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل».

ويقول الشيخ مسلم الغنيمي عن تطور حال تلاميذ البيطار: "حاول أوليائي أن يفصلوني عن الأستاذ الشيخ سعدي لأنه يتردد على الشيخ محمد بهجة، فأنا بقراءتي على أستاذ يتردد على الشيخ محمد بهجة أسيء إلى سمعة عائلتي (آل الغنيمي)، وكيف أصبح الحال اليوم من أن من تتلمذ عليه يعد مفخرة واعتزازاً، فقد تتلمذ عليه الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء والدكاترة وأساتذة الجامعات، ولم يكن هذا الفارق العظيم بين الماضي المظلم المتدثر برداء العلم، والحاضر المشرق بنور العلم والعرفان إلا بسبب جهاده ونضاله وصبره على أذى المغرضين والمتمشيخين الجهل، وسار بالدعوة إلى الله على المنهاج الذي رسمه رب العالمين لسيد المرسلين ﷺ: { ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } [النحل:١٢٥]، فكانت النتيجة واحدة: صد وإعراض في أول الأمر، ثم دخول الناس في دين الله أفواجاً".

١٨- كانت وفاته في يوم السبت (٣٠ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ/٢٩ أيار- مايو ١٩٧٦م)، إثر مرض لم يمهله طويلاً، فصلي عليه في مسجد الدقاق الذي أمّ فيه وخطب أكثر من ستين عاماً، وشيعه خلق كثير، منهم الوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء.

١٩- أثنى عليه عدد من كبار العلماء؛ فقال عنه العلامة البشير الإبراهيمي: "علم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقة، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع الإطلاع على آراء المفسرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصولي

النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم له بعد رأيه الخاص...

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل، ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خلق فاضل إلا رأيته فيه... و(هو) مفكر عميق التفكير".

ورثاه العلامة محمد بهجة الأثري العراقي بقصيدة قال فيها:

عَلَمٌ على الذُّرُوات رفَّ كما رف السنا وتلامح النُّوْر

العلمُ ملءُ جنانه دُفَقٌ والعقل خلف لسانه وَقْرُ

تتألق الفصحى على فمه زهواً كما يتألق البدرُ

عالٍ على الأهواء مُتَّشِحٌ بحجىً له في لمحه غَوْرُ

مصباحه الفرقان يتبعه أنى أشارت آيُهُ الزُّهْرُ

ينحو ويسلك ما تفهَّمه منه النبيُّ وصحبه الغُرُّ

ويقيم من مالوا به جنفاً حتى يثوب إلى الهدى الصُعْرُ

كم نزَّه الإسلام من بدعٍ قد باضها الشيطان والكفرُ

مقبوحةٍ شوهاءَ شاه بها وجه الهدى وتلوث الطهرُ

٢٠ - ترك البيطار (١٥) كتاباً وتحقيقاً لبعض كتب شيوخه؛ وفاءً لبعض حقهم عليه، كما ترك الفقيد مؤلفات عديدة وبحوثاً كثيرة نشرت له في مختلف الصحف والمجلات السورية والعربية السعودية والمصرية والعراقية، طبع بعضها مستقلاً، ومازال الكثير منها شتيتاً في باطن المجلات.

أما تآليفه وما طبع منها مستقلاً من أبحاثه فهو:

- كتاب «قواعد التحديث، من فنون مصطلح الحديث لجمال الدين القاسمي»،

حققه وخرج أحاديثه.

¤ «تفسير سورة يوسف»؛ حيث أكمل التفسير الذي بدأه السيد رشيد رضا، مع التقديم له.

¤ كتاب «المعاملات في الإسلام وتحقيق ما ورد في الربا»، وقد بدأه محمد رشيد رضا وأكمله البيطار ووضع مقدمته.

¤ كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»، تأليف جد البيطار الشيخ عبد الرزاق، تحقيق محمد بهجة البيطار.

¤ رسالة «الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة».

¤ بحث «الإنجيل والقرآن في كفتي الميزان».

مصادر للتوسع:

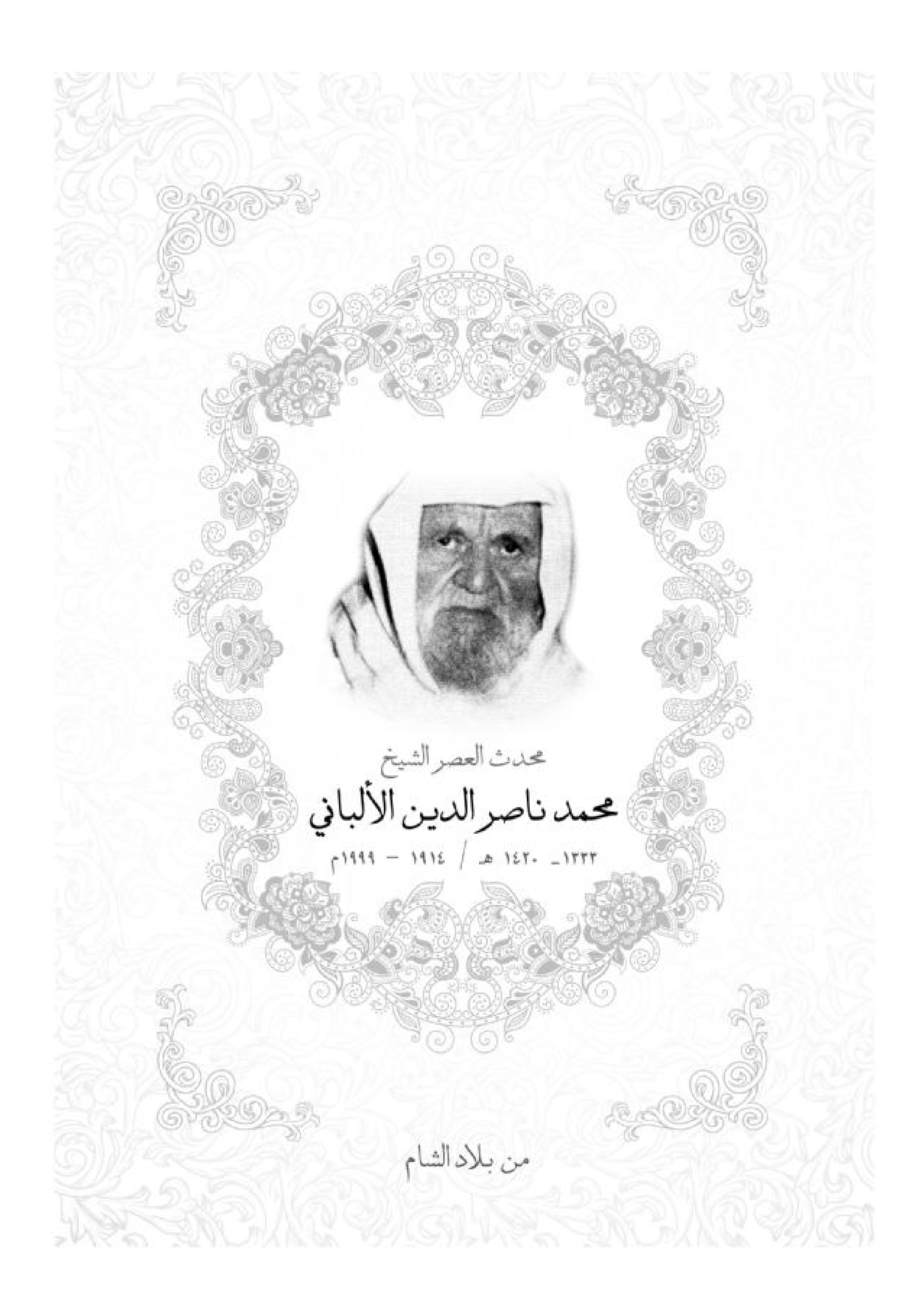
o ترجمة ذاتية بقلم البيطار ملحقة بكتابه «الرحلة الحجازية».

o «محمد بهجة البيطار»، د.عدنان الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٩٧٦).

o «رجال من التاريخ»، علي الطنطاوي، دار البشير للثقافة، القاهرة، ط١، (١٩٩٨).

o «رجال فقدناهم»، مجد مكي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، (٢٠١١).

o «تاريخ علماء دمشق»، محمد الحافظ ونزار أباظة، دار الفكر المعاصر، دمشق، (١٩٨٦).


محدث العصر الشيخ
محمد ناصر الدين الألباني
١٣٣٣ـ ١٤٢٠ هـ / ١٩١٤ – ١٩٩٩م
من بلاد الشام

١٠- محدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

(١٣٣٣-١٤٢٠هـ/١٩١٤-١٩٩٩م)

تمهيد

يعد محدث العصر الشيخ الألباني أحد أهم المصلحين السلفيين المعاصرين، والذين تركو أثراً بارزاً على مسيرة الأمة الإسلامية، ولم يقتصر تأثيره ودوره على بلد محدد بل لقد بلغ تأثيره كافة أرجاء المعمورة.

ولا يمكن لباحث منصف في مسيرة الإصلاح المعاصر أن يتجاوز جهوده ودوره المحوري في الصحوة الإسلامية المعاصرة؛ برغم أنه لم ينشئ جماعة خاصة به أو يرعى مؤسسة أو جمعية بعينها، ويكفيه شرفاً أن حرصه على نشر السنة النبوية الصحيحة أصبح وسام تفوق يتسابق الجميع على الوصول إليه؛ حتى من خصومه ومخالفيه.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح نجاتي الألباني عام (١٣٣٣هـ/ الموافق ١٩١٤م) في مدينة أشقودرة -عاصمة دولة ألبانيا حينئذٍ- لأسرة فقيرة متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، وكان والده أحد علماء المذهب الحنفي؛ والذي هو مذهب الدولة العثمانية.

ولما ضعفت الخلافة الإسلامية تم اقتطاع ألبانيا من جسد الدولة العثمانية سنة (١٩١٢م)، وإلحاق بعضها بصربيا وجزء بالجبل الأسود-مقدونيا، وقسم بقي باسم:

ألبانيا، فاضطربت أحوال المسلمين بها لذلك، وأصبحت ألبانيا وكأنها تابعة لإيطاليا بزعامة موسوليني، وقلد أحمد زاغو ملك ألبانيا سياسات أتاتورك المعادية للدين، فمنع المسلمات من لبس الحجاب، فآثر والده الهجرة إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها حرصاً على الإسلام والدين، وذلك سنة (١٩٢٣م)، وفعل ذلك الكثير من الألبانيين.

في دمشق درس الألباني بمدرسة الإسعاف الخيري المرحلة الابتدائية، وكان لا يعرف العربية أبداً، ولكن لأن المدارس النظامية في ذلك الوقت كانت تحت عهدة الاحتلال ولم تكن تعنى بالعلوم الشرعية بشكل جيد، لم يرغب والده أن يبقى في هذه المدارس وقام هو بنفسه بتعليمه؛ فقرأ الألباني القرآن الكريم على يد والده، ودرسه التجويد، والنحو والصرف، والفقه الحنفي، ودرس على الشيخ سعيد البرهاني «مراقي الفلاح» في الفقه الحنفي، وبعض كتب اللغة والبلاغة.

كما تعلم علوم الشريعة على يد والده؛ فقد علمه -أيضاً- مهنة إصلاح الساعات، فأجادها حتى صار من أصحاب الشهره فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها.

توجهه إلى علم الحديث واهتمامه به:

لقد نشأ الألباني في بيئة حنفية متعصبة، وكان التقليد والتصوف هما المنهجان السائدان في الشام آنذاك، وكان الألباني على هذا المنوال؛ حيث يأخذه والده لزيارة قبور الأولياء كابن عربي والنابلسي، وكان الجو معادياً لدعوة الكتاب والسنة؛ والتي كانت تُلقب وتُنبز بالوهابية، إلا أن الله U أراد للألباني أن ينتقل لمنهج الاتباع والاجتهاد والحرص على السنة.

يقول الألباني عن ذلك: "فلم أزل على خطى والدي في هذا الاتجاه حتى هداني الله إلى السنة، فأقلعت عن الكثير مما كنت تلقيته عنه؛ مما كان يحسبه قربة وعبادة!".

وكان ذلك بتقدير الله لوالده بالهجرة لدمشق فتعلم العربية وقرأ الكتب السلفية، ولذلك كان الألباني يدعو ويشكر لوالديه دوماً هذا الفضل، برغم أن والده رفض منهجه السلفي، وخيّره بين أن يوافقه في مذهبه الحنفي أو يفارقه في البيت والعمل؛ فاختار الألباني أن يتمسك باتباع الدليل الصحيح من القرآن الكريم والسنة، هذا والألباني لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره!!

وقصة تحول الألباني لمنهج الكتاب والسنة كان عن طريق قراءته -وهو دون سن العشرين- لمجلة «المنار» التي يصدرها العلامة محمد رشيد رضا في مصر، يحدثنا الألباني عن تلك الفترة؛ فيقول: "أول ما ولعت بمطالعته من الكتب: القصص العربية كـ «الظاهر» و«عنترة» و«الملك سيف» وما إليها، ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها.

وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة «المنار»، فاطلعت عليه، ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه «كتاب الإحياء» للغزالي، ويشير إلى محاسنه ومآخذه..

ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي؛ فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله، ثم أمضي لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على «الإحياء»، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه.

ومن ثم أقبلت على قراءة الكتب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه".

من هنا كانت شرارة توجه الألباني لدراسة علم الحديث، وفي هذا دلالة هامة جدّاً على دور المجلات والصحف ووسائل الإعلام الصادقة في هداية المسلمين ونفعهم،

شباباً ورجالاً وأن الصحف والمجلات سبب هام من أسباب نهضة المسلمين العصرية، فبسبب مقال يشاء الله U ظهور محدث للعصر!!

وتدور عجلة الزمان، ويبدأ الألباني في عام (١٣٧٢هـ) يكتب في المجلات أبحاثاً ومقالات في علم الحديث في مجلة «التمدن الإسلامي»، يكون لها تأثير كبير في نشر علم الحديث والعناية بالتزام السنة الصحيحة في سوريا وخارجها، وكانت بداية التعريف بالألباني في العالم الإسلامي، ويقول د. أحمد معبد عن هذه المقالات: "كنت أسأل نفسي: كيف يعرف الشيخ ناصر الحديث الصحيح من الضعيف... هل هو ساحر؟!"، ثم يصبح د.أحمد معبد شيخاً في علم الحديث.

ومجلة «المنار» كانت سبباً مهماً في قيام الصحوة الإسلامية الإصلاحية المباركة، بل كان بعض المستشرقين يعدها وزارة الإعلام للعالم الإسلامي، وقد كانت تتداول في الشام عند الباعة بسبب ما شهده الشام من دعوة إصلاحية تناولناها في الحلقات السابقة كان من رموزها: العلامة طاهر الجزائري، والعلامة عبد الرزاق البيطار، والعلامة جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد بهجة البيطار؛ والذي تعرف عليه الألباني وحضر بعض مجالسه ودروسه.

فواظب الفتى الألباني على مطالعة مجلة «المنار» والاستفادة من أبحاثها؛ وخاصة تحقيقات رشيد رضا في علم الحديث، وكان أول عمل حديثي قام به هو: نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي، ولم يكن ذلك مجرد نسخ، فبعد أن نسخ نصف مجلد خطر له أن يقوم بشرح غريب الكلمات، فأعاد نسخ المجلد من جديد مع شرح غريب الكلمات؛ حتى صار التعليق على الكتاب أكثر من المتن، وقد بلغ عدد صفحاته (٢٠٠٠) صفحة!! ويقول الألباني

عن ذلك الجهد: "وأحسب أن هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إليّ المضي في ذلك الطريق".

وأصبح الاهتمام بالحديث وعلومه شغله الشاغل، وأصبح معروفاً بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق خصصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، وسمح له أن يدخلها وقت ما شاء.

وبقي الألباني يذكر فضل العلامة رشيد رضا عليه؛ فيقول: "فإنني بفضل الله U بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانياً، يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا Z ؛ عن طريق أعداد مجلته «المنار» التي وقفت عليها في أول اشتغالي بطلب العلم".

وهنا يجب أن نتنبه لتواصل الأجيال والتأثير غير المباشر لجهود المصلحين، فرشيد رضا يؤسس «المنار» ويبث فيها دعوته الإصلاحية؛ والتي منها: تعظيم السنة والدعوة لتنقيتها من الشوائب التي ألصقت بها، فيتشربها الألباني، ويجعلها تياراً جارفاً يسري في الأمة!

والعلامة طاهر الجزائري يقوم بتأسيس المكتبة الظاهرية سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٨٠م)، والتي يقوم الألباني بعد حوالي (٥٠) سنة بقراءة مخطوطاتها والبالغ عددها نحو عشرة آلاف مخطوط ورقة ورقة، وهو يبحث عن ورقة ضائعة من مخطوط «ذم الملاهي» للحافظ ابن أبي الدنيا، وكان أحياناً يبقى واقفاً على السلم عدة ساعات يقرأ، هذا كله وهو في إجازة مرضية بأمر الطبيب!!

وبسبب البحث عن هذه الورقة تمكّن الألباني من وضع فهرس لمخطوطات

المكتبة الظاهرية! وقد أعاد الألباني قراءة كل المخطوطات في المكتبة الظاهرية ثلاث مرات، ونسخ كل ما فيها من فوائد حديثية، وأصبحت زيارة مكتبات المخطوطات وجمع ما فيها من فوائد حديثية هواية وصِفة لازمة للألباني؛ فقد جمع من مخطوطات الظاهرية، ومكتبة الأوقاف بحلب، والمكتبة المحمودية بالمسجد النبوي، ومكتبة عارف حكمت بالمدينة النبوية، ومكتبة الجامعة الإسلامية، وغيرها من مكتبات المخطوطات، حتى تجمع عنده حوالي أربعون مجلداً، وكانت هذه المجلدات الأربعون الثروة العلمية الحديثية التي تفوق بها الألباني في علم الحديث على غيره، ولقلة مالِه كان يكتب هذه الفوائد على ظهر ورق الإعلانات الذي يجمعه من الطرقات أو يشتريه بثمن بخس.

وليس بغريب أن يقرأ الألباني كل هذه المخطوطات، فالجميع يشهد له حتى في شيخوخته بجلَده وصبره على القراءة والبحث والكتابة؛ حتى قبل ٥٠ يوماً من وفاته، فكيف كانت همته حين كان شاباً؟

فقد بدأ حياته بتعلم مهنة النجارة، لكن كان يتوقف العمل في الشتاء فاقترح عليه والده أن يعلّمه مهنة تصليح الساعات، فكان يستغل وقت الفراغ وعدم وجود عمل للمطالعة، وبعدما انفصل عن والده في دكان خاص به أصبح يعمل ساعة أو ساعتين في اليوم يحصل بها القوت الضروري لعائلته، ثم يذهب للمكتبة الظاهرية لعدة ساعات.

ثم لما أصبح عنده مساعد في الدكان أصبح يعمل ثلاث ساعات يومي الثلاثاء والجمعة فقط، والباقي يقضيه في الظاهرية.

فبهذا الجد والاجتهاد والعصامية في التعلم أصبح الألباني محدث الزمان وناصر السنة!

فما عسى أن يقول الشعر في رجل يدعوه حتى عداه ناصر الدين

وهذه المطالعة لمخطوطات الظاهرية ومنها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية، وغيرهما من أعلام المدرسة السلفية؛ كان لها بالغ الأثر في توجه الألباني السلفي.

دعوة العلامة الألباني:

هذه المطالعة لمجلة «المنار» ومن ثم مخطوطات الظاهرية وشخصية الألباني القوية والجريئة ساهمت في أن يبدأ الألباني في الجهر بقناعاته الإصلاحية والسلفية في دمشق، والجهر بهذه القناعات كان هو الشيء الجديد على دمشق وأهلها، فقد كان تلاميذ القاسمي موجودين ومعروفين أمثال: العلامة بهجت البيطار، والشيخ عبد الفتاح الإمام -رئيس جمعية الشبان المسلمين في سوريا-، والشيخ توفيق البزرة، لكن نشاطهم كان بين محبيهم وتلاميذهم، فجاء الألباني يجهر بها بين الناس، ويدافع عنها بقوة وشدة، وبكل وضوح وصراحة، وتحمل في سبيل ذلك الكثير من المصاعب والمتاعب، ومن هنا أصبحت السلفية المعاصرة في الشام ترتبط باسم الألباني.

فبدأ الألباني يناقش والده وشيخه وبقية شيوخه حول قضايا التوحيد والشرك مثل: الصلاة في المساجد التي بها قبور، ونتج عن هذه المناقشات تأليف كتابه «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد»، وتوالت النقاشات والمتاعب حتى طلب منه والده الانفصال عنه بسبب رفض الألباني الالتزام بالصلاة خلف الإمام الحنفي، إذ كانت صلاة الجماعة تقتصر على أتباع كل مذهب لوحده، ولذلك كانت تتكرر الجماعة أربع مرات لكل صلاة، في مناقضة تامة لجمع الكلمة ووحدة الأمة؛ بسبب التعصب والجمود الفقهي.

فكان الألباني يرفض ذلك، ويصلي مع أول إمام مهما كان مذهبه[1]، وكانت هذه من أولى القضايا التي خالف الألباني فيها الجمهور العام، واتهم بالوهابية، وعدم احترام المذاهب الأربعة، ورفعت ضده شكاوى كيدية عند السلطات.

ففي مرة من المرات لما رآه الإمام وكان أحد المتعصّبة صاح فيه أمام الناس: يالّا! بَرَّا! بَرَّآ! بَرّآ! ولما رفض الشيخ الخروج من المسجد وتدخل الناس، صلى بهم، لكنه بعد الصلاة عاد للصراخ والتهجم على الألباني، وأرسل بعض أتباعه ليعتدوا على الشيخ في الشارع، فمنعه أصدقاء الشيخ والمصلون من ذلك!

ولذلك منع الألباني من الخطابة والتدريس في عدد من المساجد والمدن، وسجن مرتين.

وفي الأردن وشى به بعض الناس فأبعد من الأردن، ثم تدخل الشيخ محمد إبراهيم شقرة لدى الملك الحسين؛ فسمح بعودته للأردن، وبقي فيها حتى وفاته، وتعرض خلالها لبعض المضايقات الرسمية والأمنية.

هذا في الوقت الذي وافقه على دعوته أفاضل العلماء من تلاميذ الجزائري والقاسمي وعبد الرزاق البيطار، المعروفون بالعلم والدين في دمشق، والذين شجعوه على الاستمرار قدماً في دعوته.

وقد لقيت دعوة الشيخ قبولاً بين أوساط المثقفين وطلاب جامعة دمشق؛ لقدرتهم على فهم دعوة الشيخ، بعكس عامة الناس الأميين الذين تسيطر عليهم الخرافة

---

(١) وفي آخر حياة والده لان الأب لدعوة الابن، وأصبح يعترف له بصواب بعض ما يدعو إليه، وكانت علاقته به طيبة.

والتصوف.

وقد كانت دروس الشيخ منذ سنة (١٩٤٣م) بدأت في دكانه، ثم انتقلت إلى بيوت بعض الإخوة، ثم استأجروا لهم مقرّاً خاصّاً للدروس، وفي سنة (١٩٤٩م) أقاموا أول صلاة للعيد بالمصلى وليس بالمساجد.

ومن الملاحظ تأثير البيئة على الشيخ، فهو هاجر من بلده خوفاً على دينه من بطش الحكومة المعادية للإسلام، ولذلك نجده يجعل استئناف الحياة الإسلامية وتطبيق حكم الله من صلب دعوته، كما أن مطالعته لمجلة الشيخ رشيد رضا «المنار» كان لها دور مهم في تكوين وبلورة شخصيته الثقافية وشمولية نظرته، ولذلك حقق الشيخ كتاب «حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام» لرشيد رضا، في اهتمام مبكر بالمرأة المسلمة وتقدمها، وخصص لهن درساً خاصّاً لشرح كتاب «الأدب المفرد» للإمام البخاري.

كذلك وجود الشيخ في بيئة منفتحة ومشاركته علماء عصره أمثال: العلامة البيطار، وأساتذة الجامعة السورية وغيرهم؛ جعلت الشيخ يدرس كتاب «منهاج الإسلام في الحكم» لمحمد أسد؛ وهو المستشرق اليهودي الذي أسلم.

وبهذا يتضح حضور الجانب السياسي في فكر الشيخ مبكراً.

كما أن الشيخ حج أكثر من ثلاثين مرة، واعتمر كثيراً، وكانت رحلاته مليئة باللقاءات والمناقشات والدروس، وسافر مبكراً لأوربا وبعض البلاد الإسلامية، وكذلك التدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مما أتاح للشيخ أن يحتك بالعلماء الكبار؛ كالعلامة أحمد شاكر، والشيخ حامد الفقي، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والدكتور تقي الدين الهلالي، والأستاذ محب الدين الخطيب، ومن إدارة الجامعة

الإسلامية العلامة محمد بن إبراهيم، وبعده العلامة ابن باز، وبالمدرسين في الجامعة والطلاب من بلاد شتى.

كل ذلك جعل الشيخ يطلع على كثير من مشاكل وتجارب العمل الإسلامي، وينقل رؤيته ودعوته لبلاد كثيرة، مما مكّن الشيخ من تكوين رؤيته السلفية الخاصة بالتغيير والنهضة، هذه الرؤية التي تعد أساس الفكر السلفي الدعوي والحركي المعاصر؛ إن صح التعبير.

وأيضاً هذا الاحتكاك والسفر جعلا دعوة الشيخ تصل إلى أماكن عديدة؛ رغم ضعف وسائل الاتصال في ذلك الزمن.

مراحل دعوة الألباني:

ويمكن تقسيم دعوة الشيخ الألباني إلى ثلاث مراحل:

أولاً: دعوته في سوريا:

والتي تمثل مرحلة التكوين، فقد كان الشيخ في قوة الشباب وبداية حياته العلمية والدعوية، وكانت له دروس علمية يعقدها مرتين كل أسبوع، ويحضرها طلبة العلم وبعض أساتذة الجامعات، ومن هؤلاء: الأستاذ أحمد راتب النفاخ، ود. محمد رشاد سالم المصري، محقق كتاب «منهاج السنة» لابن تيمية.

ومن الكتب التي كان يدرسها في حلقات علمية:

- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب.
- «الروضة الندية شرح الدرر البهية» للشوكاني، شرح صديق حسن خان.
- «أصول الفقه» لعبد الوهاب خلاف.

- «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» لابن كثير، شرح أحمد شاكر.
- «منهاج الإسلام في الحكم» لمحمد أسد.
- «فقه السنة» لسيد سابق.

وكان الشيخ وهو في العشرينيات من عمره يكتب المقالات للمجلات مثل مجلة «التمدن الإسلامي»، التي يرأسها الأستاذ أحمد العظمة، ومجلة «المسلمون» التي يرأسها الدكتور مصطفى السباعي.

وأصبح له جولات دعوية منتظمة شهريّاً لعدد من المحافظات كحمص وحماة وإدلب وحلب والرقة واللاذقية، وكان لها دور مؤثر في نشر الدعوة للتمسك بالكتاب والسنة وفهم السلف.

وتميزت هذه المرحلة بالانفتاح على الجماعات الإسلامية، فكان بعض قادة الإخوان يحضرون دروسه كالأستاذ عصام العطار، والشيخ زهير الشاويش وغيرهما، كما كتب الشيخ في مجلة «الإخوان المسلمين» المصرية تعليقات على كتاب «فقه السنة»، وأرسل له حسن البنا رسالة يحثه فيها على الاستمرار في الكتابة للمجلة.

وكان الألباني من المتطوعين للجهاد في فلسطين عام (١٩٤٨م) مع جماعة الإخوان المسلمين، كما قابل في هذه الفترة العديد من قادة الجماعات كالشيخ تقي الدين النبهاني -مؤسس حزب التحرير-، وكانت له جولات دعوية داخل وخارج سوريا.

كما التقى ببعض قادة الفرق الضالة مثل: عبد الله الحبشي، ورد عليه، وكذلك القاديانيين.

وقد طلبت منه كلية الشريعة بجامعة دمشق تخريج أحاديث البيوع الخاصة بـ

«موسوعة الفقه» التي عزمت الجامعة على إصدارها عام (١٩٥٥م).

كما اختير عضواً في لجنة الحديث التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨-١٩٦١م)، للإشراف على نشر كتب السنة وتحقيقها.

وقد عمل الشيخ الألباني في المكتب الإسلامي الذي أسسه الشيخ زهير الشاويش في تحقيق التراث الإسلامي ونشر السنة، وهو مما ساهم في نشر دعوة ومؤلفات وتحقيقات الشيخ في بلدان كثيرة.

وقد عاش الشيخ تقلبات الشام السياسية؛ سواء الظلم الواقع عليها بسبب الاحتلال الفرنسي، وتداعيات الثورة ضد الفرنسيين، ثم الحكومات الوطنية، وصولاً لمرحلة الانقلابات، ثم استيلاء البعثيين على الحكم واستفراد العلويين منهم بالحكم بالحركة التصحيحية التي قام بها حافظ الأسد عام (١٩٧٠م).

تعرض الشيخ الألباني -شأنه شأن رموز العلم والإصلاح- دوماً للابتلاء؛ فقد سجن مرتين، الأولى كانت قبل عام (١٩٦٧)؛ حيث اعتقل لمدة شهر في قلعة دمشق، وهي نفس القلعة التي سجن فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، وعندما قامت حرب الـ (٦٧) رأت الحكومة أن تفرج عن جميع المعتقلين السياسيين.

لكن بعدما اشتدت الحرب عاد الشيخ إلى المعتقل مرة ثانية؛ بسبب الوشايات وشهادات الزور ضده عند الحكام، فسجن في سجن الحسكة، شمال شرق دمشق ثمانية أشهر، وفي السجن اختصر «صحيح مسلم» -وهو من كتب الشيخ المفقودة-، واجتمع مع شخصيات كبيرة في المعتقل.

وفي سنة (١٩٨٠م) هاجر الشيخ إلى الأردن، وبقي فيها Z حتى توفي عام (١٩٩٩م).

ومن تلاميذ الألباني في هذه المرحلة: أخوه الكبير محمد ناجي أبو أحمد -توفي مبكراً-، ومن أشد مناصري الألباني ودعوته: الشيخ محمد عيد عباسي، الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي، الأستاذ خير الدين وانلي، الشيخ علي خشان، الشيخ عدنان العرعور، الشيخ محمد جميل زينو، الشيخ عبد الرحمن عبد الصمد، الأستاذ محمود مهدي الأستانبولي.

ومن الذين استفادوا من الشيخ وتأثروا بمنهجه: الأستاذ زهير الشاويش، الأستاذ عصام العطار، الشيخ الدكتور عبد الرحمن الباني.

ثانياً: مرحلة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

وهي على قصرها التي لم تتعدّ ثلاث سنوات (١٣٨١-١٣٨٣/١٩٦١-١٩٦٣) تعد مرحلة هامة جدّاً في حياته؛ ذلك أنها أوجدت للشيخ تلاميذ حملوا دعوته لبلاد لم يزرها أو يعرفها، وأصبح هناك تيار ينسب للشيخ في العالم وليس سوريا فقط، لأنه درّس منهجه في علم الحديث عمليّاً، وبطريقة أكاديمية للطلاب، وأحدث بذلك نقلة في شعبية علم الحديث في العالم؛ بعد أن كان علماً نظرياً لا يعرفه إلا أفراد محدودون، ورسخ رؤيته الدعوية بين السلفيين؛ خاصة إذا علمنا أن الشيخ الألباني والشيخ محمد ابن عبد الوهاب البنا هما اللذان رعيا في الجامعة الإسلامية الرحلة الأسبوعية للطلبة، والتي كانت مدرسة دعوية علمية خرّجت العديد من العلماء والدعاة.

وكل من كتب عن الألباني في الجامعة الإسلامية ذكر نشاط الشيخ في التدريس؛ حتى في الفسحة بين المحاضرات، وأما جلساته ولقاءاته بعد الدوام الجامعي فكانت دوماً مناقشات وبحوث يدرب فيها الطلاب على النقاش وطلب الدليل للوصول

للقناعة.

وكانت هذه اللقاءات والجلسات سبباً في تعرف الألباني على كثير من العلماء والدعاة والمدرسين من السعودية وغير السعودية، ومن السلفيين وغير السلفيين، وكانت سبباً -أيضاً- في التعريف به عندهم.

وقد سعد الشيخ بسكنى المدينة المنورة، وقال: "وجدت مناخاً رائعاً جدّاً؛ لديهم استعداد لتقبل الدعوة أولاً، والمنهج العلمي الذي أنا فطرت عليه وظللت عليه ثانياً".

وقد طلب منه وزير المعارف السعودي -آنذاك- الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ في عام (١٣٨٨هـ) أن يتولى الإشراف على قسم الدراسات الإسلامية العليا في جامعة أم القرى بمكة، لكن حالت بعض الظروف دون ذلك، ولكن تم اختياره عضواً في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام (١٣٩٥-١٣٩٨هـ).

وقد أوصى الشيخ أن توقف مكتبته الشخصية بعد وفاته لصالح مكتبة الجامعة الإسلامية، في رد للجميل للجامعة ومكتبتها والمكتبات العامة على الشيخ، وقال الشيخ في وصيته: "لأن لي فيها ذكريات حسنة في الدعوة للكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح، يوم كنت مدرساً فيها، راجياً من الله -تعالى- أن ينفع بها روادها كما نفع بصاحبها -يومئذ- طلابها".

وهذا تواصل مع منهج الإصلاح الذي أسسه طاهر الجزائري بتأسيس المكتبة الظاهرية والتي تعذر على الألباني إهداؤها مكتبته لها وهي تحت حكم العلويين البعثيين من آل الأسد؛ الذين فر بنفسه وأهله وكتبه من بطشهم قبل (٣٠) سنة.

ومن أبرز تلاميذ الشيخ في المدينة: الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، الدكتور

الشيخ عمر الأشقر؛ الذي كان أمين مكتبة الجامعة وجار الشيخ في السكن، الشيخ مقبل الوادعي، الشيخ ربيع بن هادي المدخلي.

ثالثاً: مرحلة الإقامة بالأردن:

هذه هي المدة الأخيرة من حياة الشيخ، وقد بدأت سنة (١٩٨٠م)، وكان عمر الشيخ حينها يقارب (٦٦) سنة، وامتدت هذه المرحلة حتى وفاته سنة (١٩٩٩م).

ويحدثنا الألباني عن فراره بدينه من سوريا وهجرته للأردن؛ فيقول: "هاجرت بنفسي وأهلي من دمشق الشام إلى عمان، في أول رمضان سنة (١٤٠٠هـ)، فبادرت إلى بناء دار لي فيها آوي إليها ما دمت حيّاً، فيسر الله لي ذلك بمنّه وفضله، وسكنتها بعد كثير من التعب والمرض أصابني من جراء ما بذلت من جهد في البناء والتأسيس، ولا زلت أشكو منه شيئاً قليلاً".

جعل الشيخ أعماله العلمية خلال إقامته بالأردن أولوية شبه مطلقة، على حساب نشاطه الدعوي، فها هو يقول: "فإنه ما كاد بعض إخواننا في الأردن يشعرون بأنني استقررت في الدار، حتى بدؤوا يطلبون مني أن أستأنف إلقاء الدروس التي كنت ألقيها... وعلى الرغم من أنني ما كنت عازماً على شيء من الإلقاء، لأوفر ما بقي من نشاط وعمر لإتمام بعض مشاريعي العلمية".

ولهذا الموقف عدة أسباب منها: بلوغ الشيخ هذا السن، واضطراب الوضع السياسي في المنطقة، وتعرض الشيخ للطرد من الأردن؛ بسبب وشاية المخالفين لدعوة الكتاب والسنة، والذين يعرفون خطورة الشيخ عليهم، فالشيخ كان له زيارات سابقة للأردن لزيارة ابنته المقيمة بعمان، وكان يلقي بعض الدروس في زياراته، وبعضها كان

يتمّ في مقر جماعة الإخوان المسلمين بمدينة الزرقاء، وكان الألباني قد زار الأردن بدعوة من جماعة الإخوان عام (١٩٧٣م) لمعالجة انشقاق في جماعة الإخوان نتيجة فكر تبنى تكفير المجتمع بكامله، وتمكّن الشيخ من معالجة هذه الفتنة والقضاء عليها.

هذا التغيير في حياة الشيخ وتقليل النشاط الدعوي كان لمجمل هذه الأسباب، ولكن مع هذا الاهتمام بالجانب التأليفي إلا أن الشيخ بقي على تواصل مع الناس والعامة؛ من خلال اللقاءات العامة في المناسبات الاجتماعية، وكذلك من خلال تلقي الاتصالات الهاتفية، وقد سجلت هذه اللقاءات والاتصالات فبلغت أكثر من ألف شريط.

ومن أبرز تلاميذ الألباني في الأردن: الشيخ محمد إبراهيم شقرة، الشيخ علي حسن الحلبي، الشيخ مشهور حسن سلمان، الشيخ محمد موسى نصر، الشيخ حسين العوايشة، والشيخ عصام هادي، وغيرهم.

منهج الألباني:

الدعوة الإسلامية العلمية تشكل لب رؤية الشيخ المنهجية للتغيير والإصلاح، والتي تعد أساس الفكر السلفي المعاصر، وهو يؤمن أن هذه الرؤية هي الموصلة للدولة الإسلامية، فهو يقول: "الذين يشتغلون بالدعوة هم الذين يشتغلون بإقامة الدولة المسلمة، لكن لا يلهجون بهذا الكلام، ولا يستغلون عواطف الناس، وإنما يعملون على السكوت والصمت".

وقد تحققت هذه الرؤية في مصر؛ حيث فاجأ السلفيون الجميع بتصدر المشهد السياسي اعتماداً على جهودهم العلمية الهادئة طيلة العقود الماضية، والشيخ يعتبر نفسه امتدادا لحركة مصلحي الشام الذين لم يشكلوا إطاراً أو تنظيماً لتجسيد هذه الرؤية؛

والتي كان يعبر عنها الألباني بقوله: "دعوتنا ثقّف ثم كتّل"، بعكس الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان له سعي قوي للتحالف مع قوة سياسية لتجسيد رؤيته الدعوية.

لكن الألباني -الذي عاصر ظهور الجماعات الإسلامية- قام بتأطير الدعوة السلفية في نقاط محددة؛ حتى تتبين معالم الدعوة السلفية، ويسهل فهمها لدى الجيل الجديد الذي أصبح يرغب بالنقاط العملية والمركزة، وينفر من البيانات الإنشائية والبلاغية.

فصاغ الألباني خمس نقاط تحدد معالم منهجه ودعوته وهدفه، سماها: (دعوتنا) هي:

١ - الرجوع إلى الكتاب الكريم والسُّنَّة الصحيحة، وَفَهمُهُما على النهج الذي كان عليهِ السَّلَف الصالح -رضوان الله عليهم-.

٢ - تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه، والتحلي بفضائله وآدابه، التي تَكْفُلُ لهم رِضوانَ الله، وتُحقق لهم السعادة والمجد.

٣ - تحذير المسلمين من الشِّرك على اختلاف مظاهره، ومن البدع والأفكار الدخيلة، والأحاديث المنكرة والموضوعة؛ التي شَوَّهَت جمال الإسلام، وحالت دون تقدم المسلمين.

٤ - إحياء التفكير الإسلامي الحر في القواعد الإسلامية، وإزالة الجمود الفكري؛ الذي ران على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي.

٥ - السعي نحو استئناف حياة إسلامية، وإنشاء مجتمع إسلامي، وتطبيق حكم الله في الأرض.

هذه دعوتنا؛ ونحن ندعو المسلمين جميعاً إلى مؤازرتنا في حمل هذه الأمانة التي تنهض بهم.

آليات الألباني:

ولتحقيق هذه الأهداف فقد اعتمد الألباني عدداً من الآليات هي:

١ - التصفية والتربية:

وهي عند الألباني نقطة البدء بالإصلاح لحل مشكلة ضياع وتخلف المسلمين.

والمقصود بالتصفية: تقديم الإسلام إلى الشباب المسلم مصفى من كل ما دخله على مد هذه القرون والسنين الطوال؛ من العقائد الباطلة، ومن الخرافات والبدع والضلالات، ومن ذلك: ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة، وقد تكون موضوعة...

فالتصفية إنما يراد بها: تقديم العلاج؛ الذي هو الإسلام الصحيح الذي حقق للأمة من قبل العزة والرفعة، وحين تم خلطه بالبدع والشركيات تخلفت الأمة وانحطت بين الأمم.

وقد تركز جهد الشيخ في هذا الباب، وقد جعل مشروعه الشخصي لنهضة الأمة «تقريب السنة بين يدي الأمة»، وقد وُفق توفيقا كبيراً - بفضل الله -.

أما التربية فالمقصود بها: تنشئة الجيل على الإسلام الصحيح؛ عقيدة، وعبادة، وسلوكاً.

ولكن الشيخ لم يفصل كثيراً في تفاصيل تطبيق وتنفيذ الأمة، ولذلك لا يزال كثير من أتباع الشيخ لا يفهم من العملية التربوية سوى عنوانها!!

٢- من السياسة اليوم ترك السياسة:

يكرر الشيخ الألباني: أن السياسة جزء مهم من الإسلام، ولكنه يعتقد أن مشاركة السلفيين في السياسة ليس هذا أوانه بل في مرحلة تالية، وهو يشرح موقفه من السياسة بقوله: "نحن لا نشتغل في السياسة، لكن ليس لأن الاشتغال في السياسة ليس من الإسلام؛ لا، السياسة من الإسلام... فنحن لا ننكر وجوب الاشتغال بالسياسة، لكننا رأينا في هذا الزمان أن من السياسة ترك السياسة.

والغرض الآن نوافق على عدم الاشتغال وقتيّاً، وإلا فكيف يمكن إقامة الدولة المسلمة إلا بمثل هذه السياسة؟! لكن الذين ينبغي أن يشتغلوا بالسياسة ينبغي أن يكونوا علماء، أن يكونوا فقهاء، أن يكونوا علماء بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح".

وفي الحقيقة أن هذا موقف سياسي من الشيخ؛ فقد علّله بالسياسة وليس بالدين، وثانياً: نحن اليوم نجد عدداً من الحركات الإسلامية السياسسة تتخذ قرار المقاطعة والمشاركة في اللعبة السياسية لعدم الجدوى منها، وهذا هو لب موقف الشيخ من المشاركة السلفية السياسية: مطلوبة حين تكون مجدية؛ سواء من صلاحية البيئة السياسية للمشاركة السلفية -كما حدث في مصر-، ومن ناحية وجود قوة مؤثرة للسلفيين عند مشاركتهم.

٣- دعوتنا ثقّف ثم كتّل:

عايش الشيخ عدداً من التكتلات الإسلامية في عصره (جماعة الإخوان، حزب التحرير، الجماعة الإسلامية الهندية، جماعة الدعوة والتبليغ...)، وأدرك خطورة سياسة التجميع دون تربية وتوعية، ولذلك كان يلخص الفرْق بين الدعوة السلفية وغيرها من

الجماعات الإسلامية بقوله: "دعوتنا ثقّف ثم كتّل، وغيرنا كتل ثم ثقف ثم لا شيء".

الدور الإصلاحي الذي حققه الألباني:

يمكن أن نجمل دور الألباني في محورين هما: إنتاجه العلمي في المقالات والكتب والمحاضرات، وترسيخه لمنهج تحقيق السنة والفقه المقارن في العالم الإسلامي.

١ - إنتاجه العلمي:

تميز إنتاج الألباني العلمي بكونه ينتظم ضمن مشروعه الكبير "تقريب السنة بين يدي الأمة"، وتميز بسهولة العبارة ووضوحها، بخلاف الشائع في زمنه كأثر من آثار التخلف والجمود والتعصب الفقهي، وتميز بتلبية حاجات المجتمع الآنية، وترسيخ منهج الدعوة للكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وتميز -أيضاً- بالاختصار واليسر؛ كما في كتابه «صحيح الجامع الصغير»، ومن يتأمل إنتاج الشيخ والذي بلغ (٢٣٠) منتجاً بين تأليف وتخريج وتعليق وفتوى بخلاف الأشرطة؛ يجد أن الشيخ شارك في كافة المجالات تقريباً، وهذا التفصيل:

© فهو كتب وخرّج وحقّق في ما يخص تصحيح عقائد الناس، مثل: «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد»، «التوسل أحكامه وأنواعه»، «الاحتجاج بالقدر» لابن تيمية، «أصول السنة واعتقاد الدين» للحميدي (خ)[1]، «شرح العقيدة الطحاوية»، «العقيدة الطحاوية شرح وتعليق»، وغيرها.

© كتب في علوم القرآن: «معالم التنزيل للبغوي» (خ)، «بين يدي التلاوة» (خ)، «كيف يجب أن نفسر القرآن».

---

(١) لا يزال مخطوط.

© وكتب في العبادات والمعاملات، مثل: «صفة الصلاة»، وله فيها ثلاثة كتب: كبير وصغير ومختصر، و«حجة النبي ﷺ»، «أحكام الجنائز»، «أحكام الركاز» (خ)، «حجاب المرأة المسلمة»، «حقيقة الصيام»، «آداب الزفاف»، «المسح على الجوربين»، و«إصلاح المساجد» لجمال الدين القاسمي.

© كتب في السيرة: «فقه السيرة» للغزالي، «دفاع عن الحديث النبوي والسيرة» في الرد على جهالات الدكتور البوطي في «فقه السيرة».

© كتب في تخريج أحاديث الفقه الحنبلي: ويعد كتابه «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» أول كتاب حديثي يختص بالمذهب الحنبلي، ويلحق بهذا كتابه «الذب الأحمد عن مسند الإمام أحمد».

© كتب في فقه الدليل والفقه المقارن: «التعليقات الرضية على الروضة الندية»، «تمام المنة»، «الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب».

© كتب في السنة النبوية تخريجاً وتحقيقاً وتأصيلاً، مثل: «مختصر البخاري ومسلم»، وتخريج وتحقيق كتب «السنن» الأربعة، و«السلسلة الصحيحة والضعيفة»، «العودة للسنة» (خ)، «الحديث حجة بنفسه»، وغيرها.

© كتب في علم الحديث: «الإكمال في أسماء الرجال» للتبريزي، «الباعث الحثيث»، «تاريخ دمشق».

© كتب في تصحيح المفاهيم: «إرشاد النقاد في تيسير الاجتهاد» للصنعاني (خ)، «حقوق النساء» لرشيد رضا، «الدعوة السلفية أهدافها وموقفها من المخالفين» (خ)، «فقه الواقع»، «المصطلحات الأربعة» للمودودي.

© كتب في تزكية النفوس: «صحيح الكلم الطيب»، «رياض الصالحين»، «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، «كلمة الإخلاص» لابن رجب، «لفتة الكبد في تربية الولد» لابن الجوزي، «مساوئ الأخلاق» للخرائطي.

© فهارس علمية للكتب والمكتبات: «أسماء الكتب المنسوخة من المكتبة الظاهرية» (خ)، «بغية الحازم في فهارس مستدرك الحاكم» (خ)، «فهرس كتاب الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي، «فهرس المخطوطات الحديثية في مكتبة الأوقاف الحلبية»، «منتخبات من فهرس المكتبة البريطانية» (خ).

© كتب في الرد على المنحرفين: «الرد على التعقيب الحثيث» للحبشي، «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل»، «الرد على أرشد السلفي»، «الرد على كتاب المراجعات» لعبد الحسين شرف الدين الرافضي (خ).

تكامل الشيخ مع الجهود الإصلاحية الأخرى:

آمن الشيخ الألباني بتكامل الجهود في العمل الدعوي؛ وخاصة في مجال التثقيف والتأليف، وكان يرى أن من تطبيقات مبدأ "التصفية" الذي يؤمن به: المساهمة في تصفية بعض الكتابات العصرية المهمة لرموز الدعوة الإسلامية؛ من الأحاديث الضعيفة، لما لها من دور مهم في "تربية" الصحوة الإسلامية، ومن ذلك:

- تعقيبه على كتاب «الحجاب» وتخريج أحاديث كتاب «المصطلحات الأربعة في القرآن» لأبي الأعلى المودودي.

- كتاب «المرأة المسلمة» لحسن البنا، قام الألباني بمراجعته، والتعليق عليه، وتخريج أحاديثه.

- ألف الشيخ كتاباً مستقلاً هو «غاية المرام في تخريج أحاديث كتاب الحلال

والحرام» للشيخ يوسف القرضاوي، وخرج أحاديث كتابه «علاج مشكلة الفقر».

- تخريج أحاديث كتاب «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي.

- تخريجه لأحاديث كتاب «فقه السنة» للشيخ سيد سابق، وسماه: «تمام المنة».

والمتأمل في هذه الكتب التي اعتنى الشيخ الألباني بها يجد بكل وضوح أنها كتب تخدم أهداف الشيخ في تربية المسلمين على الأحكام الشرعية الصحيحة، مما يحقق وجود المجتمع المسلم، الذي يعد بداية "السعي نحو استئناف حياة إسلامية، وإنشاء مجتمع إسلامي وتطبيق حكم الله في الأرض".

وعناية الشيخ بهذه الكتب التي ألفها قادة بارزون في جماعات غير سلفية، تثبت جدية موقف الشيخ في التعاون بين الجماعات على ضوء الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة.

٢- المحور الثاني للدور الإصلاحي للألباني: ترسيخ منهج تحقيق السنة والفقه المقارن في العالم الإسلامي:

لقد وفق الله U الألباني لترسيخ منهج تحقيق السنة حتى أصبح منهجاً راسخاً أكاديمياً وشعبياً، فلا يقبل حديثاً دون تحقيق وبيان صحته، ولا يقتصر هذا على السلفيين بل أصبح لكثير من خصومهم عناية بتخريج الأحاديث وتحقيقها، بعد أن كان هذا نسياً منسيّاً؛ حتى عند علماء السعودية.

يقول العلامة ابن عثيمين عن دور الشيخ في هذا الباب: "إن كثيراً من المشايخ قبل دعوة الشيخ ما كانوا يفرقون بين الحديث الصحيح والضعيف والموضوع، ومن المشايخ من كان يفتي ويبني فتواه على أحاديث ضعيفة بل بعضها موضوع، فبدأ الشيخ

ينشر هذا العلم الشريف حتى تبصر الناس وعرفوا الصحيح من الضعيف، فجزاه الله خير الجزاء".

كما أن أبحاث الشيخ ومناقشاته للمسائل الفقهية على منهج اتباع الدليل ترسخ حتى أصبح هو المنهج المتبع في الجامعات باسم: "الفقه المقارن"، وقد كان للشيخ دور بارز في ترسيخ هذا النهج من خلال تمييز صحة الأحاديث، ونشر السنن العملية المجهولة لكثير من الفقهاء؛ حتى أصبح الاعتماد على الآثار ركن أساسي في الأبحاث المعاصرة، ويندر أن تجد بحثاً فقهيّاً لا يعتمد على تخريجات الألباني كأساس أو مساندة.

وهذا المنهج المقارن المعتمد على الدليل هو الذي فتح باب الاجتهاد المعاصر، وقضى على الجمود والانغلاق، وتخلص المسلمون من كثير من الفتاوى المتعنتة دون حق، مثل: فتوى عدم طهارة الجنب الذي يضع حشوة في أسنانه؛ والتي تنازع فيها الألباني مع والده فيها، ومن ثم تراجع والده لرأيه.

وفاته z :

كانت وفاته z عصر يوم السبت (٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ/الموافق ٢/ ١١/ ١٩٩٩م)، في مدينة عمان بالأردن، وقد بلغ (٨٥) عاماً، وصلى عليه وشيعه آلاف من محبيه وتلاميذه في نفس الليلة -بحسب وصيته-.

ولعل من الكلمات المختصرة التي وصفت الشيخ الألباني بعمق ما قاله الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق دفاعاً عن الشيخ ضد هجوم مجلة «المجتمع» الكويتية على الألباني: "لم ينضم ناصر الدين طيلة حياته إلى جماعة معينة من جماعات الدعوة، ولم يعادِ أي مجموعة منها، ونصح لها جميعاً، ولم يدخر وسعاً في تربية شباب أي مجموعة منها، وقام بنشر العلم الشرعي بكل طاقته في كل اتجاه.

وتلامذة الشيخ من جميع الجماعات والتنظيمات الإسلامية، فله تلاميذ وأحباب من جماعة الإخوان المسلمين، ومن جماعة حزب التحرير، ومن جماعة عباد الرحمن، ومن السلفيين، ولم ينشء الشيخ تنظيماً خاصّاً، ولا أقام جماعة خاصة بنظام خاص، لا لعجزه عن ذلك ولا لأنه يرى أن هذا حرام وإثم، ولكن لأنه يرى أن الأولى به أن ينشر علمه للناس جميعاً وللجماعات كافة، وذلك أنه يرى أن المنهج السلفي لفهم الدين هو المنهج الكفيل بعودة المسلمين إلى الدين الحق؛ عقيدةً، وعبادةً، ومعاملةً، وأخلاقاً".

مراجع للتوسع:

o «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، محمد إبراهيم الشيباني، الدار السلفية، الكويت، ط١، (١٩٨٧).

o «علماء الشام في القرن العشرين»، محمد حامد الناصر، دار المعالي، ط١، (٢٠٠٣).

o «محدث العصر الإمام محمد ناصر الدين الألباني كما عرفته»، عصام موسى هادي، دار الصديق، السعودية، ط١، (٢٠٠٣).

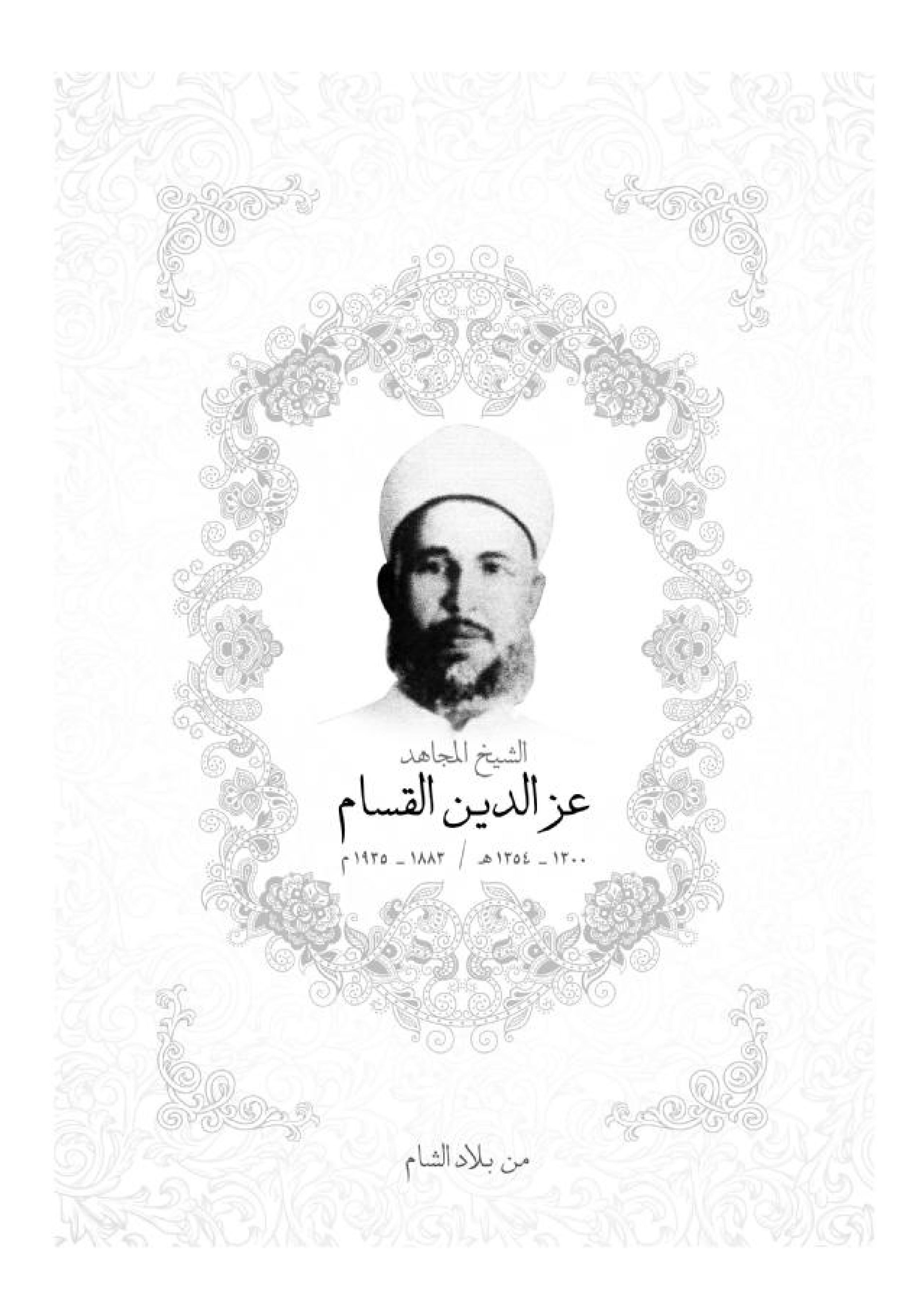
o «الألباني بقلمه»، عصام هادي، المكتبة الإسلامية، عمان، ط١، (١٤٢٢هـ).

o «الإمام الألباني- دروس ومواقف وعبر»، عبد العزيز السدحان، دار الأثرية، مصر، ط٢، (٢٠١١).

o «محمد ناصر الدين الألباني محدث العصر وناصر السنة»، إبراهيم العلي، دار القلم، دمشق، ط٣، (٢٠٠٥).

o «مقالات الألباني»، نور الدين طالب، دار أطلس، الرياض، ط٢، (٢٠٠١).

o «علماء ومفكرون عرفتهم»، محمد المجذوب، دار الشواف، القاهرة، (١٩٩٢).


الشيخ المجاهد
عز الدين القسام
١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٨٣ ـ ١٩٣٥م
من بلاد الشام

١١- الشيخ المجاهد عز الدين القسام

(١٣٠٠-١٣٥٤هـ/١٨٨٣- ١٩٣٥م)

تمهيد

إن كان الشيخ المجاهد البطل عز الدين القسام لا يُعرف الكثير عن تفاصيل حياته وسيرته فذلك لأنه لم يدونها أو يترك خلفه شيئاً يشير إليها، لكنه ترك خلفه أثراً ومنهجاً حيّاً في الأمة لا تزال تقتدى به الأجيال.

والعجيب أن سيرة القسام تناولها طرفان قصرا في حقها، فغالب من درس حركة القسام هم اليساريون من أمثال: الكاتب الفلسطيني اليساري عبد القادر ياسين؛ الذي قدم الشيخ القسام في كتاباته في قالب اشتراكي، ومناضل ثوري ينطلق من جذر طبقي، ومتمرد على البرجوازية العفنة، ويسعى لبناء دولة اشتراكية! في تغييب كامل للإسلام والدين عن منهج القسام وحركته.

وقابلَهم طرف آخر متأخر فدافع عن إسلامية القسام وسلفيته، لكنه كان ضيق الأفق، فحصر القسام وجهاده في قالب ضيق؛ بسبب رؤيته الخاصة للسياسة والدين، فمثلاً: الأستاذ محمد محمد حسن شراب رجح أن الشيخ كامل القصاب شبه عميل للإنجليز، وأن القسام تعامل معه مضطراً!! وأن مشاركته مع القسام في كتاب «النقد والبيان» مشاركة رمزية!! وأن العلاقة بين القسام والحاج أمين الحسيني كانت متوترة بسبب تذبذب الحسيني في وطنيته!! وهذا غير صحيح.

وسبب هذه الآراء العجيبة هو: تحليله للأحداث السياسية بطريقة متعسفة تميل لرؤية حزب التحرير، وإلا فإن المعاصرين للقصاب والحاج أمين مثل: الشيخ علي الطنطاوي والشيخ زهير الشاويش لهم رؤية مناقضة تماماً حول وطنية القصاب والحاج أمين، وهي الرؤية المنطقية، والتي تدل عليها نتائج حياة القصاب والحسيني.

والداعي لهذا التنبيه هو: شح المصادر الأصلية عن سيرة القسام، وندرة المصادر الصافية فيها!!

نشأته:

هو عز الدين عبد القادر مصطفى يوسف محمد القسام، وقد اختلف في سنة ولادته، ولكن الأرجح أنه ولد في عام (١٣٠٠هـ/الموافق ١٨٨٣م)، في مدينة جبلة في محافظة اللاذقية في سوريا.

والده هو عبد القادر بن محمود القسام، أحد شيوخ الطريقة القادرية، وكذلك جده، وكان جده قد قدم من العراق إلى جبلة، ولذلك كان بعض مريدي القادرية بالعراق يزورون قبر جده ووالده في جبلة.

ولذلك نشأ القسام في بيت متدين وذي صبغة صوفية، ولذلك ذهب للكُتاب فقرأ القرآن وتعلم القراءة والكتابة والحساب على يد والده، ثم درس في جبلة على يد الشيخ سليم طيارة والشيخ أحمد الأورادي.

ولما رأى أبوه حرصه على العلم أرسله للأزهر ليزداد علماً، وهو في سن الرابعة عشرة، وكان ذلك سنة (١٨٩٦م).

هذا هو كل ما لدينا عن القسام في صغره!!

في الأزهر:

اختلف المؤرخون للقسام حول المدة التي قضاها في مصر، ولكنها فترة لا تقل عن سبع سنوات ولا تزيد عن عشر سنوات، ولم يذكر أحد تفاصيل حياته في مصر أو العلماء الذين التقى بهم أو أخذ عنهم، لكنه ذهب للأزهر زمن تولي الشيخ محمد عبده لمشيخته، وقيامه ببعض الإصلاحات فيه، وكانت مصر آنذاك تعيش صراعاً بين التيار الإسلامي الذي يمثله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، والعلمانيين أتباع المحتلين من أمثال: فرح أنطون ولطفي السيد.

كما أن الصراع السياسي مع الاحتلال البريطاني كان على أشدّه بعد فشل ثورة أحمد عرابي سنة (١٨٨٢م)، وتزعّم مصطفى كامل تيار المقاومة للاحتلال.

والقصة اليتيمة التي رُويت عن حياة القسام في أثناء دراسته بالأزهر، هي حين انقطع المصروف عنه وعن رفيقه عز الدين التنوخي من أهلهما، فاقترح القسام أن يصنعا هريسة ويبيعاها للطلاب، فخجل التنوخي وقال: "أنا أخجل أن أنادي على بضاعتنا، فقال له القسام: أنا أصيح على بضاعتنا"، وهكذا تمكنا من إكمال دراستهما.

وفي مرة جاء والد التنوخي لزيارته بالقاهرة فوجده واقفاً بجوار القسام وهو ينادي على هريستهما، فسألهما: ما هذا؟

فخجل التنوخي وقال لوالده متنصلاً: "عز الدين علمني، وهو صاحب الفكرة"، ولكن التنوخي صدم حين أجابه والده: لقد علمك الحياة!

وهي قصة تكشف عن شخصية عصامية مبكرة للقسام، قادرة على مواجهة الظروف والتحديات، وابتكار الحلول والعلاج للأزمات، وهو ما سيكون سبب تميز القسام في تكوين أول تنظيم عسكري جهادي في فلسطين.

عودته من الأزهر:

هناك تنازع في السنة التي عاد فيها القسام لبلده جبلة؛ بناء على الخلاف في عدد السنوات التي قضاها بالأزهر، فالبعض يرى أنه عاد في سنة (١٩٠٣م)، والبعض يقول: عاد في سنة (١٩٠٦م)، وقد ظهر أثر الأزهر على الشاب العائد، ومن هذه الآثار يمكن أن نستشف المحاضن التي عايشها القسام في مصر:

فبداية رفض القسام أن يقوم بزيارة قصر الأفندي المتحكم في المنطقة على طريقة الإقطاع، ويعلن أن المسافر والضيف هو المستحق للزيارة وليس المقيم، ويهوّن على أبيه بالقول من أن الأفندي لن يستطيع أذيتك بسبب قوتي بعلمي وإيماني، وهذا يشير إلى وجود وعي جديد في ذهن الشاب المتعلم تجاه أصحاب النفوذ والجاه.

ومن ثم يسافر القسام لتركيا؛ فيزور مساجدها ليطلع على طرق التدريس وخطب الجمعة فيها قبل أن يعود ويتفرغ للتعليم والتدريس في المساجد والمدارس وتجمعات العمال وكل مكان.

ويمكن أن نقسم جهود القسام للجوانب التالية:

١ - التعليم والخطابة والإمامة:

فبدأ يعلم في زاوية والده، ولم يقتصر في تدريسه على الأطفال بل علّم حتى الكبار والعمال، والفتيات شملهم بتعليمه وإرشاده، ولم يقتصر على القرآن الكريم بل علمهم القراءة والكتابة والعلوم الأولية.

وعمل مدرساً في جامع السلطان، وبدأ يخطب في مسجد المنصوري بطريقة مختلفة عن الخطب التقليدية، فأصبحت القرية لا تتخلف عن صلاة الجمعة، وبدأت آثار دعوته تنتشر ويلمسها الجميع، وبدأ وعي جديد ينتشر بين الناس؛ يحرص على العلم

والفضيلة، وأداء الفروض الشرعية.

واستمر القسام في التدريس طيلة حياته، فدرّس في مدينتي بانياس واللاذقية، قبل أن يفتتح مدرسة في بلده جبلة سنة (١٩١٢م).

ولما هاجر لفلسطين سنة (١٩٢٠م) عمل في التدريس أيضاً، فقد درّس في مدرسة الإناث الإسلامية، وفي مدرسة البرج الإسلامية للطلاب، وهما مدرستان تتبعان الجمعية الإسلامية في حيفا، وكان يرعى طلابه علميّاً، ويوجههم لبناء مستقبلهم بإرشادهم لما يوافق قدراتهم من مهن وأعمال.

وتولى القسام الإمامة والخطابة والتدريس بمسجد الاستقلال، والذي أصبح منارة لبث العلم والوعي في حيفا وما حولها، وكانت خطبه ودروسه تتناول كافة شؤون الدين والدنيا، وبث فيها ضرورة العلم والعمل والجهاد؛ حتى يحافظ المسلم على إيمانه وحياته من مطامع المحتلين البريطانيين واليهود، ففي إحدى خطبه كان يخبئ سلاحاً تحت ثيابه فرفعه وقال: "مَن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليقتني مثل هذا"، فأُخذ مباشرة إلى السجن، وتظاهر الناس لإخراجه وأضربوا إضراباً عامّاً.

وينقل يوسف الشايب الذي استمع لآخر خطبة جمعة للقسام عنه قوله: "أيها الناس! لقد علمتكم أمور دينكم حتى صار كل واحد منكم عالماً بها، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلّغت؛ اللهم فاشهد، فإلى الجهاد أيها المسلمون!".

وأسس في حيفا مدرسة لتعليم العمال الأميين القراءة والكتابة والدين، وصنع منهم قادة للجهاد في فلسطين حملوا الراية بعده سنين طويلة.

ولزيادة مساحة تعليمه وتدريسه عمل القسام في وظيفة مأذون ليتجول بين الناس الـذين قـد لا يحضرون للمسـجد لكـنهم يحتـاجون لشـيخ عنـد الـزواج، فكـان يسـتغل الأعراس لبث الدعوة والتعليم والتواصل مع الناس.

وأيضاً حين تأسست في فلسطين فـروع لجمعيـة الشـبان المسـلمين سـنة (١٩٢٨م) التي كانت قد تأسست أصلاً في مصر سـنة (١٩٢٧م) عـلى يـد نخبـة مـن الشخصـيات السلفية منهم: العلامة محب الدين الخطيب، والعلامة محمود تيمور باشـا؛ كـان القسـام رئيساً لفرع حيفا.

وفي سـنة (١٩٣٢م) انتخـب القسـام رئيسـاً مؤقتـاً للمـؤتمر العـام لفـروع الجمعيـة بفلسطين، بوصفه أكبر الأعضاء سناً، وقد استفاد القسام من أنشطة الجمعية وانتشارها لنشر العلم والدعوة للجهاد في ربوع فلسطين، وتهيئة الشباب بدنيّاً للجهاد؛ من خلال فرق الكشافة التابعة للجمعية.

وهذه السيرة الطويلة من التعليـم وبـث الـوعي والاهـتمام بكافـة شرائـح المجتمـع والانضمام للجمعيات تؤكد أن القسام كان على صلة وثيقة بالشيخ محمـد رشـيد رضـا؛ سواء صلة مباشرة أو متابعة مجلتـه «المنـار»، والتـي أصـلت وأسسـت للأفكـار والمـنهج الذي التزمه القسام طيلة حياته.

٢ - سلفية القسام:

تميز القسام بعد عودته من مصر بالتزام الكتاب والسنة ومنهج الصحابة، مما يدلل على تأثره بالبيئة الإصلاحية السلفية في مصر، وذلك بعد أن كـان صـوفيّاً عـلى الطريقـة القادرية كوالده وجده، ومن أول مظاهر ذلك: أنه منع زيارة قبر جده ووالـده مـن قبـل

أفراد الطريقة القادرية بالعراق، وذلك لأن السفر لزيارة القبور من الأمور التي نهى عنها الشرع.

وحارب كثيراً من البدع والخرافات التي تنتشر بين الناس في ذلك الزمان مثل:

¤ حج النساء إلى مزار الخضر على سفوح جبل الكرمل وتقديم القرابين له.

¤ ما يصنعه بعض الجهلة من بدع على المآذن في الأذان وفي المساجد عقب الصلوات وغيرها.

¤ أنكر قراءة المولد النبوي بالغناء والتمطيط، والمبالغة بتوقيعه على ألحان الموسيقى، ورفض ما أدخل في سيرة مولده ﷺ من الأمور التي لم تثبت، ودعا إلى العناية بأحوال وشمائل النبي ﷺ، والتزام سنته العملية وسيرته كقدوة للمسلمين.

¤ أنكر على فرقتي البهائية والقاديانية اللتين تتواجدان في حيفا وعكا، وأنكر على من شارك في جنازة عباس البهائي.

¤ رفع الأصوات بالتهليل والتكبير أثناء تشييع الجنائز.

وهي القضية التي كبرت حتى أصدر هو والشيخ كامل القصاب كتابه الوحيد «النقد والبيان في دفع أوهام خزيران، والدفاع عن سنة خير الأنام فيما يتعلق بالسنة، والبدعة، والمولد، وآداب قراءة القرآن، والصياح والنياح في الجنائز، والمآتم والمقابر».

وهذه بعض العبارات الواردة في الكتاب مما يدلّ على سلفيتهما:

© قالا عن كتاب «الاعتصام» للشاطبي: "وكنا نود أن نرشد الأستاذ الجزار وتلميذه إلى الاستفادة من هذا الكتاب الذي لا ندّ له في بابه، ولكنا خشينا أن يرميا

مؤلفه بالنزعة (الوهابية) -التي هي حجة العاجز لترويج الباطل، وإضاعة الدين-؛ التي رُميانا بها، وإن تقدم زمن ذلك الإمام الشاطبي العظيم على زمن محمد بن عبد الوهاب ما يقرب من (٥٠٠ سنة)!! لأنه لا يبعد أن يعللا ذلك بأنه من باب أخذ المتقدم عن المتأخر!".

© وقالا: "يعلم أن ذلك الدعي في العلم يعد العمل بسنة الرسول ﷺ زيغاً، والعياذ بالله -تعالى-".

© وقالا عن اتباعهما للسنة النبوية: "وأكبر دليل على تمسكنا بسنة نبينا، وسنة الشيخين من بعده: نهينا الناس عن مخالفة سنة الخلفاء الراشدين في تشييع الجنازة برفع الصوت".

ومن الدلائل على سلفية القسام: تعاونه مع الشيخ كامل القصاب في الثورة السورية والثورة الفلسطينية، والشيخ كامل القصاب من رؤوس السلفيين في الشام وأحد الشخصيات التي اعتمد عليها الملك عبد العزيز بن سعود في تأسيس إدارة المعارف بمكة.

ومن الدلائل -أيضاً-: ثناء وتأييد كبار السلفيين في عصره عليه وعلى الشيخ القصاب بسبب كتابهما «النقد والبيان»، وهذا يؤشر لوجود علاقات ومعرفة بينه وبينهم؛ سواء كانت علاقة مباشرة أو من خلال علاقته بالقصاب، فمن هؤلاء في الشام: الشيخ محمد بهجة البيطار، الشيخ عبد القادر بدران، محمد جميل الشطي.

ومنهم: العلامة محمد بهجت الأثري بالعراق، والعلامة محمد بخيت المطيعي -مفتي الديار المصرية-.

ومن الإشارات المهمة على ترسيخ القسام للسلفية في نفوس طلابه وتلاميذه: ما نقله الأستاذ زهير الشاويش عن ملازمة أحد أبرز تلاميذ القسام والقادة القساميين وهو: أبو إبراهيم الصغير، عند إقامته بدمشق لدروس العلامة الألباني.

ومن الإشارات اللطيفة في هذا الباب: أن العلامة الألباني كان يحضر دروس العلامة محمد بهجت البيطار لكتاب «الحماسة» لأبي تمام، مع عدد من أساتذة المجمع العلمي منهم: الأستاذ عز الدين التنوخي؛ شريك القسام في بيع الهريسة بالقاهرة!

٣- مشاركات القسام الجهادية في ليبيا وسوريا:

كثير من الناس يظن أن جهاد القسام اقتصر على فلسطين ضد الإنجليز واليهود، وهذا غير صحيح، فأول مشاركة جهادية للقسام كانت عام (١٩١١م) حين حرّض الناس على التطوع للجهاد في طرابلس الغرب بليبيا ضد الإيطاليين، فقاد مظاهرة في بلدته جبلة وهي تهتف: "يا رحيم ويا رحمن... انصر مولانا السلطان... واكسر أعداءنا الطليان".

ومن ثم انتقى (٢٥٠) متطوعاً للجهاد، وجمع لهم التبرعات، ونسق مع السلطات العثمانية التي رحبت بتطوعهم، وطلبت منهم المجيء للأسكندرونة لتسفيرهم إلى طرابلس بليبيا، لكنهم مكثوا في الأسكندرونة (٤٠) يوماً دون جدوى، وبعدها طلب منهم العودة، وقيل: إن التبرعات أرسلها القسام مع ثقات لأهل طرابلس، وقيل: إن القسام سافر سرّاً لطرابلس والتقى بشيخ المجاهدين عمر المختار وسلمه إياها، وقيل: بنى بها مدرسة في جبلة.

وحين احتلت فرنسا سوريا على إثر اتفاقيات سايس بيكو كان القسام أول

الرافضين لها، والمجاهدين ضدها في شمال سوريا، وهو من أشعل الثورة في جبال صهيون ضد الفرنسيين، وتعاون في ذلك مع عمر البيطار، ولذلك باع بيته واشترى بثمنه سلاحاً يجاهد به، وهذا كله بعد أن عبأ الناس في المسجد والمدرسة واللقاءات للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، ومن استجاب له قام القسام بتدريبه على استعمال السلاح؛ بسبب خبرته العسكرية التي اكتسبها من فترة انضمامه للجيش العثماني زمن الحرب العالمية الأولى.

وبسبب دوره المركزي في الجهاد أرسل له الفرنسيون أحد أقاربه ليساومه على ترك الجهاد مقابل تعيينه قاضياً شرعيّاً، ولما رفض ذلك أوعزوا للديوان العرفي في دويلة العلويين التي أسسوها أن يصدروا عليه حكماً بالإعدام، وهذه فضيحة من فضائح العلويين عبر التاريخ بوقوفهم إلى جانب المحتلّين ضد أبناء بلدهم وليس دينهم!!

وبسبب عجز الثورة عن مقاومة فرنسا في الشمال، والحكم بالإعدام على القسام؛ قرر ومعه عدد من رفاقه مغادرة سوريا لفلسطين، فذهب لدمشق ونزل عند صديقه القديم عز الدين التنوخي، وشارك في معركة ميسلون بدمشق، وبعدها سافر سرّاً إلى عكا، ثم استقر في حيفا.

٤ - جهاده في فلسطين:

وصل القسام عام (١٩٢١م) إلى فلسطين مع بعض رفاقه ولم يكن الجهاد ضد اليهود والإنجليز غائباً عن تخطيطه، فهو تلميذ لرشيد رضا الذي كان أول من حذر من خطر الهجرات والصهيونية ومخططاتها، ولذلك سعى أن يكون قريباً من العمال والفقراء لأنهم دوماً المحضن المؤيد للجهاد؛ لأنهم أنقى في الفطرة، ولم يتلطخوا بالعمالة للمحتلين.

ولذلك حرص على مخالطتهم وتعليمهم وتوجيههم وزرع عقيدة الجهاد بينهم، فاستخلص من المجاهدين الشرفاء؛ والذين قادوا الجهاد في فلسطين سنوات طويلة حتى بعد استشهاده Z .

كانت رؤية القسام للخطر الصهيوني على فلسطين تنبع من ثقافة عميقة تدرك أبعاد المشروع الصهيوني مبكراً؛ بفضل كتابات رشيد رضا، كما أنها تدرك عبثية الوسائل السلمية في مقاومتها، وذلك بعد تجربته في جهاد ومقاومة الفرنسيين.

وكان القسام حازماً وواضحاً أن الجهاد هو الحل لمقاومة الصهيونية، وأن على أهل فلسطين البدء بالجهاد وعدم الانتظار حتى يتمكن اليهود من توطين أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود في فلسطين.

ولذلك يتفق المؤرخون على أن طلاب القسام وتلاميذه هم الذين بدؤوا الجهاد في فلسطين، فثورة البراق سنة (١٩٢٩م) كانت ردّاً على اعتداء اليهود على حائط البراق، وبسبب هذه الثورة وقع عدد من الشهداء والمصابين، وقدم عدد آخر للمحاكمة التي حكمت عليهم بالإعدام وهم الأبطال الثلاثة المشهورون: فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم.

وفي يوم إعدامهم خطب القسام خطبة نارية، وهو متجهم الوجه، دامع العينين؛ فقال: "يا أهل حيفا يا مسلمون! ألا تعرفون فؤاد حجازي؟ ألم يكن فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم إخوانكم؟ ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال؟ إنهم الآن على أعواد المشانق".

وشارك في ثورة البراق من تلاميذ القسام وأعوانه: عبد الله الأصبح، في منطقة صفد، والشيخ فرحان السعدي، في قضاء جنين.

وكان لطلاب القسام عدة عمليات جهادية في المدة من (١٩٣١-١٩٣٥م)، منها: الهجوم على مستعمرة الياجور قرب يافا، وعمليات الهجوم على مستعمرات بلغوريا وكفار هاسيديم وعتليت والعفولة، والهجوم على مستعمرة نهلال.

وقد كان نشاط القسام التحريضي على الجهاد موضع مراقبة من الإنجليز، ولذلك حين تصاعدت الهجمات في شمال فلسطين اتهم القسام بأنه المدبر لها، واستدعي للتحقيق، لكن لم يثبت عليه شيء، وذلك بسبب دقته الفائقة في السرية والكتمان، ولكن مع هذا قرر القسام إيقاف الهجمات لفترة.

تنظيم القسام الجهادي:

لم يكن جهاد القسام عفويّاً، بل كان عن تخطيط دقيق وعمل مرتب استغرق وقتاً طويلاً، فهو كان ينتقي عناصره من رواد دروسه وخطبه، ولا يقبل إلا من يجد فيه الإخلاص والجدية والاستعداد للتضحية والالتزام بالسرية، فعندها يدخله في حلقة سرية مكونة من (٥) أفراد يهيئهم علميّاً ومعنويّاً وعسكريّاً للجهاد.

وقد تمكن القسام من تكوين حوالي (١٢) حلقة لا تعرف إحداها الأخرى، ثم ارتفع عدد أعضاء المجموعة لـ (٩) أفراد.

ولم يكن يستثني القسام أي شريحة من تنظيمه بل حرص حتى على الرجال المتورطين في السرقة والمشاكل، إذ كان يرى فيهم جرأة وشجاعة لو وجهت للجهاد لكان لها تميز، وفعلاً كان هناك عدد من رفقاء القسام من هؤلاء مثل: حسن الباير؛ الذي روى قصته فقال: "أنا من قرية برقين قضاء جنين، وكنت من قبل أسرق وأرتكب المحرمات، فجاءني المرحوم عز الدين القسام، وأخذ يهديني ويعلمني الصلاة، وينهاني عن مخالفة الشرع الشريف وأوامر الله، وقبل مدة أخذني المرحوم

الشيخ عز الدين القسام إلى أحد جبال برقين، وهناك أعطاني بندقية، فسألته: لم هذه؟ فأجاب: لأجل أن تتمرن عليها، وتجاهد مع إخوانك في سبيل الله".

وتكونت قيادة للتنظيم من أبرز هذه المجموعات، وكان الجميع يدفع اشتراكاً شهريّاً بسيطاً للتنظيم، وكان للتنظيم مجموعات في (١٣) مدينة ومنطقة في فلسطين، وكان له عدة لجان منها: لجنة لشراء السلاح، ولجنة للتجسس على العدو، ولجنة للتدريب العسكري، ولجنة للاتصالات السياسية، ولجنة التمويل.

وعُرف أتباع القسام بعد استشهاده باسم: (القساميين)، لأنه لم يضع اسماً للتنظيم، واختلف في عدد أعضاء التنظيم عند استشهاده؛ فبعضهم يحصره في أعضاء المجموعات فقط، وبعضهم يتجاوزه ليصل لرقم (١٠٠٠) قسامي!!

كان القسام يرفض دعوات بعض أنصاره للقيام بثورة شاملة، وكان يصر على تأجيل ذلك لحين استكمال الاستعداد، وتوفر مخزون جيد من الأسلحة، وزيادة العدد لحد الكفاية، لأنه يعد لثورة جهادية شاملة وليس لعملية محدودة، فهو يدرك فداحة المخطط الصهيوني الذي لا يجدي معه عمل جهادي محدود.

لكن مع تزايد أعداد التنظيم، وتصاعد وتيرة الهجرة اليهودية، ووقوع ثورة البراق، وتكاثر الشكوك حول نشاط القسام من قبل الإنجليز، واكتشاف تهريب اليهود للسلاح عبر الميناء؛ كل هذا جعل القسام يسرع من خطته وينطلق للعلنية، فخطب خطبته الأخيرة، وخرج مباشرة من حيفا، حتى أن الشرطة بحثت عنه بعد الخطبة فلم تجده!!

وكانت نية القسام عدم البدء بالقتال مع الإنجليز واليهود، بل التجول بين الناس وحثهم على الجهاد واقتناء السلاح وتهيئتهم، لكن قدر الله غير ذلك؛ إذ بينما كان القسام

يبث الدعوة الجهادية في نواحي جنين قام بعض الحرس بإطلاق النار على دورية شرطة لظنه أنها تبحث عنهم، فانتبه الإنجليز لوجود جماعة مسلحة جهادية، وقد ربطتها بغياب القسام، وفوراً أمر القسام بالرحيل فتوجهوا جهة أحراش قرية يعبد، ولكن الإنجليز أعلنوا عن مكافأة لمن يدل على (عصابة إجرامية قتلت شرطيّاً) -نفس الدعاية التي يقوم بها بشار الأسد اليوم بعد (٧٥) سنة ضد الثوة السورية!!-.

وفعلاً قام بعض الناس بإبلاغ الشرطة عن تحركات القسام ومجموعته وهم لا يعرفونهم، حتى حوصر القسام ومعه (٨) من رفاقه، ومع هذا أمر القسام أن لا يطلقوا النار على الشرطة العرب الذين جعلهم الإنجليز في المقدمة، وإنما يطلقون على الإنجليز فقط!! ورفض القسام الاستسلام، فاستُشهد -بإذن الله- هو وثلاثة من رفاقه، وجرح وأسر الباقي منهم، وذلك يوم (٢٠/١١/١٩٣٥م).

أثر جهاد القسام على القضية الفلسطينية:

قلنا أن القسام لم يكن يسعى للصدام في ذلك الوقت مع الإنجليز؛ فقد نقل عنه قوله: "ليس المهم أن نحرر فلسطين في بضعة أشهر، بل المهم أن نعطي من أنفسنا الدرس للأمة، وللأجيال القادمة"، وفعلاً حقق الله ما كان يقصده القسام باستشهاده وإحياء الجهاد في القضية الفلسطينية.

ومن أول مظاهر اليقظة الجهادية التي أحدثها القسام: ما جرى في جنازته، إذ قرر الإنجليز الساعة العاشرة صباحاً لموعد خروج الجنازة من بيت القسام الواقع خارج بلدة جبلة للمقبرة دون الصلاة عليها في المسجد في وسط حيفا، لكن المشيعين رفضوا ذلك، ويصف لنا الأستاذ أكرم زعيتر مسيرة الجنازة -وهو من السياسيين القلائل الذين شاركوا في جنازة القسام ورفيقيه-، إذ خرج الآلاف يشيعونها من كافة أنحاء

فلسطين، وقد تحولت لمظاهرة ضد المحتلين حيث ساروا بالجنازة لوسط حيفا، وصلّوا عليها في جامع الجرينة، وهم يكبرون ويهتفون بالانتقام له.

وهاجم المشيعون دائرة البوليس، واصطدموا بالقوات الإضافية التي جاءت لمنع مسيرة الجنازة، وأجبروها على الانسحاب، ورفض المشيعون نقل الجنازة بالسيارة، وحملوها على أكتافهم للمقبرة التي تبعد خمسة كيلومترات عن البلدة.

وكتب أكرم زعيتر عن أثر استشهاد القسام؛ فقال: "ليس من سبيل إلى الخلاص إلا الجهاد الدامي، وقد فتح القسام الباب فلنلجنه، وإنا لفاعلون، إنها دعوة جديدة أخذت تظهر على ألسنة الناس، ويجهر بها الكتاب، ولم نكن نعرفها من قبل، نفخت في الأمة روحاً لم تكن تفطن لها.. ".

وقال -أيضاً-: "لقد سمعتك قبل اليوم خطيباً تتكئ على السيف، وتهدر من على المنبر، وسمعتك اليوم خطيباً تتكئ على الأعناق، ولا منبر تقف عليه، ولكنك -والله- اليوم أخطب منك حيّاً".

وقال عجاج نويهض: "سافر القسام وكان جواز سفره الأكبر مصحفاً في جيبه وقلبه".

وقال حمدي الحسيني: "إن القسام عدل من هذه القضية ما إعوج".

وقال الشيخ سليمان التاجي: "القسام نقل القضية من دور الكلام إلى دور العمل".

ورثاه الشاعر فؤاد الخطيب بقوله:

أولت عمامتك العمائم كلها	شرفاً تقصر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة	غير الزعامة والطريق أمان

لقد اختط القسام في حياته وموته منهجاً جهاديّاً أعطى القضية الفلسطينية بعداً جديداً؛ لا تزال ثمارها الزكية تؤتى أكلها لليوم -والحمد لله-.

القساميون على نهج شيخهم:

ذكرنا أن القسام لم يكن معه إلا (٨) من رفاقه يوم استشهاده، لأن خطته كانت بث رفاقه بين الناس لتهيئتهم للجهاد، وفعلاً كان رفاق القسام على قدر المسئولية والأمانة.

وصفهم أحمد الشقيري -وهو أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية-؛ فقال: "لم تجر على ألسنتهم تعابير الكفاح المسلح والحركة الوطنية والاستعمار والصهيونية، فقد كانت تعابيرهم على بساطته تنبع من ينبوع أروع وأرفع، هو: «الإيمان، والجهاد في سبيل الله»، لقد كانوا قوماً مؤمنين؛ صنعهم الإيمان، فصفت نفوسهم، وتآلفت إراداتهم، وتعاظمت عزائمهم، وأحسوا أن حبلهم مع اللهّ قد أصبح موصولاً، وأن الباب بينهم وبينه قد بات مفتوحاً".

وكان زعيم القساميين الذي حمل الراية بعد القسام هو: الشيخ المجاهد فرحان السعدي؛ والذي فجر الثورة الشهيرة (ثورة ١٩٣٦م) بعد (٥) شهور من استشهاد القسام، والتي استمرت حتى (١٩٣٩)، وما لبث أن أُعدم سنة (١٩٣٧)، وهو في الثمانين من عمره؛ بسبب جهاده ضد الإنجليز واليهود.

وبعد إعدامه واصل القساميون المسيرة، وكانوا القادة في المسيرة الجهادية في كل فلسطين؛ وخاصة مناطق الشمال، فقاموا باغتيال حاكم منطقة الخليل لويس أندروز سنة (١٩٣٧)، ويعتبر أبو إبراهيم الكبير من أبرز القادة القساميين.

ولأن القساميين لم يكن لهم اسم أو حزب خاص فقد كان المؤرخون للقضية

الفلسطينية يشيرون لهم باسم الشيوخ، مثل: المؤرخ الفلسطيني المعروف محمد عزة دروزة في قوله: "وكل ما أمكن هو: توحيد القيادة العليا في عدة مناطق تحت إدارة عصبة من طبقة المشايخ؛ التي كان يتزعمها أبو إبراهيم الكبير خليل العيسى"، وذكر منهم: الشيخ أبو إبراهيم الصغير، توفيق الإبراهيم -تلميذ العلامة الألباني لاحقاً-، وأبو علي سليمان العبد القادر، والشيخ عطية أحمد، والشيخ يوسف أبو درة، والشيخ عبد الفتاح العبد.

الخاتمة

لقد كانت حياة القسام نموذجاً للعالم المربي والداعية المصلح والمجاهد الصابر، ويكاد أن يكون قدّم تجربة متكاملة للعلاقة بين العلم والعمل، وأعاد للناس تجسيد المفهوم النبوي لدور العالم وهو: وراثة النبوة، وتجسيدها في واقع الناس؛ بالتعليم والقدوة، وقرن العلم بالعمل والجهاد.

فرحمة الله على الشيخ عز الدين القسام ورفاقه بالأمس واليوم والمستقبل.

مراجع للتوسع:

o «عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين»، محمد محمد حسن شراب، دار القلم، دمشق، ط١، (٢٠٠٠).

o «الوعي والثورة دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام»، سميح عودة، دار الشروق، الأردن، ط٢، (١٩٨٦).

o «التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد (١٩١٧-١٩٤٨)»، محسن صالح، دار الفلاح، الكويت، ط٢، (١٩٨٩).

o «النقد والبيان، كامل القصاب وعز الدين القسام»، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، (٢٠٠١).

o «القسام المجاهد والحركة»، تحرير عبد القادر ياسين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، (٢٠١٠).



الشيخ المجاهد
عمر الأشقر
١٣٥٩ ـ ١٤٣٣هـ / ١٩٤٠ ـ ٢٠١٢م
من فلسطين

١٢- الشيخ المجاهد عمر الأشقر

(١٣٥٩-١٤٣٣هـ/١٩٤٠- ٢٠١٢م)

تمهيد

لعلَّ العلامة العامل المجاهد الشيخ عمر الأشقر Z من آخر من فقدناه من العلماء الربانيين الذين كانوا قدوة للناس ونموذجاً يضرب بهم المثل، في علمهم وأخلاقهم وعملهم ودعوتهم وإصلاحهم وجهادهم، وهو برغم كل هذا الدور الكبير كان زاهداً في الشهرة، بعيداً عن الأضواء، لا يعرف كثير من الناس موقعه المركزي في قلب الأحداث الجارية ملء السمع والبصر!

الشيخ عمر زهد فيه كثير من الناس والشباب، وحسبوه عالماً تقليديّاً كبقية العلماء؛ وذلك لما يرونه من هدوئه وتواضعه وسكينته، ولم يكونوا يعلمون أن خلف هذا كله نفساً وثّابة للمعالي، وقلب أسد لا يهاب المخاطر، وعقلاً راجح يفتك بالأعداء وهو يبتسم بهدوء.

ولذلك كم صُدم كثير من معارف الشيخ وأصدقائه وجيرانه وطلابه عندما علموا أنه أحد أربعة أسسوا حركة (حماس)، وكم صُدم الناس وهم يرون ويسمعون شهادات الفضلاء في الشيخ ودوره ومواقفه المجهولة، والتي زادها قوة وتأثيراً صدورها من الشيخ الهادئ والصامت.

مسيرة الشيخ امتدت عبر ما يزيد عن نصف قرن من الزمان، ولم تقتصر على بلد

دون بلد؛ وإن تركزت في فلسطين والكويت، وتنوعت في كافة مجالات الخير والمعروف والإصلاح، وأحيا في الناس سيرة العلماء المجاهدين والمجتهدين الباذلين والأتقياء الأخفياء -كما نحسبه، والله حسيبه-.

مولده:

وُلد العلَّامة عمر الأشقر سنة (١٩٤٠م) في قرية برقة، قضاء نابلس، بفلسطين، إبان الانتداب البريطاني، والذي كان يجتهد في ظلم الفلسطينيين، وتهيئة الأمور لقيام دولة إسرائيل، وقد تعرض الشيخ لظلم الإنجليز وهو رضيع في حضن والدته؛ إذ داهم الجنود منزلهم وعاثوا فيه فساداً، لكن الله نجاه من أذاهم الذي قضى على كثير من الأطفال.

في هذا الجو ولد عمر الأشقر، وكبر على رؤية الظلم والاحتلال يجتاح قريته وبلده، ثم رأى والده يشارك في المعارك ضد الإنجليز، ولما خسر الفلسطينيون رأى والده يخبئ بندقيته في الحقل ليوم قادم، ونشأ يسمع القصص عن فلسطين، وكيف غزاها الإنجليز ومن ثم اليهود، ورأى تدفق اللاجئين من فلسطين على قريته في نكبة سنة (١٩٤٨)، وكيف كانوا يصطفون طوابير لاستلام المعونات الغذائية.

هذه هي طفولة عمر الأشقر في فلسطين، فهو قد غادرها سنة (١٩٥٣م) وعمره (١٣) عاماً للرياض بالسعودية، حيث سبقه إخوته الكبار.

كان عمر هو أصغر إخوته الذكور، وقد ولد مريضاً به نقص خلقي في الرئتين، مما حدّ من لعبه ومشاركته أقرانه، ولكن الأطباء قالوا: إنه بعد سن (١٨) يتخلص من مرضه، وقد كان.

كان والده محبّاً للخير يدعو الأئمة والمشايخ الذين يتجولون على القرى لبيته

فيكرمهم ويضيفهم.

أما والدته فقد كانت أُمّاً صالحة، تعاهدت عمر بالتوجيه والنصح، ويحكي الشيخ عن والدته أنها كانت تحدثه عن بعض التوجيهات التي تلقتها وهي شابة من حضور دروس من الشيخ محمود ابن الشيخ عبد الغني اللبدي؛ الذي زار قريتهم، وقد كان الشيخ عبد الغني اللبدي أحد علماء الحنابلة في فلسطين.

وقد كان عمر كسائر إخوته وأولاد جيله يعمل بالحقل مع والده بعد انتهاء دوام المدرسة، حيث أنهى دراسة الابتدائية في مدينة نابلس.

وفي قريته برقة تعرف الطفل عمر الأشقر على حزب التحرير الإسلامي، إذ كان في قريتهم بعض أعضائه، لكنه لم يرتح لهم، ولم تكن له علاقة بهم، لكنه سيتهم لاحقاً ظلماً بكونه منهم!

وهو في عمر العاشرة يرى الأشقر رؤيا، رأى أنه يتجوَّل بين حقول القرية، وبينما هو يمشي إذ بالطريق ينقسم إلى قسمين: طريق فيه ارتفاعٌ وصعود إلى أعلى الجبل، وهو صعب وشاق، وطريق إلى أسفل الوادي، وهو سهل ويسير، فاحتار أيهما يسلك! فرأى النبي ﷺ وأبا بكر الصديق، فأشارا إليه: أنِ اسلُك الطريق العالي المرتفع؛ ولو كان صعباً، فسلكه، وفرح بها فرحاً عظيماً، وقد فسرها بعد ذلك بسلوك طريق العلم الشرعي.

هذه كانت طفولة عمر في فلسطين، والتي سيغادرها طفلاً للسعودية، ثم يزورها عدة مرات، لكنه سيُحرم منها بعد نكسة عام (٦٧)، ويتجذر وجوده في الكويت حتى احتلال صدام لها، فيعود للأردن، ويبقى محروماً من قريته حتى وفاته.

رحلته للرياض:

في صيف سنة (١٩٥٣م) رافق عمر والده ووالدته لزيارة أخويه: عبد القادر، ومحمد (العلامة الأصولي محمد الأشقر)، والذي كان رحل للرياض سنة (١٩٤٩م)، وكان سفرهم في ذلك الجو اللاهب عبر الصحراء على ظهور شاحنات البضائع، وكم عانوا من تعطل الشاحنات بسبب انغراس العجلات في الرمال، وهذه المعاناة في الانتقال والهجرة لقي منها الشعب الفلسطيني الشيء الكثير نتيجة احتلال فلسطين من اليهود، وقيامهم بترويع الفلسطينيين للهجرة خارجها.

بقي عمر في الرياض في رعاية أخويه، وعاد والداه لفلسطين، فأدخله أخوه محمد المعهد الديني الابتدائي، ثم المعهد الثانوي؛ فدرس به خمس سنوات، وكعادة الطلاب في تلك السن مر بفترة لم يكن يرى جدوى من الدراسة، وأن العمل أو السفر لدول أمريكا اللاتينية -كحال كثير من أهل فلسطين في ذلك الزمان- أنفع وأجدى له، فترك الرياض وعاد لفلسطين، لكن الله U لم ييسر له ذلك، وعاد من جديد للرياض فأكمل دراسة السنة الثانوية النهائية، وسخر الله له رفقة صالحة أخذت بيده، ثم سخر الله له التعرف على الشيخ مناع القطان؛ الذي اهتم بأمره، وخصّه بنصحه وتوجيهه، وبقي عمر يحفظ للقطان هذا الفضل.

هنا تغيرت نظرة عمر للدراسة؛ فأقبل عليها، ودخل كلية الشريعة، بشهادة المعهد الشرعي، ولم يكتف بذلك بل تقدم سنة (١٩٦٢م) للحصول على شهادة الثانوية العامة التابعة لوزارة المعارف؛ من أجل أن يدرس مادة أخرى غير الشريعة في جامعة الملك سعود، وتم له الحصول على شهادة الثانوية.

سافر عمر لفلسطين وتزوج بها سنة (١٩٦٠م)، وكان في زياراته لفلسطين يقوم بالدعوة إلى الله ونشر العلم في قريته وما جاورها، وفي مدينة نابلس والمسجد الأقصى أحياناً.

في هذه السنوات العشر (١٩٥٣ - ١٩٦٢م) كان عمر الأشقر بصحبة أخويه: عبد القادر ومحمد، يتردد على مجالس العلماء في الرياض وخاصة الشيخ ابن باز، الذي كان له أثر بارز في حياة عمر، إذ كان عمر في الثالثة عشرة من عمره وكان ابن باز في الثانية والأربعين، ولذلك كان يعامله معاملة أبنائه، وكم حكى لي الشيخ عمر عن ذكرياته مع ابن باز في تلك السن المبكرة، فمرة يجيئهم الشيخ إلى بيت أخيه محمد، ومرة هم يذهبون إليه، ومرة يخرجون معاً في نزهة أو لإحدى المزارع.

وهكذا تربى عمر على يد ابن باز، ولذلك حين جاءت سنة (١٩٦١م) عرض عليه الشيخ ابن باز أن يوظفه في الجامعة الإسلامية التي أسندت إليه رئاستها -في البداية كان الشيخ ابن إبراهيم رئيس الجامعة، وابن باز نائب الرئيس، لكن فعليّاً كان ابن باز هو الرئيس-، فطلب عمر منه أن يكون أمين المكتبة بالجامعة فوافق ابن باز، وهذا يدل على مدى العلاقة القوية بين عمر (٢٢ سنة) وهو طالب في السنة الأولى بكلية الشريعة بالرياض، وبين الشيخ ابن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية.

والتقى الأشقر هناك -أيضاً- بالشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ صالح بن حسين العلي العراقي، والشيخ عبد الرزاق عفيفي.

وقد صحبتُ الشيخ د. عبد الله شاكر في زيارة للشيخ عمر في منزله بعمّان، فلما عرف الشيخ عمر أن الشيخ عبد الله شاكر هو رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية أخذ يسرد عليه من قصص وأخبار الشيخ عبد الرزاق عفيفي؛ الذي كان أحد شيوخها

الكبار ورئيساً سابقاً لها، فاستغرب الشيخ شاكر، فأخبره الشيخ عمره أنه يعرفه منذ الخمسينيات الميلادية.

في الرياض كان محمد الأشقر شيخاً وأباً وصديقاً لأخيه عمر، فقد كان يسكن عنده في بيته، ويطالع في مكتبته، ويصحبه في زياراته للعلماء، بل ودرّسه في المعهد العلمي بشقراء، وفي كلية الشريعة بالرياض، وكان -أيضاً- يتردد على المكتبة العامة بالرياض؛ والتي كان محمد الأشقر أميناً عامّاً لها، وهذا ما جعله يطلب هذه الوظيفة في الجامعة الإسلامية من الشيخ ابن باز.

وهنا يخطئ البعض؛ فيظن أن عمر الأشقر كان طالباً بالجامعة الإسلامية، والصحيح أنه كان أمين المكتبة، وأكمل دراسته انتساباً بكلية الشريعة بالرياض، وأيضاً كان قديم الصلة بابن باز قبل نشأة الجامعة الإسلامية، كحال كثير من الطلاب الذين لم يعرفوا ابن باز إلا في الجامعة الإسلامية.

الانتقال للمدينة المنورة:

أقام عمر الأشقر بالمدينة (٤) سنوات (١٩٦١ -١٩٦٥م)، لكنها كانت عن (٤٠) سنةّ! ففي المدينة كان قد بدأ شبابه وعطاؤه، وفيها خالط العلماء والشيوخ والرموز، وتعرف على الأمم والشعوب، وخاصة الشيخين الألباني والشنقيطي، وفي المدينة مارس الدعوة تطبيقاً، وفيها التقى برفيق الدرب في طريق الدعوة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

عمل الأشقر أميناً لمكتبة الجامعة الإسلامية من (١٩٦١ إلى ١٩٦٤)، ثم أصبح بعد تخرجه من كلية الشريعة بالرياض مدرساً بالمعهد الثانوي التابع للجامعة لسنة واحدة (١٩٦٤-١٩٦٥).

يقول الشيخ عمر عن حياته في المدينة: "كنت أتردد في كل يوم من أيامي بين المدينة والجامعة، وكثيراً ما كنت أصلي الصبح في المسجد النبوي، ثم أجلس إلى عالمٍ من علمائها في درسه بعد الفجر، ثم أجلس أقرأ القرآن أو أحفظ منه إلى أن يأتي وقت الانطلاق إلى الجامعة، ... وأبقى هناك إلى أن ينتهي الدوام، فأعود إلى منزلي، ثم أخرج إلى المسجد النبوي لأصلي العصر والمغرب والعشاء، وكنا في هذه الأوقات نحضر بعض حلقات العلم، أو نقوم بزيارة عالم من العلماء، أو ندرس في بعض العلوم المقررة علينا في كلية الشريعة بالرياض،... وكنت أقوم بإلقاء بعض الدروس بالمسجد النبوي".

وفي الجامعة كان مكتبُه قريباً من مكتب الشيخ ابن باز، فكان كثيراً ما يرافقه لصلاة الظهر في مسجد الجامعة، وأحياناً يحضر بعض لقاءاته مع الوفود الزائرة، كما كان أحياناً يذهب له قبل الفجر ليرافقه للمسجد النبوي، ويعود معه لمنزله، حيث كان يجلس لطلبة العلم.

كما أنه رافق الشيخ في العديد من الرحلات التي ضمت عدداً من العلماء والطلبة لقرى المدينة للدعوة والنصح والتعليم، وبهذه العلاقة الوطيدة زرع ابن باز في الأشقر حب العلم والبذل في التعليم والدعوة، والاهتمام بتزكية القلب.

ومن خلال قربه من الشيخ ابن باز تعرف الأشقر على كثير من العلماء والدعاة من أقطار عديدة، وهؤلاء إما كانوا ضيوفاً على الجامعة يقدمون بعض المحاضرات أو أعضاء بمجلس أمنائها، ومن هنا أصبحت للأشقر صلات بكثير من البارزين والمشهورين برغم حداثة سنه، مثل: الشيخ أبي الحسن الندوي، والشيخ أبي الأعلى المودودي، والشيخ محمد الصواف، والحاج أمين الحسيني.

وهـذه اللقـاءات فتحـت عقلـه وذهنـه لتنـوع التحـديات التـي يعيشـها العـالم الإسـلامي، وكونـت لديـه رؤيـة واضـحة عـن تبـاين شخصـيات وطرائـق واهتمامـات العلماء والدعاة بحسب بيئاتهم ومناهجهم، فضلاً عن أنها قـدمت لـه النمـوذج العمـلي للتعامل الأخلاقي الراقي بين الكبار، مما أكسبه هيبة ووقاراً وسمتاً كان علامة مميـزة لـه عن أقرانه وأصدقائه.

وفي المدينة تعرف الأشقر على الشيخ الألباني الذي كان جـاراً لـه في السكن، وقـد حدثت بينهما ألفة عميقة، تعدت علاقة الطالب بالشيخ، فقد كان الألباني ينبذ بطبيعتـه المتحررة قيود المشيخة وكان الأشقر عنده أكبر من تلميذ، وقد بقيت للأشقر مكانة عند الشيخ الألباني حتى نقل عنه في مدح الأشقر قوله: "عليه سمت العلماء".

اكتسب الأشقر من الألبـاني روح التحـرر في البحـث والتـدريس بطريقـة المناقشـة والبحث، وعدم التكبر على العلم، وسرعة الاعتراف بالخطأ.

من قصص الأشقر مع شيخه الألبـاني: أنـه راجـع الشيخ بخصـوص موقفـه مـن استعمال الكحول، حيث كان الشيخ الألباني يرى أن نجاسته معنويـة ويجـوز اسـتعماله، فاعترض الأشقر قائلاً: "إن اعتبارك الكحول خمر؛ يحرم استعماله، لأن الخمـر لا يجـوز بيعه ولا شراؤه!"، فقال الشيخ الألباني: "هذا صحيح"، وامتنع عن استخدام العطـور المصنعة من الكحول.

أمـا الشـيخ الشـنقيطي (صـاحب «أضـواء البيـان») فقـد كانـت دروسـه في شـهر رمضان فقط، فكان يحرص عليها الأشـقر، ومـع قلـة هـذه الـدروس إلا أنـه تـوفي وهـو مُعَظِّمٌ للشنقيطي؛ خاصة وأنه أعاد مطالعة «أضواء البيان» في سنواته الأخيرة من أجل كتابة تفسيره للقرآن الكريم، فكان كثير الثناء والترحم عليه.

جاء الأشقر للمدينة المنورة؛ فوجد فيها "مجموعة من طلبة العلم كانوا يخرجون بأنفسهم في كل أسبوع مرة لزيارة مسجد من مساجد المدينة، فكانوا يلتقون، ويدرسون، ويدرّسون، ويعلّمون أهل المسجد،... وكان عدد هؤلاء لا يزيد على ثلاثين من طلبة العلم... كان أبرزهم: الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق"، فانضم إليه الأشقر، وأصبح هو وعبد الرحمن قادة المجموعة، وقامت بينهما محبة عظيمة، وتعاون وثيق، في تكرار للقاء عبد الحميد بن باديس مع البشير الإبراهيمي بالمدينة المنورة قبل (٤٠) سنة!!

وتطور هذا النشاط إلى طلب مساعدة الشيخ ابن باز من أجل القيام برحلة شهرية للمدن بين المدينة ومكة، وفعلاً ساعدهم الشيخ ابن باز، بل وخرج معهم عدة مرات، وخرج عدد من العلماء كالألباني -وكان أكثر العلماء مشاركة بالرحلات-، والشيخ عطية سالم، والشيخ محمد عبد الوهاب البنا المصري، وقد عقدت في تلك الرحلات مجالس علمية مشتركة بين ابن باز والألباني كانت من أروع مجالس العلم، وأكثرها تأثيراً في طلبة العلم، لِمَا فيها من علم كبير وخلق رفيع وتعامل راق.

ثم تطورت الفكرة للذهاب في سفرة دعوية خارج السعودية، فوقع الاختيار على السودان، وفعلاً في عام (١٩٦٣) سافر الأشقر وعبد الرحمن عبد الخالق والشيخ محمد عبد الوهاب البنا وأحمد صالح -من فلسطين-، وربيع مزمل، والسر كمال الدين من السودان، فتجولوا في ربوع السودان بالدعوة والتعليم، وزاروا جماعة أنصار السنة المحمدية، وقد كانت هذه الرحلات بمثابة تدريب عملي على الدعوة إلى الله؛ بالتخطيط، والتنفيذ، وفهم واقع المجتمعات، والتعرف على نشاط الدعاة والعلماء، وفي السنة التالية تعذر على الأشقر مرافقة المجموعة بسبب إجراءات الإقامة، فحزن كثيراً

على حرمانه من تلك الرحلة.

وقد كان للأشقر وعبد الرحمن تأملات في مسيرة الدعوة، ومحاولات لوضع تصور علمي وتربوي، فنجد عبد الرحمن يرسل للأشقر تقريراً من السودان عن الرحلة ومَن قابلوا، وتقييم للدعاة السلفيين ومن يصلح منهم لقيادة أنصار السنة المحمدية، ونجد تركيزاً على توفر القدرات التدريسية عند الشخصيات موضع التقييم، ثم نجد في رسالة ثانية بعد ترحيل الأشقر من المدينة -سيأتي الحديث عن ذلك- أن ردود الفعل الفاترة والغائرة من الطلبة والأساتذة والعلماء على سجن الأشقر وعبد الرحمن تحتاج إلى دراسة وتقييم لمستقبل المسار الدعوي؛ الذي يسعى له الأشقر وعبد الرحمن.

هذا النشاط في المدينة جعل من الأشقر وعبد الرحمن علَمين بين الشباب والعلماء، ومع هذا النشاط كان تفوقهما العلمي واضحاً بين أقرانهما، وهنا جاءت حادثة أنهت هذه المرحلة الجميلة الرائقة من حياتهما في المدينة، لتبدأ لهما قصة أكثر تشويقاً وخيراً وبركةً.

ففي عام (١٩٦٥) ظهرت في المدينة ظاهرة مستنكرة، وهي: وضع المحلات التجارية مجسمات توضع عليها الملابس على واجهة المحلات، فأنكرها الشيخ ابن باز، لكن بعض الشباب المتعجل قرر الخروج للسوق وتكسير هذه المجسمات، ولمَّا علم الأشقر وعبد الرحمن بذلك ذهبوا إليهم ونهوهم، واتفقوا على أن يقوم عبد الرحمن بالتدريس في المسجد عن حرمة هذه المجسمات، ومن ثم يخرجون ينصحون الباعة، ولكن أولئك الشباب كانوا قرروا الغدر بهم، وفعلاً ما أن أنهي الدرس وخرجوا لنصح الباعة حتى هجم أولئك الشباب على المجسمات والمحلات وكسروها، وأحدثوا بلبلة، فقدمت الشرطة واعتقلت البعض، ولكن عمر لم يرض أن يبق بعيداً، فلحق

بالشرطة وذهب معهم.

وهناك وجد الأشقر أن هناك وشايات عنه بأنه ينتمي لحزب التحرير، وهي وشاية كاذبة! وأبى عليه خُلقه أن يذكر حقيقة الأمر، وكيف أنهم نصحوا للشباب بعدم مشروعية ذلك الأمر، فتم الإفراج عن الجناة، وعوقب ظلماً الأشقر وعبد الرحمن عبد الخالق ومصطفى زربول وعبد الرحمن عبد الصمد في هذه القضية، فسحبت جنسية الشيخ عبد الرحمن، ورُحل مع البقية، وذلك بعد أن قضوا عدة أشهر في السجن بالمدينة.

وقد زارهم بالسجن الشيخ ابن باز -وهذا من مكارم الشيخ-، وسعى في خلاصهم، لكن الله لم يقدِّر ذلك، لكنه بقي يحاول حتى رفع المنع عن الأشقر للقدوم للحج والعمرة سنة (١٩٨٦)، مما يؤكد متانة العلاقة مع الشيخ ابن باز برغم الغياب عنه (٢٠) سنة.

في المطار يجد الأشقر أستاذه الشيخ محمد المجذوب جاء يودعه، وكتب له قصيدة قال فيها:

نودعكم والقلب يعصره الأسى	وليس لنا حول سوى الزفرات
وأوجع ما في محنة اليوم أننا	نرى أبرياء عوقبوا كجناة
على أن في الأحداث لله حكمة	تفجر أنواراً من الظلمات

وهكذا تنتهي رحلة الأشقر بالسعودية وعمره حينها (٢٥) عاماً، قضى منها (١٢) عاماً بصحبة العلماء وعلى رأسهم: الشيخ ابن باز، لتبدأ صفحة جديدة.

العودة لفلسطين:

عاد الأشقر لفلسطين، وبعد الراحة خرج يبحث عن أذن بالتدريس والخطابة في المساجد من الأوقاف، وهناك قابل الشيخ عبد الحميد السائح، فلما سمع طلبه عرض عليه أن يعينه في محكمة الاستئناف بالقدس، وبراتب أعلى، لكن الأشقر قال له: "إذا تعينت في القضاء فسأحرم التدريس في المدارس"، وطلب معونته في التعيين بوزارة المعارف، فأبى الشيخ السائح، وهذا يكشف عن أن التعليم عند الأشقر أصبح رسالةً وغايةً وهدفاً، لم يتخلَّ عنه طيلة (٤٠) سنة (١٩٦٥-٢٠٠٥).

سافر الأشقر لعمَّان وقابل الأستاذ الشاعر يوسف العظم الذي وافق على تعيينه مدرساً بمدارسه (مدارس الأقصى).

في هذه الفترة كان الشيخ عبد الرحمن قد رُحل من السعودية بعد أن سُحبت جنسيته، وسافر برفقة شيخه محمد عبد الوهاب البنا متجها للشام عند شيخه الألباني، لكن إرادة الله شاءت أن تنزل الطائرة بالكويت، وهناك يطلب منه بعض وجهائها البقاء فيها، وفعلاً مكث عبد الرحمن في الكويت، وأرسل للأشقر يعلمه بذلك، ويحثه على المجيء، فالوضع خصب للدعوة الإسلامية التي يحلمون بها.

وفعلاً عزم الأشقر على السفر للكويت، واستكشاف الأحوال، فوقتها كانت عطلة، والمدارس لم تبدأ بعد، وهنا بدأت حياة جديدة للأشقر، لعلها من أخصب أيام حياته.

الاستقرار بالكويت:

وصل الأشقر الكويت في (١٩٦٥/٨/٢٧)، وتهيأت أموره برعاية الله، فعُين في وزارة التعليم بمدرسة المتنبي في (١٩٦٥/٩/١٥)، واستأجر شقة مشتركة مع

عبد الرحمن، وكان الأشقر حين وصل الكويت ذهب لزيارة عبد الرحمن؛ فلما وصل السائق لمسجد في المنطقة التي بها العنوان، قال له الأشقر: "ليس هذا المسجد"، فمشى حتى جاء مسجداً آخر فقال له: "هذا المطلوب!"، وذلك أن عبد الرحمن رأى رؤية في السجن أنه يؤم في مسجد له صفة معينة، فلما رآه الأشقر عرفه من الرؤيا!!

حين استقر الأشقر وعبد الرحمن بالكويت كانت الحالة الدعوية خاملة؛ برغم وجود عدة جماعات إسلامية بالكويت، فقد كانت جماعة الإخوان موجودة ولها جمعية (الإرشاد)، وكان عدد من التحريريين موجوداً بالكويت، لكن بسبب الموجة الناصرية كان عندهم تخوف من العمل الإسلامي.

ولكن الوافدين كانا شابين متحمّسين، وجاءا من السعودية التي ليس بها سطوة للناصرية، وليس لهما ارتباط بتنظيم أو جماعة تقيد حركتهما، فانطلقا في مجال الدعوة، يقول الأشقر: "انطلقت أنا والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق نعمل في مسارين:

الأول: في تعليم الناشئة الإسلام في المدارس.

والثاني: التدريس في المساجد.

ولم تكن لنا خلفية حزبية تأمرنا وتنهانا.. وأتانا بعض القيادات الإسلامية تناقشنا تجاه ما نقوم به من عمل، وطلَبت منا التوقف عن العمل في المساجد"، لكنهما مضيا، ثم لحق بهما الجميع.

وقد كان الشيخ عمر رأى في المنام أنه يمشي في حقول متفاوتة هو الشيخ عبد الرحمن، وقد أولها الشيخ عمر بأنها ثمرات الدعوة الإسلامية في الكويت.

يمكن تلخيص حياة الأشقر وأدواره الدعوية والإصلاحية بالكويت -والتي تعاون مع الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق فيها، والتي امتدت (٢٥) عاماً- بالنقاط التالية:

١- العمل بالتدريس -كرسالة وهدف-، ورعاية الشباب، ونشر الدعوة الإسلامية:

فهو بدأ بتعليم الطلاب سنة (١٩٦٥) في مدرسة المتنبي المتوسطة نحو ست سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة خالد بن الوليد المتوسطة لمدة سنتين، ثم انتقل إلى مدرسة عبد الله السالم الثانوية عام (١٩٧٢م)، ثم انتقل إلى معهد المعلمات عام (١٩٧٧م)، ثم مدرساً في كلية الشريعة بجامعة الكويت (١٩٨٠-١٩٩٠م).

ولم يقتصر نشاطه على التعليم في الفصل بل امتد للأنشطة اللامنهجية، فأسس الجماعة الدينية في مدرسة المتنبي؛ التي رعت الطلاب بالدروس والرحلات والترفيه الهادف والتوجيه الراقي، وأثمرت هذه الجماعات المدرسية أجيالاً ضخمة من الشباب قادت مسيرة العمل الإسلامي في الكويت وخارج الكويت، كان منهم قادة حركة حماس؛ كخالد مشعل، وزملائه بالمكتب السياسي -وسنعود لتفصيل ذلك-.

وأيضاً حين دخل الشيخ معهد المعلمات سنة (١٩٧٧) لعله لم يكن هناك طالبة محجبة واحدة في المعهد، لكن بفضل الله لم يخرج الشيخ إلا وقد انتشر الحجاب في المعهد بشكل ظاهر، برغم ما لقي الشيخ من عنت من الإدارة والتيارات العلمانية.

وأيضاً في الجامعة كان للشيخ دور كبير في نصرة التيار الإسلامي، وترسيخ العمل الطلابي الإسلامي، والتصدي للتيار العلماني في جامعة الكويت، وكل هذا بالعلم

والرفق والهدوء، مع الصراحة وقوة الحجة.

وأيضاً شارك الشيخ الأشقر والشيخ عبد الرحمن بوضع مناهج التربية الإسلامية للطلبة في المدارس، وللشيخ الأشقر عدة كتب تدرس كمقررات في الجامعات حول العالم؛ ككتبه: «نحو ثقافة إسلامية أصيلة»، و«المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي»، و«الواضح في شرح قانون الأحوال الشخصية الأردني»، و«أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة»، وغيرها من الكتب المشتركة.

توجه الأشقر خلال تلك الفترة لإكمال الدراسات العليا بالقاهرة؛ فحصل على الماجستير من الأزهر عام (١٩٧٤)، وتأخر بالحصول على الدكتوراة بسبب كثرة الأشغال الدعوية، لكنه تفرغ لرسالة الدكتوراة سنة (١٩٨٠)، وحصل عليها بتفوق من الأزهر، وكانت في موضوع: (الإخلاص)، وهو من أهم القضايا المركزية في حياته ودعوته.

٢ - الدعوة في المساجد بالتدريس والخطابة:

فكان يدرس الصغار والكبار في المساجد حتى ربى جيلاً كاملاً، وأسس للعمل الدعوي بالمساجد؛ من دروس ومسابقات ورحلات، ثم لما كبر هؤلاء الشباب بقي يرعاهم في مؤتمراتهم وملتقياتهم في الكويت وخارج الكويت.

وأصبح ضيفاً دائما على الملتقيات الشبابية والمؤتمرات العلمية والدعوية، فشارك في مؤتمر طلبة أمريكا الشمالية عام (١٩٧٨)، وطلبة بريطانيا عام (١٩٨٠)، وطلبة الباكستان عام (١٩٨٢)، وتواصلت المسيرة، وزار دولاً كثيرة للقاء الجاليات ودعوة المسلمين في أوروبا وآسيا وأفريقيا.

٣- تأليف الكتب:

ذكر الشيخ أنه كتب في مطلع حياته بعض القصص، لكنه أتلفها بعدما تبين درب الهداية والعلم الشرعي، وكتب بعض المقالات في مجلة (الحائط) في المعهد الشرعي وكلية الشريعة بالرياض لما كان طالباً، وأخبرني الشيخ مرة أنه جمع قصص ونوادر المدرسين في كتاب، ثم أتلفه لأنه خشي أن يكون الكتاب الذي يُعرف به عمر الأشقر، وأنه صاحب كتاب نكت المدرسين والمعلمين!

وهذا يدل على بصيرة وتأمل للعواقب، وهو مما يحسن بالشباب الاقتداء به من الشيخ.

لم يكن تأليف الشيخ عمر للكتب غرضاً وغايةً، بل جاء هذا التأليف كأداة للدعوة، فأول كتاب ألفه هو: كتابه «الصوم في ضوء الكتاب والسنة»، حيث طلب منه مدير المدرسة كتابة شيء عن الصيام للطلبة، فكتب هذا الكتاب، وطُبع بكمية قليلة لأن المدير كان يرغب ببضعة أوراق فحسب.

وأيضاً كتبه الأشهر، وهي: (سلسلة العقيدة)، هي في الأصل مسودات تحضير دروس للشباب في العقيدة، ثم طلب أحد الناشرين من الأشقر أن يزوده بما عنده للطباعة، وكتب الله لها القبول.

وهكذا أغلب مؤلفاته التي جاوزت (٥٠) كتاباً، لم تؤلف إلا لحاجة أو سبب، وقد وضع الله فيها البركة؛ فلقيت القبول والذيوع عند الناس، وتعددت طباعتها وترجم كثير منها للغات عديدة، وقُرر بعضها في الجامعات ودروس العلماء والدعاة، وقد تربى على فكر الشيخ وكتبه أضعاف أضعاف ممَّن التقوا بالشيخ بشكل مباشر.

ولعل من أجمل ما قيل في الثناء على كتب الشيخ عمر: قول الشيخ محمد إسماعيل المقدم: "إذا رأيت اسم عمر الأشقر على كتاب فاشتره مهما كان موضوعه".

وهو يميل في كتبه لبساطة العبارة، والطريقة المنهجية التدريسية، مع ذكر الأدلة ومناقشة الاعتراضات بإنصاف.

ومن آخر مشاريع الشيخ العلمية: تفسير القرآن الكريم، وقد أتم منه تفسير (١٨) جزءاً، ولعله يصدر قريباً -إن شاء الله-.

وللشيخ مقالات في عدد من المجلات؛ كمجلة (الشهاب) البيروتية و(المجتمع) الكويتية وغيرهما، وقد جمعت بعض هذه المقالات في كتب.

٤- في منتصف السبعينيات الميلادية بدأت الدعوة تثمر وتظهر نتائجها الطيبة، وكان للشيخ عمر والشيخ عبد الرحمن دور كبير في نشوء التيار السلفي في الكويت وانتشاره، فتابع الشيخ عبد الرحمن نشاطه مع التيار السلفي، وبقي الشيخ عمر مرجعاً شرعيّاً في مسائل العقيدة وغيرها، ولكنه اختط خطّاً مع الإخوان المسلمين؛ خاصة الفلسطينيين، وساعد على ذلك كثافة الوجود الفلسطيني في الكويت.

والشيخ عمر حين انضم لجماعة الإخوان دخلها كعالم سلفي وليس كشخص عادي، يقول الأشقر عن نفسه حين وصل الكويت قبل دخوله الإخوان بعشر سنوات: "فقد حططت رحالي بها وأنا في مطلع مرحلة الشباب، وكنت حصلت على بعض العلم والعمل في الفترة التي كنت فيها في المدينة المنورة.. عملت عدة سنوات في الجامعة الإسلامية، صحبت فيها علماء أعلاماً، منهم: فضيلة شيخنا الشيخ ابن باز، ومنهم: الشيخ الألباني والعلامة الشنقيطي..

وقد عملت في مجال الدعوة إلى الله في مساجد المدينة، وكان لي شرف الإشراف -مع إخوة- على الرحلات التي تقوم بها الجامعة إلى المدن ورحلات الحج والعمرة.

وسافرت إلى السودان، وتعرفت على عدد كبير من العلماء والدعاة الذين يردون المدينة، أمثال: الشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ الندوي، والشيخ أمين الحسيني.

لذا؛ فإنني لم أبدأ العمل من الصفر عند حلولي في الكويت، بل تابعت مسيرة سابقة حافلة بالعطاء، وكان لي من الخبرة ما يمكنني من الانطلاق بالدعوة".

ومما يدلل على سعة علاقات الشيخ عمر مع العلماء والفضلاء والشخصيات العامة قبل مجيئه للكويت: أن الشيخ محمد ناصيف -والذي كان من أشهر أعيان جدة، والذي توفي عام (١٩٧١) عن (٨٥) عاماً- كان يراسل الشاب عمر الأشقر سنة (١٩٦٩) (عمر الأشقر آنذاك ٢٩ سنة)، يطلب منه تزويده ببعض مطبوعات الكويت، ذلك أن الأشقر كان يتردد على منزله بجدة كلما حجَّ أو اعتمر.

يقول د. محسن الصالح -وهو أحد المقربين من الشيخ-: "دُعي الشيخ لدخول جماعة الإخوان بطريقة فجَّة؛ حيث زاره أحد الإخوان مؤكداً على استفادتهم واستفادة شباب الإخوان من علمه، ولكنه عرض عليه الدخول في (حلقة مفتوحة) لمدة ثلاث سنوات... ثم يرون بعد ذلك إن كانوا سيقبلونه في عضوية الإخوان أم لا!!! فرفض الشيخ عمر.

غضبت قيادة الإخوان من أسلوب الأخ الذي دعاه، فأرسلت إليه الأستاذ سليمان عبد القادر الذي دعاه للقاء العم سليمان حمد -الرئيس الجديد للإخوان الفلسطينيين في الكويت-، وعندما زاره دعاه أبو محمد للإخوان دون شروط قائلاً له: "أنت شيخنا"، وافق الشيخ عمر، لكنه اشترط ألَّا يستلم مسؤولية إدارية.

وقد وافقوا مبدئيّاً على ذلك، لكنهم انتخبوه في عضوية المكتب الإداري سنة (١٩٧٨)، من موقع التقدير، ومن موقع الحاجة إلى خبرته وحكمته، فوافق لكن ظلَّ معروفاً عن الشيخ حتى نهاية حياته Z عزوفه الشديد عن المناصب الإدارية، مع موافقته على المشاركة من مواقع الرأي والمشورة.

وكان الشيخ يمثل الكويت في مجلس الشورى لتنظيم بلاد الشام في الأردن".

ولقد أصاب الشيخ محمد عبد العزيز - وهو من أخص طلبة الشيخ - الحقيقةَ حين وصف الشيخ Z بأنه: "لم يكن حزبيّاً بالمعنى المقيت"، وهذا مهم لفهم طبيعة دور الأشقر في الإخوان، فهو بقي على سلفيته وعمل على نشرها وبثها في الإخوان، ولذلك نجد الشيخ الأشقر ينبِّه في كتابه «العقيدة في الله» على مخالفة الأستاذ البنا للصواب في باب الأسماء والصفات، برغم أن الكتاب مقرر في كثير من حلقات أسر الإخوان المسلمين في عدة دول، ونجد الشيخ الأشقر قد أنتج خطّاً سلفيّاً في داخل الإخوان.

وهذا يجرنا للحديث عن دور الأشقر من الثورة الإيرانية في داخل الإخوان.

٥ - بعد انضمام الأشقر للإخوان بعدة سنوات: وصل الخميني لحكم إيران بعد الإطاحة بحكم الشاه، وانخدع به فئام عديدة من الناس من العامة والخاصة، ومنهم: قيادات وأفراد بجماعة الإخوان، فكان للأشقر دور بارز في توعية الناس بخطر الخميني والتشيع وإيران.

أول جهوده في هذا الباب: أنه لما كان في القاهرة من أجل دراسة الدكتوراة، وظهر الخميني قام الأشقر بتوعية أعضاء الإخوان من قطاع غزة والأردن الذين يدرسون بالقاهرة بحقيقة التشيع والخميني؛ من خلال جلسات متعددة، كانت تضم قرابة (١٥) شخصاً، وكان لهذه الجلسات أثر بارز في وقاية الإخوان في هذين البلدين من التشيع

العقدي الذي تورط فيه بعض الإخوان المسلمين في دول أخرى؛ كالسودان وتونس.

وثانياً: كتب الشيخ رسالة صغيرة عن حقيقة موقف الخميني من العقائد الشيعية، وأنه يؤمن بكل طوامهم وكفرياتهم، فعقب الثورة الإيرانية مباشرة نشرها بين القيادات الإسلامية في الكويت، وأرسل نسخة منها لاجتماع للحركة الإسلامية بالقاهرة؛ لكنهم لم يهتموا بالاطلاع عليها!

وثالثاً: حين كان الشيخ مشاركاً بمؤتمر إسلامي لشباب الإخوان بلندن في بداية الثورة فوجئ باستضافة عالم شيعي عراقي مؤيد للخميني ونظريته (ولاية الفقيه)، رغم أن المؤتمر ليس فيه حضور شيعة، فطلب التعقيب عليه، فلم يقبل المنظمون أن يُعقِّب عليه الشيخ، فقرر مغادرة المؤتمر، فعاد المنظمون وقرروا أن يُعقِّب عليه شخص آخر غير الأشقر، ولكنه لم يكفِ ولم يشفِ غليل الأشقر!

ورابعاً: بعد هذا المؤتمر مباشرة دعي الشيخ لمؤتمر في أمريكا، وكان منظمو المؤتمر هم طلاب الشيخ في الكويت، وقد أخبرهم بما جرى في لندن، فطلب منه المنظمون أن لا يخصص حديثه عن الشيعة، وذلك بسبب وجود تعميم على جميع المراكز الإسلامية بعدم مهاجمة الشيعة! فألقى محاضرة عن (تصويب المسار)، تعرض فيها لخطر الشيعة وانحرافاتهم العقدية.

وقد أثارت المحاضرة كثيراً من الحضور المخدوع بإيران والخميني، فانهالت الأسئلة والتعقيبات المعترضة، لكن الله سخر له أن يصرح أحد شبان الشيعة الحاضرين بأنهم لا يسبون أبا بكر وعمر لكنهم يسبون عائشة فقط!

فظهر للجمهور صدق حديث الشيخ، وكانت محاضرة نافعة، وعتها قلوب وعقول كثيرة؛ خاصة وأن شريط المحاضرة تناقلته الأيدي في بلاد كثيرة.

وقد وصف الشيخ محمد عبد العزيز هذا الدور الرائد للشيخ الأشقر بقوله: "كان الشيخ الأشقر صمام أمان للشعب الفلسطيني من التشيع".

٦- انضمام الشيخ للإخوان كان بشكل رئيسي لإكمال مشوار تربية الشباب الفلسطيني؛ الذي رباه الشيخ في المدارس والمساجد، وقد أثمر ذلك الجيل عن تكوين حركة حماس، إذ كان شباب الأشقر هم غالب قادة المكتب السياسي لحركة حماس لاحقاً.

يقول د. محسن الصالح: "شكل الشيخ عمر وسليمان حمد ثنائيّاً متناغماً ومتكاملاً، ومكَّنت القدرات الاستيعابية المتميزة للعم أبو محمد من الاستفادة القصوى من الشيخ عمر في إطار التنظيم الإخواني، وجمعهما الاهتمام بالشباب، وبالعمل لفلسطين، وبالانفتاح على الوسائل المختلفة والمتجددة للدعوة...

في سنة (١٩٧٨) اتحد التنظيم الفلسطيني مع تنظيم الإخوان في الأردن، وشكلا (تنظيم بلاد الشام)، على أمل أن يلتحق بهما السوريون واللبنانيون، وهو ما لم يحصل.

غير أن ذلك مثل قفزة في العمل الإسلامي الفلسطيني، تكلل بتشكيل جهاز فلسطين سنة (١٩٨٥)؛ والذي تولى متابعة العمل لفلسطين، وإنشاء حماس، وقيادتها ودعمها لوجستياً؛ وكان الشيخ عمر من رواد هذا العمل ومنظريه، ومن العاملين بشكل حثيث على إنجاحه.

استفاد الشيخ عمر وخالد مشعل من زيارتهما للسودان سنة (١٩٨٠) بشكل كبير، إذ اطلعا على تجربة الحركة الإسلامية التي يقودها حسن الترابي هناك، وفتح ذلك لهم آفاقاً جديدة في العمل الإسلامي لفلسطين.

كما التقى الشيخ عمر -بتكليف من إخوانه- بمنير شفيق، ثم بعلي الحسن للاطلاع على تجربة منظمة التحرير والمقاومة الفلسطينية، للاستفادة منها في العمل الذي يجري إعداده لما سيعرف مستقبلاً بحركة حماس.

وفي تلك الأثناء اهتم الشيخ عمر وإخوانه بالمنحى الجهادي للعمل الإسلامي الفلسطيني في الداخل والخارج، وأخذوا يسبرون آفاقه، ومجالات الإعداد والتدريب.

غير أنه كان هناك حرص شديد على السرية وعلى حسن الإعداد، ليتم إنشاء عمل قوي ومتجذر، يستطيع الاستمرار والتوسع، حتى لو تعرض للضغوط والضربات.

وتعود بدايات التدريب العسكري في الخارج إلى سنة (١٩٨٠).

كما كان يجري التواصل مع الداخل ورفد عمله بما يحتاج من دعم، وخصوصاً تلك الجهود التي كان يقوم بها الشيخ أحمد ياسين Z ورفاقه".

وفي مطلع الثمانينات كتب الأشقر رؤية لقضية فلسطين، لتكون نواة انطلاق حماس في المستقبل، ولما قام الشيخ أحمد ياسين بتأسيس تنظيم جهادي في غزة سنة (١٩٨٣) كان الأشقر هو واسطة تدبير الدعم المالي لهم.

وحين يعلن عن قيام حركة حماس وتتكون هيئاتها المؤسسية، يتم اختيار الشيخ عمر ليكون أول رئيس لمجلس الشورى العام لها، ويبقى في ذلك المكان (١٠) أعوام (١٩٨٩-١٩٩٩)، ولم تنقطع هذه الصلة بحماس؛ وإن أصبحت في إطار الاستشارة والفتوى، فهو المفتي الأول لحماس.

ولخَّص خالد مشعل دور الشيخ الأشقر في حماس بقوله في جنازته: "كان الشيخ عمر الأشقر أحد أربع مؤسسين لحركة حماس، وذكر منهم: الأستاذ سليمان الحمد (أبو

محمـد) في الكويـت -حفظـه الله-، والمهنـدس حسـن القيـق (أبـو سـليمان) في القدس Z "، وأمسك عن ذكر الرابع.

حيث التقت بذرة حماس في الخارج برعاية الأشقر والحمد، مع ما بذره الأستاذ حسن القيق وإخوانه في الضفة، وما زرعه ورعاه الشيخ أحمد ياسين في غزة -رحمهم الله جميعاً-.

كان الشيخ الأشقر يتمتع بالبصيرة الثاقبة "في المواقف؛ خاصة في القضايا الحاسمة والحساسة، "كانت أحد العوامل التي عصمت الحركة، وجعلت مواقفها متوازنة دائماً"؛ كما يقول خالد مشعل.

وهذا الدور الجهادي العريق للأشقر فاجأ الكثيرين من الحمساويين والإخوان والسلفيين والإعلاميين، وذلك بسبب زهد الشيخ في الأضواء، وبساطته وهدوئه وتواضعه، بحيث لا يظن أن خلف هذا كله مؤسس حركة حماس التي نازلت العدو الإسرائيلي، وواصلت حمل راية الجهاد في فلسطين.

لكنه الطفل الذي رأى بلده تُحتل، وأهله يشردون، ورأى احتفاء علمائه وشيوخه بالجهاد؛ كما يقول عن رحلة مع الشيخ ابن باز قبل (٤٠) سنة: "وقد حضرت شيخنا الشيخ عبد العزيز Z في إحدى رحلاتنا مع الطلبة، فأحضر أحدهم بندقية، فأخذها الشيخ بيديه، وأخذ يتلمسها، ويذكر مقاطعها، ويتغنى بها كأنما هي عروس"!!

وجاءت سنة (١٩٩٠) وكان الشيخ الأشقر في رحلة دعوية في إيطاليا، فجاءه الخبر باحتلال الكويت، وهنا تنتهي رحلته مع الكويت، ذلك البلد الذي أحبه بعد أن فقد بلده فلسطين، واعتبره وطنه لما لقي فيه من تكريم ومحبة، ولما لقيت دعوته من قبول وانتشار، ولكن إرادة الله غالبة، ولعل له حكمة في انتقال جديد للشيخ إلى عمَّان!

الانتقال إلى الأردن:

الذي دعا الشيخ لترك الكويت وعدم البقاء بها: مطاردة البعثيين له؛ لأنهم كانوا حانقين على الشيخ لعدم تلبيته دعواتهم لزيارة العراق، أو قبول حضور مؤتمرات دعم صدام حسين، ومن هنا لما كثر بحث القوات العراقية عنه في الكويت والسؤال عنه؛ قرر مغادرة الكويت، بعد أن عاد لها من إيطاليا -إذ كان في مؤتمر إسلامي هناك- عبر الأردن وبغداد، فقفل راجعاً بزوجته وأصغر أولاده إلى عمان.

في الأردن عاد الشيخ لرسالته الرئيسية وهي: التعليم، فعين أستاذاً بالجامعة الأردنية مباشرة (١٩٩٢-٢٠٠٢)، وفي الجامعة الأردنية كان للشيخ بصمات واضحة؛ فقد قام بإكمال بعض النواقص، مثل: شرح قانون الأحوال الشخصية الأردني، وإنقاذ (مادة الأسماء والصفات) و(مادة القضاء والقدر) من الحذف؛ لعدم إقبال الطلبة عليهما، فأصبحت شعبة الشيخ مليئة بالطلبة، وصنف لها كتابه «أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة».

وقد كان الشيخ يحب تدريس العقيدة برغم تخصصه في الفقه وأصوله، وكان تأثير الشيخ عمر على الطلبة ونشر معتقد أهل السنة تأثيراً واضحاً وبيِّناً، وأشرف الشيخ على عدد من رسائل الدكتوراة والماجستير فيها.

تم إبعاد الشيخ من الجامعة الأردنية مع عدد من الأساتذة ذوي الخلفيات السلفية، ثم عاد جميع المفصولين باستثناء الأشقر، وكل هذا كان بتحريض من المتشيع حسن السقاف؛ الذي ألب الأمير غازي على السلفيين! وكان السقاف قد رد على الشيخ عمر بمذكرة تافهة بعنوان: «تنبيه أهل الشريعة إلى ما في كتب الأشقر من الأخطاء الشنيعة»، وقام السقاف -من غبائه!- بإرسال نسخة منها للشيخ ابن باز!

والذي أرسل خطاباً بتاريخ (١٤١١/١١/٣٠هـ) للشيخ عمر يطلب منه الرد عليه بما يناسب، مما يكشف لنا عن عمق الصلة ودوام التواصل بين الشيخين.

وقد أهمل الشيخ الكتاب وكاتبه؛ فلم يرد عليه، وقد كان هذا الإهمال أشد عليه من الرد! ومن إنصاف الشيخ أنه قرأ الكتاب بحثاً عن الصواب، فلم يجد فيه إلا تنبيهاً على خطأ في عزو حديثين فصوَّبهما الشيخ في الطبعات اللاحقة.

بعد ذلك قرر الشيخ التفرغ للتأليف، لكن الدكتور إسحاق الفرحان أرسل للشيخ من يطلب منه إنقاذ كلية الشريعة بجامعة الزرقاء الأهلية من الإغلاق بتولي عمادة الكلية التي شغرت، وليس هناك من يتولاها، فرفض الشيخ في البداية، ثم وافق على أن يكون ذلك لعام دراسي واحد تتدبر الجامعة بها أمرها، ثم مدد الشيخ سنة أخرى.

وكان للشيخ تأثير كبير على الكلية والطلبة؛ بعلمه وخلقه، ولعل القصة التالية تلخص تأثير الشيخ في طلابه؛ إذ بينما بعض الشيوخ والدكاترة في مكتب الشيخ عمر الأشقر بكلية الشريعة فوجئوا بدخول فتاة غير محجبة، وهي تحمل وردة وتقدمها للشيخ!

وقد تبين أن هذه الفتاة قطفت هذه الوردة من حديقة الكلية لتعبِّر بها عن شكرها وتقديرها لإنصاف وعدل الشيخ الأشقر حين أعطاها ما تستحقه من درجة مرتفعة في مساق مادة الثقافة الإسلامية؛ بغض النظر عن مدى التزامها بالحجاب الشرعي.

هذه الحادثة تكشف عن منهجية الشيخ في دعوته إلى الله U؛ والتي تقوم على ركني: العلم والرفق، وهذا يَعلمه كل المحيطين بالشيخ أو المتابعين لكتبه ونشاطه.

ترك الشيخ جامعة الزرقاء بعد أن قضى فيها سنتين (٢٠٠٣-٢٠٠٥)، وتفرغ للتأليف، وفعلاً أصدر عددا من الكتب والأبحاث المهمة من أبرزها: كتابه في التفسير، والذي سيطبع قريباً، حيث فسر فيه (١٨) جزءاً من القرآن.

أيضاً كان الشيخ عضواً بمجلس الإفتاء الأردني لمدة عشر سنوات، خلال الفترة (١٩٩٠-٢٠٠١م)، وكان له دور علمي مع قيادة الإخوان المسلمين؛ إذ كانت فتواه بجواز المشاركة في الحكومة الأردنية هي المستند لحسم الخلاف في الجماعة حول ذلك، وقد تخفف من مسؤولياته في حركة حماس حين استقر بالأردن، وبقي مفتياً لها ومستشاراً.

وقد كانت للشيخ مشاركات على بعض القنوات الفضائية، ولم يكن مكثراً منها؛ لأن الشيخ كان يحب الحوار المباشر مع الناس، ولا ينسجم بالحديث مع نفسه والميكرفون، ولذلك قلَّت مشاركاته بالإذاعة، وكان أول برنامج له على القنوات برنامج: (متن وسند) على قناة المجد.

وهذا يدلنا على سعة علم الشيخ، وأنه ليس منحصراً في باب من أبواب العلم، فكتبه في العقيدة من أقوى الكتب، وكتبه في الإخلاص والتزكية في المرتبة العليا، ودراساته الفقهية والأصولية مشهود لها، وكتاباته في المنهج والتنظير للدعوة في غاية المتانة، وهذا برنامجه في الحديث، وهكذا في أبواب متعددة أخرى.

في الأردن لم يأخذ الشيخ بعداً جماهيريّاً كالكويت، بسبب قلة معرفة الناس به، وطبيعته المحبة للهدوء والبعد عن الأضواء، لكنه كان لا يرد أحداً يرغب بمقابلته أو دعوة لإلقاء محاضرة أو درس.

الشيخ في بيته:

يحدثنا ابنه الدكتور أسامة عمر الأشقر فيقول: "على مستوى العائلة تجد الوالد Z متسقاً مع أخلاقه وصفاته الكريمة في خارج البيت، والدٌ حنون، وصديق وفي، أحببناه من شغاف قلوبنا، إليه ترجع العائلة في أمورها، يتجاوز إن أسأنا بغير قصد.

الجلوس معه متعة من متع الدنيا، يبث فينا أطايب الحديث، كذلك يمدنا دوماً بتجاربه وخبراته، يلاطف أحفاده الصغار كأنه واحد منهم؛ يعطف عليهم ويحنو، ويزورهم حين المرض، ويتابع حالتهم عبر الهاتف بشكل مستمر، أما الكبار فأحلامهم أحلام له، مشاكلهم تضاف إلى مشاكله Z ، لم يكن يضن عليهم لا بمال ولا بنصح، ولا يتبرم من تصرفاتهم إن أخطأوا.

لقد آثر على نفسه كثير، يجمع العائلة من أطرافها، ولم يكن يوماً سبباً في فراقها.

وهكذا دواليك تجده المرجع على مستوى العائلة الأكبر في حل مشاكلها، حقّاً ودون مبالغة طراز فريد من الآباء، قلَّما تجده هذه الأيام، وليس هذا المكان لبيان المواقف والتفاصيل الخاصة.

في البيت تجده Z حريصاً جدّاً على استغلال وقته، إلا أن القراءة والكتابة أخذت الجزء الأكبر من وقته؛ من دون أن يؤثر ذلك على التزاماته الأخرى، ذلك أنه Z كان يحسن توزيع وقته بطريقة غريبة؛ فقد يقضي في قراءة الكتب وتأليفها ما يزيد عن عشر ساعات يوميّاً، لكن ذلك لا يصده عن الجلوس مع أبنائه وأحفاده، وإن جلس مع العائلة تجده شخصاً آخر انقطع عن مشاغله وهمومه، وانشغل بهموم العائلة وأفرادها واحداً واحداً.

وينال الأحفاد الصغار من اهتمامه ما للكبار، ولزواره -وهم كثر- كذلك وقت خاص، ولزيارة الأقارب والأصدقاء وقت عنده Z ، وكان Z يحب اللقاء بالناس في مجالسهم، لكن هذه المجالس تتحول في وجوده من مجالس دنيا لمجالس تأنس فيها بالقصص والمواعظ والعبر والطرائف.

أما المكالمات الهاتفية للمستفتين فكانت دائماً تقاطع أوقاته أثناء التأليف أو النوم أو الأكل، وكانت المكالمات كثيرةً جدّاً، وتصل أحياناً لدرجة الإزعاج، وكان Z يحاول أن يجيب على كثير منها، ولكثرتها كان Z يختصر الإجابة ويجعلها مركزة؛ للاستفادة من الوقت، ولإتاحة المجال لباقي المستفتين فيما يتيسر له من وقت.

أيضاً كان Z يخصص وقتاً للنزهة والاستجمام لساعات محددة؛ خاصة في يوم الجمعة، لكن ليس للابتعاد عن الناس وإنما كان يحب أن يجتمع فيها مع مجموعة من أصدقائه وعائلاتهم، ولا يخلو ذلك من الاستفادة العلمية والدعوية في مثل هذه اللقاءات". ا. هـ

وقد رافقتُ الشيخ في نزهة قبل وفاته بأقل من سنة لمزرعته، حيث دعاني الشيخ والأستاذ إياد القيسي -من العراق- والدكتور فاروق الشمري -من البحرين-، وكم ألححت عليه أن نذهب بسيارتي فرفض، فعرضت عليه أن أقود السيارة بدلاً منه فرفض، وكان يرى هذا من إكرام الضيف، وهناك -أيضاً- كان بشق النفس يقبل أن أخدمهم وأنا أصغرهم، رحم الله الشيخ رحمة واسعة.

مرضه ووفاته:

تعب الشيخ في آخر سنتين من حياته، وبعد عدة فحوصات تبين أنه مصاب بالسرطان، فتقبل ذلك راضياً شاكراً، وقد عُرض عليه العلاج بالخارج فرفض،

وعُرض عليه العلاج بالنووي والكيماوي فرفض في البداية، وتعالج بالطب البديل، ثم تعالج بالكيماوي.

وكنتُ كلما زرته صبَّرنا ورضَّانا بقضاء الله وقدره، بدلاً من أن نكون نحن من يفعل هذا! وقد زرتُه قبل وفاته وكان لا يستطيع مغادرة السرير، فوجدته حريصاً على السؤال عن أحوال إخواننا من اللاجئين السوريين، ويتابع بهمة قضايا المسلمين، وقد تبرع للاجئين السوريين عدة مرات، وكلفني بتوصيلها من خلال جمعية الكتاب والسنة.

قُبض Z يوم الجمعة الموافق (٢٢ رمضان عام ١٤٣٣هـ)، في عمَّان، في العشر الأواخر المباركة، عن عمر يناهز (٧٢) عاماً، وغُسل بماء زمزم، ولعل ذلك فأل خير بحسن الخاتمة -إن شاء الله-، وقد شهد جنازته ألوف المسلمين، واجتمع فيها كافة التيارات الإسلامية، فقد كان نقطة التقاء في حياته ومماته Z .

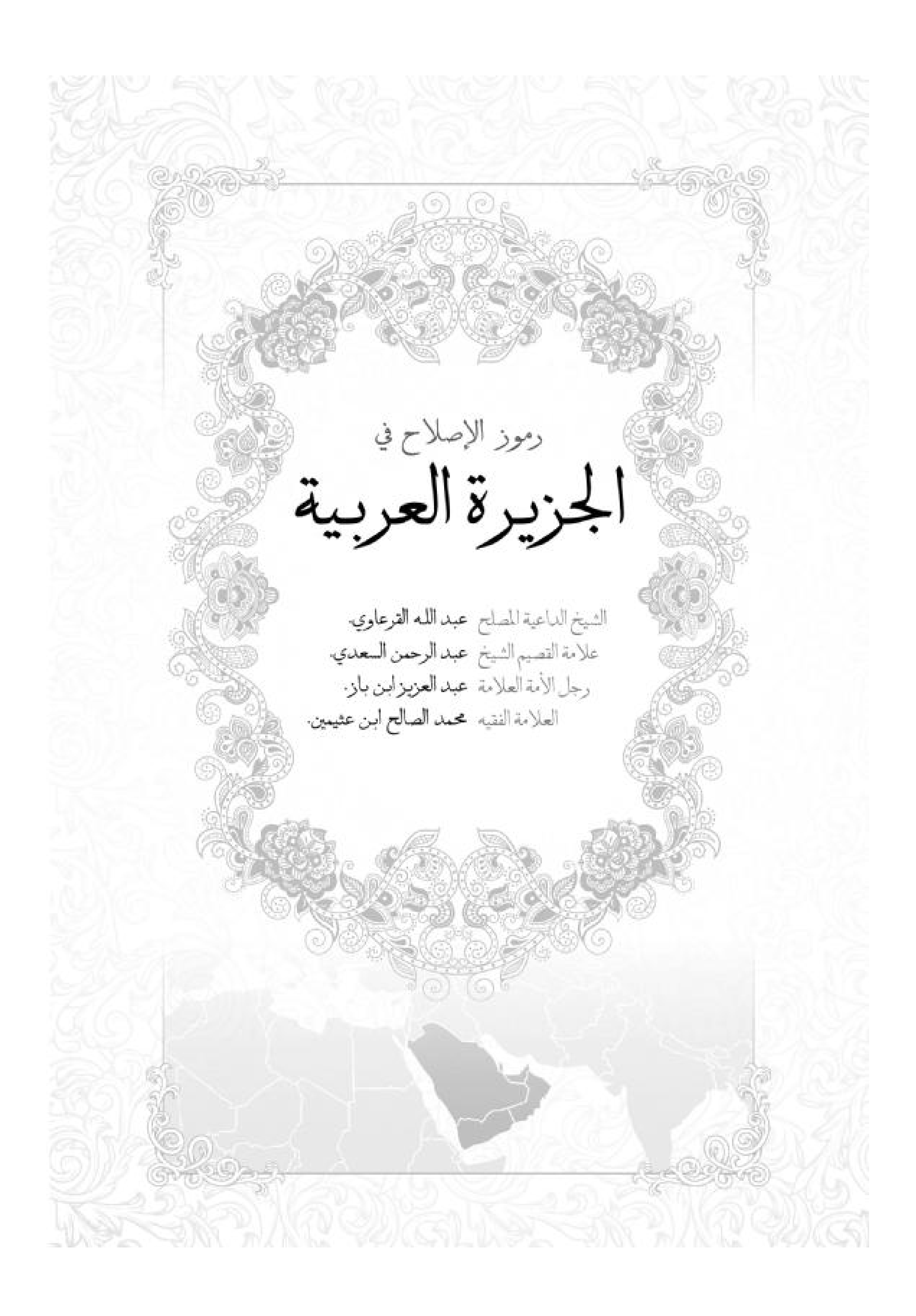
مراجع للتوسع:

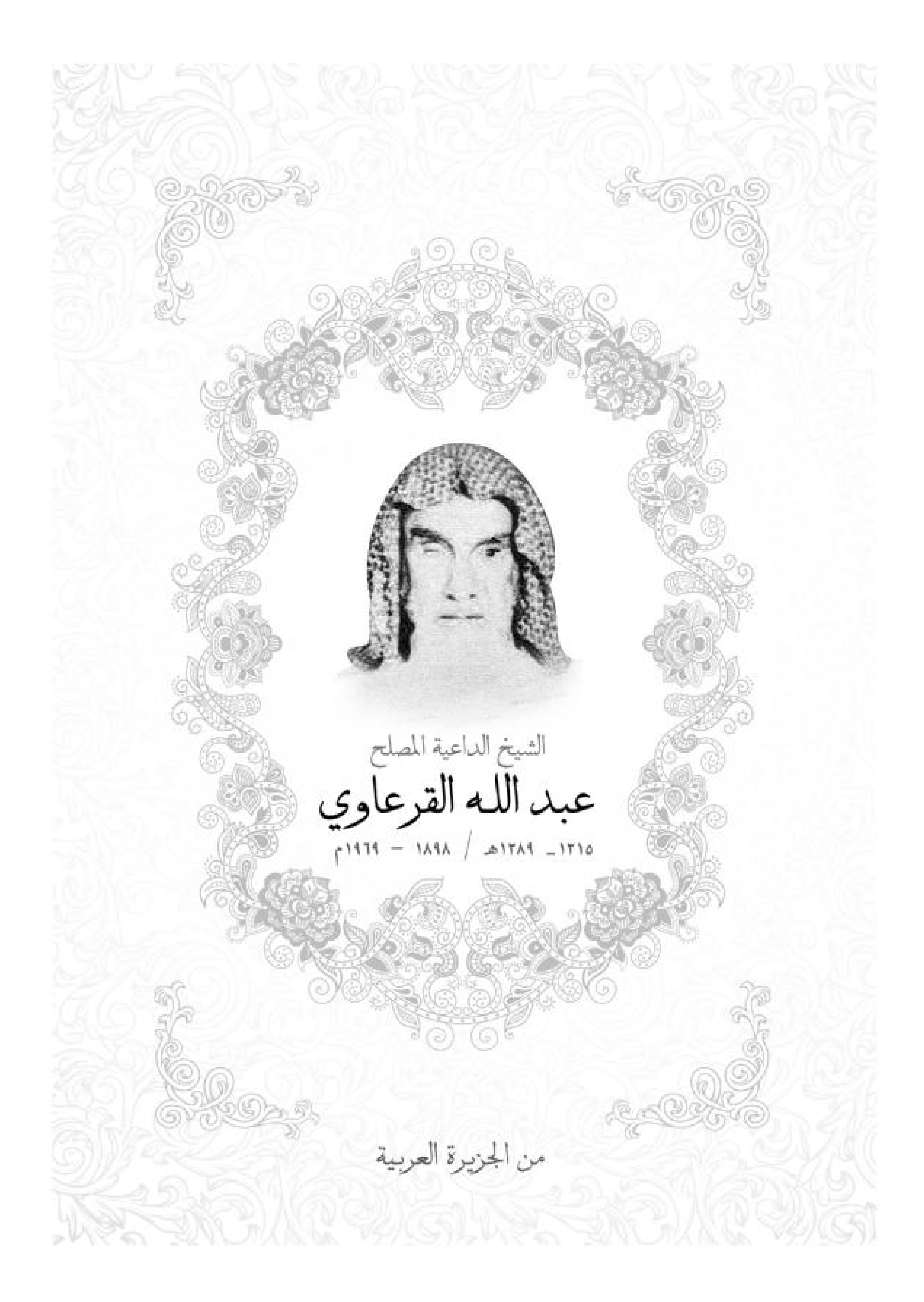
o «صفحات من حياتي»، د. عمر الأشقر، دار النفائس، عمان، (ط ١، ٢٠٠٩).

o «الأستاذ الدكتور الشيخ عمر الأشقر»، د. أسامة عمر الأشقر، منشورات رابطة علماء الأردن، (ط١، ٢٠١٣).

o (قراءة في الدور الدعوي والحركي للعلامة الأشقر)، د. محسن صالح، مقال بشبكة الإنترنت.

o كلمة الأستاذ خالد مشعل، والشيخ أبو قتيبة محمد عبد العزيز، والشيخ أبو العالية، في (تأبين الشيخ الأشقر)، موقع (يوتيوب).


رموز الإصلاح في
الجزيرة العربية
الشيخ الداعية المصلح عبد الله القرعاوي.
علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدي.
رجل الأمة العلامة عبد العزيز ابن باز.
العلامة الفقيه محمد الصالح ابن عثيمين.


الشيخ الداعية المصلح
عبد الله القرعاوي
١٣١٥ـ ١٣٨٩هـ / ١٨٩٨ - ١٩٦٩م
من الجزيرة العربية

١٣- الشيخ الداعية المصلح عبد الله القرعاوي

(١٣١٥-١٣٨٩هـ/١٨٩٨-١٩٦٩م)

تمهيد

الشيخ عبد الله القرعاوي لا يعرفه كثير من الناس اليوم، بل وكثير من العلماء وطلبة العلم -أيضاً-! برغم أنه من العلماء والدعاة المعاصرين، وبرغم أن بعض تلاميذه له شهرة واسعة جدّاً، لكن الشيخ القرعاوي Z لم يكن يبحث عن هذا بل كان يبحث عن أن يعرفه ربه، وأن يترك خلفه أثراً ينفعه ويرفعه عند باريه ومولاه.

يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

نقل الشيخ عبد الله بن عقيل عن الشيخ عبد الرحمن السعدي قوله: "إن الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد الله بن حميد والشيخ عبد الله القرعاوي؛ لا يوجد لهم مثيل في تصديهم لنفع الناس ودعوتهم وإرشادهم".

ولذا لا يمكن لمن أراد الحديث عن المصلحين المعاصرين في الجزيرة العربية أن يتجاوز النهضة الإصلاحية التي قام بها الشيخ القرعاوي على مختلف الأصعدة الدينية والأخلاقية والتعليمية والصحية والعمرانية والسياسية؛ وخاصة في المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية، وهذا وقت التفصيل.

مولد الشيخ ونشأته:

هو عبد الله بن محمد بن حمد بن عثمان بن نجيد القرعاوي النجدي، ولد يتيم

الأب في (١١ من ذي الحجة ١٣١٥هـ) في عنيزة، وكان جد جد الشيخ يسكن في عنيزة ثـم بـاع أملاكـه ورحـل إلى القرعـاء، ثـم عـاد جـده حمد إلى عنيـزة مـرة أخـرى، فلقـب بالقرعاوي.

فرَعَته أمه حيث كانـت امـرأة صـالحة تقـرأ القـرآن، وتعلـم النسـاء، وتحـرص عـلى مجالس العلم وصلاة الجماعة في المساجد، فتأخذه معهـا، فوجهتـه لحفـظ القـرآن وتعلـم العلم الشرعي، وكانت تتابعه في البيت؛ حتى أتم حفظ القرآن وهو ابن (١٣) سنة.

وقد قامت ببيع أثاث بيتها لتسدد شيء من ديون زوجها، وتاجرت بالمال مع أعمام الشيخ القرعاوي، حتى بلغ سنه (١٤) عاماً، فطلبت منه أن يسافر مع أعمامـه للتجـارة ليكمل سداد ديون أبيه.

عمله بالتجارة وسفراته:

كانت أول رحلة تجاريـة لـه سـنة (١٣٢٩هـ) للشـام برفقـة عمـه، وتكـررت هـذه السفرات فتعلم مهنة أبيه وأجداده، فسافر للشام وفلسطين ومصر والعـراق والكويـت ولبنان، وفتح أحياناً دكاناً يبيع فيه بضائعه، وعمل حيناً في رعي الإبل وبيعها، وفي عام (١٣٤٠هـ) عاد لموطنه بعنيزة وتزوج.

ومن ثم عاد للسفر والتجارة، وحج في عام (١٣٤٢هـ)، وفي كل هذه السـنوات لم يتخل عن طلب العلم وحضور ما يتيسر له من مجالس العلم، ولكن بدون تفرغ.

رجوعه لطلب العلم:

وفي عام (١٣٤٥هـ) قرر التفرغ لطلب العلم برغم كبر سنه حيث كان في الخامسة والثلاثين من عمره ومتزوجاً، فلما كان بالبصرة شاور أحد علماء نجد المقيمين فيها أيـن يتعلم؟ فأشار عليه بالسفر للهنـد والالتحـاق بالمدرسـة الرحمانيـة في مدينـة دلهـي، فهـي

مدرسة سلفية، مدة الدراسة فيها (٨) سنوات وفيها علماء سلفيون كبار، وهي مجهزة بكل المرافق اللازمة للدراسة، وقد قام الاحتلال البريطاني لاحقاً بإزالتها؛ خوفاً من دورها المستقبلي.

فسافر للهند ولقي في ذلك من مشقة السفر لصعوبة المواصلات وبعد المسافة ما الله به عليم! فدرس بالرحمانية، وتعرف على علمائها، وبقي هناك عشرة أشهر حتى أرسلت له والدته تطلب عودته لنجد والدراسة فيها؛ بسبب مرضها، فعاد من الهند ولكن والدته توفيت قبل وصوله بثمانية أيام.

بداية قيامه بالتعليم في المملكة:

فأقام في نجد وتلقاه أهلها بالترحاب لما يعرفونه عنه من خير، وبسبب حسن أخلاقه وبشاشته ولطفه مع الكبير والصغير، ويبدو أن عمله في التجارة ورعي الإبل وسفراته أكسبته خبرة ومهارة في كسب قلوب الناس كباراً وصغاراً.

فقام بفتح كُتاب للأولاد يعلمهم فيه احتساباً دون أجرة سنة (١٣٤٧هـ)، وحاول بعض الناس أن يدفع له لكنه رفض؛ كما يقول الشيخ عبد الله بن عقيل في سيرته الذاتية، فكان من طلابه في الكتاب: العلامة شيخ الحنابلة عبد الله بن عقيل، والشيخ عبد الله آل بسام، قال الشيخ آل بسام: "كنت من الأطفال الصغار الذين دخلوا كُتابه -رحمه الله تعالى- فكان لا يأذن لنا بالخروج من الكُتاب حتى نؤدي الصلاة في أول وقتها، وهو يلاحظنا عن اللعب في الصلاة، ثم يخرج بعد ذلك لأداء الصلاة في المسجد".

ويضيف الشيخ ابن عقيل عن منهج القرعاوي مع طلابه الصغار: "وكان يخرج بنا للتمشية، وينفق علينا من عنده مع قلة ذات اليد ويعلمنا الرياضة وركض الخيل

ويسابق بيننا، وكنا نحن -كبار الطلبة- نتدارس القرآن غيباً بعد العشاء، ونبيت عنده؛ فيوقظنا نتهجد، ونصلي الفجر في المسجد مع الجماعة.

وكان يجعل حفلة بمنزله، وهي عبارة عن ناد مصغر في كل ليلة جمعة، يجتمع فيها الطلاب وأولياؤهم وبعض الإخوة والأعيان، ويجعل بينهم مسابقة علمية كل على قدر ما تعلم، ويعطي الناجحين جوائز رمزية".

ولابد أن ننتبه إلى أن هذا كان يجري في نجد سنة (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م) أي: في سنة تأسيس جماعة الإخوان بمصر، وقبل لجوء قيادات الإخوان للمملكة من مصر والعراق وسوريا فراراً من الحكومات الشيوعية واليسارية المعادية للإسلام، ويبدو أن القرعاوي قد استفاد من سفراته لبلاد متعددة ودراسته بالهند هذه الوسائل التربوية الجذابة والنافعة، ولكن للأسف أن هذه التجربة لم تستمر بسبب حسد بعض العاجزين وضحالة عقولهم!!

وفي المستقبل تتواصل العلاقة بين القرعاوي والشيخ عبد الله بن عقيل؛ الذي أصبح قاضياً، فها هو يكتب للشيخ القرعاوي رسالة في سنة (١٣٥٩هـ) جاء فيها: "وبخصوص عبد الله الحميد وعبد اللطيف فهم يسلمون عليكم، ويثنون ويدعون، وبلغهم من قبلنا ومن قبل غيرنا نجاح أعمالكم، واجتهادكم بالدعوة، وبثكم العلم والتعليم، والنصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فاحمدوا الله، وقد تعجبوا من هذه الحالة لكونهم ما يعلمون أن أحداً جاء من أهل نجد وفعل مثل فعلكم، فالحمد لله رب العالمين".

يروي ولد القرعاوي عبد العزيز أنه زار الشيخ ابن عثيمين ليستفتيه في مسألة، فلما علم الشيخ ابن عثيمين أن السائل هو ولد الشيخ القرعاوي قال له: "يا بني! هل تعلم

أن والدك هو من علمني الوضوء؟".

فرحمة الله على الشيخين العظيمين اللذين يعدان من أعلام الإصلاح في زماننا.

وبقي الشيخ في عنيزة حتى سنة (١٣٥٤هـ)، يقول القرعاوي في إحدى رسائله: "وقد فتحت مدرسة في عنيزة سنة (١٣٤٧هـ) حتى (١٣٥٤هـ) أربع مرات، وكلما أستمر في التعليم أجد أن حاجة البيت تضطرني أن أغلق المدرسة، وأذهب أتكسب مرة في دكان، ومرة جمالاً، ومرة فلاحاً، حيث إني أُعلم مجاناً بكل الفنون بالخط والحساب والإملاء والإنشاء والتجويد والتوحيد والفقه والحديث ومصطلح الحديث والصرف والنحو والتاريخ، وكنت أعطي التلاميذ رياضة خارج المدرسة؛ كالمسابقة والمصارعة، وخصصت وقتاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وقت اجتماع الناس نساءً ورجالاً وهو وقت العصر".

فقد كان الشيخ يتجول في شوارع عنيزة وأسواقها حتى صارت له هيبة وسطوة.

عودته لطلب العلم:

وبعد عودته من الهند درس -أيضاً- القرعاوي على عدد من العلماء مثل: الشيخ محمد بن إبراهيم -المفتي العام في الرياض-، والشيخ عبد الله بن سليم في بريدة، ومن هنا كانت معرفة العلماء بالقرعاوي من بلاد متعددة في ذلك الزمان؛ الذي لم يكن يتميز بسهولة المواصلات ولا الاتصالات.

وفي سنة (١٣٥٥هـ) -أي: بعد عشر سنوات من عودته من الهند- سافر القرعاوي مرة ثانية للمدرسة الرحمانية بدلهي، وذلك بعد أن شاور شيخه محمد بن إبراهيم الذي حثه على السفر للهند، فجلس هناك سنة، جدّ فيها واجتهد؛ حتى حصل على الإجازة العلمية من شيخه رئيس المدرسين أحمد الله بن أمير القرشي الدهلوي،

الذي عرض عليه أن يكون مديراً بالمدرسة الرحمانية إلا أنه رغب بالعودة لبلده وإفادة أهلها، فرجع لوطنه في سنة (١٣٥٧هـ).

وبعدها سافر للإحساء وقطر فأخذ عن الشيخ عبد العزيز بن بشر في الإحساء، والشيخ محمد بن مانع في قطر، ثم سافر لمكة عند شيخه محمد بن إبراهيم.

بداية رحلته الإصلاحية في جنوب المملكة:

كان الشيخ القرعاوي يسمع في مجلس شيخه المفتي محمد بن إبراهيم شكاوى متعددة من قبل الدعاة الذين أمر الملك عبد العزيز بإرسالهم للجنوب لنشر الدعوة والعلم، عن تردي الحالة الدينية والأخلاقية في مناطق الجنوب -وهي المنطقة الساحلية الممتدة من جنوب مكة إلى حدود اليمن-؛ حيث ينتشر بين الناس هناك التعلق بالأضرحة والقبور، وحفلات الزار والاستعانة بالجن والشياطين، والختان على الطريقة الجاهلية، وقلة العلم وكثرة الجهل، فكان يحزن لهذه الحالة المزرية.

وفي ليلة من الليالي رأى في المنام النبي ﷺ وهو يشير إليه بيده الشريفة أن يتجه إلى الجنوب، فلما أصبح أخبر المفتي، فاستبشر وقال: "إنها رؤيا حق".

وبعد أن استخار القرعاوي وشاور شيخه ذهب للحج سنة (١٣٥٧هـ)، ثم توجه إلى مدينة جازان، فنزل بقرية صامطة، وكان قد أخذ معه بعض البضائع ليتاجر فيها ويعتاش منها، ويقوم بالدعوة والتعليم فيها، فاستأجر دكاناً يتاجر فيه ويتعرف على الناس وأحوالهم من خلاله، واتصل بشيوخ القبائل.

وبعدها يبدأ يعلم القرآن والتجويد والفرائض، وبعض رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فكان هذا الدكان أول مدرسة فتحها القرعاوي في تهامة اليمن، وكان يدرس في النهار للطلاب، وفي الليل للطلاب وأهليهم، وشاع خبر الشيخ ومدرسته

العجيبة، فأصبح يتوافد عليه الطلبة من القرى المجاورة.

وكان للقرعاوي طريقة عجيبة في إزالة المنكرات، تقوم على التحويل التدريجي دون مصادمة مباشرة، فمثلاً: كان إذا رأى جماعة من الناس متجمعين على منكر كرقص وغناء لا يطلب منهم إلّا أن يصلوا جماعة معه إذا أذن المؤذن، ثم بعد الصلاة يعظهم، فينقلب حالهم، أو يذهب لمن يضرب على الطبل فيعطيه مالاً ليضرب بقوة على الطبل؛ فيخرقه ويتوقف اللعب والغناء، فيستغل الشيخ الفرصة وينصحهم.

ومرة وجد جماعة في اختلاط وغناء ورقص في حفلة، فقام برمي بعض النقود على الأرض بين اللاعبين، فانشغلوا بجمع النقود واختل رقصهم، وكانت الشمس قد غربت فطلب منهم أن يصلوا المغرب، وبعدها ألقى كلمة حتى صلاة العشاء، وبعد العشاء قال لهم: نريد بناء مسجد، ووزع عليهم الأدوار، وفعلاً بدأ بعد الفجر بناء المسجد، وعين لهم إماماً من طلابه يؤمهم ويعلم أولادهم.

ومرة ألقى الشيخ موعظة بعد صلاة الجمعة في جامع صامطة بيّن فيها حقيقة التوحيد، وحذر من الشرك؛ فضج المشعوذون والمنتفعون من هذه الشركيات، وضايقوا الشيخ، ورأى أمير البلد أن يسكن الفتنة فطلب من الشيخ أن يرحل لجزيرة فرسان؛ والتي كانت موئلاً للمجرمين والمنحرفين، فلما وصلها فتح فيها مدرسة، وبدأ بالدعوة فيها.

ولكن تلاميذ الشيخ طالبوا الأمير بإعادة شيخهم إليهم لأنه كان سبباً للنفع والفائدة في المنطقة، فأذن الأمير بعودة الشيخ، وفي طريق عودته مرّ على قرية الحكامية ففتح فيها مدرسة، وأصلح مسجدها، وكان هذا أول مسجد يصلحه الشيخ بتهامة.

ثم وصل لصامطة فاتخذ من منزل تلميذه الشيخ ناصر خلوفة -الذي كاتب الأمير بخصوص رجوع الشيخ- مقرّاً للمدرسة، وذلك لأن الشيخ ناصر كان مقعداً لا يستطيع المشي فيصعب عليه الانتقال للمدرسة يوميّاً.

وطبعاً كانت مدارس الشيخ متواضعة؛ فهي قد تكون غرفة من جريد النخيل، وقد تكون في المسجد، وقد تكون تحت شجرة في العراء، فالمنطقة فقيرة ولا تحصل على دعم من الحكومة، فالشيخ ذهب للدعوة احتساباً، وبمبادرة ذاتية شخصية.

ولما كثر الطلبة بعد مدة رأى الشيخ أن يخصص للطلبة المتقدمين وقتاً، وللطلبة المبتدئين وقتاً آخر، وخصص وقتاً للتجوال على القرى للدعوة والحسبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يصطحب معه نخبة من الطلبة فيذهبوا عصر الخميس ولا يعودون إلا صباح السبت، وكان لهذه الجولات نتائج طيبة من إزالة كثير من مظاهر الشرك؛ كالتبرك ببعض الأحجار والقبور، وهروب كثير من الدجالين والمشعوذين والسحرة؛ خاصة القادمين من إفريقيا.

ولقد أتانا من الأحبار أنجبهم	من أرض نجد على اللأواء والسغب
شيخ جليل إلى البيضاء أرشدنا	نعم المُجدد (عبد الله) لَم يغب
نادى جهاراً لحمل العلم مع عمل	بدافع الصدق والإخلاص في سبب
فلبت الناس في سهل وفي جبل	لدعوة الحق ذات النور والأدب

وبمثل هذه الجولات على القرى والتواصل مع الناس في مواسم الرعي والعشب؛ حيث يخرج إليهم القرعاوي وتلاميذه ليعلموا الناس ويرشدوهم، ولا ينتظرون قدومهم إليهم؛ بهذه الطريقة أخرج القرعاوي جيلاً من طلبة العلم والدعاة في وقت

وجيز، فكان يدربهم على الدعوة عمليّاً مع إقامة الدروس والمسابقات الرياضية لهم، ولذلك كان بينهم من الألفة والمحبة والتعاون ما يفرح له قلب المؤمن، وهذا يسر للشيخ فتح المدارس في القرى، وإيفاد معلمين لها؛ يعلمون الناس، ويصلون ويخطبون بهم، حتى بلغت المدارس التي فتحها الشيخ في الجنوب خلال مسيرته الدعوية التي امتدت (٣١) سنة: (٢٨٠٠) مدرسة.

وكان من ثمرات دعوة الشيخ ومدارسه: أنه تلقى رسالة من شاب بقرية الجاضع يرعى الغنم يطلب منه كتاب «التوحيد»، وأن يزور قريته ومعه طلابه؛ لأنه مشغول برعي أغنام والديه، فأعجب الشيخ بخط الراعي وعرضه على طلابه، وفعلاً ذهب الشيخ يوم (١١/٨/١٣٥٩هـ) لزيارة هذا الراعي والتقى به، فوجده طالب علم يقرأ ويكتب، وعنده حصيلة لا بأس بها، فقرر الشيخ أن يفتح في قريته مدرسة.

وحاول الشيخ أن يستأذن والدي الراعي في تفرغه للعلم، وأن يستأجر لهما راع مكانه؛ وذلك أن الراعي حافظ -وهذا اسمه- كان يحفظ الدرس من أول مرة، لكنهما قالا للشيخ: "ابننا وغنمنا يا شيخ!".

وصار الراعي حافظ هو من يعيد الدرس للطلاب بدلاً من تكرار الشيخ القرعاوي للدرس، ونهل الراعي من علوم الشيخ، وبعد أشهر طالب الطلبة بعودة الشيخ لمدرسته في صامطة لبعد المسافة عليهم في قرية الجاضع، ومع بداية سنة (١٣٦٠هـ) عاد القرعاوي لطلابه القدماء، ولحق به الراعي حافظ؛ بعد أن أذن له أبواه، فقام بتوسعة المدرسة وجعلها كالمدارس الحديثة، ووظف هنا خبراته التي رآها في الهند وغيرها من البلاد، وأصبح فيها (١٣٠) طالباً و(٦) معلمين من كبار طلبته.

وفي نهاية السنة توفي والدا حافظ الراعي، فأسكنه الشيخ عنده ولازمه (٣) سنوات، وأصبح حافظ مساعداً للشيخ، ومن ثم برز نجم هذا الراعي وصار: الشيخ حافظ الحكمي، صاحب المؤلفات القيمة؛ كمنظومة «سلم الوصول»، وشرحها «معارج القبول»، وغيرها من الكتب العلمية القوية، والتي ألفها بإرشاد شيخه القرعاوي، والذي ليس له من الشهرة مثلما لتلميذه، وزوج ابنته للحكمي، لكنه لم يعمر ومات في حياة شيخه، وقد حزن عليه القرعاوي كثيراً.

ولم يكن حافظ الحكمي هو الوحيد الذي برز من طلاب الشيخ بل لعل غالب وجهاء وقضاة وعلماء ودعاة الجنوب هم من طلاب القرعاوي، والذين أصبحوا مدراء المدارس والمفتين، وهكذا.

وأصبح الشيخ يستقبل طلاب العلم من كافة مناطق الجنوب ومن خارج السعودية، فقد جاءه طلاب من اليمن والصومال والحبشة، فكان الشيخ يهيئ لهم السكن والطعام، فقد كان يكلف زوجته -تزوج الشيخ في تهامة سنة (١٣٦٢هـ)، وكان قبلها بلا زوجة- أن تخبز للطلاب، ولما جاء بعض الطلبة المتزوجين كان يوزع عليهم الذرة، ويأمرهم بالطلب من زوجاتهم بطحنه وخبزه حتى يأكل الجميع، وهكذا.

ما تعرض له القرعاوي من مصاعب:

من سُنة الله U مع المصلحين: أن يختبرهم بالأعداء المناوئين، وهؤلاء تجاوزهم الشيخ بصبره وحسن خلقه، فقد كان لا يحقد على أحد، بل كان من سياسته أنه إذا عرف أن أحد الوجهاء معارض للتعليم والدعوة النقية؛ زاره، وتلطف معه، وطلب منه أن يكون هو المشرف على شؤون المدرسة، أو يجعله المؤذن في المسجد ويعطيه بعض

المال، فكان ينقلب موقفه، ويحسن تقبله للدعوة.

وقد تعرض الشيخ لمحاولة اغتيال مرتين، لكن الله U نجاه بسبب فطنته وذكائه، وكان يحول هؤلاء القتلة لمحبين له بحسن خلقه وكرم نفسه.

وهناك اختبار آخر للمصلحين وهو: اختبار عداء الحاسدين والمغرضين، فقد رفع هؤلاء إلى الملك عبد العزيز بأن القرعاوي ساحر وكاهن!! وأنه جاسوس للإنجليز!! فأرسل الملك لجنة لتحقق في الموضوع سنة (١٣٦٠هـ)، فلما زارت المدرسة وقابلت الشيخ والطلاب واختبرتهم؛ وجدتهم على علم واستقامة وخلق، وسقطت الاتهامات عند قدميها، وأرسلت للملك برقية بذلك، فذهب الملك وصلى الفجر مع المفتي، وأعلمه بالقضية وأعطاه التقرير، فقال له المفتي: القرعاوي من تلاميذي، وزكّاه، فأمر الملك بصرف مكافأة لكل الطلبة في المدارس.

وبدأت صلة القرعاوي بالملك والحكومة، وأصبح الشيخ يتلقى إعانات تساهم في توسيع نشاطه، بعد أن كان يتحمل كل تلك التكاليف بنفسه.

ورأت اللجنة أن تفرق طلاب الشيخ المتفوقين والمؤهلين في القرى لفتح مدارس جديدة، فزادت وتيرة انتشار المدارس، وتوسعت النهضة الإصلاحية، وحين حصل جفاف وانحباس للمطر اضطر الناس للرحيل بحثاً عن المطر، فكانت فرصة لوصول طلاب الشيخ مع أهليهم لمناطق لم تصلها الدعوة، فأنشؤوا مدارس ومساجد، وعلّموا ونصحوا الناس، وحاربو الكهان والمشعوذين والسحرة.

وما أجمل أن يكون للمصلح أعوان على الحق ينصرونه ويدافعون عنه، فها هو شيخه محمد بن إبراهيم يكتب له: "وما ذكرتم من مسألة المشوشين والمغرضين؛ فإنا إن شاء الله نكون في نحور هؤلاء، ونبذل كل ما نستطيع في تشجيع الإصلاح، ولكن

الأمور لا يمكن أخذها إلا بالتدريج".

توسع الدعوة:

وتوسعت مسيرة الدعوة ووصلت منطقة عسير وما حولها، ولم تقتصر على مدارس الطلاب بل افتتح الشيخ في سنة (١٣٦٨هـ) عدة مدارس للطالبات، وذلك بعد أن كانت بعض نساء الطلبة تدرس في بيتها إذا تأهلت لذلك على يد زوجها تلميذ الشيخ.

وقد أصبح القرعاوي معتمداً لمدارس وزارة المعارف بتعيين ملكي بعد أن تابعت الدولة نشاطه بالزيارات المتكررة، لكنه استقال بعد ستة شهور ليتفرغ لمدارسه.

وقدّم القرعاوي طلباً للملك أن يكون هناك في الجنوب ما هو فوق المدارس فكان افتتاح ثاني معهد علمي في المملكة بعد معهد الرياض، وهو المعهد العلمي بصامطة، والذي أسند القرعاوي إدارته للشيخ حافظ الحكمي، وهو بمثابة كلية للطلبة المتقدمين، وفعلاً صدرت الموافقة الملكية على إنشاء المعهد سنة (١٣٧٤هـ)، وكان له أثر كبير جدّاً على المنطقة وأهلها؛ فقد رفع من مستواهم العلمي، وكذلك من درجتهم الوظيفية في مجتمع يتحول ويتطور بسرعة.

ثم افتتح معهداً في ضمد ومعهداً في بيش، وقبل ذلك في سنة (١٣٧٢هـ) وصلت مدارسه لليمن، حيث قام بعض طلبته بفتح مدارس في قراهم، وفي (١٣٧٦هـ) فتحت المدارس بنجران.

وقد افتتح القرعاوي بعض المدارس في الطائف ومكة وجدة وفي القصيمية، وبعضها مدارس ليلية، وبعضها نسائية.

وقد بلغت ميزانية مدارس الشيخ سنة (١٣٧٩هـ): (٢٢ مليون) ريال، وقدر عدد

الطلاب فيها سنة (١٣٨٦هـ) بحوالي (٧٥ ألف) طالب وطالبة ورجل وامراة، وتجاوز عدد المدرسين والمدرسات (٣٠٠٠)، وذلك في حوالى (٢٨٠٠) مدرسة، بعد أن كان الجنوب ليس فيه إلا (٣) مدارس تتبع الحكومة حين وصلها الشيخ سنة (١٣٥٨هـ)!!

وقد قام الحساد مرة أخرى بالسعي لهدم جهود الشيخ في التعليم والدعوة التي انتشرت بفضل الله @ وبفضل المبادرة الذاتية من الشيخ وطلابه؛ الذين كانوا لا ينتظرون الرواتب والمكافآت من الدولة، بل يعملون ويعلمون ولا ينتظرون مقابلاً.

فسعى بعض الناس للتهوين من شأن مدارس القرعاوي، وأنها لا بد أن تتبع لوزارة المعارف؛ بحجة توحيد التعليم، وهو ما رفضه المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم، الذي اقترح أن تبقى مدارسه تحت إشرافه، لكن خفضوا الدعم له للنصف، لأنه يعلم أن القرعاوي وطلابه محتسبون وليسوا باحثين عن الغنائم، ولكن صدر القرار بضم مدارس القرعاوي لوزارة المعارف سنة (١٣٧٧هـ)، واستمر تنفيذ هذا القرار سنتين.

مرحلة جديدة في الدعوة:

لم تتوقف الدعوة عند القرعاوي بسبب هذا القرار الذي يحارب النجاح والتفوق تحت حجج إدارية! بل نهج الشيخ طريقاً جديداً في الدعوة مما يدل على مرونة الشيخ وذكائه وحسن تدبيره، ويكشف عن عقلية قيادية فذة، فقد تفرغ الشيخ لبناء المساجد وحفر الآبار على نفقته الخاصة، وجعل طلابه يعلّمون في المساجد التي ينشئها، وبذلك تواصلت الدعوة.

الخلاصة: أن جهود الشيخ القرعاوي كانت الرائدة في التعليم والدعوة في جازان وما حولها من مناطق الجنوب، وهي التي أيقظت المنطقة وانتشلت أهلها من براثن الجهل والبدع والمنكرات، وكان سبّاقاً في تعليم المرأة، وتوفير المكتبات العامة، ونشر

الكتب؛ حيث كان يوزع عشرات الآلاف منها مجاناً بدعم من المفتي والدولة.

كما أنه كان رائداً في كفالة طلبة العلم وتوفير السكن الداخلي للغرباء منهم، وفي ذلك كله كان يستفيد من تجاربه وسفراته التجارية والعلمية السابقة، ونتج عن ذلك جيش من الدعاة والعلماء والمعلمين المتفانين بالخدمة والاحتساب نهضوا بالجنوب.

جوانب إصلاحية أخرى للشيخ القرعاوي:

الذين يعرفون القرعاوي ودعوته يعرفون -غالباً- دوره التعليمي والدعوي لأنه الدور الأبرز، لكن القرعاوي له أدوار إصلاحية أخرى في العمران والسياسة، مثل:

١ - بناء السدود: فقد كان من المعتاد نشوب المشاكل والنزاعات بين الناس بسبب قلة المياه والحاجة لسقي المواشي، فجاء الشيخ وجمع رؤساء القبائل لبحث إقامة سد يحفظ مياه السيل، فينتفع الجميع ولا يتنازعون، فنظم عملية بناء السد، وشارك بطلابه في بنائه، وأنفق على ذلك من ماله، وقد ساهم الشيخ في بناء عدد من السدود.

وقد كان رفع للمسؤولين في سنة (١٣٥٧هـ) مقترحات لإنشاء السدود وتغذية الآبار.

٢ - فتح بعض الطرق الرئيسية لبعض المدن أو القرى برغم وعورتها: فحين ذهب الشيخ لمنطقة قبيلة فيفا كانت طريقها وعرة جدّاً حتى أن الشيخ نزل عن حماره وأصبح يدفعه ليتمكن من الصعود في المرتفعات الخطرة!!

فجمع الشيخ رؤساء القبائل وطلب منهم أن يتقاسموا العمل لإزالة الحجارة والعوارض من الطريق، وساهم معهم بذلك حتى تيسر لهم الصعود والهبوط.

وكتب القرعاوي للملك سعود بطلب المسارعة بتسهيل طريق أبها من جهة جازان؛ وخاصة عقبة ضلع، سنة (١٣٧٣هـ).

٣- عمل القرعاوي على إبطال عادة الختان السيئة المنتشرة هناك، وهي قيامهم بسلخ جلد العانة والذكر كاملاً على مرأى من الناس، بعد أن يصبح للولد حوالي عشر سنوات، ويجب عليه أن لا يبكي أو يصيح! فطلب الشيخ من الملك إرسال لجان طبية لتختن الأطفال وهم صغار بطريقة صحية، مما أبطل هذه العادة.

٤- اقترح القرعاوي في رسالة موجهة للملك سعود تبني إنشاء ألف مدينة، تكون ذات تخطيط محكم تتقاسم فيها الدولة والناس المسؤوليات، وفصل في اقتراحه نظم الصناعة والزراعة والتعليم والصحة.

ومن هذا القبيل: أن الشيخ القرعاوي قدم من قبل مخططاً شاملاً لمدينة الرياض لمكتب الملك عبد العزيز بعد عودته من الهند، مما يدل على مبادرته وإقدامه ونصحه، وقد استغرب المسؤولون كيف لطالب علم شرعي تقديم هذه المخططات وهو ليس مهندساً، فبحثوا عنه وكان قد سافر للجنوب، فسألوا الشيخ محمد بن إبراهيم عنه، فقال لهم: لن تخسروا شيئاً إذا نفذتم مخططه، فهو قد سافر للهند ورأى التطور والمدنية فأحب ذلك لبلده.

وفعلاً طبق مخططه، وأنشئ حي الملز بالرياض طبقاً لمخططه، وهو يعد من أفضل أحياء العاصمة.

٥- قدم القرعاوي مقترحات لإنشاء جامعة حديثة للعلوم الشرعية والدنيوية، وقدم تفصيلاً شاملاً لإنشاء كلية طب بأقل التكاليف وأسرع النتائج.

٦- قدم العديد من الاقتراحات لتطوير عمارة المسجد الحرام.

٧- وأرسل رسائل متعددة لولي العهد الأمير سعود حول القضية الفلسطينية، وضرورة دعم أهل فلسطين، وإرجاعهم لبلدهم وعلى حدود فلسطين، وتعليمهم ودعمهم حتى ينتصروا على عدوهم.

٨- اقترح على شيخه محمد بن إبراهيم أن يقوم بتنظيم شؤون الدعوة، ويجعلها مركزية تحت يده، ويكون لها ضوابط دعوية ومالية وإدارية موحدة، فإن هذا يقوي الدعوة ويدفع بها للأمام.

٩- راسل القرعاوي زميله في الطلب على المفتي الشيخ ابن باز سنة (١٣٧٩هـ) بخصوص نية الملك إقامة معهد شرعي في مكة للجاليات، فاقترح عليه الاهتمام بأمره وسرعة إنشائه وإقامة شبيه له في المدينة والطائف وجدة.

١٠- راسل الشيخ القرعاوي زميله الشيخ ابن باز سنة (١٣٨١هـ) ليحثه على التواصل مع أهل الكويت؛ وهم جيران المملكة، ليجعلوا دستورهم يقوم على تحكيم الشريعة الإسلامية، وذلك أن الكويت كانت تبحث وضع دستور جديد لها.

وفاة الشيخ:

بقي الشيخ في الجنوب يرعى مساجده حتى عام (١٣٨٦هـ)، حيث كفّ بصره وضعفت قوته، فعاد بأهله للرياض وتفرغ لأعمال البر والطاعة، حتى أقعده المرض سنة (١٣٨٩هـ).

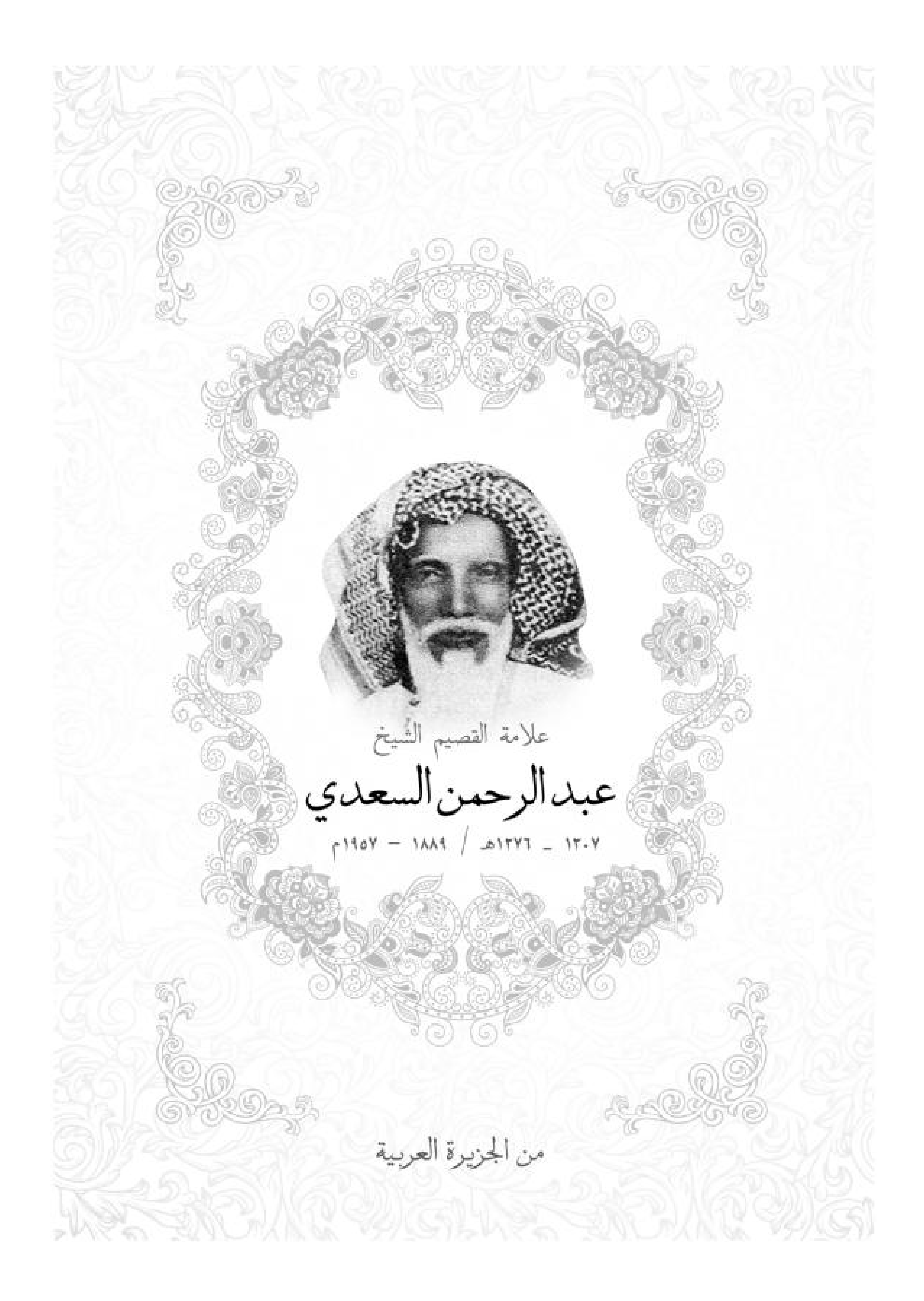
فقد أصيب الشيخ بالشلل النصفي، ونقل لمستشفى الشميسي بالرياض، فزاره العلماء والفضلاء، ثم توفي في (٨ جمادى الأولى ١٣٨٩هـ)، وكان قد أوصى Z بثلث ماله لأعمال الخير، وصلي عليه بالمسجد الكبير، ودفن في مقبرة العود، وأمر الملك

فيصل بالصلاة عليه صلاة الغائب في الحرمين الشريفين.

وهكذا طويت صفحة الشيخ القرعاوي والتي هي بحق تجربة غنية، لو وجدت من يدعمها ويرعاها لكانت لا تقل عمّا نعرفه اليوم من جماعات وحركات إسلامية؛ كالإخوان المسلمين، أو جماعة الدعوة والتبليغ، أو تيار فتح الله كولن في تركيا، لما كانت تتميز به من سلامة المنهج والقوة العلمية.

مراجع للتوسع:

o «المسيرة الدعوية لداعية جنوب الجزيرة الإمام عبد الله بن محمد القرعاوي»، بندر بن فهد الأيداء، دار المنهاج، الرياض، ط٢، (١٤٣٣هـ).


علامة القصيم الشيخ
عبد الرحمن السعدي
١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ / ١٨٨٩ - ١٩٥٧م
من الجزيرة العربية



١٤- علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدي

(١٣٠٧-١٣٧٦هـ/١٨٨٩-١٩٥٧م)

تمهيد

اشتهر الشيخ السعدي خارج السعودية في السنوات الأخيرة بسبب انتشار تفسيره القيم «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن الكريم» بين الناس، لكن سيرة الشيخ السعدي ودوره الإصلاحي لم يتح لهما للآن أن يصلا للناس بشكل صحيح ليتخذ منهما قدوة ومثالاً معاصراً؛ برغم تعدد الرسائل الجامعية حول منهجه التربوي والدعوي والعلمي.

ولعل مما يؤكد وجود الفجوة بين حقيقة الشيخ وبين ما يعرفه الناس وكثير من طلبة العلم عن سيرة الشيخ: مطالعة ما كتبه الشيخ العلامة بكر أبو زيد في مقدمته لإحدى طبعات «تفسير السعدي» حيث قال: "في عام (١٣٨٠هـ) تقريباً سمعت من بعض الصالحين الوصية بـ «تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي»... حتى إذا جاء عام (١٤١٨هـ) كان لي شرف المراجعة الأخيرة لكتاب: «التفسير الميسر»... فوجدت أن هذا التفسير يعتمد كثيراً «تفسير ابن جرير الطبري» المتوفى سنة (٣١٠هـ)، وتفسير «ابن سعدي» -رحمه الله تعالى-، فحصل لي من تفسير ابن سعدي نوع ارتواء، وصار لي به فضل اعتناء.

... فنرجو أن يكون لهذا العلامة المفسر نصيب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية

-رحمه الله تعالى-: "وأما (العلم اللدني) فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح لغيرهم..."، وأحسب أن الشيخ ابن سعدي ممن فيه هذا الأمر، فتفجرت أنهار المعاني بين يديه وذلك من فضل الله عليه".

فالشيخ بكر لم يدرك حقيقة قيمة الشيخ السعدي إلا بعد (٣٨) سنة من سماعه به وهو في بلده!!

مولده ونشأته:

ولد الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) في بلدة عنيزة من بلدات منطقة القصيم، بالسعودية.

وقد ولد في مرحلة مضطربة، غلبت عليها الصراعات بين القبائل والعشائر حتى استتبت الأمور لعبد العزيز بن سعود في عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٧م)، ودخلت بريدة وعنيزة في حكمه، وكان عمر السعدي عندها (١٩) عاماً تقريباً، ولذلك فإن علاقات السعدي بالملك وعلماء الرياض بقيت ضعيفة.

وقد نشأ السعدي يتيماً؛ حيث توفيت أمه وله أربع سنوات، ثم توفي والده وله سبع سنوات، لكن كفلته زوجة أبيه وأحسنت إليه جدّاً، ولما شبّ صار في بيت أخيه الأكبر غير الشقيق حمد بن ناصر السعدي؛ الذي رعاه وكفله ليتفرغ لطلب العلم.

وكانت أمه لمّا حملت به رأت رؤيا في المنام كأنها تبول في محراب المسجد الجامع، ففزعت لذلك، فقصت رؤياها على زوجها، وكان معروفاً بالعلم والفضل وعنده طرف من علم التعبير، فقال لها: "إن صدقت رؤياك فستلدين غلاماً يكون إماماً في محراب المسجد الجامع".

وقد كان والده وأخوه الأكبر حمد من أهل العلم والفضل، فنشأ نشأة صالحة، وحفظ القرآن الكريم وعمره إحدى عشرة سنة، وأخذ العلم من علماء البلدة، ومن قدم إليها من العلماء.

شيوخه واجتهاده:

اقتصر السعدي في طلب العلم على علماء عنيزة ومن جاء إليها، فدرس على الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، والشيخ عبد بن عائض، والشيخ إبراهيم بن جاسر، والشيخ صعب التويجري، والشيخ علي بن محمد السناني، والشيخ صالح بن عثمان القاضي.

ومما تميز به هؤلاء العلماء أنهم كانوا سافروا لطلب العلم خارج عنيزة، للحجاز والشام والعراق ومصر والهند، وغيرها من البلاد، والتقوا بالكثير من علماء الإصلاح؛ كالشيخ جمال الدين القاسمي والعلامة حسن صديق حسن خان والشيخ محمود شكري الألوسي، فاستفادوا علوماً ومعارف كثيرة وجديدة، وتخصص كل منهم بفن من الفنون، فتلقاها السعدي عنهم، فأفادته ووسعت مداركه وجعلته -رغم عدم مبارحته عنيزة- مدركاً لأشياء ومعارف لا يعرفها من حوله حتى من العلماء!!

ومما عزز هذه السعة في المعرفة: احتكاكه بمن جاء إلى عنيزة من خارجها؛ كالعلامة الموريتاني الشيخ محمد الشنقيطي -والذي لم تنقطع صلته به حتى بعد رحيله، فقد بقي بينهما رسائل عبر المتنقلين بين عنيزة والزبير من طلاب الطرفين-، والشنقيطي كان له دور إصلاحي كبير في منطقة الزبير والكويت، وله مشاركة اجتماعية وسياسية مؤثرة، فلما سكن عنيزة لمدة (٤) سنوات درس عليه السعدي علوم اللغة، وتأثر به في مطالعة كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم، واكتسب منه طريقته في التدريس؛

والتي تخالف الطريقة النجدية التقليدية القائمة على التلقين.

كما أنه استفاد من المدرسين الأزهريين الذين جاؤوا عنيزة أو احتك بهم في مواسم الحج؛ كالشيخ حامد الفقي وعبد الرزاق عفيفي وعبد الرزاق حمزة وغيرهم.

وكان لموقع عنيزة على طريق التجارة للعراق والهند ومصر دور في اكتساب السعدي بعض المعارف عن العالم؛ من خلال أقربائه التجار والمسافرين.

هذا كله جعل من شخصية السعدي شخصية علمية متفتحة، تعشق الجد والاجتهاد، ولذلك سرعان ما تفوق السعدي على غيره من أقرانه، فأصبح مدرساً لهم وعمره (٢٣) عاماً، ومن ثم "خرج عن مألوف بلده من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط، إلى الاطلاع على كتب التفسير والحديث والتوحيد، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، حيث فتقت ذهنه ووسعت مداركه، فخرج من طور التقليد إلى طور الاجتهاد المقيد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل..." ؛ كما يصف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام -شيخه السعدي-.

ولم يكن هذا التطور لرتبة الاجتهاد دفعة واحدة بل مر بعدة مراحل حتى بلغ درجة التحرر من المذهب الحنبلي والتقيد بالدليل على طريقة شيخ الإسلام بعد سن الأربعين، كما يتضح ذلك من تواريخ كتبه التي أصبح يقرر فيها مقتضى الدليل، وفي هذه المرحلة ألف غالب كتبه.

ويمكن أن نفصل الدور الإصلاحي للسعدي في المحاور التالية:

١ - تفرغه للتعليم:

لقد قضى الشيخ السعدي أكثر من (٥٠) سنة في التعليم والتدريس محتسباً لا

يتقاضى على ذلك أجراً، ورفض أكثر من مرة ما عرض عليه من رواتب للتدريس والإمامة والخطابة، وفي آخر حياته قبِل أن يتقاضى راتب الإمامة، ولكن كان يضعه في مصالح المسجد ولا يأخذ منه شيئاً، وكان طيلة هذه السنوات يعتاش من عائد ما ورثه عن والده ووالد زوجته، وما يرسله له ولداه بعدما كبرا وأصبحا يعملان، وكان زاهداً في الدنيا فكان هذا الدخل البسيط يكفيه.

بدأ السعدي التدريس وعمره (٢٣) سنة، وهو يطلب العلم على مشايخه، ومنذ عام (١٣٥٠هـ) أصبح مرجع الفتوى والتدريس ببلده، وبدأ يطور في طريقة التدريس بحسب ما استفاد من أساتذته الذين جابوا البلاد، فكان يجمع الطلاب على دراسة كتاب محدد، ودرّس كتباً جديدة لم يكن من المعتاد تدريسها في نجد، وكان يشاور طلابه في اختيار الكتب التي يدرّسها، ويطرح الأسئلة عليهم، ويعقد بينهم المناظرات، ويقدم لهم الجوائز التشجيعية.

وكان منظماً في وقته، يجلس للتدريس يوميّاً أربعة أوقات: بعد الفجر حتى الشروق، وقبل الظهر حتى الصلاة، وبعد العصر، وبين المغرب والعشاء، وقد واصل الشيخ ابن عثيمين طريقة شيخه السعدي في التدريس، ونجده يقول: "إنني تأثرت به كثيراً في طريقة التدريس، وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني".

وقد كان السعدي يهتم بطلابه وتلاميذه، ويتابع دراستهم وتحصيلهم؛ خاصة إذا توسم فيهم النباهة والجد والاجتهاد، ومن ذلك: أنه طلب من والد الشيخ ابن عثيمين أن يبقيه لطلب العلم عنده ولا يرحل به.

وقد بلغ طلابه أكثر من (١٥٠) طالباً، أصبحوا من العلماء والمفتين والقضاة

والكتاب والمدرسين، في كافة أنحاء المملكة، وامتد أثر بعضهم لخارج السعودية؛ كالشيخ ابن عثيمين، والشيخ البسام، والشيخ عبد الله العقيل، وغيرهم من الفضلاء، وقد كان السعدي قدوة لهم وترك في قلوبهم أثراً كبيراً بحسن خلقه وإخلاصه وسعة علمه وحسن تربيته وتعليمه.

يقول الشيخ البسام في ترجمة شيخه السعدي: "وطلاب الشيخ الذين علمهم في المسجد الذين تولوا التدريس في المدارس والمعاهد التي فتحتها الدولة، فكان الشيخ يكتب بيده شهادة يقول فيها: إن فلاناً درس علوم كذا كذا في كتب كذا كذا، وهو يصلح لتدريس هذه المواد في المستوى الابتدائي أو المتوسط أو الثانوي، وتأخذ الدولة بشهادات الشيخ التي أثبتت التجربة فيما بعد أنها معبرة عن الحقيقة أصدق تعبير".

وتولى السعدي الإشراف على المعهد العلمي بعنيزة، وكان له درس كل ثلاثاء فيه؛ بالإضافة لدروسه في المسجد، كما كان للعامة نصيب كبير من دروسه، فدرسه بعد العصر كان قصيراً وموجهاً لكل المصلين في المسجد، كما كان يتخولهم بالمواسم والمناسبات؛ فضلاً عن خطبة الجمعة.

كما أنه كان يشارك العامة في كثير من جلساتهم، ويستغلها لتعليمهم وإرشادهم.

كما كان يخصص للنساء وقتاً خاصّاً للسؤال والفتوى في داره بحضور زوجته.

وهذا الاهتمام من السعدي بالتعليم ينطلق من رؤية فكرية واضحة لحاجة الأمة للعلم، وأنه الأساس الذي عليه تقوم النهضة، وبداية طريق العزة والكرامة، يقول السعدي: "ومن أعظم الجهاد: سلوك طريق التعلم والتعليم"، ويقول: "الجهاد نوعان: جهاد يقصد به: صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم،

وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس الثاني".

نظرة طلابه له:

وصف الشيخ محمد القاضي شيخه السعدي بقوله: "كان واسع الاطلاع في فنون عديدة، ففي كل فن يخوض فيه تقول: هذا فنه المختص به، وهذه مؤلفاته أكبر شاهد على ما ذكرته".

ويقول الشيخ ابن عثيمين عنه: "إن الرجل قلّ أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه؛ حيث كان يعامل كلّاً من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يلم به من أذى الناس، وكان يحب العذر ممن حصلت منه هفوة، ويوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا".

ويقول الشيخ عبد الله البسام: "لقد كان للشيخ عبد الرحمن السعدي أثر كبير ودور بارز في تخريج أفواج كثيرة من طلبة العلم".

٢ - انشغاله بالتأليف:

برغم أن العلماء في بلده وعصره لم يكونوا يهتمون بالتأليف إلا أنه لما أدمن مطالعة الكتب عرف قيمة التأليف، وأنه فائدته لا تقتصر على بلد أو زمان بل هي فائدة تمتد بعيداً في البلدان وطويلاً في الزمان، يقول السعدي: "فكم من علماء هداة ماتوا من مئات السنين، وكتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم، وذلك فضل الله".

وبفضل الله أن مؤلفات السعدي اليوم يقبل عليها طلبة العلم، وينهلون منها علماً صافياً مباركاً.

ولـذلك رغـم انشـغالاته الكثـيرة إلا أنـه أنجـز مؤلفـات كثـيرة، زادت عـن (٤٠) مؤلفاً، أهمها: تفسيره للقرآن الكريم، وقد تنوعت مواضيع مؤلفاته بين فنـون متعـددة: التفسير والعقيدة والحديث والفقه والأصول واللغة وغيرها، وهي تمتاز باللغـة السـهلة والواضحة، وإيراد الحجج والأدلة النقلية والعقلية، وتنويع طريقـة العـرض بـين السرد والمناظرة والسؤال والجواب، واعتنى بتلخيص بعـض الكتـب الهامـة بجمـع قواعـدها وأصولها، كما أنه اعتنى بالقضايا العصرية والنوازل العامة؛ فكتـب فيهـا، وعـرض رأيـه حولها.

ومـن نظـر في قائمـة كتـب الشـيخ سـيجد منهـا: «الجهـاد في سـبيل الله»، «وجـوب التعاون بـين المسـلمين»، و«موضـوع الجهـاد الـديني»، «الـدلائل القرآنيـة في أن العلـوم النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي»، «الدين الصحيح يحـل جميـع المشـكلات»، «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول المنحرفين»، «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله».

وهو في كتبه هذه لم يكن يتاجر أو ينتظر منها عائداً بل كانت توزع مجاناً على العلماء وطلبة العلم، وكان يساهم معه في طباعتها بعض طلابـه، كـما في مراسـلاته مـع تلميـذه عبد الله العقيل.

٣- إقامة المؤسسات العامة وخدمة الناس:

حـرص الشيخ على إقامة مكتبة عامة في عنيـزة لـتعم الفائـدة، فتشـاور مـع الطلبـة وكتبوا لوزير المالية يطلبون منه الدعم لتوفير المراجع لطبة العلم، فوافق الوزير وأرسل لهم منشورات الحكومة وما وجد في مكتبات مكـة وخـزائن الكتـب، وحـين وصـلت لم تكن الغرفة المتـوفرة تتسـع لكـل ذلـك، وعنـدها كاتـب الشـيخ أهـل عنيـزة في الـداخل

والخارج للتبرع لبناء مكتبة، وفعلاً جاءت التبرعات من المملكة ومن البحرين والعراق والهند، وافتتحت في (١٣٥٩هـ) عند مدخل الجامع الكبير بعنيزة.

ثم أصبحت بناية مستقلة بعد تجديد الجامع، وعين لها الشيخ ناظراً، ووضع له نظاماً يسير عليه، وأصبحت مقر دروس الشيخ لطلابه، ومقر مراجعتهم وبحوثهم، ووضعت لوحة عليها: (آداب التعامل مع كتب المكتبة)، نظمها أحد الطلبة وهو: الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان بقوله:

تأمل شروط الكتب من قبل أخذها ... وحافظ عليها فهو عون بقائها

فأولها رفق بها عند أخذها ... وتقليبها مع ردها في مكانها

وإغلاق دولاب عليها وبابها ... ومنع إخراج لها من خبائها

وصل إله العرش ما هب شرقها ... على المصطفى من أرضها وسمائها

وحين رأي الشيخ عند أحد أبنائه خارطة كبيرة لدول العالم وخطوط سير السفن؛ طلبها منه ووضعها في المكتبة، وفيما بعد أهداه ابنه مجسماً للكرة الأرضية، فكان الشيخ يطالعه زمن الحرب العالمية، ويشرح للناس مسار الحرب، ويفند لهم بعض المخاوف من وصول الحرب إليهم.

كما أن الشيخ قام بحثّ الناس على التبرع لتوسعة وإضافة مقدمة للمسجد الجامع بعنيزة عام (١٣٦٣هـ)، وفي عام (١٣٧٣هـ) حثهم على توسعة المسجد من الخلف.

وكان الشيخ هو كاتب الأنكحة والوصايا وغيرها للناس؛ دون مقابل، وفي أي وقت، وكان هو القاضي بين الناس فعليّاً، لكنه رفض أن يتولاه رسميّاً.

وكان الشيخ يتولى نظارة بعض الأوقاف، فإذا جاء وقت الثمار وزعها من فوره

على الفقراء والمحتاجين، ولم يدخر شيئاً عنده.

لطائف من سيرة السعدي:

¤ لقد كان السعدي رجل عامة يكثر مخالطة الناس لنفعهم، ومن يطالع كتاب ولده وحفيده «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي» يجد مثالاً معاصراً للقدوة في التعامل مع الزوجة والأبناء والأقارب والجيران والمجتمع.

¤ تعرض السعدي لعدد من الوشايات لدى الملك عبد العزيز بدافع الحسد أو الجهالة؛ بسبب رأيه في قوم يأجوج ومأجوج، لكن الملك والعلماء عرفوا حقيقة الأمر وأنه عالم مجتهد، ومع ذلك لم يعاتب من وشي به، ولا أساء له.

¤ كان السعدي متابعاً للصحف والإذاعات، وله مقالات في مجلة «المنار» التي أنشأها العلامة رشيد رضا، ومجلة «المنهل» السعودية، وله مراسلات مع عدد كبير من العلماء والدعاة، بل ذكر بعض الباحثين أن في مكتبة حسن البنا بعض كتب السعدي عليها إهداء بخطه للبنا.

¤ نظر الشيخ إلى المخترعات الحديثة نظرة إيجابية بعكس كثير من أهل عصره، وقامت نظرته على أنها من العلوم التي علمنا إياها الله U وهو خالق هذه المخترعات، وفيها دلالة على قدرته على البعث والنشور، يقول السعدي في فتاويه: "أفليس الذي علم الإنسان ما كان ناقصاً في علمه، ناقصاً في إرادته وقدرته، وعلمه وجميع أحواله، أليس الذي علمه هذه الأمور التي لم تكن تخطر ببال أحد من البشر بقادر على أن يحيي الموتى، وأن يجمع الأولين والآخرين بنفخة واحدة"، وألف لذلك كتاباً عن المخترعات الحديثة.

¤ كان السعدي أول من أدخل مكبرات الصوت للمساجد في نجد، وحين

اعترض عليه بعضهم وكان يلبس النظارة، نزعها عنه وقال له: "ماذا تصنع هذه؟"، فقال له: تقرّب لي البعيد، فقال له: "والمكبر يوصل الصوت للبعيد!".

¤ حين زار السعدي بيروت للعلاج سنة (١٣٧٣هـ) أهداه ابنه محمد كتاباً بعنوان «دع القلق وابدأ الحياة» للمؤلف الأمريكي "ديل كارنيجي"، فقرأ الكتاب كاملاً وأعجب به، وقال عن مؤلفه: "إنه رجل منصف".

وكان له صديق يعالَج في بيروت من مرض نفسي وله سنين ولم يتحسن، فأهداه السعدي كتاب «دع القلق وابدأ الحياة»، وقال له: "أقرأ الكتاب فهو مفيد جدّاً"، وفعلاً تحسنت حالته، وطلب الشيخ من ابنه شراء نسخة ثانية للمكتبة العامة بعنيزة، وكان هذا الكتاب سبب تأليف الشيخ رسالته الماتعة «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

¤ كان الشيخ مدركاً لمخططات الأعداء ومكرهم السياسي والتعليمي، ولذلك حذر من تدريس الأولاد في المدارس العصرية التي أقامها الاستعمار، ولم يكتف بتتبع ذلك بل اقترح عدداً من الوسائل للعلاج والدفاع، يقول السعدي في كتابه المسمى: «وجوب التعاون بين المسلمين»: "وقد علم من قواعد الدين: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد، ولا يخفى أنه لا يتم التحرز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقي لشرورها إلا بالوقوف على مقاصدهم، ودرس أحوالهم وسياساتهم؛ وخصوصاً السياسة الموجهة منهم للمسلمين، فإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع، وعدم الوفاء، واستعباد الأمم الضعيفة بكل وسائل الاستعباد".

وهذا يدل على سعة أفق الشيخ وبصيرته النافذة؛ التي لم يستفد منها الكثيرون لليوم -مع الأسف!-.

¤ كانت خطبته تعالج كل ما يهم المسلمين؛ من أمور دينهم ودنياهم، ويروي أحد المدرسين المصريين في المعهد العلمي بعنيزة أن الشيخ السعدي خطب الجمعة عن العدوان الثلاثي على مصر سنة (١٩٥٦م)، وبيّن للناس حقيقة الموقف الشرعي من هجوم الكفار.

¤ تصدى الشيخ للشبهات الجديدة على مجتمعه من قبل العلمانيين والملاحدة، وألف في ذلك عدة كتب منها: «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول المنحرفين»، و«تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، و«انتصار الحق».

¤ رفض الشيخ إقصاء الشريعة عن حكم بلاد الإسلام؛ فقال في كتابه «الرياض الناضرة»: "أما عقائد هذا الدين وأخلاقه وآدابه ومعاملاته؛ فقد بلغت من الكمال والحسن والنفع والصلاح، الذي لا سبيل إلى الصلاح بغيره...

وكذلك أحكامه السياسية، ونظمه الحكمية والمالية مع أهله ومع غيرهم، فإنها في نهاية الكمال والإحكام، والسير في صلاح البشر كلهم... وليس مستمداً من نظم الخلق وقوانينهم الناقصة الضئيلة.

وبهذا وشبه نعرف غلط من يريد نصر الإسلام بتقريب نظمه إلى النظم التي جرت عليها الحكومات ذات القوانين والنظم المقصورة... وقد ابتلي بهذا كثير من العصريين بنية صالحة، ولكنهم مغرورون مغترون بزخارف المدنية الغربية التي بنيت على تحكيم المادة وفصلها عن الدين، فعادت إلى ضد مقصودها؛ فذهب الدين، ولم تصلح لهم الدنيا!".

وفاته z :

توفي الشيخ السعدي سنة (١٣٧٦هـ) في بيته، وذلك بعد أن أصيب بمرض ضغط الدم، وعمره (٦٩) عاماً.

وصلي عليه في مسجده؛ حيث اجتمع الناس من عنيزة وما حولها من القرى، وسمع أحدهم عجوزاً تقول عن الشيخ: نجم هوى!

قال فيه العلامة محمد حامد الفقي -الذي طبع له بعض كتبه والتقاه بالحج عدة مرات-: "لقد عرفت الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المحقق؛ الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...

عرفت فيه العلم السلفي الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القويمة الكريمة النقية...".

ورثاه الشاعر عبد الله العثيمين فقال:

كتب الفناء على الأنام جميعهم ... سيان فيها فاجر ومطهر
لكن من اتخذ الصلاح شعاره ... تفنى الخليقة وهو حي يذكر
ما مات من نشر الفضيلة والتقى ... وأقام صرحا أسة لا يكسر
ما مات من غمر الأنام بعلمه ... الكتب تشهد والصحافة تخبر
يا ناصر الإسلام ضد خصومه ... لك في الجهاد مواقف لا تحصر
قد كنت للدين الحنيف معضدا ... وبشرعه الهادي القويم تعبر

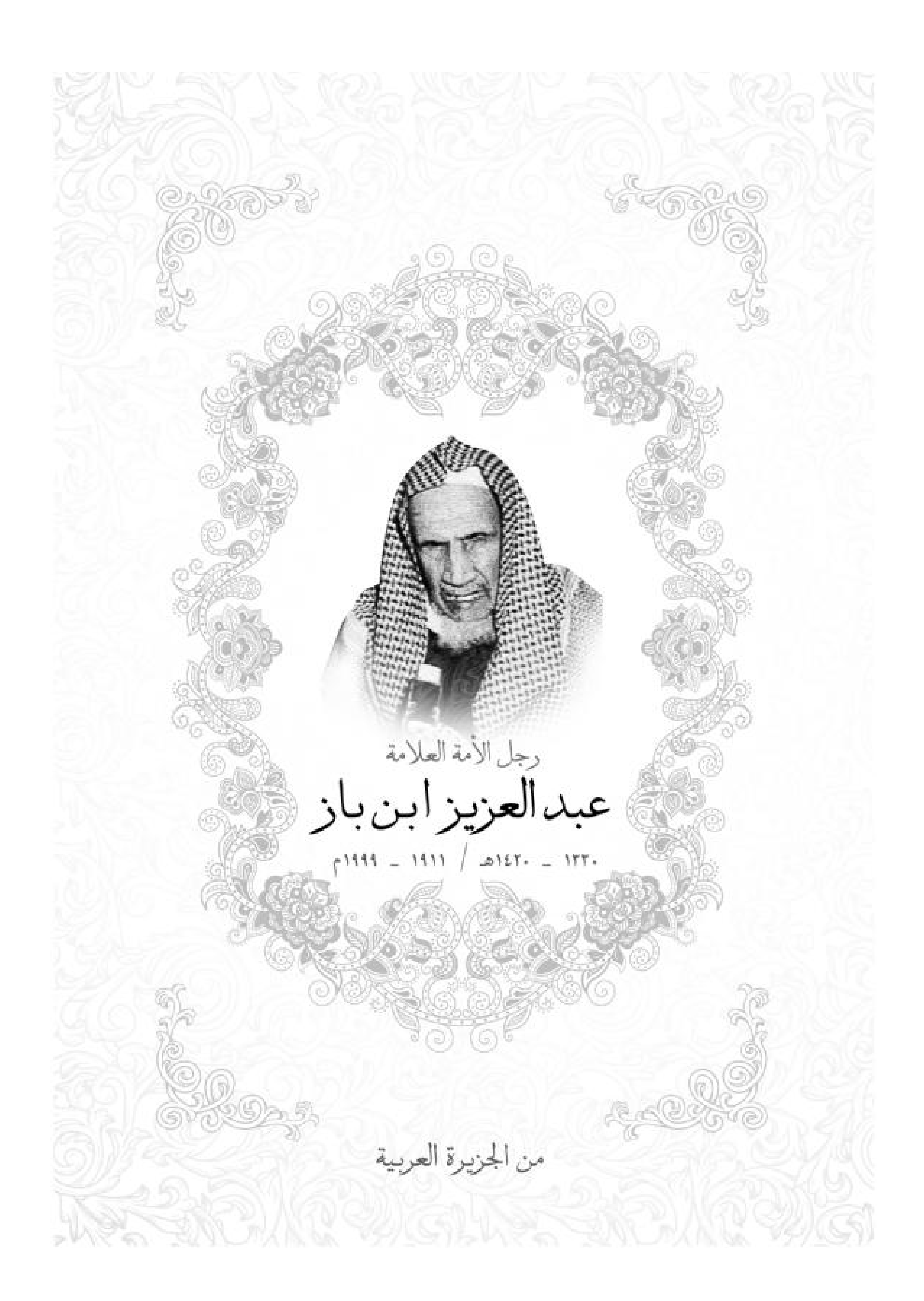
مراجع للتوسع:

o «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي»، محمد السعدي ومساعد السعدي، دار الميمان، الرياض، ط١، (١٤٢٨هـ).

o «الفكر التربوي عند الشيخ السعدي»، د. عبد العزيز الرشودي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، (٢٠٠٠).

o «الجهود الدعوية والعلمية للشيخ عبد الرحمن السعدي»، عبد الله الرميان، دار المسلم، الرياض، ط١، (١٩٩٨).

o «الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي»، عبد الله الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، (١٩٩٢).


رجل الأمة العلامة
عبد العزيز ابن باز
١٣٣٠ ـ ١٤٢٠هـ / ١٩١١ ـ ١٩٩٩م
من الجزيرة العربية

١٥- رجل الأمة العلامة عبد العزيز بن باز

(١٣٣٠-١٤٢٠هـ/١٩١١-١٩٩٩م)

تمهيد

لعل كلمة الناس في عصرنا لم تجتمع بالثناء والمدح على رجل كما اجتمعت على العلامة ابن باز! فقد كان له من المحبة والتعظيم والاحترام في قلوب الجميع؛ من العامة والعلماء والأمراء والحكام، الموافق والمخالف، فالكل كان يرى فيه مثال القدوة والنموذج، وكأنه قادم إلينا من عصر الصحابة والتابعين! -رفع الله قدره، وأنزله منازل الصديقين والشهداء-.

وهو لم يصل لهذه المكانة إلا بفضل الله U أولاً، ثم بهمة عالية ومبادرة إيجابية، وانفتاح على الجميع؛ مع صدق في النصيحة لهم، وهو ما سنفصل الحديث فيه لاحقاً.

وقد كان الشيخ ابن باز ضمن أبرز علماء القرن العشرين؛ بحسب استطلاع مجلة «الأهرام العربي» المصرية سنة (١٩٩٩م).

والكثير من شباب السنة اليوم يعظمون الشيخ ابن باز ولكنهم لا يعرفون حقيقة سيرته ودوره وأدواره التي قام بها وكيف صار له هذا القبول بين الناس بفضل الله U.

باز يصيد ولا يصاد	له الذرى فوق الوهاد
باز يجنح في القلوب	سكنت يا باز الفؤاد
باز ولا يدمي الجراح	إذا هوى شيئاً أجاد

مولده وأسرته:

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ولد عام (١٣٣٠هـ) في الرياض لعائلة عريقة في العلم.

فمن علماء العائلة: الشيخ عبد المحسن بن أحمد آل باز، المتوفى سنة (١٩٢٣م)؛ الذي تولى القضاء بالحوطة، ثم الإرشاد في هجرة الأرطاوية، والشيخ مبارك بن عبد المحسن بن باز، والشيخ حسين بن عثمان بن باز، وقد تولوا القضاء في عدد من مناطق المملكة.

وهناك خلاف في أصل عائلة ابن باز، ولم يجزم الشيخ عبد العزيز بشيء مما يتردد من أن أصلهم من المدينة أو اليمن.

نشاته وتعلمه:

نشأ ابن باز يتيماً في كفالة والدته؛ لأن والده توفي وهو صغير، وقد رعته مع أخيه محمد وأخيه غير الشقيق إبراهيم، وشجعته على التعلم؛ فحفظ القرآن الكريم قبل سن البلوغ، ثم طلب علوم الشريعة واللغة على العلماء في الرياض، فدرس على الشيخ محمد ابن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب C ، وعلى الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس.

ودرس على الشيخ سعد بن وقاص البخاري -من علماء مكة المكرمة-، وأخذ عنه علم التجويد في عام (١٣٥٥ هـ)، وبعد ذلك لازم أبرز شيوخه وهو: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، والذي لازمه نحواً من عشر سنوات، وتلقى عنه جميع العلوم الشرعية، وكان يبكي إذا جاءت سيرته.

وفي سن السادسة عشرة عام (١٣٤٦هـ) مرض في عينيه؛ فضعف بصره، وحاول علاجه، وفي عام (١٣٥٠هـ) حين بلغ قريباً من سن العشرين فقد بصره، واختار الله U له أن يأخذ منه حبيبتيه، وعوضه خيراً منهما في الدنيا والآخرة -إن شاء الله-.

ويروى أن إحدى صديقات والدة الشيخ نصحتها بالوضوء وصلاة ركعتين والدعاء لعبد العزيز بأن يرزقه الله علماً ينفعه وينفع المسلمين، ويبدو أن الله U قد استجاب لدعاء والدة الشيخ.

وبقي ابن باز يطلب العلم حتى وفاته؛ من خلال القراءة والبحث، ومن خلال استماعه واستفصاله الدقيق للخبراء في ندوات وجلسات المجامع الفقهية التي كان يشارك فيها أو يرأسها.

بداية مشواره العملي والدعوي:

١ - تولي القضاء بالخرج:

يروي الشيخ ابن باز في إحدى مقابلاته أنه وهو صغير مارس بيع وشراء الملابس والبشوت في الأسواق الشعبية (الحراج) مع أخيه، ولكن الله U اختار للشيخ مساراً آخر، ولعل إصابته بالعمى تكون سبباً لترك البيع والشراء والتفرغ للعلم والنبوغ فيه!

ففي سنة (١٣٥٧هـ) وكان عمره آنذاك (٢٧) عاماً كلفه شيخه محمد بن إبراهيم بولاية القضاء في مدينة الدلم بمحافظة الخرج، فقبِل مكرهاً، ومكث في ذلك (١٤) عاماً حتى سنة (١٣٧١هـ)، وقد ترك خلفه في الدلم ذكريات عطرة وقدوة عملية لطلبة العلم والدعاة.

ولم يقتصر دوره هناك على القضاء الذي طوره ونظمه، ولا على التعليم الذي لم ينقطع عنه، بل كان للشيخ أدوار إصلاحية متعددة أخرى.

كان ابن باز في البداية يجلس في بيته للقضاء والفصل بين الناس، من الضحى حتى صلاة الظهر، وربما جلس أحياناً للقضاء بعد صلاة العصر، ثم اشترى بيتاً وجعله مقرّاً للمحكمة، وجعل فيه حجرة للرجال وحجرة للنساء؛ لها نافذة على مجلسه يسمع منها شكواهن، وحجرة صغيرة خلف مجلسه للكاتب، جعل فيها طاقة ليسمع الكاتب توجيهاته.

وكان Z أول من أنشأ سجلات للأوقاف والتركات في الدلم، وقد أصبح كتبة الشيخ في المحكمة من كبار طلابه.

وكان الشيخ متفانياً في عمله، حريصاً على خدمة الناس ومساعدتهم، ويروي أحد مساعدي الشيخ قصة مؤثرة تكشف لنا أسباب مكانة الشيخ ابن باز في قلوب الناس، ومدى تأثيره على المجتمع، يقول الشيخ سعيد بن عياش الغامدي -رئيس محاكم خميس مشيط-: "كنت كاتباً عند الشيخ عبد العزيز في الدلم، وكان الشيخ دائماً لا يخرج حتى ينتهي آخر مراجع، ويؤخرنا كثيراً، وفي ذات يوم أغلقنا السجلات وهممت بالخروج، فدخل بدوي فقال الشيخ: نجلس نسمع ما يريد، فقلت: يا شيخ الدوام انتهى! قال: نسمع من الرجل، فقلت: الساعة ثلاثة، فقال: نسمع ما يريد، لعله قدم من مكان بعيد.

فغضبت لذلك غضباً شديداً، وضربت الشيخ على رأسه بدفتر السجلات، ثم هربت، وبعد عدة أيام رجعت للشيخ واعتذرت منه؛ فقبل اعتذاري، وكأن شيئاً لم يكن، وطلبت العلم، ودرست حتى دخلت القضاء، وصرت رئيس محكمة خميس مشيط.

وتعلمت من الشيخ أموراً منها: الصبر على المراجعين وتحمل أذاهم، وفي ذات يوم

دخل مراجع بعد نهاية الدوام وقد أغلق الكاتب السجلات، فطلبت منه فتح السجل وسماع ما عند الرجل؛ فغضب الكاتب، وقال: الدوام انتهى، فقلت له: نسمع من الرجل لعله قدم من مكان بعيد.

فما شعرت وإلا والكاتب يضربني على رأسي بدفتر السجلات، فتذكرت موقفي مع الشيخ Z ، وهرب الرجل من المحكمة وبعد أيام أرسلتُ في طلبه وأخبرتُ الرسول أنني قد عفوت عنه".

هكذا كان تأثير الشيخ ابن باز، وهكذا ملك قلوب الناس، فليكن لطلاب الشيخ اليوم به قدوة بالصبر على الناس ومخالطتهم!

وحين جاء الدلم لم يكن بها هيئة حكومية فقام بكل مهمات الدولة، فتولى الشيخ شق الطرق التي تسهل حياة الناس بوصول السيارات لبيوتهم وبساتينهم، وحين جاءت الفيضانات سنة (١٣٦٠هـ) تولى مهمة قيادة الناس وإيجاد الحلول، فأمر أن توجه السيول إلى الآبار التي قرب المساجد والأوقاف، وتهدم الأسوار حولها، وأمر بفتح بعض الشوارع على بعض لتخفيف حدة السيل ومعاقبة من يرفض بالسجن، وقد خرج الشيخ بنفسه يشجع الناس، وأخذ معه دلات القهوة والتمر لينشطهم على العمل.

ولما هاجم الجراد المنطقة سنة (١٣٦٤هـ) خرج الشيخ مع الأهالي لمكافحته وقتله بجريد النخل.

وكان في مواسم الحصاد يخرج للفلاحين يشجعهم على الزراعة، ويوجههم ويساعدهم في إحضار الماكينات لتسهيل الزراعة.

وأيضاً تولى صيانة مساجد المنطقة وترميمها، وبعضها أمر بهدمه وإعادة بنائه.

وكان يهتم بأعضاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشجعهم على الجولات، ويقول لهم: "لوكنت مبصراً لسعيت معكم".

وعندما توفي أمير الدلم سنة (١٣٦٧هـ) بادر الشيخ لجمع وجهاء الأهالي لاختيار أمير لهم؛ كما كان العرف، وفعلاً اتفقوا على أمير، وكتب الشيخ للملك يعلمه باختيار الأهالي، وأقر الملك اختيارهم.

وتولى في الدلم -أيضاً- الإمامة والخطابة والتدريس، فيدرس بعد الفجر أولاً حلقة للصغار، ثم حلقة للمتقدمين إلى وقت الضحى، فيعود للمنزل يرتاح قليلاً، ثم يباشر القضاء إلى صلاة الظهر، وبعد العصر له درس، ثم يخرج لبعض البساتين فتُقرأ عليه الصحف والمجلات والمعاملات حتى قبيل المغرب، وبين العشاءين له درس، وفي هذه الدروس كان يتابع أدق شؤون الطلبة ويرعاهم كأبنائه.

وسعى الشيخ لأن تفتح الدولة عدداً من المدارس النظامية في المنطقة، وتم ذلك سنة (١٣٦٧هـ)، وعهد للشيخ ابن باز أن يرشح لها المدير والمعلمين، وقام الشيخ بحثّ الناس على إلحاق أبنائهم بالمدارس لمحاربة الأمية والجهل ونشر العلم والمعرفة، وتشجيعاً للطلاب خرج الشيخ معهم في رحلة على حسابه الشخصي.

وكان يخرج للسوق يومي الاثنين والخميس؛ حيث يحضر للسوق الحضر والبدو والرجال والنساء، فيجلس يدرسهم ويرشدهم وينصحهم ويحل مشاكلهم.

وهذا الدور الإصلاحي المبكر للشيخ ابن باز جعل من دروسه قبلة لطلبة العلم، فأصبح الطلبة يتوافدون على دروس الشيخ من الدلم وخارج الدلم، ومن جنسيات مختلفة؛ كاليمن ومصر وفلسطين والعراق وغيرها، فسعى الشيخ مبكراً لرعاية طلبته، وكتب لولي العهد آنذاك الأمير سعود بن عبد العزيز بتأمين سكن لهم، وتخصيص

مكافآت مالية شهرية لهم؛ لتشجيعهم على مواصلة الدراسة.

وهو الأمر الذي أصبح سياسة عامة للدولة السعودية لليوم برعاية الطلبة في الجامعات والمعاهد.

وحين تتأمل خطاب الشيخ لولي العهد تجده ينطلق من رؤية إصلاحية عالمية، تدرك واقع المسلمين وأزمتهم الحضارية، يقول ابن باز: "معلومكم ما أصيب به المسلمون من قلة حملة العلم الشرعي وقلة طلابه الحقيقيين لأسباب كثيرة، منها: ضعف الداعي القلبي الإيماني إلى طلبه، ومنها: قلة المساعدة المادية لمن قد يوجد فيه رغبة في الطلب في غالب البلدان التي يوجد فيها معلم، ومنها: قلة المشجع والمُرغب في الطلب باللسان والمال".

وهذا الخطاب كتبه الشيخ في سنة (١٣٦٨هـ)، أي: قبل (٦٥) سنة!!

٢ - العودة للرياض والتدريس بالمعهد العلمي:

في عام (١٣٧٢هـ) أمره الشيخ ابن إبراهيم بالعودة للرياض والتدريس بالمعهد العلمي فيها، ثم بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود سنة (١٣٧٣هـ)، وبقي هناك (٩) سنوات حتى سنة (١٣٨٠هـ).

وفي هذه المرحلة درَس على يد الشيخ الكثيرُ من علماء السعودية اليوم، حيث دّرس العقيدة والحديث والفقه والنحو، وكان متميزاً في طريقة شرحه السهلة والغنية، ومتميزاً بسعة علمه وقوة ذاكرته، وكان قريباً من طلبته يرعاهم ويوجههم، ومن هنا تجد عظم محبة الشيخ في قلوب طلابه وتلاميذه، واستشعارهم لأبوته لهم.

وبعد دوام الكلية كانت له دروس ولقاءات، سجل بعض مواقفها الشيخ عمر الأشقر في كتابه «حياتي» -رحم الله الجميع-.

ومن قصص حسن تعامله مع طلبته حتى المشاكسين وأثر ذلك عليهم: ما رواه أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري؛ فقال: "لما التحقتُ بالمعهد العالي للقضاء كنت ذا هيئة غير هيئة الطلبة... وكان أهل الخير يوصلون ذلك لسماحته، فلا يرد عليهم بغير الدعاء لي بالهداية.

وفي الأسئلة التحريرية النهائية كانت أجوبتي مخزية في مادة الحديث التي يُدرسها، وكنت أغطي جهلي بالتقعر والتفلسف، ونجحت في المادة نجاحاً على غير ما ينبغي..

وعلم من أهل الخير أن تلك أجوبتي، فاشتد حزنه وتقريعه، ولم يرتح إلي إلا منذ عام (١٤٠٦هـ) تقريباً عندما أقلعت عن خزعبلات الفن، وأذن لي بخطاب رسمي بتدريس «صحيح البخاري» في مسجد سلطانة، وإنما أراد Z جري إلى الحديث وعلومه".

والشيخ معروف بالكرم وحبه للبذل، وقد يظن البعض أن هذا حصل بعد أن وسع الله عليه وتولى المناصب، ولكن معاصريه يقولون: إن هذا شيء قديم في الشيخ مذ كان طالباً، فكان يدعو زملاءه للأكل معه.

ويروي أحد علماء أرتيريا موقفا له مع الشيخ؛ فيقول: وصلتُ الرياض الثالثة فجراً في ليلة شاتية ولم يكن عندي مال لأنزل في فندق، فترددت أن أذهب لبيت ابن باز، ثم ذهبت ووقفت عند منزله الطيني ولمست الباب، فسمعني أحد الضيوف النائمين ففتح لي، فسلمت همساً حتى لا أزعج أحداً، فما هي إلا لحظة حتى أقبل الشيخ بنفسه نازلاً من الدرج معه طعام، تقوده امرأته من خلفه، فسلم وقال: أظنك لم تأكل هذه الليلة، فوالله ما طرق النوم عيني من البكاء على هذا الموقف النبيل".

وإبان رئاسته للجامعة الإسلامية كان راتبه خمسة آلاف ريال، وكان يصرف جلّه على الفقراء وذوي الحاجات قبل نهاية الشهر، بل كان الشيخ يستدين راتبه مقدماً لعدة أشهر.

ومرة كانت زوجة الشيخ مسافرة فطلب الشيخ من مساعده شراء طعام لضيوف عنده، فأخبره بعدم وجود مال عند الشيخ، فقال: "اقترض من أحد المطاعم القريبة، ثم نسدد له"، فقال له: كل المطاعم القريبة اقترضنا منها! فقال: "اذهب؛ والله ييسر لك"، فذهب ويسر الله لهم طعاماً تلك الليلة.

وحاول الملك فيصل مساعدة الشيخ على سداد ديونه لأنها من جراء صدقاته ومساعدة الآخرين، فأمر وزير المالية أن يرسل للشيخ شيكاً قدره مائة ألف ريال، لكن الشيخ رفض بشدة قبول المبلغ إلا على شرط أن يكون ديناً عليه، يخصم من راتبه بمعدل ألفي ريال شهريّاً، فأرسل الوزير للملك فقبل بذلك، فأخذ الشيخ المبلغ.

٣- الانتقال للمدينة المنورة:

في سنة (١٣٨١هـ) افتتحت الجامعة الإسلامية وعُين الشيخ ابن باز نائباً لرئيس الجامعة الشيخ محمد بن إبراهيم، وبقي في هذا المنصب حتى عام (١٣٩٠هـ)؛ حيث تولى رئاسة الجامعة وبقي حتى عام (١٣٩٥هـ).

وتعد هذه الفترة من أخصب فترات حياة الشيخ لأنها نشرت علمه وفضله في العالم كله؛ من خلال الطلبة الذين تعلموا على يديه من مختلف أنحاء العالم، ومن خلال المدرسين المتميزين والمتنوعين الذين استدعتهم الجامعة، ومن خلال ضيوف المدينة المنورة من وجهاء العالم الإسلامي وأعلامه.

ومع عنايته بالطلبة في دروسه بالجامعة وخارج الجامعة إلا أنه كان -أيضاً- يتفقد أداء المدرسين، فيزور الفصول ويستمع لتدريس المعلمين ويوجههم، ويتفقد أحوالهم ويساعدهم، ويحثهم على بذل المزيد من الجهد في التعليم والتربية، وكان يطلب من المدرسين تقديم الاقتراحات لتطوير الجامعة وتحسين أدائها، وكان يتابع بنفسه المحاضرات العامة الأسبوعية التي تعقد بالجامعة للمدرسين بها أو لبعض الضيوف.

وكان يهتم بأوائل الطلبة فيجعلهم دعاة متفرغين في بلدانهم، وحرص على توفير ميزانية كبيرة لنشر الكتب والمراجع بين الطلبة، وكان الشيخ يرعى نشاطات الطلبة الدعوية الأسبوعية في التجول للدعوة على مساجد المدينة المنورة، ويشارك معهم في الرحلة الشهرية للمدن بين المدينة ومكة؛ حيث ينصب مخيم كبير تقام فيه الدروس والمحاضرات، ويشارك في هذه الرحلات كثير من طلبة الجامعة وموظفيها وأساتذة الجامعة؛ كالشيخ الألباني والشيخ عطية سالم.

وقد كان هذا المخيم تدريباً عمليّاً للطلبة للخطابة والتدريس والوعظ بإشراف المشايخ؛ وخاصة ابن باز الذي كان يوجه الطلبة ويصحح لهم أسلوب ومضمون الدعوة والعلم والموعظة، كما ذكر ذلك الشيخان الأشقر وعبد الرحمن عبد الخالق.

وكانت للشيخ دروس غير منتظمة في المسجد النبوي في «صحيحي البخاري ومسلم»، وكان يدرس في مسجد الجامعة، وكذلك في بيته، ولكن أعظم مجالسه تلك التي كانت ندوات علمية يشارك فيها ابن باز والألباني والشنقيطي، فقد كانت مجالس نادرة.

ويعلق الشيخ الأشقر فيقول: "وقد حضرتُ بعض المجالس التي جمعت المشايخ

الثلاثة، ودار فيها حوار حول بعض المسائل العلمية أو الكونية، فكنتَ ترى من كل واحد من العلم والاستدلال ما يبهر العقول ويطرب النفوس، وكم تمنيت أن تكون تلك اللقاءات سجلت أو دونت!".

ويقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق عن هذه الندوات: "وكانت هناك جلسة في دار الحديث لهؤلاء المشايخ للنقاش والمناظرة تستمر من بعد صلاة العشاء إلى منتصف الليل أحياناً، وكان يأتي كثير من طلاب العلم في هذه الجلسات،...

وكان النقاش علميّاً بين المشايخ بأدلته، وأحياناً نحتاج لإنزال الكتب عن الرفوف والرجوع إليها، فكانت هذه المناظرات والمناقشات حلقات علمية بالمعنى الكامل لحلقات العلم". إ. هـ

وهذه اللقاءات كشفت عن علو كعب الشيخ ابن باز في علم الحديث، وهذا أمر شهد له حتى الشيخ الألباني، فيروي الشيخ محمد لقمان السلفي -مرافق الشيخ- أن ابن باز حضر محاضرة للشيخ الألباني ثم علق عليها وأبدى ملاحظات علمية دقيقة في علوم الحديث سنداً ومتناً، وبعدها شكره الشيخ الألباني، واعترف له بغزارة العلم.

وفي حادثة أخرى كان الشيخ الألباني يقرأ حديثاً بحضور ابن باز، فذكر أحد شيوخ الراوي الذي يقرأ له، فصوبه الشيخ ابن باز مِن حفظه، ولما سئل عن ذلك، قال: "هذا الذي قرأه الشيخ ناصر خطأ، وفلان الذي ذكره ليس من شيوخ ذلك الراوي".

وكان نتاج هذا كله أن أصبح للشيخ ابن باز واخوانه من العلماء السلفيين سفراء في كل العالم، ينشرون علمه وفضله ومنهجه السلفي الرائق، والذين كانوا ركائز أساسية للصحوة السلفية التي نعيشها اليوم.

ولـذلك كـان وقـع خـبر انتقـال الشـيخ للريـاض كالصـاعقة عـلى نفـوس الطلبـة والمعلمين، وقد وصف الشيخ محمد المجذوب اجتماع الناس على الشيخ لوداعه بوصف مؤثر، أكتفي منه ببيتين قالهما في هذه المناسبة:

بكينا وفاء لامرئ قلّ أن يرى ... له في الدعاة العاملين نظير

فخلوا ملامي إن ألح بي البكا ... فإن فراق الصالحين عسير

٤ - العودة للرياض ورئاسة إدارة البحوث العلمية ثم منصب المفتي العام وهيئة كبار العلماء:

عاد الشيخ للرياض سنة (١٣٩٥هـ) وتولى رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد، وفي سنة (١٤١٤هـ) عين مفتياً عامّاً للمملكة مع رئاسته لهيئة كبار العلماء، وإدارة البحوث، وبقي في منصبه حتى وفاته سنة (١٤٢٠هـ).

ومع تميز الشيخ العلمي إلا أن الجميع يشهد له -أيضاً- بأنه كان إداريّاً ناجحاً، يتابع أدق التفاصيل، ولا تتراكم عنده الملفات بل الإنجاز هو صفته، وكان موفقاً في إدارة وقته واستغلاله على أكبر قدر ممكن، فقد كان يستغل حتى ركوبه في السيارة لقراءة بعض المعاملات أو كتب العلم، بل حتى مشيه للمسجد أو المكتب أو حتى للوضوء كان يستغله في إنجاز شيء نافع ومطلوب!

وبرغم كل هذه المناصب إلا أن الشيخ بقي محافظاً على طلبه للعلم وتدريسه له، فقد كان له دروس يومية وأسبوعية مستمرة، بخلاف الندوات والمؤتمرات والمحاضرات.

وكان برنامجه يبدأ قبل صلاة الفجر، وينتهي بعد العشاء على النحو التالي: يبدأ

برنامجه بالتهجد قبل صلاة الفجر، وغالباً ما يكون عنده درس بعد الفجر إلى طلوع الشمس، ثم يعود للبيت فيفطر وربما ارتاح قليلاً؛ ثم يذهب إلى مكتبه من التاسعة حتى الثانية والنصف، فيعود للبيت للغداء مع ضيوفه وهذه عادته من عشرات السنين، وبعد صلاة العصر ربما ألقى كلمة وأحياناً يستريح قليلاً، وبعد المغرب تُعرض عليه المعاملات ويستقبل الاتصالات والزوار، ويُقرأ عليه بعض الكتب العلمية، إلى ما بعد العشاء، ولا يخلد للنوم إلا قرابة الثانية عشرة.

وكان الشيخ يحب مخالطة المساكين، ولذلك كان إذا طُلب منه إبعاد المساكين عنه في الغداء وتخصيص مكان للشيخ وكبار الضيوف للغداء، وللمساكين من العمال المغتربين والعامة مكان آخر؛ يغضب، ويقول: "مسكين مسكين صاحب هذا الرأي! هذا لم يتلذذ بالجلوس مع المساكين والأكل مع الفقراء، أنا سأستمر على هذا، وليس عندي خصوصيات، والذي يستطيع أن يجلس معي أنا وهؤلاء الفقراء والمساكين يجلس، والذي لا يعجبه وتأبى نفسه فليس بمجبور على ذلك".

وفي مرة من المرات على الغداء وكان عنده أحد العلماء سأل الشيخُ عن أحد الخدم عنده: "هل جاء للغداء؟"، فقيل له: لم يأت بعد، فأخذ الشيخ يناديه حتى جاء، فسأل الضيف: هذا ولد الشيخ؟ فقيل له: هذا الخادم الذي يغسل الأطباق، فبكى من تواضع الشيخ وزهده.

وقد جاء أستاذ في العلوم السياسية من جامعة كوينز بكندا -وهو مسلم من أصل باكستاني- للسعودية لدراسة النهضة الإسلامية، وطلب زيارة الشيخ ابن باز، وحين سئل عن انطباعاته عن زيارته قال: "السياسة في جذورها وفروعها وأركانها كانت موجودة في مكتب الشيخ، فصوت رنين الهواتف العديدة لا ينقطع ما دام الشيخ

موجوداً، والمتصلون من العامة والمسؤولون؛ رجالاً ونساءً، من الداخل والخارج.

وأن في هذا دليلاً على قوة الإسلام وتمتعه بقوة اجتماعية قادرة على اختراق قاعدة المجتمع بالكامل، وأن الناس كانت تنتظر التوجيه من الشيخ ليس في الدين فحسب بل في كل معاملاتهم وعلاقاتهم".

وهذه شهادة من عالم في السياسة والاجتماع عن حقيقة الدور الذي يجب أن يقوم به العلماء، وهو ما وفق الله U ابن باز له.

وقد كان ابن باز مع كل هذه الإنشغالات عضواً ورئيساً فاعلاً لعدد من المؤسسات الدعوية مثل:

رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

رئيس المجمع الفقهي الإسلامي بمكة.

عضو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

عضو الهيئة العليا للدعوة الإسلامية.

عضو المجلس الاستشاري للندوة العالمية للشباب الإسلامي.

عضو الصندوق الدائم للتنمية الشبابية.

طلاب الشيخ:

لا يمكن إحصاء طلاب الشيخ من داخل المملكة وخارجها لكثرتهم، فمن المملكة:

الشيخ محمد بن عثيمين، والشيخ عبد الله بن جبرين، والشيخ عبد العزيز الراجحي، والشيخ عبد العزيز السدحان، والشيخ عبد الله بن قعود، والشيخ سعد بن

تركي الخثلان، والشيخ عبد الله العتيبي، والشيخ عبد العزيز المشعل، والشيخ عبد الله ابن عبد المحسن التركي، والشيخ صالح الأطرم، والشيخ عبد الرحمن البراك، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الشثري، والشيخ عبد العزيز آل سليمان، والشيخ بدر بن ناصر البدر، والشيخ الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، والشيخ عبد الله العبود، والشيخ الدكتور عبد الله الشتوي، والشيخ علي أبا الخيل، والشيخ علي المري.

ومن خارج المملكة:

الشيخ عطية محمد سالم، والشيخ أبو بكر الجزائري، والشيخ محمد أمان الجامي، والشيخ محمد المجذوب، والشيخ محمد لقمان السلفي، والشيخ عدنان العرعور، والشيخ عمر الأشقر، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، والشيخ محمد المغراوي.

وفاته z :

بقي الشيخ إلى يومه الأخير بل ساعاته الأخيرة يعمل على خدمة الناس وقضاء حوائجهم، فبرغم بلوغه سن التسعين ومرضه في أيامه الأخيرة إلا أنه كان حتى في المستشفى يطلب قراءة المعاملات عليه!

بل لما خرج من المستشفى رفض العودة للبيت، وذهب للمكتب، وعاد في وقت الغداء وتغدى مع الضيوف من المساكين والزوار، واستقبل الناس بعد المغرب؛ فشفع لبعض الناس، وأفتى لأحدهم في قضية طلاق، وصدر بيان من اللجنة الدائمة بخصوص قضايا المرأة في (٢٥ محرم ١٤٢٠هـ).

وفي ليلة وفاة الشيخ قام بنفسه قبل الفجر، فتوضأ وصلى، ثم اضطجع، ثم جلس وتبسم، وسألته زوجته: هل تريد شيئاً؟ فلم يجبها، واضطجع مرة أخرى، ولكن كان صوت نفسه في صدره مسموعاً، فنادت ولدها أحمد، فجاء وكلم الشيخ، فلم يرد عليه،

فنقلـه للمستشـفى، لكـن الشـيخ كـان قـد أسـلم الـروح لربـه، فتـوفي في (٢٧ محـرم ١٤٢٠هـ).

وكانت جنازته Z جنازة مهيبة، لعله لم يُر في العصر الحديث مثيلاً لها، وهـذا من المبشرات للشيخ، وقد رؤيت فيه منامات صالحة كثيرة، وصُلي عليه في الحرم المكـي يوم الجمعة (٢٨ محرم).

محطات متفرقة من حياة الشيخ:

² يتميز الشيخ بخصال كثيرة، لكن من أهمها:

١ - حرصه على خدمة المسلمين؛ حتى آخر لحظة في حياته.

٢ - مبادرتـه دومـاً لتقـديم حـل للمشـاكل التـي تعـرض عليـه؛ فيبـادر بالكتابـة للمسؤولين، أو توجيه النصيحة لصاحب الشأن أو البذل والعطاء من ماله.

٣ - انفتاحه على كل المسلمين، وتواصله معهم؛ مع النصح لهم فيما يرى أنهم مخطئون فيه، ومساعدتهم وعونهم والتعاون معهم في جوانب الخير.

² **للشيخ عناية زائدة بقضية تحكيم الشريعة**، فكان يخاطب الرؤساء والملوك دوما في مناسبات عامة وخاصة، ويطلب منهم تحكيم الشريعة، مثل: نصيحته لعموم الحكام والعلماء بتطبيق الشريعة، ورسالته للملك الحسين حين عدل عن إقامة تمثال له في ميدان عام سنة (١٤١٧هـ)، فكتب إليه ابن باز: "بلغني... أن جلالتكم قد منع إقامة تمثال لكم في عمان، فسرني ذلك كثيراً، وشكرت لجلالتكم هذا العمل، ورأيت الكتابة إلى جلالتكم في ذلك شاكراً، وراجياً من جلالتكم إصدار الأمر الكريم بتحكيم الشريعة المطهرة في المملكة الأردنية الهاشمية في جميع الشئون، كما حكم بها جدكم أفضل الخلق محمد ﷺ...".

وكذلك رسالته للرئيس الباكستاني ضياء الحق، يهنيه فيها على قرار تطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان.

- **من قصص بذله في سبيل الله:** أنه كان يستدين لينفق على بعض أوجه الخير ورعاية الفقراء والدعاة، وفي مرة جاء أحد قادة المجاهدين الأفغان لطلب المساعدة في شراء غرض مهم للجهاد، فقام الشيخ ببيع غرض مهم من أغراضه الخاصة، وقدم له المال.

- **كان للشيخ عناية بقضايا المسلمين**؛ كفلسطين، وغزو أفغانستان، والصومال، والأكراد، والبوسنة والهرسك وكوسوفا، وأفريقيا، وهدم المسجد البابري بالهند، والشيشان، وكان يتابع أخبارهم ويدعمهم بالمال والشفاعة وغيرها، وألف كتابه «الجهاد» للدفاع عن قضايا المسلمين وضرورة الجهاد.

- **كان للشيخ عناية بإقامة المؤسسات الدعوية في العالم**؛ وحتى الغرب من وقت مبكر، فهو من سعى لتوفير الدعم لمسجد مركز إسلامي بباريس ومسجد لندن سنة (١٩٨٤م) ، وحين مُنح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية -وهي جائزة مالية ضخمة- قبلها ومنحها لدار الحديث الخيرية بمكة، وقد اعتنى الشيخ بدار الحديث من ناحية المباني والمدرسين والميزانية؛ حتى أصبحت شهادتها تعادل الشهادة الجامعية.

- **كان الشيخ مناصراً دائماً للعلماء**، فما أن يبلغه حاجة واحد منهم أو تعرضه لموقف يحتاج فيه إلى إعانة إلا وكتب للمسؤولين في إعانته ورفع الحرج عنه، فهو قد طلب إيقاظ ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز في منتصف الليل لإيقاف إعدام عدد من المشايخ والدعاة في الصومال، وكتب للملك الحسين بخصوص عدم ترحيل

العلامة الألباني من الأردن، وكتب لأمير الكويت بخصوص قبول عودة الشيخ محمد الأشقر والشيخ عمر الأشقر للكويت بعد تحريرها، وله شفاعات كثيرة في هذا الشأن.

- **كان الشيخ على علاقة ومعرفة بكثير من علماء العصر ورموز الحركة الإسلامية**، مثل: أبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، ومحمد الغزالي، ومحمد متولي الشعراوي، ومحمود الصواف.

- **كانت للشيخ مراسلات كثيرة مع ملوك ورؤساء عصره بخصوص القضايا الإسلامية**: الملك فيصل، ضياء الحق، صدام حسين، معمر القذافي، بو رقيبة، الملك حسين.

- **اهتمام الشيخ بقضايا الإعلام**، فكثيراً ما كتب ونصح وحذر من التجاوزات الإعلامية في المملكة وخارجها، وكان حريصاً على وجود منابر إعلامية شريفة ونزيهة ومحافظة.

- **كان الشيخ يتصدى لأية مخالفة للشريعة**؛ خاصة إذا كانت تسن كقانون ولو خارج المملكة، ولذلك كتب منبهاً على خطأ مشروع قانون الأحوال الشخصية في الإمارات، والذي حاول تحديد سن الزواج بـ (١٨) سنة للزوج و(١٦) سنة للزوجة، وذلك قبل (٣٠) سنة، والأمة لليوم لا تزال تتعرض للضغوط الغربية واليسارية والعلمانية للعبث بقوانين الأحوال الشخصية، مما يدلنا على الوعي المبكر للشيخ تجاه المؤامرات التي تحاك للأمة الإسلامية والأسرة المسلمة؛ والتي هي عماد الأمة.

- **كان الشيخ ابن باز حائط صد متقدماً لكثير من المخططات التغريبية للمجتمع السعودي والأمة بعامة**، فها هو في سنة (١٣٩٩هـ) يحذر من دعوات بعض

المؤسسات الأمريكية للشباب السعودي للسفر لأوروبا وأمريكا والمكسيك في رحلات صيفية، وقد ظهرت خطورة مثل هذه الرحلات على الشباب المسلم بما نراه من ضياع كثير من المبتعثين للدراسة أو الذين يسافرون للسياحة بدون رقيب ولا حسيب!

ومن هذا الدور المبكر للشيخ في حماية المجتمعات الإسلامية من الغزو الفكري والسلوكي: تصدّيه لدعوة العلمانيين للمرأة بالعمل والاختلاط في كل الميادين، بتحريم هذا العمل والاختلاط؛ والذي أصبحت نتائجه المدمرة على الأسرة والمجتمع والشباب والشابات ظاهرة اليوم.

- **كان للشيخ مواقف مشهودة في التصدى لموجة المد القومي والناصري،** فتصدى لها في خطبه ودروسه، وألف كتابه «نقد القومية العربية».

- **كان الشيخ ابن باز مستشاراً لكثير من الدعاة والقادة في الجماعات الإسلامية في ما يواجههم من تحديات،** يقول المستشار عبد الله العقيل عن نصائح ابن باز للدعاة: "أما زياراتي الخاصة له في بيته ومكتبه والاستعانة به في طرق العلاج لما يواجه المسلمين من مشكلات خاصة وعامة في أقطارهم ومع حكامهم للأخذ بالحلول الحكيمة الناجحة في علاج المشكلات؛ فهي أكثر من أن تحصر".

مراجع للتوسع:

- «موسوعة إمام المسلمين في القرن العشرين: سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز ابن عبد الله بن باز»، جمع عبد العزيز أسعد، مؤسسة الريان والمكتبة الإسلامية، ط ١، (٢٠٠٧).

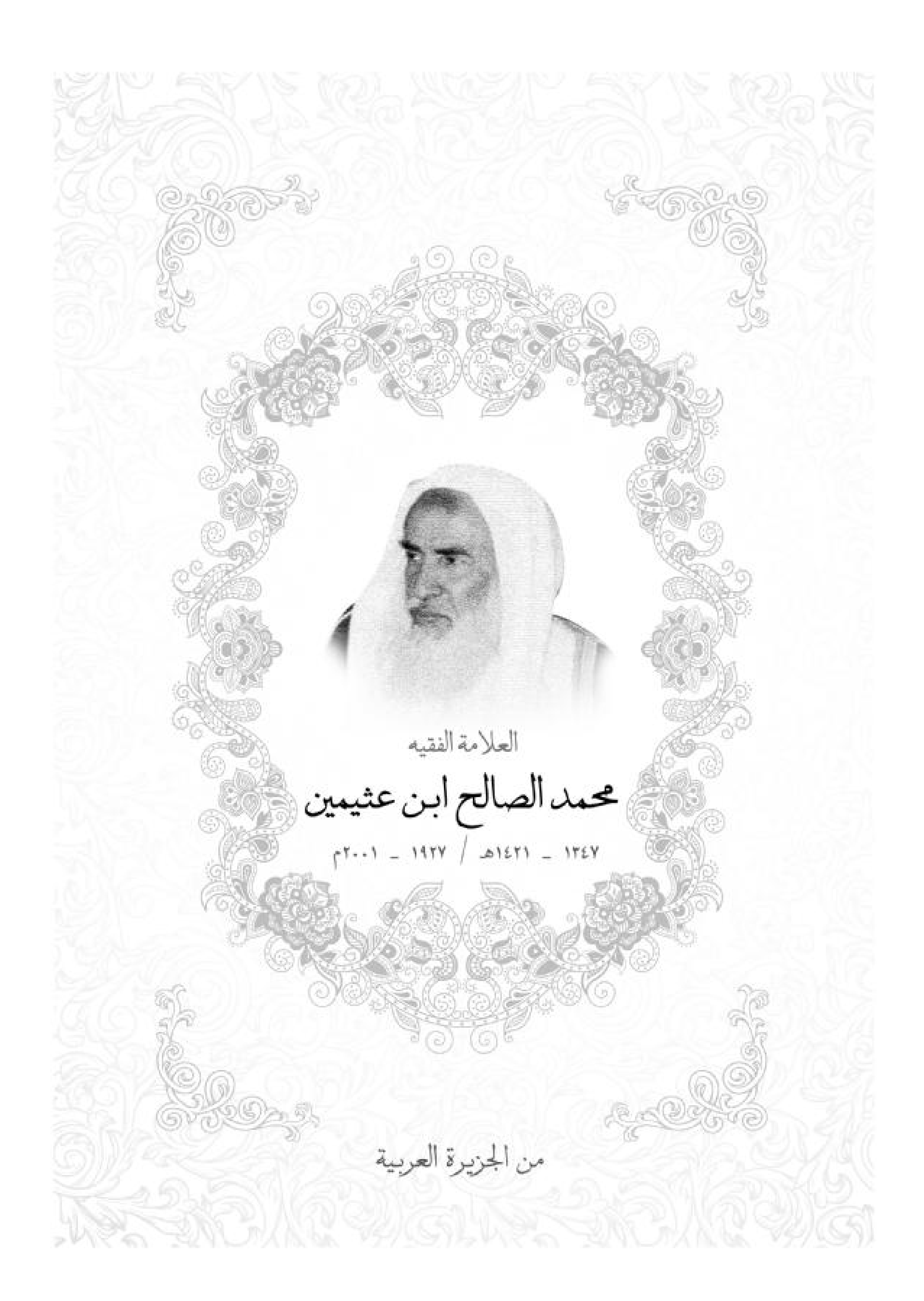
o «الإمام ابن باز - دروس ومواقف وعبر»، عبد العزيز السدحان، الدار الأثرية، مصر، ط ١، (٢٠١١).

o «الشيخ ابن باز»، كتيب مجلة «العربية» رقم ٢٧، (١٩٩٩م).

o «صفحات من حياتي»، د. عمر الأشقر، دار النفائس، عمان، ط ١، (٢٠١٠).

o «من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية»، المستشار عبد الله العقيل، ط ٧، (٢٠٠٨).

o «علماء ومفكرون عرفتهم»، محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض، ط٤، (١٩٩٢م).


العلامة الفقيه
محمد الصالح ابن عثيمين
١٣٤٧ ـ ١٤٢١هـ / ١٩٢٧ ـ ٢٠٠١م
من الجزيرة العربية

١٦- العلامة الفقيه محمد بن صالح العثيمين

(١٣٤٧-١٤٢١هـ/١٩٢٧-٢٠٠١م)

تمهيد

يعدّ العلامة ابن عثيمين Z من أفذاذ العلماء المعاصرين الذين شاهد الناسُ منهم الدور الحقيقي للعالم، فهو بين تدريس، ومشاركة، وإفتاء، وإصلاح وتوجيه، مع مخالطة عجيبة للناس بكافة مستوياتهم؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً.

وقد وفق الله الشيخ لأن يكون له مدرسة فكرية تحمل عنه علمه ومنهجه وطريقته في المملكة وخارجها -فرحم الله شيخنا وتغمده برحمته-.

مولده:

ولد شيخنا في منطقة عنيزة بالقصيم، في العشر الأواخر وبالتحديد في (٢٧ رمضان ١٣٤٧هـ)، ويعود نسبه لبني تميم.

نشأته العلمية:

للأسف فإن المصادر المتوفرة عن الشيخ لا تقدم معلومات كافية عن نشأته وحياته الأولى، وإنما تركز على المرحلة الأخيرة من حياته Z ، بعدما برز واشتهر.

فهو تعلم القرآن الكريم على جدّه لأمه الشيخ عبد الرحمن بن سليمان الدامغ، ثمَّ التحق بمدرسة الأستاذ عبد العزيز بن صالح الدامغ؛ فتعلَّم الكتابة، وشيئاً من الحساب، والنصوص الأدبية.

وبعد ذلك التحق بمدرسة الشيخ علي بن عبد الله الشحيتان؛ حيث أتم حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب، ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

وأخبر الشيخُ ابن عثيمين أحدَ أولاد الشيخ عبد الله القرعاوي داعية الجنوب ومصلحه أنه تعلم الوضوء من أبيه القرعاوي.

وكان لوالد الشيخ ابن عثيمين دور في توجيهه لطلب العلم الشرعي على يد شيخ عنيزة وإمامها -آنذاك- العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي Z ، والذي كان يدرِّس علوم الشريعة واللغة العربية في الجامع الكبير بعنيزة، وكان للشيخ السعدي ترتيب دقيق في التعليم؛ فقد خصص اثنين من طلبته الكبار (الشيخ علي الصالحي والشيخ محمد بن عبد العزيز) لتدريس الطلبة المبتدئين، فانضم ابن عثيمين لحلقة الشيخ محمد بن عبد العزيز، ودرس عليه التوحيد والفقه والنحو.

ثم ترقى لحضور حلقة العلامة السعدي، فدرس عليه في التفسير والحديث والسيرة النبوية والتوحيد والفقه والأصول والفرائض والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

وقد ظهر نبوغ ابن عثيمين مبكراً في حلقة السعدي، ولذلك حين قرر والد ابن عثيمين السفر من عنيزة بحثاً عن الرزق؛ طلب منه الشيخ السعدي إبقاء محمد في الحلقة بعنيزة لتميزه وذكائه.

ومرة أخرى نجد السعدي يخصّ ابن عثيمين بعنايته ودعمه ورعايته؛ فيكلفه بالتدريس في الجامع الكبير بعنيزة وهو ما زال طالباً عنده، فبدأ التدريس عام (١٣٧٠هـ) وعمره (٢٣) سنة، فانظر لحكمة السعدي وحنكته! كيف صنعت لنا عالماً

فريداً في علمه وعطائه حين شجعه على الاستقلال، وقدّمه للمجتمع كأحد الطاقات الشبابية الواعدة في اقتفاء لمنهج السيرة النبوية في منح الشباب مراكز القيادة والصدارة التي يستحقونها، فهو ﷺ من أرسل مصعب بن عمير ليكون رسوله في المدينة المنورة، وعيّن أسامة بن زيد قائداً للجيش.

وكان من زملاء ابن عثيمين في طلب العلم عند الشيخ السعدي: الشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن البسام -عضو هيئة كبار العلماء-، الذي يقول: "كنا نحفظ المتون ونقرأ القرآن بعد صلاة العصر وفي أول الليل، وبقينا على ذلك عشر سنوات".

ودرس -أيضاً- ابن عثيمين الفرائض على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان، -قاضي عنيزة-، وقرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي في النحو والبلاغة حين كان مدرساً بعنيزة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض عام (١٣٧٢هـ) أشار عليه الشيخ علي بن حمد الصالحي أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي Z فأذن له، والتحق بالمعهد سنتين (١٣٧٢-١٣٧٣هـ)، وهناك التقى بكوكبة من العلماء على رأسهم: العلامة المفسِّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبد العزيز ابن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرحمن الإفريقي C .

ولكن الفائدة الكبرى كانت باللقاء والتتلمذ على يد الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز Z ، فقرأ عليه في «صحيح البخاري»، ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها.

ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز Z هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به بعد الشيخ السعدي.

وفي المعهد ظهر تميزه -أيضاً-؛ حيث رفعه المشرفون للسنة الثانية مباشرة، يقول الشيخ عن دراسته فيه: "كان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين: خاص وعام، فكنت في القسم الخاص.

ومن نظام المعهد في ذلك الوقت: أنه من أراد أن يقفز -بمعنى: أن يدرس السنة المستقبلة في أثناء الإجازة، ثم يختبر في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها- فله ذلك، وبهذا اختصرت الزمن، ثم التحقت بكلية الشريعة في الرياض انتساباً لأكسب ملازمة الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالى-، وأنتظم في دروسه، وتخرجت من كلية الشريعة عام (١٣٧٧هـ)".

وبقي ابن عثيمين يَدْرس على شيخه السعدي حتى وفاته سنة (١٣٧٦هـ)، وهنا تحولت حياة ابن عثيمين من كونه طالباً عند الشيخ السعدي لكونه خليفته.

وقد كان لهؤلاء العلماء أثر كبير على شخصية ابن عثيمين، فمِن السعدي أخذ الصبر على التعليم وتقريب العلوم والمعاني والرفق بالناس؛ حيث كان يمازح الصغير ويضحك مع الكبير، وتأثر بأخلاقه كثيراً.

ومن الشيخ ابن باز أخذ العناية بالحديث وبسط نفسه للناس.

وتأثر بالشنقيطي في علمه وسمته وورعه وزهده.

أما كتب ابن تيمية وابن القيم فلهما أثر بالغ على ابن عثيمين ومنهجه العلمي الرصين المدعوم بالحجة مع الأسلوب الواضح، وذكر الشيخ في آخر حوار له مع مجلة «الدعوة» أنه تأثر بالعلامة رشيد رضا في تحقيق المسائل، وهذا يدل على سعة اطلاع الشيخ ومتابعته لمجلة «المنار» الشهيرة.

جوانب الإصلاح في حياة الشيخ ابن عثيمين:

١ - تدريسه وإمامته بعد السعدي:

مرّ معنا أن الشيخ السعدي في حياته كان قد أمر ابن عثيمين بالتدريس وعمره (٢٣) عاماً، وبعد تخرجه من المعهد العلمي بالرياض عُيّن مدرساً في المعهد العلمي بعنيزة عام (١٣٧٤هـ)، وبقي مدرساً فيه حتى عام (١٣٩٥هـ)، وكان في نفس الوقت يدرس على شيخه السعدي، ويتابع دراسته انتساباً في كلية الشريعة بالرياض.

فلما توفي السعدي قام الشيخ محمد بن عبد العزيز -قاضي عنيزة، وأحد أقدم طلاب السعدي- بترشيح ابن عثيمين خلفاً للسعدي في الإمامة والتدريس والخطابة، ورضي بذلك أمير عنيزة عبد الله الخالد السليم، والأمير خالد بن عبد العزيز آل سليم، والشيخ محمد الزامل، وعدد من الوجهاء؛ فتولى ابن عثيمين الإمامة والتدريس والخطابة في المسجد الجامع بعنيزة خلفاً للشيخ السعدي وعمره (٢٩) عاماً، وذلك سنة (١٣٧٦هـ)، وحتى وفاته سنة (١٤٢١هـ)، أي: (٤٥) سنة متواصلة، استفاد منها آلاف الطلبة -تقبل الله منه-.

فواصل ابن عثيمين التدريس مكان شيخه السعدي حتى وفاته Z ، وأيضاً درّس ابن عثيمين في جامع الضليعة (١٦) عاماً (١٣٩٠-١٤٠٦هـ)، حيث درّس فيه عددا من كتب الفقه بعد المغرب من يومي الأحد والثلاثاء.

بدأ الشيخ دروسه على عادة الشيخ السعدي في مكتبة مسجد عنيزة التي أسسها عام (١٣٥٩هـ)، وكان عدد الطلاب عند الشيخ ابن عثيمين قليلاً جدّاً في البداية قد لا يتجاوز العشرة طلاب، وكان الشيخ لا يستنكف أن يدرس من حضر ولو كان طالباً واحداً.

وبقي الشيخ مواظباً على التدريس على هذه الحال قرابة عشرين سنة، حتى فتح الله عليه وأصبحت الطلبة تتوافد عليه من كل مكان.

ولما كثر الطلبة صارت المكتبة لا تكفيهم؛ فبدأ يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب، وتوافدوا من المملكة وغيرها؛ حتى بلغوا المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع.

وكان الشيخ يقدم عدة دروس يوميّاً سوى اللقاءات الخاصة أو ما يشرحه للطلبة أثناء ذهابه للمسجد مشياً، فكم من كتب شرحها الشيخ وهو ماشٍ للمسجد لبعض الطلبة، وكم من أسئلة أجاب عليها في تلك الحال!!

وكان منزل الشيخ يبعد حوالى (١٠٠٠) متر عن المسجد، وبقي طيلة (٤٠) سنة يذهب مشياً صيفاً وشتاءً، وفي مرة من المرات حين رجع لمنزله وجد الشرطة تمنع الناس من الوصول لبيته الطيني لأن الملك فهد في المنزل يزور الشيخ، وقد رفض الشرطة في البداية السماح له بدخول المنزل إلا بعد وقت حين عرفوا أنه الشيخ ابن عثيمين!!

ويروى الشيخ وليد الحسين -من العراق، رئيس تحرير مجلة «الحكمة»، وأحد أبرز تلاميذ الشيخ- أنه التحق بدروس الشيخ في عام (١٤٠٢هـ) ولم يكن عدد الطلبة يتجاوز العشرة، وكان لهم سكن بجوار مسجد الشيخ المبني من الطين من زمن الشيخ السعدي، وهذا السكن بناية من ثلاثة أدوار فيها تسع شقق، تبرع بها الملك خالد لتلاميذ الشيخ، وكان الشيخ يهتم بطلبته، وربما أحضر الطعام من بيته للسكن وأكل معهم.

ويقول الحسين أنه بعد عام (١٤٠٦هـ) بدأت وفود الطلاب تهل، فربما وصل عدد

حضور الدروس العلمية إلى (٦٠٠) طالب؛ على تنوع أعمارهم وتحصيلهم، فتجد الطالب بالجامعة، وتجد المحاضر بها، وقد تجد عميد كلية من بين الحضور؛ فضلاً عن الأطباء والمهندسين وغيرها من التخصصات، وغالبهم من السعوديين.

وبعد عام (١٤١٠هـ) توافد الطلبة من خارج المملكة، فأصبح السكن يضم طلبة متزوجين وعزاباً، فعيّن الشيخ أحد طلابه وهو الشيخ عبد الوهاب الزياني -من البحرين- مشرفاً على السكن، وكان الشيخ يتابع بنفسه -أيضاً- شؤون السكن واحتياجاته.

ونقلت له مكتبة الشيخ السعدي، وأضيف لها الكثير من المراجع والكتب والأشرطة، وخصص لها قاعتين واحدة للكتب وواحدة للمطالعة.

وتم إنشاء مطعم داخلي للسكن، ووضع نظام إداري له، وضاق السكن بالطلبة إذ وصل عدد الطلبة العزاب إلى (٥٠)، فكان البعض يسكن في شقق للشيخ عبد الله السبيعي مجاناً، ويستفيدون من مطعم السكن، وكان الشيخ يكفل الطلبة ويقدم لهم معونات مالية.

ثم تبرع أحد المحسنين ببناء سكن كبير للطلبة، وجعله قسمين: قسما للطلبة المتزوجين، وقسما للطلبة العزاب، وفيه مطعم.

وكان الشيخ يتعاهد طلبته بالتعليم، والتوجيه في قضاياهم العامة إذا لاحظ خللاً عاماً، وأيضاً يتابع المشاكل الخاصة للطلبة، وكان يوفر لهم سبل العيش للتفرغ لطلب العلم؛ كتوفير السكن أو بدل الإيجار، وقضاء ديونهم، وصرف رواتب شهرية لهم، وتوفير المراجع اللازمة لهم؛ سواء في المكتبة العامة، أو من خلال إهدائهم الكتب

وتزويدهم بها، وتعويدهم على البحث والكتابة والإلقاء بفتح المجال للمناقشات والمناظرات وطلب البحوث منهم.

ومنذ عام (١٤٠٢هـ) كان الشيخ في العطلة الصيفية يقيم دورات صباحية مكثفة للطلبة الذين لا يتمكنون من القدوم في الأوقات الأخرى من الساعة (٨-١٢)، مع بقاء برنامجه العام مستمراً!

واحتوت هذه الدورات على عدة دروس يومية في الصباح يدرسهم فيها الشيخ مباحث متنوعة ومحددة في عدد من العلوم الشرعية، مع توفير الإقامة والطعام لهم، وقد استفاد من هذه الدورات الكثير من الطلبة في الداخل والخارج؛ وخاصة طلبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد تميز الشيخ بمنهج فريد في التدريس، يشد انتباه الطلاب بتنوع الأساليب مع التركيز على حفظ المتون، وطرح الأسئلة وضرب الأمثلة، وتبسيط العلوم ووضعها على شكل نقاط يسهل فهمها وحفظها، وإجراء مراجعة عند نهاية كل فصل أو باب، وفتح الباب للأسئلة.

كما أنه كان يكلف الطلبة المتقدمين بتدريس بعض المباحث للمستجدين، وكان لهم -أيضاً- دروس في مسجده وقد أصبحوا الآن من الدعاة والعلماء المعروفين، لقد تميز الشيخ بأنه يعلم طلابه صيد السمك، وليس أكله فقط!

وكان تأثير دروس الشيخ يصل إلى آفاق الدنيا، وذلك من خلال ما يلي:

١ - الطلبة: والذين تتنوع جنسياتهم، فينقلون علم الشيخ إلى أهاليهم، وكذلك بحسب وظائفهم؛ حيث منهم المدرس والإمام والواعظ، فينقلون علم الشيخ لدوائر

كبيرة، فمثلاً: كان الطلبة السودانيون في الإجازة الصيفية يقيمون الدورات العلمية في كافة أنحاء السودان، فينشرون علم الشيخ ومنهجه.

٢- نقل الدروس مباشرة عبر الهاتف: حيث كانت بعض دروس الشيخ تنقل عبر الهاتف إلى دول أخرى عربية وأوروبية، وفي إحدى المرات استمع للشيخ (١٠٠) مركز إسلامي بأمريكا عبر الهاتف دفعة واحدة، وهذا قبل الفضائيات والإنترنت.

٣- أشرطة الدروس: كان الشيخ يحرص على تسجيل الدروس ونشرها بين الناس في داخل المملكة وخارجها، وفي مرة من المرات حضر خطبةَ الجمعة عنده ضيف من دولة مجاورة، وقال له أثناء تناول طعام الغداء: يا شيخ! هذه الخطبة لو سُجلت لنفعت زملائي في العمل، فما كان من الشيخ إلا أن أدار جهاز التسجيل وأعاد الخطبة كما هي، وهو واقف، ثم سلمه الشريط! ولذلك يمتاز الشيخ بكثرة الأشرطة المسجلة له.

وقد كان أول من انتظم في تسجيل دروس الشيخ الأخ غانم بن مرزوق الحربي في عام (١٤٠٤هـ) تقريباً، حيث سجل (١٠٠٠) شريط للشيخ.

وأول شركة تسجيلات اهتمت بدروس الشيخ هي: تسجيلات الهدي، ثم تبعتها تسجيلات التقوى عام (١٤٠٦هـ)؛ والتي خصصت موظفاً لهذه المهمة من طلبة الشيخ هو: الأخ عبد الرحمن رستم من لبنان، ثم تبعتها تسجيلات الاستقامة عام (١٤٠٨هـ)، فعينت الأخ موسى الهادي من السودان لهذه المهمة، فلازم الشيخ حوالي (١٥) سنة؛ وحتى وفاته.

٤- دروس الشيخ في الحرم المكي: حيث كان للشيخ دروس في الحرم المكي

في شهر رمضان وموسم الحج على السطح، لمدة تزيد عن (٢٥) عاماً، يحضرها المعتمرون من مختلف البلاد، فيحملون علمه إلى مَن خلفهم.

وهذا ساهم في انتشار أشرطة الشيخ وكتبه في العالم، وقد بقي حريصاً على هذه الدروس، فمرة ألقى الدرس وعليه لباس الإحرام حتى لا يضيع الدرس على الناس إذا ذهب للسكن لتبديل ملابسه! وحتى في أشد حالات مرضه بالسرطان، ففي رمضان عام (١٤٢١هـ) تفشى المرض في جسمه ولكنه أصرّ وألحّ على الذهاب للحرم والتدريس، فنقل بطائرة طبية مع فريق طبي، وخصصت له غرفة مجهزة بكافة المستلزمات الصحية.

وفي اليوم التاسع والعشرين اشتد عليه المرض، ونقل لجدة، وأُدخل العناية المركزة، وبعد خمس ساعات أفاق وأصرّ على العودة للحرم، وألقى درسه بعد صلاة التراويح؛ وهو في حالة صعبة جدّاً وكمامة الأوكسجين على أنفه! وأخبر الناس أن هذا الدرس لعله يكون الأخير.

كما أن الشيخ كان له في الحج العديد من الدروس في مخيمات منى، وفعلاً كان الشيخ شيخ العامة وعالمهم، كما كان يقول علماؤنا مدحاً: فلان رجل عامة.

ومن تأمل هذا الجهد الكبير للشيخ في التدريس والتعليم طيلة هذه السنين، يفهم كيف حدثت الصحوة السلفية العلمية في العالم، وكيف انتشر المنهج في مختلف الأقطار، ويفهم ويدرك لماذا نشعر اليوم بحالة من الفتور والفراغ العلمي، فقد كان العلماء الكبار كابن باز والألباني وابن عثيمين بمثابة ماكنة بث ضخمة للعلم والدعوة، تعمل دون ضجيج وإثارة، ولم يدرك الكثير حقيقة دورهم العلمي في الصحوة والإصلاح إلا حين غابوا عن دنيانا، وشعرنا بالفراغ الهائل برحيلهم!

وكنت بساحة التعليم شيخاً | إلى أفيائه تفد الوفود
تقيم أواصر الإحسان حتى | تحققت العوائد والوعود
وعمّ الخير أهل العلم حبّا | وإكراماً وفائدة تعود
فقرت مقلة وانسر قلب | يضمهم إليه ويستزيد
ويمضي السائرون على الطريق | وراءك والطريق هو السديد

٢- التدريس الأكاديمي:

قلنا: إن الشيخ بقي مدرِّساً في المعهد العلمي بعنيزة من عام (١٣٧٤هـ) إلى عام (١٣٩٥هـ)، وكان مشرفاً على جمعية الدعوة الإسلامية في المعهد التي ترعى نشاطات الطلبة عام (١٣٩٤هـ)، ثم انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذاً فيها حتى وفاته Z .

٣- المجالس الخاصة:

كان للشيخ عدد من المجالس الخاصة بفئات محددة من الناس، مثل:

- مجلس أسبوعي خاص بقضاة منطقة القصيم، يتدارسون فيه بعض الكتب الشرعية (١٤٠٧-١٤٢١).

- مجلس أسبوعي خاص لكبار طلبة الشيخ (١٤١٣- ١٤١٢).

- مجلس شهري خاص بأعضاء قسم العقيدة بجامعة الإمام فرع القصيم (١٤٠٩-١٤٢١).

- مجلس خاص للدعاة ببريدة، ولكن بُعد المسافة منع استمراره (١٤١٤- ١٤١٧).

- مجلس نصف شهري لعدد من المشايخ (١٤١٦هـ/١٤٢١).

- مجلس شهري لخطباء عنيزة (١٤١٨-١٤٢١).

- مجلس شهري لأعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤١٢ - ١٤٢١).

٤ - تكليفه بوضع المناهج:

فرّغت إدارة معهد عنيزة العلمي الشيخ لوضع عدد من الكتب والمناهج للطلبة في المعهد، وذلك لِما للشيخ من قدرة على تبسيط المعلومة وتوصيلها للطالب، مع الدقة البالغة والعلم الواسع، ومن قصص ورع الشيخ: أنه حين صُرفت له مكافأة على تقديم بعض المحاضرات في كلية الشريعة ردها، وقال: "وقت هذه المحاضرات اقتطعته من الوقت المخصص لتأليف المقررات الدراسية للمعاهد، وبذلك لا أستحق ما صرف!!".

٥ - الدور الدعوي العام:

بالإضافة إلى هذه الدروس في الجامع بعنيزة والمعهد والكلية، والحرم ومكة؛ فإنه كان دائم التنقل لإلقاء المحاضرات في كافة مناطق المملكة.

وقد عين الشيخ عضواً في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام (١٤٠٧هـ) إلى وفاته.

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويناصح ولاة الأمر، فحين علم أن بعض النساء ينوين التظاهر لقيادة السيارات في الرياض إبان أزمة الخليج، بادر بالاتصال على أمير الرياض الأمير سلمان، فقيل له: هو نائم، فقال: "أيقظوه، قولوا له ابن عثيمين

يريد التحدث معك الآن لأمر ضروري"، فأيقظوه وأوصاه الشيخ بوضع حد لذلك!

ساهم الشيخ في تأسيس الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن سنة (١٤٠٥هـ)، وتبرع لها عند التأسيس بـ (٢٥) ألف ريال، وتولى رئاستها منذ تأسيسها وحتى وفاته، وتابع اجتماعات الإدارة والمهرجانات واللقاءات التي تقيمها الجمعية، وساهم بتوفير أوقاف لها لتبقى مستمرة.

كما دعم الشيخ طلب تأسيس مكتب رعاية الجاليات بالقصيم سنة (١٤٠٧هـ)، وقبل أن يكون مشرفاً عليه بحسب اشتراط الشيخ ابن باز Z للسماح به، وكان الشيخ يشرف على نشاطاته؛ والتي دخل المئات في الإسلام بسببه.

ومشاركة الشيخ في الإذاعة كانت مشاركة فاعلة في برنامج نور على الدرب، وبرنامج فتوى على الهاتف، وبرنامج منار الإسلام، وغيرها من البرامج النافعة.

وكان الشيخ مهتماً بمتابعة نشاطات الدعوة في الغرب، ومن ذلك: أنه زود بعض القائمين على مراكز إسلامية بأمريكا بهاتفه الخاص للحالات الطارئة والتي تحتاج تدخل الشيخ لمنع الخلافات والفتن بين المسلمين هناك.

كما كان الشيخ يحرص على طباعة الكتب ونشرها مجاناً؛ سواء كانت له أو لغيره، وكان يكلف عدداً من المؤسسات الدعوية بالقيام بذلك داخل المملكة وخارجها، ففي عام (١٤١٦هـ) كان الشيخ في مطار جدة بين الحجاج القادمين يوجههم ويعلمهم، فجاء فوج من حجاج إحدى الجمهوريات الإسلامية في روسيا، ورغب الشيخ أن يتحدث معهم، فطلب مَن يترجم كلامه، فجاء مشرف الحملة وبدأ بالترجمة للشيخ، ولما انتهى سأل: مَن الشيخ؟ فقيل له الشيخ ابن عثيمين، فاحتضن الشيخ يقبله ويبكي،

ثم قال للحجاج بلغتهم: إن هذا هو الشيخ ابن عثيمين، فبكوا جميعاً، وأقبلوا يقبّلون الشيخ، وأخبر المترجم الشيخ أن هؤلاء هم من طلابك كانوا يدرسون كتبك في الأقبية تحت الأرض خلال الحكم الشيوعي.

هذا هو تأثير الشيخ ابن عثيمين ودوره في نشر العلم والمنهج؛ والذي يجهله الكثيرون! وهو الجهد الذي نشر الدعوة في ربوع العالم، وهو الجهد الذي نحتاج اليوم أن نقتدي به؛ إن كنا على منهجه وطريقته حقّاً.

٦- الدور الخيري والإغاثي:

لا يقتصر دور الشيخ في هذا المجال على مساعدة الفقراء والمعوزين، بل كان الشيخ يهتم لأمر المسلمين ونكباتهم العامة؛ فيرتب في مسجده حملة لجمع التبرعات للقضايا الكبرى مثل: فلسطين وأرتيريا والبوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان، وربما أرسل بعض الطلبة لإيصالها إلى هناك.

وكان الشيخ متعاوناً مع عدد من المؤسسات والجمعيات الإغاثية والدعوية؛ والتي لها نشاط خارج المملكة مثل: مؤسسة الحرمين وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

وشجع الشيخ ودعَم فكرة إنشاء صندوق خيري للزواج في عنيزة في عام (١٤٠٧هـ)، مما كان له بالغ الأثر في نجاح الصندوق، واستفادة الشباب والفتيات من خدماته.

٧- دوره في دعم الجهاد:

اهتم الشيخ بدعم الجهاد والمجاهدين في عدد من البلاد الإسلامية، وكان يستقبل وفودهم، ويفتي بجواز دفع الزكاة للمجاهدين، فقد كان يجمع التبرعات في مسجده

لصالح الجهاد الأفغاني، ويرسل مندوباً عنه يتفقد الأمور هناك، ويوافيه بما يحتاجونه وأخبارهم.

كما كان له دور بارز في دعم الجهاد الشيشاني، فقد كان الشيخ هو مرجع المحاكم الإسلامية في الشيشان إذا أشكل عليهم شيء، وقد زودهم برقمه الخاص، وسمح لهم بالاتصال به في أي وقت بسبب وضعهم الجهادي، وكان يتعاهدهم بالسؤال والاستفسار عن أحوالهم وسير معاركهم.

٨- مؤلفات الشيخ:

ظهرت للشيخ خلال أكثر من خمسين عاماً الكثير من المؤلفات زادت على (١٠٠) مؤلف، إلا أن أغلبها لم يتفرغ لتأليفها الشيخ، وإنما فرغت من أشرطته ومحاضراته؛ وخاصة الكتب الكبيرة كـ «الشرح الممتع» و«شرح رياض الصالحين» وأمثالها، وإنما تفرغ الشيخ لبعض الرسائل الصغيرة وبعض الكتب المخصصة للمعاهد العلمية.

وقد تخصص بعض طلبة العلم بإخراج علم الشيخ ومحاضراته على شكل مؤلفات من أبرزهم:

* د. عبد الله الطيار، والذي بدأ منذ عام (١٤٠٣هـ) بإخراج سلسلة «الباب المفتوح»، وهو توثيق لمجالس الشيخ كل يوم خميس لعامة الناس قبل صلاة الظهر بساعة، وسلسلة «اللقاء الشهري»، وسلسلة برنامج «منار الإسلام».

كما أخرج عدة كتب للشيخ منها: «فقه العبادات»، و«شرح مقدمة التفسير»، و«شرح رياض الصالحين»، و«تفسير سورة البقرة».

* الشيخ فهد السليمان، وهو قد عرض على الشيخ ابن باز جمع فتاوى ورسائل

ابن عثيمين، فشجعه الشيخ ابن باز وقال له "الشيخ محمد العثيمين رجل عالم ورجل صالح، فبادر وأبشر بخير"، وفعلاً بدأ في عام (١٤٠٧هـ) بجمع فتاوى الشيخ حتى وفاته، وأخرج المجلد الأول من «فتاوى ابن عثيمين» عام (١٤١٠هـ)، وبقي متواصلاً مع الشيخ حتى وفاته، يجمع له الفتاوى ويصححها الشيخ بنفسه؛ حتى صدر منها (١٥) مجلداً.

* وهناك اللجنة العلمية التي أشرفت على كتاب «الشرح الممتع»، وتضم: د. سليمان أبا الخيل، ود. خالد المشيقح؛ واللذين اعتمدا على مذكرات سبق جمعها من وليد الحسين وعدد من طلبة الشيخ، ثم بعد الطبعة الأولى تكونت لجنة بإشراف الشيخ لمراجعة الأخطاء المطبعية، ثم تمت الاستفادة من جهد الشيخ عمر الحفيان في خدمة الكتاب بمعرفة الشيخ وتوجيهه.

والآن أصبحت مؤسسة الشيخ محمد الصالح ابن عثيمين هي المشرفة والقائمة على نشر تراث الشيخ وتدقيقه.

٩ - منحه جائزة الملك فيصل:

مُنح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام (١٤١٤هـ)، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

أولاً: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها: الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانياً: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريساً وإفتاءً وتأليفاً.

ثالثاً: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعاً: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

خامساً: اتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلاً حيّاً لمنهج السلف الصالح؛ فكراً وسلوكاً.

وفاته:

تُوفي Z بجدّة في الخامس عشر من شهر شوال عام (١٤٢١هـ)، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعه الآلاف من المصلّين إلى مقبرة العدل في مكة المكرمة، ودفن بجوار شيخه الشيخ ابن باز X .

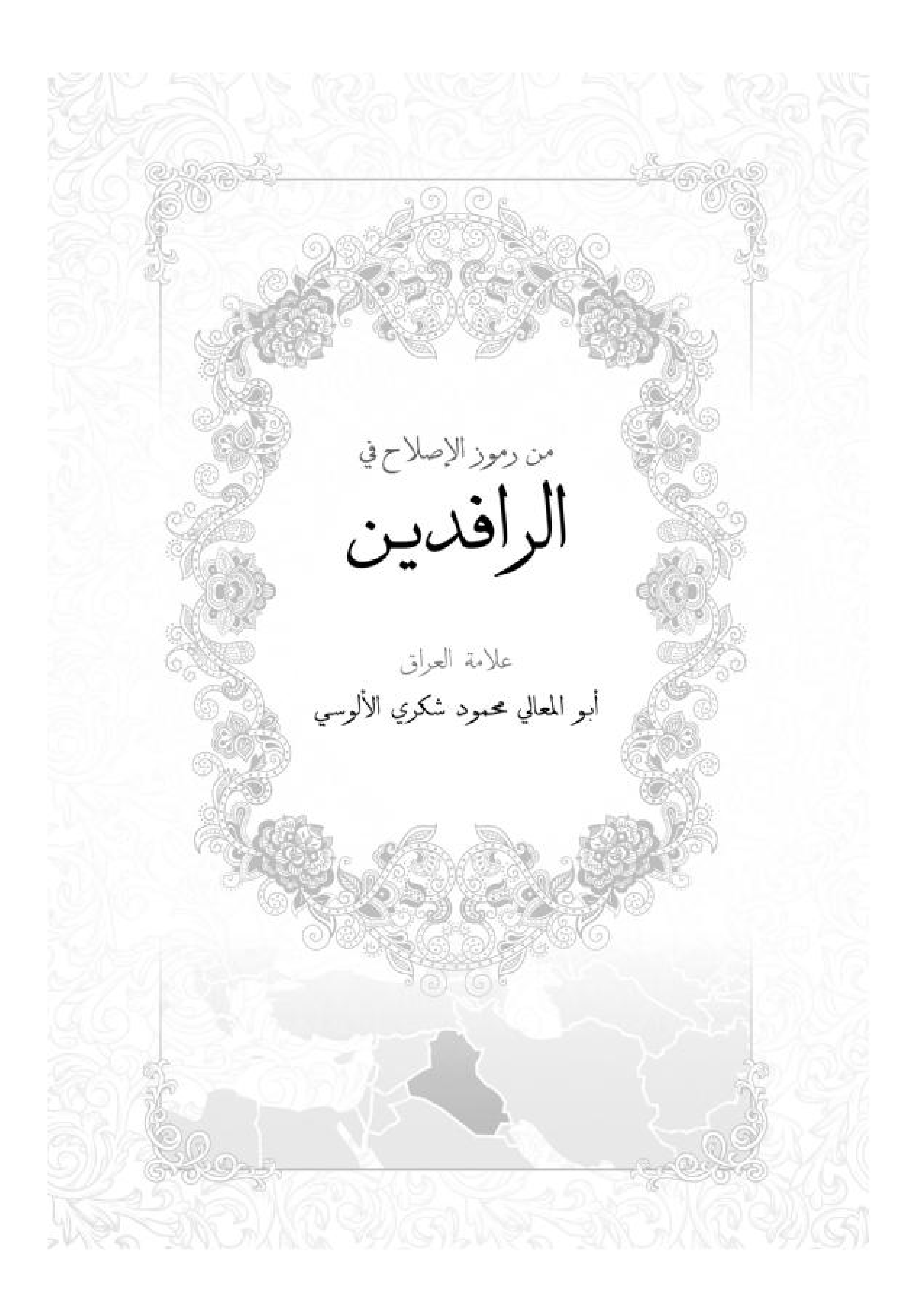
مراجع للتوسع:

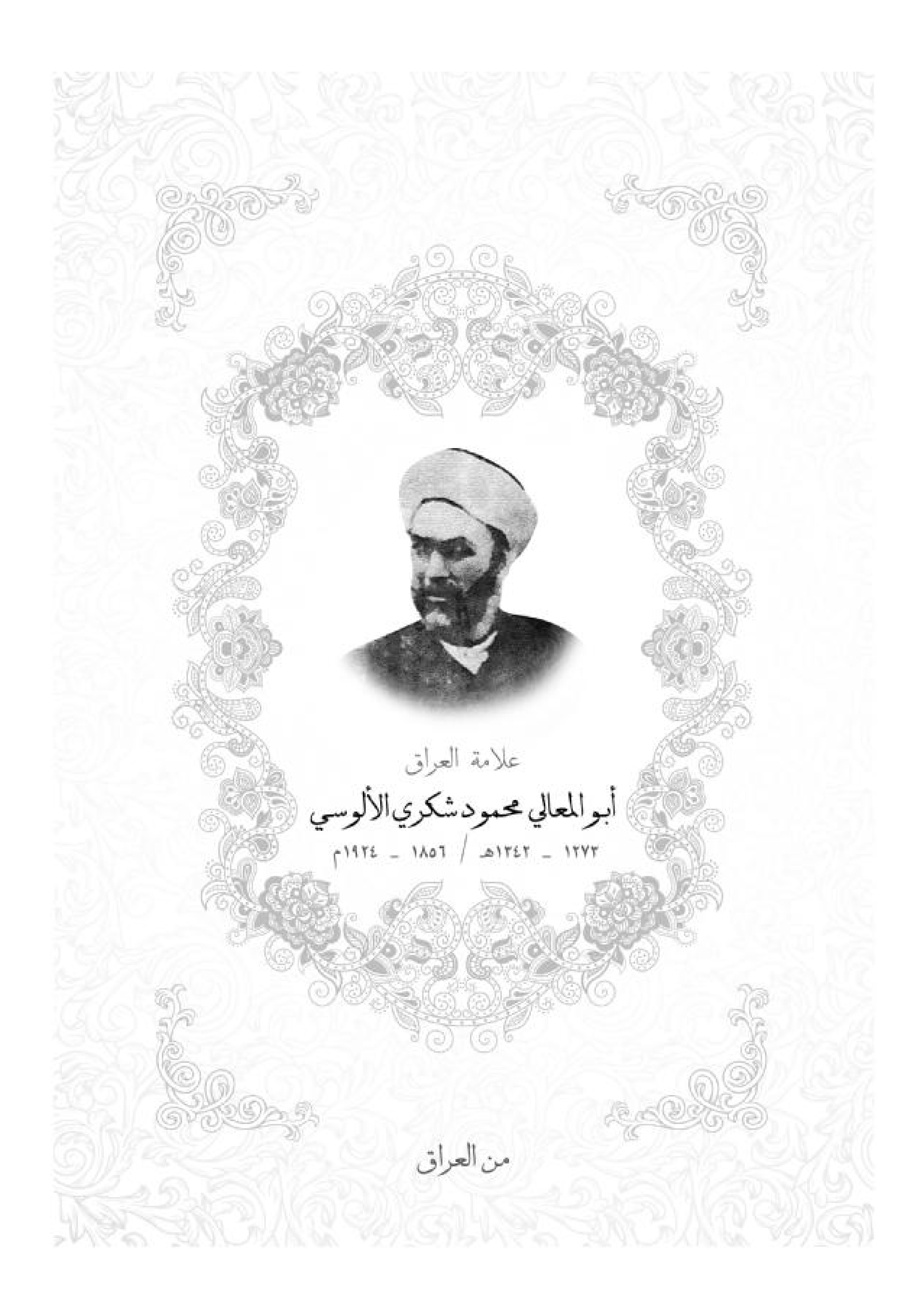
o «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين»، وليد أحمد الحسين، منشورات مجلة «الحكمة»، ط ١، (٢٠٠٢).

o «ابن عثيمين الإمام الزاهد»، د ناصر الزهراني، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، (٢٠٠١).

o «محمد صالح العثيمين العالم القدوة»، إبراهيم العلي وإبراهيم باجس، دار القلم، دمشق، ط ١، (٢٠١٠).

o «صفحات من حياة الفقيد العالم الزاهد الشيخ محمد بن عثيمين»، د. عبد الله الطيار، منشورات «المجلة العربية»، (٢٠٠١).


من رموز الإصلاح في
الرافدين
علامة العراق
أبو المعالي محمود شكري الألوسي


علامة العراق
أبو المعالي محمود شكري الألوسي
١٢٧٣ ـ ١٣٤٢هـ / ١٨٥٦ ـ ١٩٢٤م
من العراق



١٧- علامة العراق أبو المعالي محمود شكري الألوسي

(١٢٧٣-١٣٤٢هـ/١٨٥٦-١٩٢٤م)

تمهيد

أعاد علامة العراق أبو المعالي وعائلته الألوسية لبغداد -عاصمة الخلافة- مجدَها العلمي الذي عرفته في أيام عزها، وذلك بدروسه المتميزة، ومؤلفاته القيمة، وتحقيقاته الثمينة.

ولكن للأسف لم يلقَ أبو المعالي وعائلته ما يستحقونه من التكريم والتقدير، لا في حياته ولا بعد مماته، ومن ذلك: أن سيرته لم تدوّن بشكل واف، ولا تزال بحاجة لمزيد من البحث والتنقيب، وإظهار ما فيها من جهود مباركة في الإصلاح والتأسيس للصحوة الإسلامية التي نعيشها اليوم، حتى قال عنه محمد رشيد رضا: "ناصر السنة، قامع البدع، علامة المنقول ودراكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة".

نشأته ودراسته:

ولد جمال الدين أبو المعالي محمود شكري الألوسي في بيت جده العالم الكبير أبي الثناء الألوسي صاحب التفسير الشهير «روح المعاني» ببغداد، في شهر رمضان من عام (١٢٧٣هـ)، ونشأ في عائلة عرفت بالعلم والأدب والديانة، فجده أبو الثناء محمود الألوسي كان عالماً واسع الاطلاع، وتولى منصب مفتي الحنفية، وكان له منزلة في عصره حتى أنه أسندت إليه ولاية أوقاف مدرسة مرجان، وهي مشروطة لأعلم أهل البلد،

وعمه هو السيد نعمان خير الدين الألوسي، وهو من كبار العلماء، وتولى عدداً من المناصب منها: رئاسة مدرسة مرجان مثل أبيه، وله عدد من المؤلفات القيمة من أهمها: كتابه «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين».

لم يدرك أبو المعالي جده فقد توفي قبل ولادته بسنتين، وقد درس على أبيه مبادئ العلوم وقراءة القرآن، وأخذ عنه الأدب والأخلاق الفاضلة، وختم القرآن الكريم وعمره (٨) سنوات، ولكن توفي أبوه عام (١٢٩١هـ) وعمر محمود آنذاك (١٨) سنة.

وكان أبوه متأثراً بالتصوف فأثر ذلك في ابنه محمود عدة سنين، قبل أن تتوسع معارفه وعلومه، وينتفض على خزعبلات التصوف وخرافاته، وتعد هذه هي المرحلة الأولى من مراحل منهج أبي المعالي.

وعقب وفاة أبيه كفله عمه نعمان الآلوسي؛ والذي كان معادياً للتصوف والخرافة والتعصب، ويدعو للتمسك بالكتاب والسنة وفهم السلف والدليل، فرعاه ووجهه إلى البحث والمطالعة ومناقشة المسائل، وفتح له أبواب خزانته التي تحوي أمهات الكتب وذخائر المخطوطات؛ وخاصة كتب ابن تيمية وابن القيم.

ولكن أبا المعالي لم ينسجم مع عمه فانفصل عنه، وبحث عمّن يشبه طريقة أبيه، وإن بقيت لتوجيهات عمه تأثيراً في نفسه تجاه الخرافات والتقليد والتصوف!

قال تلميذه المقرب الأستاذ محمد بهجة الأثري: "ولكن الشاب المتأثر بالعقيدة الخلفية والمتشبع بالروح الصوفية الموروثة له من أبيه وأستاذه الأول لم يستطع ملازمة عمه المستقل بعلمه وآرائه الضارب بالخزعبلات الصوفية والمذاهب التقليدية عرض الحائط، فصرف التعصبُ بصرَه عن عمه".

فلازم الشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلي النقشبندي، ودرس على الشيخ بهاء الحق الهندي -نزيل مدينة بغداد- والشيخ عبد السلام بن محمد بن سعيد النجدي الشهير بالشواف، ودرس عليهم النحو واللغة والتفسير والفقه والمصطلح والحديث.

وقد تعلم الألوسي اللغتين التركية والفارسية، وعدداً من العلوم الدنيوية؛ كعلم الهيأة (الفلك)، ولم يكتف الألوسي بذلك بل قام بمطالعة مئات الكتب والمخطوطات الموجودة بمكتبات بغداد، فتكونت له معرفة موسوعية ظهرت في كتبه وتحقيقاته، وكانت أولى مظاهر موسوعيته كتابه العجيب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»، -وسوف نفصل فيه لاحقاً-.

يقول الألوسي في ترجمته لنفسه عن هذه المرحلة: "فوصلت الليل والنهار في التحصيل، وفارقت أخداني وأقراني، وانزويت عن كل أحد، فأكملت قسماً عظيماً من الكتب المهمة في المنقول والمعقول، والفروع والأصول، وحفظت غالب متون ما قرأته من الكتب المفصلة والمختصرة، وأدركت ما لم يدركه غيري -ولله الحمد-.

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة ... في الدرس أبلغ من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها ... أشهى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها نقري ... لألقي الرمل عن أوراقي" إ.هـ

بداية التدريس والتأليف:

لا تسعفنا التراجم المتوفرة للألوسي بتفاصيل حياته في هذه المرحلة، لكنها تفيدنا أنه توجه للتدريس والتأليف مبكراً.

وهو في هذا يسير على خطى جده أبي الثناء؛ حيث بدأ التأليف وعمره (١٣) سنة!

وتصدى كذلك للتدريس مبكراً، فكان أول تصنيف لأبي المعالي الألـوسي وعمـره (٢١) عاماً، وذلك سنة (١٢٩٤هـ)، وهو كتابه «الروضة الغناء شرح دعاء الثناء».

ولم ينتظر أبو المعالي التكليف بالتدريس على عادة زمانه، فباشر بالتدريس متطوعاً بدون راتب في داره وفي جامع عادلة خاتون؛ حيث درّس علوم اللغة والشريعة لجمع من الطلبة.

وحين ذاع صيته واشتهر الألوسي مع بلوغه سن الثلاثين جاءه التعيين الرسمي بالتدريس في مدرسة داود باشا، ثم أضيف إليه التدريس في مدرسة السيد سلطان علي، وقبل وفاته بـ (٣) سنوات عام (١٣٤٠هـ) تم اعتماده رئيساً للمدرسين في مدرسة مرجان، والتي تسند إلى أعلم أهل بغداد؛ كحال عمه وجده من قبله.

وكان الألوسي يقضي سائر نهاره في التدريس لطلابه، وكان حريصاً على وقته حيث كان يحضر للمدرسة مبكراً فإن تأخر الطلبة شغل نفسه بنسخ بعض المخطوطات أو المطالعة أو حفظ القرآن، وكان هذا ديدنه بعد انتهاء وقت التدريس؛ حتى يدخل وقت الظهر فيرجع لبيته.

ثم يعود للتدريس إلى ما بعد العصر، وبعدها إما يستقبل بعض الزوار في البيت أو يشتغل بالعلم حتى صلاة العشاء.

ثم ينام بعدها ليستيقظ قبل الفجر للتهجد وللكتابة والمطالعة حتى قريب الشروق فيذهب للمدرسة، وهكذا يوميّاً، ولم يكن يدرس في صباح يومي الجمعة والثلاثاء، ولكنهما كانا مخصصين للزائرين.

وكان الألوسي صاحب جَلَد على المطالعة والنسخ للمخطوطات والتأليف، وساعده على ذلك أنه لم يتزوج قط، وكونه زاهداً في الدنيا فقد كان بسيط الثياب

والأثاث، يقنع بأقل القليل، ورفض أن يقبل عطايا الاحتلال البريطاني؛ مع شدة فقره وحاجته، وقاطع أخاه الأكبر حتى الموت؛ حين قبل أن يصبح وزيراً للعدل في عهد الاحتلال البريطاني.

فالتف حوله الأذكياء؛ الذين وجههم محمود الألوسي للبحث والمناقشة والتأليف والعمل بما تعلموه بما ينفعهم وينفع مجتمعهم، وتجنب سلبيات التدريس السائدة في عصره والقائمة على التقليد والتلقين دون البحث والمناقشة، واقتصارها على بعض العلوم التراثية بدون تجديد في المناهج والأساليب.

وهذا جانب في سيرة الألوسي يحتاج إلى مزيد من البحث والتوسع، لكن التراجم المتوفرة لا تسعف في ذلك، كما أننا نفتقد إلى قائمة بتلاميذ الألوسي عبر ما يزيد عن (٣٠) سنة!!

وبقي الألوسي ملازماً للتأليف والتدريس طيلة عمره، وهما من أبرز وأهم الأدوار الإصلاحية التي قام بها، والتي كان لهما آثار ضخمة لم تقتصر على العراق أو على زمانه، بل امتدت آثار جهوده لخارج العراق وليومنا الحاضر.

فوزه بجائزة ملك السويد والنرويج عن كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»:

في عام (١٣٠٢هـ/١٨٨٦م) تلقى رسالة من أمين سر لجنة اللغات الشرقية عن مسابقة يرعاها ملك السويد والنرويج لتأليف كتاب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، فتردد الألوسي في خوض التحدي خوفاً من الاعتقاد بحرصه على الجائزة القيمة (١٧٧٨ فرنكاً ذهبيّاً)، لكن أصدقاءه حثوه على ضرورة إعلاء شأن العرب، فشمر عن ساعد الجد وصنف كتابه «بلوغ الأرب» الذي جاء في (٣) مجلدات، وأنهاه في عام

(١٣٠٤هـ)، وكان المميز في كتابه أنه جاء على غير مثال سابق ولا منهج مطروق، مع صغر سن المؤلف الذي بالكاد كان في الثلاثين من عمره حين باشر بتأليفه!

وبرغم تقدم العديد من الشخصيات من بلاد مختلفة للمسابقة إلا أن التفوق والفوز كان من نصيب الألوسي؛ حين أعلنت النتائج في عام (١٣٠٧هـ)، فشاع ذكره وارتفع صيته، وتمت ترجمة الكتاب للتركية.

وقد تفنن الألوسي فيه بجمع أخبار وعادات العرب قبل الإسلام، مما يدل على شرف معدنهم وقوة أخلاقهم؛ مما جعلهم مؤهلون لقيادة العالم تحت راية النبي ﷺ حين بعث للعالمين كافة.

وقد فتح فوزه بهذه الجائزة عليه باب التواصل بالزيارة والمراسلة مع الكثيرين من العلماء وطلبة العلم من مختلف دول العالم، والتي جمعها الألوسي في كتاب ضخم لم يطبع بعد سماه: «رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين»، وسبقه كتاب «بدائع الإنشاء»، جمع فيه بعض رسائل أبيه، ثم بعض مراسلات العلماء والأمراء والأدباء له، ولو طبع هذان الكتابان لكشفا عن تاريخ مجهول في النهضة الثقافية المؤسسة لنهضة اليوم.

ومن طالع كتاب المحقق الأستاذ محمد ناصر العجمي «مراسلات القاسمي والألوسي» يعرف أهمية هذه المراسلات التي كشفت عن جهود منظمة ومتواصلة لبعث تراث ابن تيمية وابن القيم وتراث المحققين من العلماء؛ كالشاطبي والذهبي وغيرهما، وأنه كانت هناك شبكة علاقات ثقافية تمتد إلى الهند والحجاز والبحرين ومصر والغرب من أجل هذه الغاية الشريفة.

وهو موضوع يحتاج إلى بحث مستقل بذاته.

علاقته مع أبي الهدي الصيادي:

أبو الهدي الصيادي هو: مستشار السلطان العثماني في إسطنبول، وصاحب السطوة والنفوذ، وكان صوفيّاً غارقاً في الخرافات المزعومة للأولياء والبدع، بدلاً من اتباع نور العلم الشرعي المستند للكتاب والسنة، ولما بدأ يظهر نجم أبي المعالي محمود الألوسي طلب منه الصيادي أن يشرح قصيدة له في مدح القطب الصوفي أحمد الرفاعي، وفعلاً قام الألوسي بتأليف كتابه «الأسرار الإلهية شرح القصيدة الرفاعية» وذلك في سنة (١٣٠٥هـ).

وكان سبب طلب الصيادي هذا الشرح من الألوسي أن جده أبا الثناء كان له شرح أدبي بديع على قصيدة لعبد الباقي العمري في مدح القطب الصوفي عبد القادر الجيلي سماه: «الطراز المذهب شرح قصيدة الباز الأشهب»، فأراد الصيادي أن يكون له شرح بديع لقصيدته من حفيد أبي الثناء الألوسي.

لكن أبا المعالي الألوسي في هذه المرحلة (١٣٠٣هـ) بدأت يتضح عنده ما يحتويه التصوف ومنهج الصيادي من انحرافات وخرافات وبدع، ولذلك نجده في شرحه لقصيدة الصيادي يمزج بين اللغة والأدب والشرع، ونجده ينقل عن ابن حجر المكي ثم ينقل عن ابن تيمية وابن القيم!

ولكن هذا المنهج المعتدل لم يعجب الصيادي؛ فبرغم قبوله للشرح وطباعته له إلا أنه قام بإدخال بعض الأساطير والخرافات عليه قبل طبعه، وهو ما جعل الألوسي ينبّه على هذا العبث والتدخل في كتابه «غاية الأماني»، وفند تلك الخرافات أبلغ تفنيد.

وكانت هذه المرحلة الثانية في منهج الألوسي، يصفها محمد بهجت الأثري بقوله: "ولما بلغ الألوسي هذا الطور من حياته واتسعت آفاقه الذهنية والعلمية؛ رأيناه يبدأ

حالاً جديدة من أحوال التفكير والاجتهاد، ويعيد النظر فيها تعاوره في أثناء الشباب من أخلاط العقائد والنزعات المذهبية المختلفة...".

لم ييأس الصيادي فأرسل رسالة شكر له ومجموعة من كتب الطريقة الرفاعية، وطلب منه الانضمام لها ورفع لوائها في العراق، مع إغرائه بالرفعة والتكريم عند السلطان، لكن أبا المعالي اعتذر منه في البداية بلطف، وأنه مشغول بالعلم والتأليف والتدريس، لكن الصيادي عاود الكرّة مرة أخرى، ومرة أخرى اعتذر الألوسي، وأعلن له أنه لا يقبل الخرافات التي تتردد في كتب الطريقة، أو ما يقوم به بعض شخصيات الطريقة!

ومما كتبه الألوسي للصيادي: "لا وقت لي لسلوك طريقة من الطرائق... ولا سيما وأن جميع من ينتمي إلى طريقتكم في الخطة العراقية جهلة أوباش عوام، لا يميزون بين اليمين من الشمال، ولا الحلال من الحرام، ديدنهم سؤال الناس، فيما يحتاجون إليه من الأكل واللباس...

ولا شك أن مثل هذا لم يكن على عهد الشيخ أحمد ولا على عهد غيره من الأكابر، إنما أحدث ذلك جاهل بالشريعة الغراء، مناقض لمقاصدها العلية بلا مراء...

فالعفو يا سيدي عن سلوك طريقتك... لأنني -والحمد لله- ممّن اشتهر حاله بالذب عن السنن، والرد على كل زائغ من أهل البدع والأهواء والفتن".

نصرة الألوسي لمنهج السلف:

في هذه المرحلة (الثالثة) استقر الألوسي -وهو في مطلع الثلاثين من عمره- على منهج السلف، فبدأ بالذب عنه والدفاع عنه، وذلك بعد أن توسعت معارفه وطالع تفسير جده أبي الثناء «روح المعاني»؛ والذي قام على التحقيق والتدقيق، وطالع الكتب

والمخطوطات ونبتت في قلبه القواعد التي زرعها عمه النعمان الألوسي.

قال الأثري عن هذه المرحلة النهائية في منهج الألوسي: "ثم ما لبث الألوسي أن أصحر عن انحيازه في جرأة وقوة إلى الحركة السنية السلفية؛ مع مقاومة الدولة العثمانية الصوفية لهذه الحركة الإصلاحية بكل قواها الرجعية".

ويعتبر عام (١٣٠٥هـ) هو الفاصل بين مرحلتين في تأليفات وحياة الألوسي، ففي عام (١٣٠٦هـ) أعلن الألوسي عن موقفه الجديد من خلال كتابه «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان»، والذي دافع فيه عن الدعوة الوهابية والشبهات التي تثار في وجهها، وقد قام بطباعته في الهند الشيخ قاسم بن ثاني -حاكم قطر- عام (١٣٠٩هـ).

وحين وصل الكتاب إلى أتباع الصيادي في العراق قامت قيامتهم ضده، واستعدَوا عليه شيخهم أبا الهدى الصيادي، فكتب إليه معاتباً ومزج بين الوعد والوعيد، فلم يعبأ به الألوسي، وكتب إليه يقول: "لم نزل متمسكين بهدي السادة السلف... غاية الأمر: أني أكره المغالاة في عباد الله، ولا تسمح نفسي أن أصفهم بصفات الألوهية؛ ولو بلغ الأمر منتهاه...

فما بلغك، صرير باب، وطنين باب، وإني -بحمد الله- لست ممن يحابي أمثالك، أو يرهب أقوالك وأفعالك".

وهكذا أصبح الألوسي عرضة لهجمات الخرافيين والمبتدعة، ومضى في طريقه لا يعبأ بهم وبمؤامراتهم، وبحسب تعبير الأثري: "ولأستاذنا الألوسي النصيب الأكبر احتسب حياته لخدمة الدين الإسلامي، وتطهيره من أوضار البدع والمحدثات؛ التي فتّت في ساعده، وبذل في ذلك غاية جهده، فجاهد أهل الحشو ودعاة عبادة القبور

جهاد الأبطال في ساحات القتال".

وانكب الألوسي على التدريس والتأليف، فزاد صيته وكثر قاصدوه من العلماء وطلبة العلم، وقد سجل الألوسي في ترجمته الذاتية ما يلي: "ثم إني توغلت في اتباع سيرة السلف الصالح، وكرهت ما شاهدته من البدع والأهواء، ونفر قلبي منها كل النفور، حتى إني منذ صغري كنت أنكر على من يغالي في أهل القبور، وينذر لهم النذور.

ثم إني ألفت عدة رسائل في إبطال هذه الخرافات، فعاداني كثير من أبناء الوطن، وشرعوا يغيرون علي ولاة البلد، ويحرضونهم على كتابة ما يستوجب غضب السلطان علي، وفعلوا ذلك مراراً".

وهنا تبدأ مسيرة الإصلاح الحقيقي للألوسي، والتي يمكن أن نلخصها في المجالات التالية:

١ - المشاركة في الصحافة: ففي عام (١٣٠٧هـ) دعاه الوالي سري باشا الكريدي؛ وكان من العلماء أصحاب التأليف، وكان معجباً بمواهب الألوسي، فدعاه لرئاسة القسم العربي من صحيفة «الزوراء» التي تعد أول جريدة صدرت ببغداد في سنة (١٢٨٦هـ)، وكانت تصدر بالعربية والتركية.

وحين تولى الألوسي القسم العربي لمدة سنة ونصف تقريباً ازدهرت وارتفع مستواها، وكان الألوسي يحرر المواضيع والأخبار ويكتب لها المقالات.

وللأسف لم يقم أحد بجمع هذه المقالات ودراستها؛ حتى نتصور أولويات الإصلاح عند الألوسي في المجتمع العراقي في تلك الفترة.

وبعد جريدة «الزوراء» نشر الألوسي بعض البحوث في عدد من المجلات مثل:

«سبيل الرشاد»، و«المقتبس»، و«المشرق»، ومجلة «المجمع العلمي العربي»، و«المنار» وغيرها.

وأيضاً تحتاج هذه الأبحاث إلى فهرسة وجمع حتى تعظم الفائدة منها.

٢- مواصلة جهوده في التدريس والتعليم في المدارس، ومجالس الوعظ والإرشاد في مساجد بغداد؛ خصوصاً في جامع الإمام أبي حنيفة.

وكانت نتيجة هذا: أن تخرج على يديه نخبة من العلماء العراقيين تأثروا بفكره وعِلمه مثل: العلامة محمد بهجت الأثري، والأستاذ المؤرخ عباس العزاوي، والشيخ عبد الكريم الشيخلي -المعروف بالصاعقة-[١]، والشيخ رشيد حسن الكردي، والشيخ محمد القزلجي، والشيخ علي بن حسين الكوتي، والشيخ الإمام أمجد الزهاوي، وغيرهم من خيرة علماء العراق، وكذا عدد من أدباء وشعراء العالم العربي منهم: الشاعر معروف الرصافي.

ومن غير العراقيين: المؤرخ الكويتي عبد العزيز الرشيد، وسليمان الدخيل النجدي؛ صاحب جريدة «الرياض» ومجلة «الحياة في بغداد»، وهو نجدي سكن بغداد، والشيخ محمد بن مانع من فقهاء نجد.

ومن تلاميذه غير المسلمين: الكاتب واللغوي العراقي الأب أنستاس الكرملي، وعدد من المستشرقين مثل: لويس ماسنيون الفرنسي، ومرجليوت -من إنكلترا-.

٣- الاهتمام ببعث التراث العلمي السلفي الذي يحارب أمراض الخرافة والجهل

---

(١) رائد الدعوة السلفية المعاصرة في العراق، ومن تلامذته: الشيخ صبحي السامرائي وعبد المنعم صالح العلي (محمد أحمد الراشد)، وعنه اشتهر علم الحديث والعقيدة السلفية في العراق.

والسفسطة والجمود والتعصب، حيث كان الألوسي يقوم بتتبع الكتب النادرة والمهمة في مكتبات العالم؛ من خلال مراسلاته مع العلماء والفضلاء، فإذا حصل على كتاب يقوم بنسخه بيده، ويطلب من تلاميذه فعل ذلك لتكثر نسخه، ومن ثم قد يحتفظ بها لنفسه أو يرسل بها للمكتبات العامة الكبرى في البلاد المختلفة، مثل: «خزانة أحمد تيمور باشا»، و«خزانة أحمد زكي باشا» بالقاهرة.

وأحياناً يقوم مع نسخ المخطوط بتحقيقه ونشره في إحدى المجلات المرموقة، وأحياناً كان يكاتب بعض الأغنياء في العراق وخارجه ليحثهم على طباعة الكتب المهمة.

يروي تلميذه محمد بهجة الأثري قصة اللقاء الأول معه؛ فيقول: "سمع الألوسي بوجود بعض أجزائه -«كتاب نقض أساس التقديس» لابن تيمية- في دمشق ونجد، فجدّ في استكتابها حتى ظفر بها، ووافق وصولها إليه طلبي أخذ العلم عنه، فجعل شرطه علي نسخ هذا الكتاب وقراءته عليه، لأُفيد منه الأنظار الصحيحة في العلم وأصول البحث وطرائق الجدل والاحتجاج، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية أعظم فرسان هذا الميدان في الإسلام".

وفي حادثة أخرى تكشف عن مستوى جدية الألوسي ومثابرته وبعد نظره، يقول الأثري: "حمل إليه أحد تلاميذه القدماء ذات يوم مخطوطاً في «مثالب العرب!» قديم العهد، غفلاً من اسم مؤلفه، أُهدي إلى أمين الريحاني عند زيارته لبعض المدن العراقية..

فلما أجال نظره فيه؛ غضب أشد غضبة رأيتها منه، وساءه أن يهدى مثل هذا الكتاب إلى الريحاني، وخشي أن ينتهي إلى شعوبي من هؤلاء الشعوبيين المعاصرين

الذين نشّأهم "الاستعمار الأوروبي" ليحارب بهم اليقظة العربية، فأخذه وشقّه شقين، احتفظ بأحدهما، ودفع إلي الآخر، وقام من فوره فقام من في المجلس لقيامه، وهو يقول لي: هذا كتاب خبيث يجب عليك نقضه! ولا أريد أن أراك في صبيحة الغد إلا قد أنجزت قسطك منه.

والتقينا في صبيحة اليوم التالي ولدينا نسخة جديدة من الكتاب، يملك كل منا نصفها، ثم أكمل نسخته وأكملت نسختي، ورد النسخة القديمة إلى صاحبها لم تبت عندنا إلا ليلة واحدة، وعنيت بوضع ردي عليه من بعد، حتى إذا نشر الأصل كان الرد عليه حاضراً".

فانظر -بالله عليك- لهذه الهمة الفائقة في النسخ، وهذه اليقظة للخطر القادم، والمبادرة لوضع رد على شبهة متوقع أن تروج، وقارن هذا بحالنا اليوم حيث الخطر يجتاحنا ويدمرنا؛ ونحن نبحث في جزئيات وفرعيات لا طائل من ورائها! أو نضيع الأوقات والجهود في الحديث عن الخطر الذي يحاصرنا بدلاً من البحث عن الحلول والمخارج لورطتنا والانشغال بها!!

ومن الكتب المهمة التي نشرها الألوسي:

© «منهاج السنة» وبهامشه «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع بمصر سنة (١٣٢١هـ).

© «جواب أهل العلم والإيمان» لابن تيمية، طبع بمصر سنة (١٣٢٢هـ).

© «تفسير سورة الإخلاص» لابن تيمية، طبع بمصر سنة (١٣٢٣هـ).

© «مفتاح دار السعادة» لابن القيم، طبع بمصر سنة (١٣٢٣هـ).

© «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم، طبع بمصر سنة (١٣٢٣هـ).

© «تأويل مختلف الحديث» للإمام ابن قتيبة، طبع بمصر سنة (١٣٢٣هـ).

ومن استحضر طبيعة ذلك الزمان في ضعف وسائل النقل والاتصال يعرف كم هي المصاعب التي واجهت الألوسي في جمع هذه الكتب من بلاد شتى عبر وسائل البريد البطيئة، ثم نسخها يدويّاً، ثم مراجعتها والتعليق على بعضها، ثم إرسالها للقاهرة للصف اليدوي وبعضها يقع في عدة مجلدات، وكل ذلك بمجهودات فردية من رجل وحيد وفقير، حتى تخرج للناس فتضيء لهم طريق الحق وطريق السلف!

محنته عام (١٣٢٢هـ):

بسبب جهود الألوسي الإصلاحية في التدريس والتأليف ونشر التراث، وكعادة المصلحين والمجاهدين؛ فقد هاجمه أعداء الإصلاح فلفقوا ضده عدة تهم ووشايات كاذبة عند الوالي الجديد لبغداد عبد الوهاب باشا؛ والذي كان رجلاً جاهلاً ينصر الخرافة، ويحارب الإصلاح والمصلحين، فانتهزوا الفرصة وقالوا له: إن الألوسي يدعو للخروج على السلطان! وأنه يؤسس مذهباً يناصب كل الأديان العداء! وأن تأثيره خطير بين الناس! واستعانوا بشيخهم أبي الهدي الصيادي في عاصمة الخلافة، فصدر الأمر بنفي أبي المعالي وابن عمه السيد ثابت نعمان الآلوسي والحاج حمد العسافي النجدي C إلى الأناضول فوراً.

وفعلاً أُخذ الألوسي ورفاقه من بيوتهم، واختبأ بعضهم وهرب البعض الآخر، ولكن عندما وصلوا للموصل في طريقهم للأناضول قامت قائمة الموصليين، وخرجوا لاستقبال الألوسي، ورفضوا إبعاده ورفاقه الذين يعدون من أعلام العراق الكبار،

وراسلوا السلطان لتوضيح الموضوع وإلغاء الإبعاد.

وحين علم المتآمرون في بغداد بذلك دبروا مؤامرة جديدة؛ إذ أرسلوا مجموعة من كتب ابن تيمية بالبريد للموصل باسم الألوسي، ووشوا لبعض أتباعهم بالموصل بذلك حتى يورطوا الألوسي، وفعلاً ضبطت الكتب، وعقد والي الموصل مجلساً لأبي المعالي أدانه فيه علماء السوء، وطلبوا إتلاف الكتب ونفيه فوراً.

لكن الله نجاه مرة أخرى من كيدهم، بفضل مساعي علماء الموصل المخلصين الذين كانوا يعرفون قدر الألوسي وفضله وبفضل جهود ابن عمه علي علاء الدين؛ الذي كان يعيش في إستانبول، فجاء أمر السلطان بإبطال النفي وعودته لبلده مع إعادته لوظائفه التدريسية.

وللأسف لا تسعفنا المصادر بمعرفة هؤلاء العلماء الموصليين، ولا تفاصيل علاقة الألوسي بالموصل، والموصل من بلدان العراق التي عرفت الدعوة السلفية مبكراً.

فصدر العفو عنه وعن رفاقه بعد أن مكثوا شهرين في الموصل، فعادوا منصورين، وخرج أهل الموصل معه أميالاً يودعونه، وخرج أهل بغداد أميالاً يستقبلونه، وكتب الشيخ عبد اللطيف بن ثنيان في صحيفته «الرقيب» مقالاً بعنوان: (الحمد لله عاد الحق لأهله).

وسجل الألوسي هذه المحنة؛ فقال: "حتى ألجأوا بعض الولاة أن يكتب للسلطان بأن الأمر خطر إن لم يتداركه، وأن العراق يخرج من البلد بسبب تغير عقائد الأعراب إلى ما يخالف ما عليه الجمهور من العوام، ولم يزل يلح حتى ورد الأمر بإبعادي إلى جهة ديار بكر، فلما وصلت إلى الموصل قام رجالها على ساق، ومنعوني أن أتجاوز بلدتهم، وكتبوا كتابات شديدة اللهجة إلى السلطان، فجاء الأمر بعد أيام بعودي إلى بغداد مع

مزيد الاحترام والإكرام، وسقط في أيدي الأعداء؛ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله!".

وبعد هذه المحنة لم يحد الألوسي عن منهج الحق والصدع به، وإن لجأ للحذر والاحتياط حتى لا يمكّن الخصوم منه، فصار ينشر بغير اسمه الصريح.

٤ - ومن أدواره الإصلاحية: تأليف الرسائل والكتب النافعة لأهل زمانه، فقد مر معنا أن الألوسي بدأ التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد كان لديه "قوة على التأليف عجيبة"؛ كما يقول الشيخ كامل الرافعي، ألف كتاباً من (٧٠) كرّاساً في أربعين يوماً! ولذلك تزيد مؤلفات الألوسي عن خمسين كتاباً ورسالة في فنون متعددة شرعية ولغوية وتاريخية.

وكانت كتبه الدينية الإصلاحية هي مدار دعوته وتميزه في بغداد، فقد سعى من خلالها للدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام شوائب الشرك والبدع التي عمت العالم الإسلامي، فمنها:

- «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان»، والذي طبع سنة (١٣٠٩هـ)، وسبق الحديث عنه.

- «غاية الأماني في الرد على النبهاني»، والذي طبع في سنة (١٣٢٧هـ) باسم غير صريح هو: أبو المعالي الحسيني السلامي الشافعي، بسبب مؤامرات أعداء الإصلاح ضده، وتأليب دولة الخلافة العثمانية عليه.

- «الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغري»، وهي منظومة للنبهاني رد فيها على كتاب الألوسي «غاية الأماني»، وسب وشتم فيه النبهاني المصلحين في عصره، فرد عليه الألوسي بشكل مختصر.

- «تاريخ نجد»، كتبه عقب زيارته لنجد بتكليف من الدولة العثمانية، عرف فيها بنجد وأهلها، ودافع عن عقيدتهم وأنها عقيدة السلف الصالح؛ وليس كما يدعي أعداؤهم وخصومهم.

- «فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، طبع بعد وفاته.

ومن الجهود التأليفية المهمة للألوسي: تصديه لإبطال دعاوى التشيع ودحض عقائدهم، وقد ذكر هو ذلك في رسالته في الرد على العاملي في حصونه: "والفقير ردَّ عليهم (الشيعة) بنحو ألف ورقة، فاغتصبته الحكومة، وذلك بثلاث مصنفات أحدهما: المسمى بـ: «صب العذاب» "، ومما فقد كتابه «رجوم الشياطين» في الرد على الشيعة.

ومن مؤلفاته في الرد على الشيعة:

- «المنحة الإلهية تلخيص ترجمة التحفة الإثني عشرية» (١٣٠١هـ).
- «السيوف المشرقة مختصر الصواعق المحرقة» (١٣٠٣هـ).
- «صب العذاب على من سبّ الأصحاب» (١٣٠٤هـ).
- «سعادة الدارين في شرح حديث الثقلين» (١٣٣٦هـ).

ومن كتبه -أيضاً-:

- «الدر اليتيم في شمائل ذي الخلق العظيم ﷺ».
- «تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان».
- «كنز السعادة في شرح كلمتي الشهادة».
- «الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية».
- «تاريخ بغداد».

٥- مشاركته في إدارة ولاية بغداد، ففي سنة (١٣٣٠هـ) تمكن جمال باشا -والي بغداد- من إقناع الألوسي بقبول منصب عضو مجلس الإدارة في بغداد، بعد أن انتخبه البغداديون، فقبله بسبب الحرية المطلقة له في خدمة الناس والمصلحة العامة.

لكن لا توجد لدينا تفاصيل عن المدة التي قضاها والإنجازات التي قام بها.

وهذه المشاركة تدل على الشعبية التي حظي بها الألوسي عند أهل بغداد، وأنه بسبب هذه المكانة كان يحرص الساسة والولاة على مشاورته وتقريبه، لكنه كان دوماً يرفض تولي المسئوليات والمناصب.

ويلخص لنا بهجة الأثري موقف الألوسي من الدولة العثمانية بقوله: "كان حائراً بين الرضى بها والكره لها، ومن أسباب رضاه بها: أنها كانت في هذا الشرق طوال خمسة قرون موئل المسلمين، وحامية الإسلام والحصن المنيع؛ الذي قام بوجه الغرب المتحفز للاستيلاء على دياره وإخضاعها لسلطانه الذي قد يعتذر الخلاص منه، إذا هي وقعت في قبضته.

فإذا زالت هذه الخلافة يزول معها الوجود السياسي للإسلام، ويحدث بعدها فراغ في الحياة الإسلامية يُهدد بملئه بحياة أخرى مكانها أو يُعرضها لمصاير منكرة لا طاقة لأحد بدفعها، أو هكذا كان يخيل إليه.

وأما باعثه على كرهها فهو: الفساد الذي أصاب حياة الدولة في أخريات أيامها، وكان استشري وجاوز المدى، وبلغ الحد الذي جزع منه الأحرار، وعلاهم القنوط من إصلاحه، ولم تغن معه حيلة ولا أجدى اجتهاد.

ولا ريب أن حزم الحازم يضيع في مثل هذين الحالين مهما ملك الإنسان صوابه ورشده، ولا تكون في أحدهما خِيرة لمختار" إ. هـ

وما يزال هذا التحليل الدقيق منطبقاً على واقعنا اليوم!

ونستفيد من مشاركة الألوسي في إدارة بغداد على ضرورة مباشرة المصلح للشؤون العامة إذا توفرت البيئة المناسبة من قبول الناس وتأييدهم وحرية الحركة.

٦ - لما هاجم الإنجليز العراق عام (١٣٣٣هـ) عقب الحرب العالمية الأولى، واحتلوا مدينة الفاو والبصرة؛ قررت الدولة العثمانية أن تجيش العاطفة الإسلامية في الجهات الإسلامية التي حاربتها الدولة العثمانية من قبل مثل: الجزيرة العربية، التي شنت عليها فقضت على دولتهم الأولى والثانية، وفزعت إلى الألوسي لتستعين بسمعته ونفوذه العلمي لإقناع الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود -مؤسس الدولة السعودية الثانية- بنجدة الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها في هذه الحرب، وأن يتولى ضرب مؤخرة الإنجليز في الوقت الذي يضرب الجيش العثماني مقدمة الجيش الإنجليزي.

وفعلاً قبل الألوسي المهمة دفعاً للشر والضرر عن بلاد الإسلام، وسافر إلى نجد برغم شيخوخته وصعوبة الطريق ومشاق السفر على ظهر الجمال، وكان برفقته ابن عمه العلامة علي علاء الدين الألوسي، والحاج بكر بك، والحاج نعمان الأعظمي.

وفي نجد استُقبل الوفد أحسن استقبال، وتفهم الأمير الغرض والغاية من السفارة، وأن نصرة المسلم لأخيه واجبة، لكنه رأى أن قوته لا تطيق محاربة الإنجليز، مما يفرض عليه الحياد؛ لأن دخوله في الحرب ينتهي إلى تقويض إمارته الصغيرة بها لا ينفع الدولة العثمانية شيئاً.

واقتنع الألوسي ورفاقه برأي الأمير عبد العزيز، وعادوا بوعده بالتزام الحياد، وعدم الانجرار للثأر ممن حاربه قديماً.

ولما عاد الوفد ووصل دمشق قام بعض المحرضين من أعداء الإصلاح بمحاولة تأليب الوالي جمال باشا السفاح على الألوسي، وأنه هو الذي أقنع الأمير بعدم نجدة الدولة والوقوف على الحياد، إلا أن جمال باشا الذي كان يعرف الألوسي جيداً وصدق نيته وإيمانه بالوحدة الإسلامية لم يسمح لهذه الوشايات، ورضي بالحياد من أهل نجد.

وفي سفره لنجد مرّ الألوسي على حلب ودمشق وفلسطين فالحجاز ومن ثم نجد، وقد استفاد خبرة واسعة من هذه السفرة بأحوال البلاد العربية.

ولكن للأسف لا نعرف بمن التقى في هذه المدن، وهل كان له مجالس علمية بها؟ وهل حصل منها على مخطوطات؟ كما أنني لم أجد في ترجمة الأثري لشيخه الألوسي ذكر هل حج أم لا؟

٧- ولما وقع البلاء واحتلت بريطانيا العراق -وقد عاش تحت حكم الإنجليز (٨) سنوات- لم يقبل أن يتعامل معهم؛ برغم محاولاتهم المتكررة معه لتسليمه بعض المناصب مثل: منصب المفتي، وقاضي القضاة.

كما رفض قبول الأعطيات منهم، ورفض قبول (٣٠٠) جنيه من المندوب السامي البريطاني، جاءه بها تلميذه الأب أنستاس الكرملي، وقال له: "خير لي أن أموت جوعاً على أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه"، وذلك حين كان الألوسي يعاني من الفقر فلا يلبس إلا ثيابا بسيطة، ويجلس على الحصير في غرفة وحيداً، بلا زوجة ولا ولد!

وواصل جهوده في التدريس والتأليف وتحقيق للكتب، وقبل عضوية مجلس المعارف؛ ليتمكن من توسيع نطاق العلم في العراق، والعضوية الفخرية للمجمع العلمي العربي بدمشق.

مرضه ووفاته:

أصيب الألوسي برمل في المثانة سنة (١٣٣٧هـ) فأهمله، حتى اشتد عليه في سنة (١٣٤١هـ) فانقطع عن التدريس مدة، ثم عاود التدريس؛ فهزل جسمه، وتعب قلبه، وفي العشر الأواخر من رمضان سنة (١٣٤٢هـ) أصيب بذات الرئة، وبعدها بأيام توفي عند أذان الظهر وحوله كتب العلم، رحم الله الآلوسي، وألحقه بالصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وقد دفن بمقبرة الشيخ الجنيد، وكانت له جنازة مهيبة، وصُلي عليه في نجد صلاة الغائب، ورثاه العلماء وأهل الفضل والدعاة الذين كانت له صلات مع كثير منهم.

وقد رثاه العلماء والأدباء والشعراء:

رثاه الشاعر العراقي معروف الرصافي بقصيدة منها:

محمود شكري فقدنا منك حبر هدى ... للمشكلات بحسن الرأي حلالا

قد كنت للعلم في أوطاننا جبلاً ... إذا تقسّم فيها كان أجبالاً

ورثاه تلميذه محمد بهجة الأثري بقصيدة منها:

بغدادُ قد أقفرت من بعد مصرعه ... فقلقل الركبُ عن بغداد أهبالا

هذي المدارس أضحت وهي باكية ... من بعد شيخ بنى الآداب أطلالا

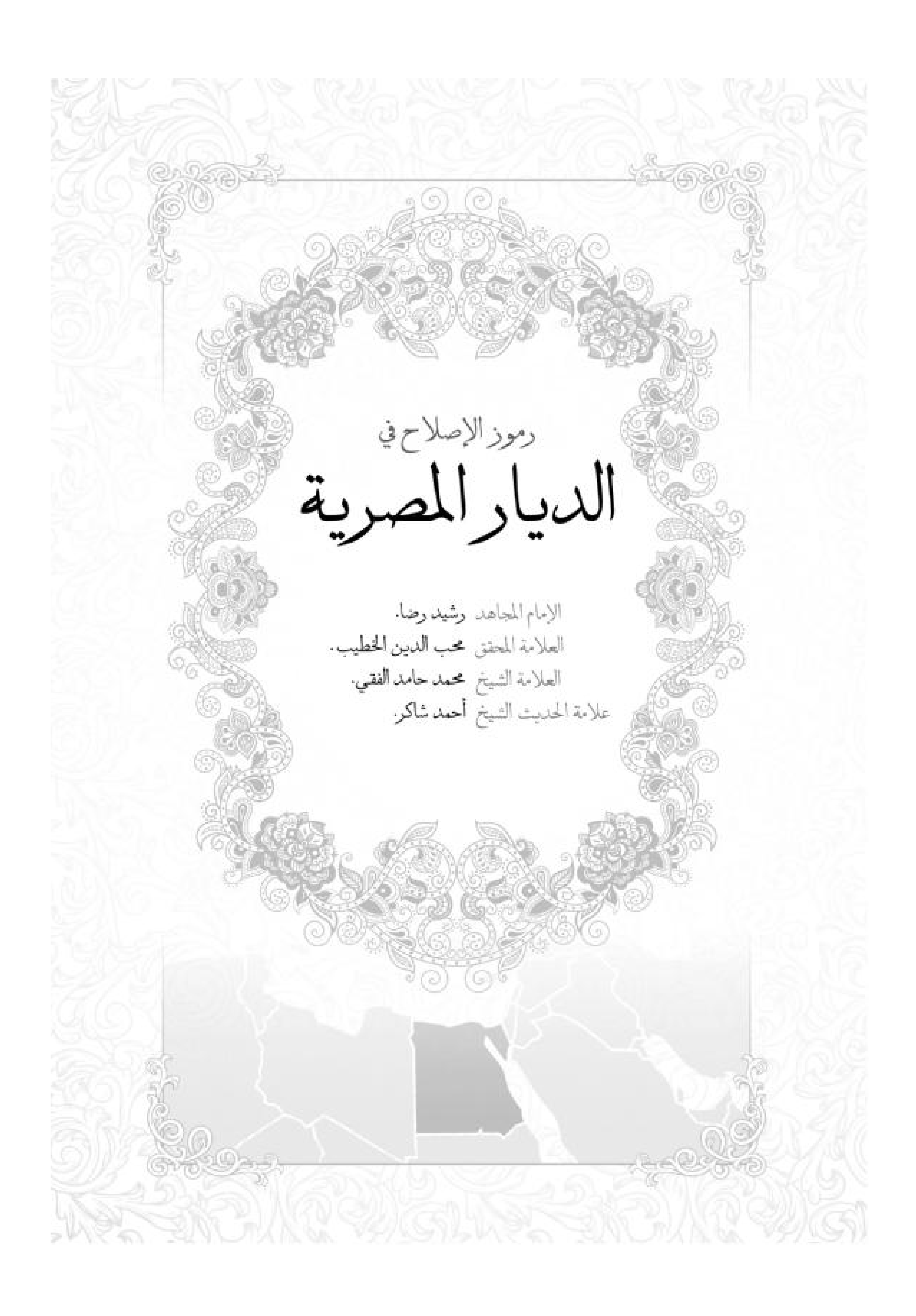
مراجع للتوسع:

o «محمود شكري الألوسي - سيرته ودراساته اللغوية»، العلامة محمد بهجة الأثري، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ط ١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

o «أعـلام العـراق»، العلامـة محمـد بهجـة الأثـري، المطبعـة السـلفية، القـاهرة، (١٣٤٥هـ).

o مقدمة كتاب «صب العذاب على من سب الأصحاب»، أبو المعالي الألوسي، تحقيق عبد الله البخاري، مكتبة أضواء السلف، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

o مقـال: (حيـاة الشـيخ العلامـة محمـود شـكري الألـوسي)، عبـد الله بـن صـالح المحمود آل غازي، مجلة «الحكمة»، عدد (٥)، شوال (١٤١٥هـ).


رموز الإصلاح في
الديار المصرية
الإمام المجاهد رشيد رضا.
العلامة المحقق محب الدين الخطيب.
العلامة الشيخ محمد حامد الفقي.
علامة الحديث الشيخ أحمد شاكر.


الإمام المجاهد
رشيد رضا
١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م
من الديار المصرية

١٨- الإمام المجاهد محمد رشيد رضا

(١٢٨٢-١٣٥٤هـ/١٨٦٥-١٩٣٥م)

تمهيد

يكاد العلامة رشيد رضا يكون نقطة انطلاق الصحوة السلفية والإسلامية العامة التي نعيشها في عالمنا المعاصر، فعلى امتداد (٤٠) سنة كان مصدر الإشعاع والتوجيه لمختلف أقطار الأمة الإسلامية؛ من خلال منبر مجلته «المنار».

وقد كان محمد عبده يرى فيه الأمل لقيادة الإصلاح بين المسلمين؛ فقال فيه:

فيا رب إن قدرت رجعي قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً ... (رشيدا) يضيء النهج والليل قائم

أما العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني؛ فيقول عن الدور المركزي لرشيد رضا: "السيد محمد رشيد رضا Z له فضل كبير على العالم الإسلامي، بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بوساطة مجلته «المنار»..".

ويقول -أيضاً-: "فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل؛ فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة، ليطلع عليها من بَلغته، فإنني بفضل الله U، بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانياً؛ يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا Z ؛ عن

طريق أعداد مجلته «المنار» التي وقفت عليها في أول اشتغالي بطلب العلم". «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» (١/ ٤٠٠).

أما العلامة ابن عثيمين؛ فيقول عن موسوعية رشيد رضا: "ولا ريب أن العلماء -علماء الشريعة- عندهم علم في الاقتصاد وفي السياسة، وفي كل ما يحتاجون إليه في العلوم الشرعية، وإذا شئت أن تعرف ما قلته فانظر إلى محمد رشيد رضا Z ، صاحب مجلة «المنار» في «تفسيره»، وفي غيرها من كتبه". موقع الشيخ، «كتاب العلم»، سؤال رقم (٧٥).

مولده ونشأته:

ولد إمامنا في قرية القلمون، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من جبل لبنان، والتي تبعد عن مدينة طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، وذلك في (٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٢هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٦٥م).

والقلمون جميع أهلها في الأصل من السادة الأشراف، وكانت عائلته عائلة متدينة عرفت بالعلم والرياسة والإرشاد، فجده الثالث بنى مسجد القرية، وتولى أعمال الإمامة والخطابة والتدريس، ووالده علي رضا كان شيخاً للقلمون، وإماماً لمسجدها.

وقد كان منزلهم مقصد الحكام والعلماء والوجهاء والأعيان؛ حتى من غير المسلمين، وقد أثر هذا في رشيد رضا بحسن تعامله مع طبقة الأعيان، ومخاطبة غير المسلمين، والتعامل معهم بما يحقق الوفاق.

تعلم في كُتاب القلمون قراءة القرآن والخط وقواعد والحساب، ثم انتقل إلى المدرسة الرشيدية الابتدائية بطرابلس؛ فتعلم الصرف والنحو والحساب ومبادئ الجغرافيا وعلم العقيدة والفقه، لكنه لم يستمر فيها إلا سنة واحدة لأنها كانت تعلم

بالتركية.

ثم التحق سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م) بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس التي أسسها وأدارها الشيخ حسين الجسر؛ الذي يعد أستاذه الأول، وكانت المدرسة تهتم بتدريس اللغة العربية والعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، ولأن الحكومة العثمانية لم تعترف بها مدرسة دينية يعفى طلبتها من التجنيد؛ فقد أغلقت أبوابها، وتفرق طلبتها؛ بسبب جهل الحكومة وقصر نظرها!

بدايته في طلب العلم:

وحين أُغلقت المدرسة توثقت صلة رشيد رضا بشيخه الجسر، واتصل بحلقاته ودروسه، حيث أحاط الشيخ الجسر رشيد رضا برعايته، وكان رشيد لا يهتم بالحفظ للجزئيات، ويركز على فهم الأمور والتعبير عنها بطريقته، فنبغ ولم يكن يكرر المحفوظات كالببغاء ما يلقن دون فهم؛ كغالب الطلاب.

ثم أجازه شيخه الجسر سنة (١٨٩٧م) لتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية، وفي الوقت نفسه درس رشيد رضا علم الحديث على يد الشيخ محمود نشابة، وأجازه -أيضاً- لرواية الحديث.

كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوقجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم.

وقد كان لهؤلاء المدرسين بالغ الأثر على نشأة رشيد رضا العلمية والإصلاحية، فهم علماء أجلاء، درس معظمهم في الأزهر سنوات طويلة، ولم يكونوا كعامة الأزهريين بل تبنوا توسيع دائرة العلم، فلم يرفضوا العلوم الحديثة بل نشروها بين الطلبة، ولم يشجعوا البدع والخرافات، ولهم ملاحظات ومؤاخذات على مزالق

التصوف، وكان لهم عناية بعلم الحديث النبوي، ومن هنا جاءت عناية رشيد رضا بالسنة والبحث في أسانيد الأحاديث، ورفض الضعيف والموضوعات منها.

قال رشيد في رثاء شيخه محمود نشابة (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م):

من كان عن خشية لله منكسراً ... ولا عن رفعة للناس جانبه

من أحيت السنة الغرا مآثره ... وأفنت البدعة السودا قواضبه

والقواضب: هي الأسنان!

وقال في رثاء شيخه عبد الغني الرافعي (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م):

لهفي ولهف جميع المسلمين على ... محيي الشريعة رب الفضل والفضلا

من أيد السنة الغرا بحكمته الـ ... مثلى وللبدعة العمياء قد خذلا

وتسخير الله U هؤلاء العلماء الأجلاء هو من العناية الربانية برشيد رضا، ومن نتائج هذه الرعاية الربانية: تخلصه من التقليد والتعصب المذهبي؛ إذ أنه درس في هذه المرحلة المبكرة من عمره جزءاً من «نيل الأوطار» للشوكاني على شيخه عبد الغني الرافعي، ودرس الحديث والمصطلح على المحدث محمد القاوقجي، ثم اقتنى مبكراً كتاب «شرح إحياء علوم الدين» بسبب تخريجه أحاديث «الإحياء»! فأصبح رشيد لا يحتج بحديث إلا كتب معه تخريجه، ثم ترقى فلم يعد يقبل أي تصحيح للحديث يشك فيه إلا أن ينظر في سنده، ولذلك كان الفتى رشيد رضا أول من استحضر كتاب ميزان الاعتدال من الهند لطرابلس!

وقد نفع هذا كله رشيد رضا، فرغم تعلقه بالتصوف مطلع حياته على الطريقة الشاذلية، ثم دخوله في الطريقة النقشبندية؛ إلا أن توفيق الله له بالعلم والعقل الذي تميز به جعلاه ينتفع من التصوف بكثرة الذكر والطاعة، ولا يقبل الخرافات والكرامات

المزعومة والبدع الدخيلة، ولذلك ذهب مرة لرؤية حضرة الطريقة المولوية، فلما بدأ الغلمان المردان يرقصون على نغمات الناي رقصة المروحة، ويمرون من أمام شيخهم فيركعون له، تعجب رشيد رضا، وسأل عن حقيقة ما يجري! فقيل له: هذا ذكر طريقة مولانا جلال الدين الرومي.

فلم يملك نفسه فوقف وصاح بأعلى صوته بما معناه: أيها المسلمون! إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه ولا السكوت عليه، لأنه إقرار له، وإنه يصدق على مقترفيه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ [الأنعام:٧٠]، وإنني قد أديت الواجب علي؛ فاخرجوا يرحمكم الله!.

ومن هنا تكونت شخصية رشيد رضا الصلبة في قول الحق والصدع به والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بدايته في التعليم والدعوة:

ومع اجتهاده في التعلم والمطالعة كان رشيد رضا يباشر التعليم والوعظ في قريته القلمون، فقد كان يدرّس في المسجد، ويدرّس في المقهي، بطريقة سهلة بعيدة عن السجع المعتاد، وإنما كانت دروسه آيات من القرآن الكريم يشرحها ويبسطها للناس، وهذا أكسبه خبرة عملية ونظرية بخصوص التربية والتعليم، انعكست إيجابيّاً على مسيرته الإصلاحية، وكانت له دروس للنساء في بيوتهن يعلمهن فيها الفقه والعقيدة.

وبسبب مطالعته لكتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيتمي أبطل كثيراً من العادات السيئة والتصرفات غير الشرعية؛ كوضع الشموع على قبر بعض العلماء، مع ربط ذلك بخرق فيها حاجات وطلبات، وكانت هناك شجرة يتبرك بها الجهلة فأمر رجلاً بقلعها ليلاً!!

ويقول عن نفسه: "كل هذا قد كان مني وأنا طالب للعلم، ولم أكن رأيت شيئاً من كتب الإمام المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا كتب تلميذه المحقق ابن القيم، بل كنت رأيت طعن ابن حجر هذا عليه في كتابه «الفتاوى الحديثية»، وكنت أصدق ما فيها، ثم رأيت في طرابلس كتاب «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»... فعلمت منه أن طبقة ابن تيمية أعلى من طبقة ابن حجر الهيتمي...

أما الوهابية فلم أكن أعرف عنهم شيئاً، إنما كنت أسمع من الناس أنهم مبتدعة... وأول كلمة حق وقفت عليها في شأنهم لعلماء سورية: كلمة مفتي بيروت العلامة الشيخ عبد الباسط الفاخوري، في كتابه «تحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام»، وإنما عرفت تاريخهم بالتفصيل في مصر".

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه في المسجد، بل كان يذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة، ولم يخجل من جلوسه معهم، ووعظهم وحثهم على الصلاة.

وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة بإقبال كثير منهم على أداء الفروض، والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله، كما بعث إلى نساء القرية من يدعوهن إلى درس خاص بهن، وجعل مقر التدريس في دار الأسرة، وألقى عليهن دروساً في الطهارة والعبادات والأخلاق، وشيئاً من العقائد بأسلوب سهل يسير.

وفي هذه المرحلة -أيضاً- اتصل رشيد رضا ببعض رجال الحكم؛ من خلال والده، ومن خلال شيوخه، فقد كان من المعتاد حضور رجال الحكومة لبيتهم لما لوالده من مكانة، ولكن رشيد لم يكن يعجبه تصرفاتهم من لبس ساعات الذهب وما شابه

ذلك، فكان ينصحهم، ومن هنا تفتح وعي رشيد رضا على أن الإصلاح والدعوة لا يقتصران على العامة بل يشملان الحكام أيضاً.

تعرفه على مجلة «العروة الوثقى»:

حين بلغ رشيد رضا العشرين عمره، سنة (١٣٠٢هـ)، تعرف على جريدة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من باريس؛ وذلك من خلال بعض المصريين المنفيين إلى لبنان على يد الإنجليز، عقب ثورة عرابي باشا في مصر، يقول رشيد: "إنني لا أزال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام -في سنة (١٣٠٢هـ)- ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية، فجاءت جريدة «العروة الوثقى» مساء، فأخذها الأستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي... وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب... ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء من مثل هذا، بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم".

ثم بعد مدة وقع رشيد رضا على أعداد منها بين أوراق أبيه، "فطفقت أقرأها المرة بعد المرة، وهي تفعل في نفسي فعلها، تهدم وتبني، وتعد وتمني، وما كان وعدها إلا حقّاً، ولا تمنيتها إلا رجاءً وأملاً، أحدثت إصلاحاً وعملاً، فكانت هي أستاذي الثاني الذي أثر في نفسي، وأقيم عليه بناء عملي وأملي، وأما الأستاذ الأول فهو كتاب «إحياء العلوم»".

ثم أخذ رشيد يبحث عن بقية أعدادها حتى وجدها كاملة عند شيخه الجسر، فنسخها كاملة "فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي، فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال، ما قذف بي من طور إلى طور".

فكان لـ «العروة الوثقى» تأثير كبير على رشيد رضا في مجالات متعددة، من أولها:

تغير أسلوبه في الحديث والكتابة، والخروج عن طريقة مقامات الحريري السائدة في عصره، ثم وجهته للإصلاح العام وعدم التقوقع على حارة ومسجد أو حتى قرية ومدينة!

وعرف منها أسباب فساد حال الأمة؛ من خلال العقائد الفاسدة؛ كالجبر والتواكل، والبدع الشائعة، والجهل المنتشر، ودلته على طريق الإصلاح بالعلم واطراح البدع، والتمسك بالأصول في الكتاب والسنة. وعرف منها ضرورة وحدة المسلمين، وتقوية دولة الخلافة وإصلاحها؛ لتصمد في وجه المطامع الأوروبية الاستعمارية.

ويلخص رشيد رضا أثر «العروة الوثقى» عليه؛ فيقول: "وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم في الدنيا، فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات، فطفقت استعد لذلك استعداداً...".

وأصبح رشيد رضا في شوق عظيم للتواصل مع الأفغاني وعبده مباشرة، وليس عبر صفحات «العروة الوثقى»، وفعلاً تهيأت الفرصة باستقرار محمد عبده في بيروت عقب إغلاق العروة الوثقي خمس سنوات، وأصبح رشيد يتابع أخبار محمد عبده وإصلاحه؛ من خلال التدريس بالمدرسة السلطانية هناك، ولما جاء عبده لزيارة طرابلس التقى به رشيد رضا وبعض الطلبة، وظل رضا يستفيد من عبده؛ من خلال متابعة كتبه؛ وخاصة ترجمته لكتاب الأفغاني «الرد على الدهريين».

ومن تأثير «العروة الوثقى» على رضا أنه بدأ يكتب في الصحافة؛ خاصة بعد أن أسسس شيخه حسين الجسر جريدة «طرابلس»، وأصبح مقال رشيد رضا من أهم المقالات فيها، لما فيه من قوة وجدة وتأثر بأفكار الأفغاني وعبده.

ومن تأثير الأفغاني وعبده على رشيد رضا: أنه قام بتأليف كتاب سماه: «الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية»، ردّاً على كتب أبي الهدى الصيادي الصوفي -مستشار السلطان عبد الحميد-؛ التي نشرها الصيادي في كل البلاد ليمجد فيها نفسه وأهله وطريقته، وملأها بكراماته وفضله على أقطاب الصوفية!

ولم ينشر رضا هذا الكتاب الذي بلغ مجلداً كبيراً ويعد باكورة أعماله، وإن كان نشر بعض أجزائه في السنة الأولى من «المنار»، وبقي هذا الكتاب كأصل لمنهج الإصلاح الذي سار عليه رضا.

وبعد سنوات التقى رشيد رضا بمحمد عبده في طرابلس سنة (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) حين جاء إلى سورية سائحاً وزار طرابلس فذهب رشيد وقابله، ولازمه مدة بقائه فيها.

وبقي التواصل قائماً بينهما بعد عودة عبده لمصر، وهنا أصبح رشيد يأمل أن يتصل بالأفغاني -أيضاً-، فأرسل رسالة له في الآستانة (إسطنبول) مع أعز أصدقائه، وقد أعجب الأفغاني بها وشكره عليها، لكنه كان موضوعاً تحت الإقامة الجبرية نوعاً ما فلم يستطع تلبية دعوته لزيارته، ولما ضيقت السلطات العثمانية على الأفغاني جاهر رشيد رضا بحبه واعتزازه بالأفغاني.

ولقد كان رشيد رضا يدرك أن الأفغاني وعبده قد اختلفت بهما السبل بعد إغلاق

«العروة الوثقى»، فآثر الأفغاني الطريق السياسي الأسرع والأسهل، واختار عبده الطريق التعليمي التربوي الأثبت والأدوم.

ولما بلغه رضا خبر وفاة الأفغاني وتضييق الخناق على إصلاحه في سوريا جراء تعنت السلطات؛ كان لا بد من الخروج إلى مصر لجوار أستاذه محمد عبده ليواصل مسيرة الإصلاح التي آمن بها، فخرج هارباً متخفياً حتى لا تمنعه السلطات العثمانية.

رشيد رضا في مصر، وإنشاء مجلة «المنار»:

دخل رشيد رضا مصر سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٨م)، وكان عمره (٣٣) سنة، وقد اكتملت رجولته وظهرت شخصيته العلمية والفكرية المستقلة، ويمكن أن نقول: إن رشيد جاء إلى مصر سلفيّاً، وإن كانت سلفيته تعمقت بمصر؛ بسبب توفر الكتب السلفية والسلفيين أكثر من طرابلس، يقول رشيد: "فعُلم مما تقدم أنني جئت مصر مستعداً لهذا الإصلاح، كأنني خلقت وتعلمت وربيت لأجله".

وكان رشيد قد عزم على إنشاء مجلة فكرية إصلاحية، تواصل مسيرة «العروة الوثقى»، وبعد عدة أشهر من وصوله ولقائه بعبده فاتحه في الأمر، وكان عبده غير متحمس للفكرة، ويرى أنها لن تنجح، لكن إصرار رضا وإعلانه عن استعداده لتحمل نفقات سنة أو سنتين دون ربح شجع عبده على الموافقة، وقد اشترط رضا على عبده شرطاً للعلاقة بينهما، هو: "أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله، ولا أقبل إلا ما أفهمه، ولا أفعل إلا ما اعتقد فائدته".

وهذا يؤكد استقلالية رضا وتميزه برغم حبه لعبده واحترامه البالغ له.

وبالمقابل وجه عبده لرضا ثلاثة توجيهات في إدارة «المنار» هي: ألا تتحزب لحزب، ألا ترد على انتقادات الصحف الأخرى لها، ألا تخدم أفكار أحد من الكبراء.

وهذا يدل على الوعي المبكر بحاجة الإصلاح للاستقلال، وعدم التبعية للساسة والتجار!! لأن الوضع الصحيح: تبعية هؤلاء والعامة للمصلحين.

وفعلاً صدر العدد الأول من «المنار» في (٢٠ شوال ١٣١٥هـ/١٧-٣-١٨٩٨م)، لتبدأ مشوار نشر الوعي والمعرفة، ومحاربة الجهل والخرافة والبدع، وإرشاد المسلمين لطرق التربية والإصلاح.

وبعد عدة أعداد نصح عبده رضا بعدم الصراحة التامة حتى لا يكثر خصومه، والبعد عن غريب اللغة والحرص على سهولة العبارة؛ لتتسع مساحة المستفيدين من «المنار»، ولا يقتصر على الخواص، والبعد عن الخوض في نقد سياسة الدولة العثمانية.

ورغم أن عبده هو أستاذ رضا الذي نهل من مقالاته وأحاديثه، إلا أن «المنار» كانت مقالات رضا وفكره، ولما ظن بعض الناس أن عبده هو الكاتب الحقيقي لـ «المنار»، أعلن رضا عن خطأ ذلك بوضوح، وقال: "كل ما ينشر في «المنار» غير معزو إلى أحد فهو لصاحب «المنار»؛ فكراً وعبارة".

وحتى التفسير الذي نشر في «المنار» كان رشيد يحضر الدرس ويكتب فيه بعض المذكرات بأهم ما قاله عبده، ثم يبيضها ويضيف إليها ما يراه مناسباً، ويطلع عبده عليها فربما نقح بإضافة أو حذف لكلمة، قال رضا: "ولا أذكر أنه انتقد شيئاً، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به.

على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً إليه، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه، اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها.

وبعد أن توفاه الله -تعالى- صرت أرى من الأمانة أن لا أعزو إليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته حفظاً".

ويؤكد هذا استمرار رضا بالتفسير بعد عبده (٣٠) سنة.

وما أن ظهرت «المنار» ووصلت أخبارها للدولة العثمانية؛ وخاصة الشيخ أبو الهدي الصيادي؛ حتى أوعز بمنعها ومصادرتها من البريد، وفعلاً جمع العدد الثاني وأحرق، ومن ثم قام بالتضييق على عائلة رضا واضطهادهم لإرغامه على إيقاف «المنار»، وكلفوا والده بالسفر إليه في مصر لإقناعه بإيقاف المجلة!

وكما حصل مع العلامة الألوسي في العراق، حاول الصيادي إغراء رضا بالمناصب والتكريم إذا قدم عليه بالأستانة، ولكن رشيد رضا رفض هذه الإغراءات، فكانت النتيجة: أن هاجم أعوان الصيادي أسرته بالقلمون، فضربوا أخوه ليلاً، وانتزعوا المسجد منهم، وحرّضوا علماء طرابلس على مهاجمة «المنار» في الصحف، وأرسلوا لمصر من سرق كل ما في مكتب «المنار»!

وبقي هذا العداء من السلطات العثمانية للمنار مستمراً، وفي السنة الثامنة للمجلة روجوا إشاعة أن والد رشيد يتآمر مع عبده لإنشاء دولة عربية مستقلة، وتم لذلك تفتيش البيوت، وأخذ الناس يحرقون كتبهم وأوراقهم التي قد تضرهم عند السلطات، فأحرقت عشرات الألوف من المجلدات، هكذا كانت أحوال خاتمة الدولة العثمانية!

وتم محاصرة منزل والد رشيد، وسجن أولاده، ورفضت السلطات أن تسمح لأولاده برؤية والدهم ووداعه وهو يحتضر، وعلق على ذلك رضا بقوله: "تدل ببأسها وشدتها، وتمثل قوة الخلافة الحميدية وعظمتها، ليعرف الشيخ المحتضر عجزه عن تأسيس خلافة عربية في قرية القلمون".

ثم حين تضايق حكام مصر من رشيد رضا و«المنار» بسبب إصراره على الإصلاح

ووفائه لأستاذه محمد عبده حتى بعد وفاته؛ لجأوا إلى الإيعاز لوزارة الداخلية أن رشيد رضا مطلوب للتجنيد العسكري في الدولة العثمانية؛ بحسب مخاطبات رسمية وصلتهم منها، فأظهر لهم رضا أنه حائز على الإعفاء من التجنيد أصلاً، وثانياً أنه قد تجاوز سن التجنيد! وهذا جزء من معاناة رضا في سبيل نشر الإصلاح Z .

ولكن هذا لم يفت في عضد رضا بل زاده إصراراً على الإصلاح، ولم يثنه عن عزمه -أيضاً- زهد البعض بـ «المنار» في البداية، بل كان متأكداً أنهم سيعودون إلى «المنار» طال الزمن أو قصر، وفعلاً بعد عدة سنوات أصبح الكثيرون يبحثون عن الأعداد الأولى لـ «المنار» والتي احتفظ بها رضا لسنوات، ولما نفدت أعاد طبع بعض الأعداد لتلبية الطلب عليها.

وقد وصلت «المنار» أصقاع الدنيا كلها، حيث وصلت روسيا وسنغافورة وأندونيسيا شرقاً، والأرجنتين غرباً! وحين زار عبده تونس والجزائر دهش من قوة تأثير «المنار» هناك؛ حتى أصبح فيهما جماعة وحزب وأصدقاء لعبده ورشيد يحملون همّ الإصلاح والإرشاد.

بقيت «المنار» تصدر لمدة (٣٧) عاماً، في (٣٥) مجلداً، وقد صدر العدد الأخير في (٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٤هـ/ ٣٠-٧-١٩٣٥م)، أي: في العام الذي توفي فيه رضا.

وقد صدرت في المجلد الأول بشكل أسبوعي بواقع (٨) صفحات، ومن المجلد الثاني حتى التاسع أصبحت نصف شهرية، كل عدد يحتوي على (٤٠) صفحة.

ومنذ عام (١٩٠٦م) حتى توقفها أصبحت شهرية بواقع (٨٠) صفحة، لكن من عام (١٩١٥م) أصبحت سنة «المنار» (١٠) أعداد، فقط بسبب ظروف الحرب العالمية

الأولى، ثم استمرت على ذلك، وتعرضت لبعض الانقطاعات بسبب سفر رشيد، أو خلل في المواعيد بسبب العجز المالي وأزمات شح الورق.

لقد كانت «المنار» حلم وأمنية ورسالة رشيد في الحياة، قال عنها: "إنني لم أنشئ «المنار» ابتغاء ثروة أنالها ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي به الأقران، وأبارى به أعلياء الشأن؛ بل لأنه فرض من الفروض، يرجى النفع من إقامته، وتأثم الأمة كلها بتركه".

قال أحد المستشرقين عن أثر «المنار»: "لم يشرق منار القاهرة على المصريين وحدهم، ولكنه أشرق على العرب في بلادهم وفي خارجها، وعلى مسلمي أرخبيل الملايو...".

وقال شكيب أرسلان عن عظم جهد رضا: "انصرف رشيد رضا بكليته إلى أعمال القلم، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسدده غيره في الأسابيع...

كان إذا أمسك بالقلم تدفق نحواً وصرفاً وبياناً وبديعاً وفقهاً وحديثاً وتفسيراً وتوحيداً وفروعاً وأصولاً، وكل ذلك في نسق واحد".

ومن الطرائف التي تكشف عن دور رشيد رضا و«المنار» في ذلك الزمان: ما روي عن والدته أنها رأته يوماً حزيناً، فسألته: هل مات أحد من المسلمين في الصين؟ وذلك تعبيراً عن مساحة همّه واهتمامه بشؤون الإسلام والمسلمين.

ولذلك أصبح رضا مقصد الباحثين والمستشرقين والجمعيات العلمية، تمنحه عضويتها، وتتشرف بمراسلته ودعوته.

جوانب الإصلاح في مسيرة رشيد رضا:

من الصعب جدّاً في صفحات قليلة أن نوجز الجهود العظيمة التي استغرق رشيد رضا في إنجازها (٣٥) سنة من عمره، ولتشعب وتعدد هذه المجالات سنقتصر على أبرزها:

١ - الإصلاح الديني:

وهو يشمل: نقد الأوضاع القائمة في سلوكيات العوام والعلماء، وتقديم البدائل الصحيحة.

وقد كانت غالب مقالات ودروس رشيد رضا تصب في هذا الاتجاه، وكذلك كتبه واقتراحاته لإصلاح الأزهر، كانت تهدف لتغيير نمط التدريس، ورفع سوية المقررات، وتنظيم شؤون الأزهر المالية، وتجديد العلوم التي تدرس به، وضخ دماء جديدة بين المعلمين، وتفعيل دور الطلبة بالوعظ في الإجازات الصيفية في القرى والنجوع.

وفصل هذا في كتابه «المنار والأزهر».

وكان للطرق الصوفية النصيب الأكبر من نقده؛ وخاصة الشعائر الجماعية التي ترسخ الجهل والتواكل، وتنتشر فيها الفواحش والمنكرات؛ كالموالد والحضرات.

ودعا رضا للاجتهاد ونبذ التقليد، الذي كان يعتبره سبب لجوء بعض الحكام لتحكيم غير الشريعة؛ بسبب جمود بعض الفقهاء، ورفضهم للاجتهاد في مستجدات العصر، فلجأ الحكام لاستيراد القوانين الوضعية، وكان باب الفتاوى في «المنار» نموذجاً للتحرر الفقهي والتطبيق العملي للفقه المقارن وفقه الدليل، وفتح باب الاجتهاد المعاصر.

ونصر رشيد رضا منهج السلف بكل وضوح، ومن ذلك قوله: "وكنا نظن في أوائل الطلب أن مذهب السلف ضعيف، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلف، لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم؛ لا سيما الحنابلة أو بعضهم.

ولما تغلغلنا في علم الكلام وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشاعرة بالكتب التي تبين مذهب السلف حق البيان لا سيما كتب ابن تيمية؛ علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب، وأن كل ما خالفه فهو ظنون وأوهام، لا تغني من الحق شيئاً!".

وقد لقيت دعوته هذه قبولاً، فيقول: "ونحمد الله -تعالى- أن رأينا تأثيراً كبيراً لدعوتنا المسلمين لهداية الكتاب والسنة، فصار يوجد في مصر وغيرها ألوف من الناس على هذه الهداية، ومنهم الدعاة إليها، وأولو الجمعيات التي أسست للتعاون على نشرها؛ على تفاوت بينهم في العلم بها، وجهل بعضهم أصل هذه الدعوة ومن جدد نشرها".

ونشر رشيد رضا علم السنة بأبحاثه في مجلة «المنار» ولو كانت فائدة هذه الأبحاث فقط: استفادة الشيخ الألباني منها، وتوجهه لطلب علم الحديث حتى صار من أعلامه الكبار في تاريخ الأمة؛ لكفى رشيد رضا فضلاً.

٢ - الإصلاح التعليمي:

استفاد رشيد رضا من تجربة الأفغاني وعبده بأهمية دور التعليم في نشر الإصلاح وترسيخه في الأمة، ولذلك كان دائم التفكير -بعد إصدار «المنار»- في إنشاء مدرسة أهلية مستقلة، تستقطب نجباء الطلبة من بلاد المسلمين، وتعلمهم وتربيهم ليكونوا رسل الإصلاح ودعاة الإرشاد.

وكانت الفكرة عند رشيد منذ فتوته: "كنت في أيام طلبي للعلم في طرابلس الشام أتردد بعد الخروج من المدرسة إلى مكتبة المبشرين الأميركانيين، أقرأ جريدتهم الدينية وبعض كتبهم ورسائلهم، وأجادل قسوسهم ومعلميهم، وأتمنى لو كان للمسلمين جمعية كجمعيتهم، ومدارس كمدارسهم، ولما هاجرت إلى مصر وأنشأت «المنار» قويت عندي هذه الفكرة".

وكان رشيد يعتبر هذا المشروع أكبر أهدافه في الحياة؛ لأنه يجمع شمل المسلمين على اختلاف عرقياتهم، ويعمل على تكوين قادة ودعاة تنير عقولهم العلوم النافعة والتربية الصالحة، وقد بدأ تنفيذ الحلم سنة (١٣٢٣هـ) بمقال في «المنار» بالدعوة إلى تأسيس جمعية الدعوة التي ستؤسس مدرسة لتخريج الدعاة، وفعلاً استجاب عدد من الفضلاء للفكرة، وعقدت عدة اجتماعات.

ثم طرح مصطفى كامل فكرة إنشاء الجامعة المصرية، وحصلت العسرة المالية في مصر فتوقفت الفكرة، لكن رشيد لم ييأس.

وفي سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) سافر رضا للآستانة بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد، وعرض فكرة إنشاء جمعية ومدرسة الدعوة والإرشاد على رئيس الوزراء حسين حلمي؛ الذي وعده بتقديم المساعدة، لكن سرعان ما تغيرت الوزارة وجاء إبراهيم حقي.

ولكن قام في وجه رشيد رضا ملاحدة من جماعة حزب الاتحاد والترقي، فعطلوا الفكرة، ثم حاولوا الالتفاف على الفكرة؛ فعرضوا على رشيد أن يؤسس المدرسة باسمه ولاحقاً يمنح رخصة الجمعية، فرفض رشيد حتى لا تكون المدرسة لورثته وهو يريدها للأمة.

وفي هذا دلالة على وعي رشيد بأهمية الدور المؤسس للأعمال الإصلاحية، وأن لا تبقى محصورة في أشخاص.

ثم تقرر إنشاء جمعية العلم والإرشاد، وحذفت الدعوة والتبشير من أهدافها، وتم اقتصار غايتها على دعوة المسلمين فقط، برغم أن من دواعي تأسيس المدرسة: تهيئة دعاة مؤهلين لدعوة غير المسلمين، ووافق رشيد على ذلك، واختير عدد من الفضلاء لتأسيس الجمعية، ثم حين طالب رشيد بصرف الدعم المالي الذي وعدوا به، جاء الرد باشتراط وضع المدرسة تحت إدارة ومسؤولية شيخ الإسلام، فلم يقبل أعضاء الجمعية بذلك، وكان رشيد يدرك أن هذه المدرسة لا يصلح أن تدار بروح الإدارة الحكومية التي تنتج موظفين، لا دعاة ومرشدين مخلصين، فعاد لمصر بعد سنة كاملة حاول فيها دون جدوى.

وعاد رشيد لمصر ليواصل الحلم، وفعلاً في سنة (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) تأسست جمعية الدعوة والإرشاد، وباشرت التأسيس لإنشاء مدرستها؛ والتي افتتحت في سنة (١٣٣٠هـ/١٩١٢م).

ووضع رشيد رضا نظامها الإداري ومنهجها التعليمي، ونصت في نظامها على الغايات التالية:

¤ مقصد هذه الجماعة: إنشاء مدرسة كلية باسم (دار الدعوة والإرشاد) في مصر القاهرة؛ لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه، والإرشاد الصحيح، وإرسالهم إلى البلاد الشديدة الحاجة إليهم على قاعدة تقديم الأهم على المهم.

¤ يرسل الدعاة إلى البلاد الوثنية والكتابية التي فيها حرية دينية، ولا يرسلون إلى بلاد الإسلام إلا حيث يُدعى المسلمون جهراً إلى ترك دينهم والدخول في غيره، مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الإسلام ويبينون حقيقته لأهله.

¤ لا تشتغل هذه الجماعة بالسياسة مطلقاً؛ لا بالسياسة المصرية، ولا بسياسة الدولة العثمانية، ولا بسياسة غيرها من الدول.

وواضح من غايات الجمعية/المدرسة الوعي المبكر بضرورة فصل العمل الدعوي والتعليمي عن العمل السياسي، خاصة وأن المسلمين واقعون تحت الاحتلال، ولذلك فمن المصلحة والحكمة رعاية وحماية الدعوة والتعليم من الإيقاف والتعطيل.

وقد قام بالتدريس فيها نخبة من المدرسين الذين غدوا من العلماء والمصلحين، ومنهم: الشيخ حامد الفقي، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والعلامة محب الدين الخطيب.

وممن تعلم في هذه المدرسة: الحاج أمين الحسيني -مفتي فلسطين-، وكان فيها طلبة متنوعون أتراك وشركس وهنود وجاويون وغيرهم، ومع وقوع الحرب العالمية الأولى اضطربت الأحوال وتوقفت الهبات والإعانات، وللأسف توقفت المدرسة في عام (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، واستمر رشيد رضا في طريق الإصلاح بـ «المنار» والمحاضرات ومتابعة الشؤون العامة، ولكن بقيت للجمعية آثار كبيرة من خلال المدرسين الذين تفرقوا في البلاد وحاولوا اعادة التجربة بشكل أو أخر، أو من خلال الطلبة الذين أصبحوا قادة في بلادهم ومجتمعاتهم مثل: الحاج أمين الحسيني؛ الذي قاد ثورة الشعب الفلسطيني ضد بريطانيا واليهود.

ومن الإصلاح التعليمي لرشيد رضا: أنه ساهم في وضع مناهج مدرسية لعدد من المدارس في الكويت والبحرين والهند، وذلك من خلال رحلاته وزياراته.

٣- الإصلاح المؤسساتي:

كان رشيد رضا يدرك أهمية إنشاء الجمعيات، وأنها تجمع الطاقات وتعظمها وتكسبها الاستمرارية، وأنها سبيل نهضة الأمة؛ فيقول عن دور الجمعيات في تربية الأمة ونهضتها: "وإنما يقوم بذلك على الوجه النافع خيار الأمة ديناً وعقلاً وأدباً، بتأليف الجمعيات الخيرية والعلمية، فإن لم يوجد من هؤلاء من يقوم بهذا العمل على وجهه بالتعاون، فإن الأمة تظل مذبذبة لا يستقيم لها أمر، ولا يتم فيها إصلاح".

وكان يسعى لتكوين الجمعيات المتخصصة، فجمعيات تعليمية، وجمعيات سياسية، وجمعيات اقتصادية، وهكذا، فيقول: "وزماننا هذا زمان الجماعات العلمية والأدبية والسياسية، والشركات الزراعية والصناعية والتجارية".

وكان رضا يعرف أن «المنار» مبادرة فردية تنتهي بحياته، وأن المهم هو: وجود مؤسسات لا ترتبط بحياة أصحابها، وتستمر في حمل الدعوة والإصلاح، ولذلك حين صدرت مجلة «نور الإسلام» التابعة للأزهر بشكل رسمي، قرضها في «المنار»، وتمنى "أن تكون خيراً من «المنار» في خدمة الإسلام؛ لما يرجى من دوامها بكونها لمصلحة إسلامية غنية لا شخص قد تموت بموته".

وفعلاً كان لرشيد دور مركزي في إنشاء الجمعيات في مختلف البلدان الإسلامية وفي مختلف المجالات.

٤ - الإصلاح السياسي:

مارس رشيد الرضا السياسة بكافة أشكالها ومواقعها، المعارضة والحزب والنيابة، والمسؤولية السياسية، والعلاقة مع الحكام، والتفاوض مع الأشقاء، والتحالف مع المختلفين، ومخاطبة قادة الاحتلال، ولقاء الساسة في أوروبا.

وهذا باب واسع يحتاج إلى كتاب مستقل لمعرفة تفاصيله، ولعله أكثر ما كتب عنه وركز على هذا المجال، ولم يقتصر إصلاحه السياسي على الممارسة بل شمل التنظير لرؤية شرعية سياسية معاصرة، فصلها في كتابه «الخلافة» والعديد من المقالات في «المنار».

وأيضاً كانت له مواقف وتحليلات سياسية مبكرة في غاية الدقة والخطورة، فهو أول من حذر من المشروع الصهيوني الزاحف لاحتلال فلسطين، عقب مؤتمر بال الصهيوني سنة (١٨٩٧م)، ففي مقال له سنة (١٩١٠م) يقول عن اليهود: "هدفهم: أن يملكوا بيت المقدس وما حوله؛ ليقيموا فيه ملك إسرائيل".

ومن قبل كان أول من تصدى لطلائع العلمانية وفصل الدين عن الدولة، ورد على مقالاتهم ودعاياتهم من سنة (١٨٩٩م)، ومما يؤكد هذا العمق السياسي عنده: شهادة ابن عمه عبد الرحمن عاصم -الذي لازمه سنوات طويلة جداً كمساعد وسكرتير-: "كان السيد يدرك من أسرار السياسة وغوامضها ما يقصر عنه كثيرون من المشتغلين بها".

وفاته:

عاش رشيد رضا (٧٠) عاماً، قضى أكثر من (٥٠) سنة منها في الدعوة للإصلاح العام، والاهتمام بشؤون المسلمين، ومات وهو يؤدي مهمته في الدعوة والإرشاد والنصح للمسلمين، فقد توفي في حادث سيارة وهو عائد من وداع ولي العهد

السعودي في مدينة السويس، بعد أن اجتمع به وتباحثا في شؤون المسلمين، وذلك سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

ولعل من أفضل ما قيل في حق رشيد رضا على الأمة: ما قاله محب الدين الخطيب: "إن السيد رشيد رضا رغم ذيوع اسمه، وطول اتصاله بالجماعات والحوادث والصحافة؛ كان في علمه وفضله أعمق غوراً من أن يعرفه أكثر الناس كما هو في الحقيقة، وإن الذين عرفوا جوانبه العامرة بالفضل والسبق والتفوق قليلون جدّاً.

ولو أن هذا الرجل الراحل كفي إدارة أعماله كلها، وانقطع للتأليف والتدوين، وكان في أمة تعرف كيف تستفيد من رجالها في حياتهم؛ لكان أعظم إنتاجاً من أكبر الرجال الذين يشار إليهم بالبنان في الأمم الأخرى".

مراجع للتوسع:

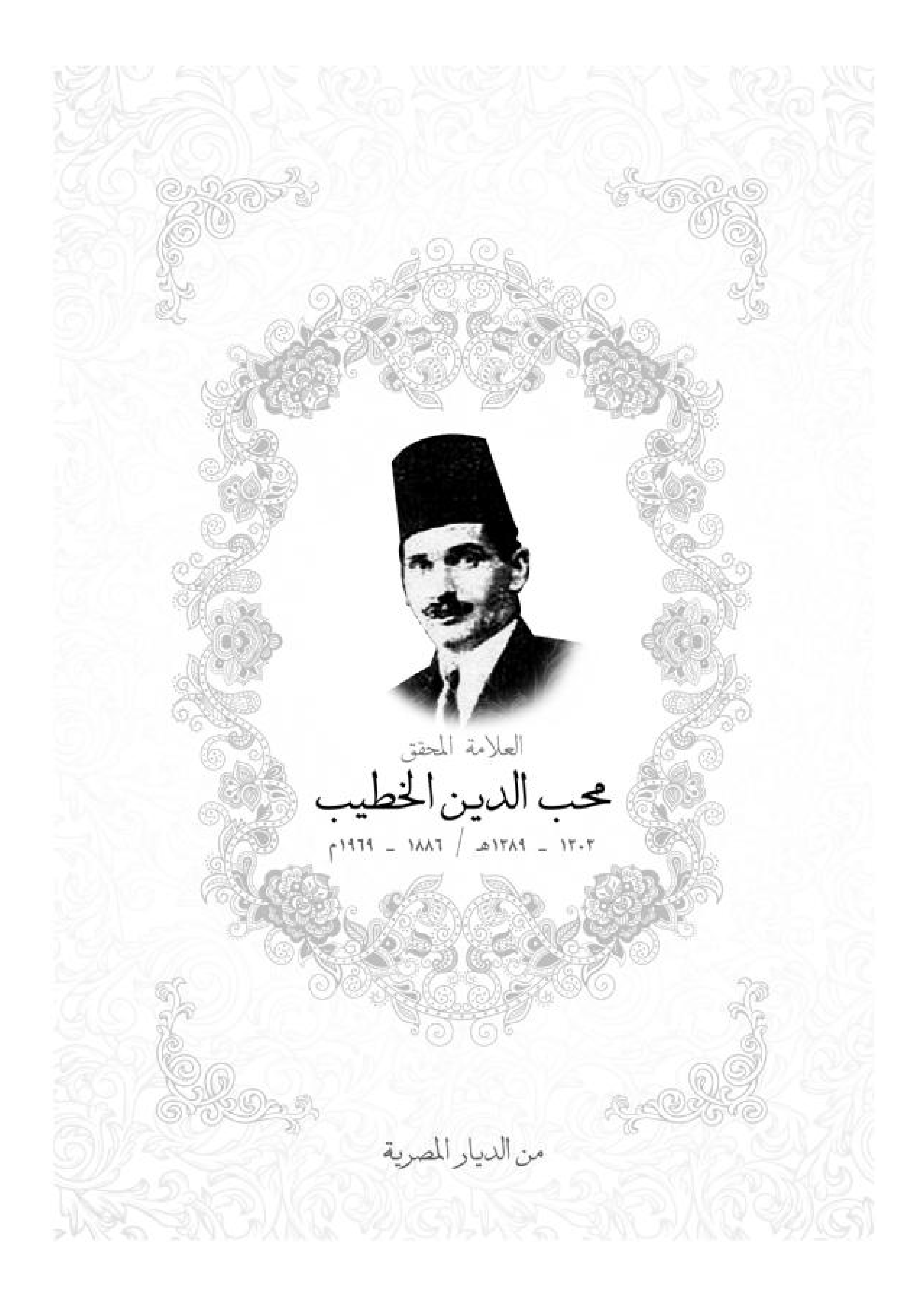
o سيرته الذاتية في كتابه «المنار والأزهر».

o «رشيد رضا الإمام المجاهد»، د. إبراهيم أحمد العدوي، المؤسسة المصرية العامة، (١٩٦٤م).

o «من أعلام الإحياء الإسلامي»، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، ط ١، (٢٠٠٦م).

o «السيد محمد رشيد رضا - إصلاحاته الاجتماعية والدينية»، د. محمد درنيقة، مؤسسة الرسالة، ط١، (١٩٨٦م).

o «الإمام محمد رشيد رضا في ميادين المواجهة»، فيصل بن عبد العزيز السدحان، مكتبة أهل الأثر، ط١، (٢٠١١م).


العلامة المحقق
محب الدين الخطيب
١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ / ١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م
من الديار المصرية

١٩- العلامة المحقق محب الدين الخطيب

(١٣٠٣-١٣٨٩هـ/ ١٨٨٦-١٩٦٩م)

تمهيد

لا يضر محبّ الدين أن كثيراً من الناشئة والعامة بل والخاصة لا يعرف له قدره ودوره، فهو آثر دوماً أن يكون في الصف الخلفي والمتواري، رغم أنه كان يستطيع وبكل سهولة أن يكون محط الأنظار وصاحب القرار، لكنه منذ نشأ وهو يعي أهمية الإخلاص للنجاح، وأن القضية نهضة أمة وليست مكانة فرد، وعلى هذا ربى أبناءه وإخوانه.

يكاد محب الدين أن يكون الجندي المجهول في ظهور الصحوة الإسلامية المعاصرة، فهو صاحب التجربة والخبرة الطويلة مع العلم والحكمة؛ والتي منحها للجيل التالي الذي كان على رأسه الأستاذ حسن البنا -مؤسس جماعة الإخوان المسلمين-، ومن آخرهم الشيخ محمد إسماعيل المقدم -الأب العلمي للدعوة السلفية بالإسكندرية-، ويكفينا شهادة الشيخ زهير الشاويش -وهو المؤرخ النبيه للتاريخ المعاصر- فيقول عن محب الدين: "وبقي حتى وفاته لولب الحركات الإسلامية في مصر"، وقال عنه عبد الغني العطري: "شعلة من الحيوية والذكاء، والغيرة على العروبة، وكان قبل هذا من أكبر الدعاة للإسلام في العصر الحديث".

لعب محب الدين أدواراً إصلاحية متعددة ومتميزة، وذلك بما حباه الله من شخصية فريدة وعقلية علمية منظمة.

مولده ونشأته:

ولد محب الدين الخطيب في دمشق سنة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)، وعائلته من الأشراف وأصلها من بغداد، وهي معروفة بالعلم والفضل، فأبوه هو الشيخ أبو الفتح الخطيب، من علماء دمشق ومدرسيها وخطبائها، وكان أول أمين عين للمكتبة الظاهرية التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري، وبقي مسؤولاً عنها حتى وفاته، كما أن جده الشيخ عبدالقادر الخطيب كان من علماء دمشق.

تعرض محب الدين لليتم مبكراً؛ فقد توفيت والدته وعمره (٧) سنوات، وذلك أثناء عودتها من الحج، ودفنت في الطريق بين مكة والمدينة، فتولاه والده برعايته واهتمامه، ولكنه سرعان ما توفي -أيضاً- بعد (٥) سنوات من وفاة أمه.

تعلم محب الدين مبكراً القراءة والكتابة وتلاوة القرآن قبل ذهابه للحج، وبعد رجوعه لدمشق ألحقه أبوه بالتعليم الابتدائي، واختار له أفضل مدرسة وهي: مدرسة الترقي النموذجية، والتي كانت تتشارك مع المكتبة الظاهرية في نفس البناء الكبير، وهذا وثق علاقة محب الدين بأبيه وبالمكتبة الظاهرية مبكراً، فهو كان يرافق أباه كل صباح للمدرسة، وأيضاً في ساعة الظهر يعود لأبيه فيتغدى معه، وفي المساء يعود مع معه للبيت.

وبعد أن تخرج بتفوق من المرحلة الابتدائية ألحقه أبوه بالتعليم الثانوي في المدرسة الوحيدة في دمشق، وهي مشهورة باسم (مكتب عنبر)؛ التي تخرج منها فطاحلة الشام، ولكن بعد سنة من التحاقه بها توفي أبوه، وتيتم محب الدين وعمره (١٣) سنة، فرأى أهله أن يترك المدرسة ويمضي في طلب العلم الشرعي كأبيه، فقضى سنتان يدرس على علماء الأسرة وغيرهم، وكانت ترعاه أخته الكبيرة.

عناية الشيخ طاهر الجزائري بمحب الدين:

يقول الخطيب في مذكراته: "ثم قيّض الله لهذا اليتيم الضعيف أستاذاً في أسمى مراتب الإنسانية؛ فأخذ بيده، وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه الله إليه في الحياة..، فهو أبوه الروحي".

ويبدو أن الشيخ طاهر في تلك السنتين كان خارج دمشق، فلما عاد وعلم بوفاة صديقه أبي الفتح سعى لدى مديرية أوقاف دمشق -بصفته المفتش العام للدولة العثمانية على دور الكتب- على تكليف الولد بوظيفة أبيه على أن ينوب عنه من يقوم بالعمل حتى يبلغ سن الرشد، وفي فترة انتظار ابتداء الدراسة كلفه الشيخ طاهر بنسخ بعض مخطوطات الظاهرية لأئمة الإسلام كابن تيمية وأضرابه، لتتوسع مداركه، وينتفع علمياً، وتتنوع ثقافته ويستفيد ماليّاً بأجرة النسخ، ولا تزال هناك مخطوطات بخط محب الدين في فتوّته في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية، وهذا يدل على العلاقة الوثيقة والعميقة لمحب الدين بالعلم وبالسلفية وبالمخطوطات منذ حداثة سنه، وليس بسبب علاقته بالدولة السعودية أو الوهابية!

ثم حثه الشيخ طاهر على العودة للدراسة في مكتب عنبر، ومدة الدراسة فيها سبع سنوات، والدراسة فيها باللغة التركية حتى اللغة العربية كانت تدرس بالتركية! وبقي محب الدين يدرس في مكتب عنبر حتى السنة السادسة، إذ ضُبط محب الدين يطالع في داخل الفصل كتاباً سياسيّاً ممنوعاً، فيه قصائد لبعض الأتراك المناهضين للاستبداد الحميدي، فعمل لمحب الدين محضر تحقيق، ووقفت الإدارة ضده وعملت على رسوبه، لكنها لم تفلح، فتقدم بطلب انتقال إلى مدرسة بيروت الثانوية، فأكمل دراسته فيها وتخرج من الثانوية سنة (١٩٠٥م).

وسبب مطالعته لهذه الكتب الممنوعة أنه بأمر من الشيخ طاهر كان يتردد على مدرسة عبدالله عند الأستاذ أحمد النويرتي لتعلم العربية، والذي قرأ عليه «ألفية ابن مالك»، واتقن تلاوة القرآن، واستفاد من أخلاقه وخبرته بالناس وكيفية التعامل معهم.

وأيضاً في هذه المدرسة كان هناك غرفة للعلامة جمال الدين القاسمي يلتقي فيها تلاميذه ومنهم أخوه الصغير صلاح الدين القاسمي -صديق العمر لمحب الدين-، فكانوا يحضرون بعض مجالسه، وأيضاً كان للشيخ طاهر غرفة يلتقي فيها أصحابه وخلانه؛ والذين كان لهم حلقة تعرف بحلقة دمشق تضم رواد الفكر والإصلاح كالشيخ طاهر والقاسمي والشيخ عبدالرزاق البيطار ومحمد كرد علي وسليم البخاري وغيرهم، كان محب الدين الاستثناء بينهم لصغر سنه، وكانت هذه الحلقة هي المحضن الأساس لصقل شخصية ومنهجية محب الدين باتجاه الالتزام بالإصلاح الديني والشامل لكل مناحي الحياة، وضرورة العمل على بث العلم والعمل والمشاركة في الشأن العام لما فيه نهضة الأمة ومحاربة العدوان عليها من الداخل والخارج.

هذه العلاقة بين محب الدين والشيخ طاهر جعلته يوسع معارفه وثقافته، ويحرص على المطالعة في دار الكتب الظاهرية وفي جمعية القديس يوحنا الأرثوذكسية؛ والتي خصصت غرفاً للمطالعة في مدخل حي النصاري بدمشق، وكان يطالع فيها مجلات مصر الكبرى كـ (المقتطف والهلال)، وأيضاً كان يحرص على شراء الكتب من بيروت ودمشق.

واكتسب محب الدين صفة حميدة هي أن الكتاب الذي يروق له يقوم بقراءته مرة

أخرى مع أصدقائه، وبذلك شكل محب الدين الحلقة الصغرى بدمشق، وكان هو حلقة الوصل بين الحلقتين الكبرى بقيادة الشيخ طاهر والصغرى بقيادته، وكان له ثلاثة زملاء يشاركونه همّه وهمته وهم: الأمير عارف الشهابي، و د. صلاح القاسمي، وصالح قنباز، لكنهم ماتوا مبكراً، وبقي محب الدين وحده يحارب في سبيل المبادئ التي آمنوا بها.

وفي هذه المرحلة بدأ محب الدين محاولة كتابة المقالات، وذلك بالترجمة من المجلات التركية ونشرها في مجلة (ثمرات الفنون)، وكان يوقع بحرفي (م. خ)، ثم صرح باسمه، وفيما بعد سيصبح محب الدين من أهم كتاب ومنشئي الصحافة الإسلامية.

الانتقال للجامعة في إستنبول:

في نهاية عام (١٩٠٥م) وصل محب الدين إستنبول -عاصمة الدولة العثمانية-، والتحق بكليتي الحقوق والآداب، لكنه صدم بأن غالب الطلاب العرب هناك يجهلون قواعد النحو والإملاء العربية، فضلاً عن جهلهم بالأدب والثقافة العربية، بل حتى أنهم يتكلمون بالتركية فيما بينهم، وأن حرصهم متوجه لتعلم التركية وإتقانها للحصول على وظيفة جيدة ومرموقة، وقرر محب الدين تغيير هذا الحال مع ما فيه من خطورة.

وهذا يكشف لنا عن جوانب مظلمة في تاريخ الدولة العثمانية والتي كانت سبباً في زوالها وسبباً في ثورة الناس ضدها؛ خاصة حين تم الانقلاب على السلطان عبد الحميد، ومن ثم إلغاء الخلافة والإسلام على يد أتاتورك.

فطلب محب الدين من محمد كرد علي -الذي تعرف عليه في حلقة دمشق الكبرى- أن يرسل له بالبريد ما يفيض لديه من صحف عربية ومجلات، لينشرها بين

شباب العرب بإستنبول، وفعلاً أصبح كثير من الشبان يزورون غرفة محب الدين للاطلاع على المجلات العربية.

ولم يكتفِ بهذا، بل قام بعقد جلسات في النحو لبعض الطلبة ولمّا زاد عددهم قسمهم إلى مجموعتين: مجموعة بقيادته، ومجموعة بقيادة الأمير عارف الشهابي، وقد فرض محب الدين غرامات على من يتغيب عن الدرس، ثم أطلق على هؤلاء الشبان وعملهم اسم: (جمعية النهضة العربية) في سنة (١٩٠٦م)، ثم نقل نشاطه إلى قهوة يرتادها الشبان العرب، ولما زاد العدد بحث عن مكان يقيم فيه احتفالاً لهم، واستقر رأيه على حديقة لأحد أعيان البصرة في جزيرة، وتم ذلك الحفل في سنة (١٩٠٧).

وهنا تنبهت السلطات لهذا النشاط وبدأت تلاحقه؛ وفعلاً جاء لغرفة محب الدين أحد المسؤولين لضبط صاحب الغرفة، وشاءت إرادة الله أن يكون عربيّاً وصديقاً لعم محب الدين، فنصحه بإيقاف نشاطه، وإتلاف ما لديه من أوراق وصحف عربية، وفعلاً عمل محب الدين ورفاقه بالنصيحة، وكان محب الدين قد أنهى السنة الثانية من دراسة الحقوق بنجاح، وأوقف دراسة الآداب بسبب عدم تفرغه، ولما زادت المراقبة والمضايقة اقترح عليه رفاقه أن يقضي العطلة الصيفية في دمشق؛ لتهدئة الأوضاع ثم يعود فيكمل دراسته، ولكن من هنا سارت حياة محب الدين في محطات متنوعة وكثيرة، ولم يكن منها إكمال دراسة الحقوق قط!!

من المهم هنا التنبه إلى أن جمعية النهضة العربية التي أسسها محب الدين في إستنبول سنة (١٩٠٦م)، هي أول جمعية يؤسسها محب الدين وعمره (٢٠) سنة، وستكون فاتحة عمله ومشاركته المحورية في العديد من الجمعيات والتنظيمات، ويمكن أن نستنتج من هذا أن محب الدين استفاد من حلقة دمشق بقيادة الشيخ طاهر المعرفة بالجمعيات

ودورها المركزي في السعي لتحقيق الإصلاح.

العودة إلى دمشق:

في صيف سنة (١٩٠٧م) عاد محب الدين إلى دمشق لصرف الأنظار عن نشاطه بالعاصمة إستنبول، وكانت فرصة لمتابعة فرع دمشق من جمعيته النهضة العربية، إذ كان محب الدين قد راسل من إستنبول اثنين من أعضاء حلقته الصغرى بدمشق بخبر الجمعية، وطلب منهما إنشاء فرع لها بدمشق، وفعلاً قاما بذلك، ولما جاء محب الدين اجتمع بأعضاء الفرع الدمشقي.

كان محب الدين يظن أن بقاءه في دمشق سيكون لفترة قصيرة، لكن سرعان ما جاءته رسالة من رفاقه هناك تدعوه للبقاء سنة بعيداً عن إستنبول، وذلك بسبب وشايات ودعايات ضده يروجها بعض الحاقدين، ولذلك تقرر نقل مركز الجميعة لدمشق، وكان مما تميزت به هذه الجمعية عن سواها من الجمعيات العربية أنها لم تقتصر على أعضاء من مدينة أوبلد واحد، بل تنوعت بلاد أعضائها لكونها نشأت في العاصمة العثمانية وليس في قطر عربي.

السفر إلى اليمن:

لما تقرر ابتعاد محب الدين سنة كاملة عن الجامعة بحث عن مهمة يقوم بها، وفعلاً سمع في حلقة دمشق والتي بقيت تعقد جلساتها رغم هجرة الشيخ طاهر الجزائري إلى القاهرة عن طلب القنصلية البريطانية بمدينة الحُدَيدة باليمن مترجماً لها، فطلب أن توكل إليه فاعترض أعضاء الحلقة، لأنهم يرون أنه لا بد أن يكمل دراسته الحقوقية، ولأنهم يعلّقون عليه آمالاً كثيرة، فلما أخبرهم أنه لا يمكنه العودة حاليّاً للدراسة، وأنها فرصة للتعرف على أحوال اليمن، والعمل على التواصل مع أهله لنهضة الأمة؛ وافقوا

وساعدوه على الحصول على الوظيفة.

ومنها ندرك أن حلقة دمشق كانت حلقة علم وعمل وتخطيط ونهضة.

سافر محب الدين إلى اليمن مروراً بالقاهرة، فلقي شيخه الجزائري وصديقه كرد علي، وتناول الحديث جمعية النهضة العربية ودورها المرتقب، وهناك التقى بعدد من قادة الرأي والعلماء والمصلحين، مما ساعده فيما بعد على الاستقرار بالقاهرة.

ومن أهم نتائج زيارته للقاهرة: تعرفه على جمعية الشورى العثمانية التي تدعو إلى حكم الشورى بعودة الحكم النيابي ومحاربة الاستبداد، وكان على رأسها الأديب التركي عبدالله بك جودت والسيد رشيد رضا ورفيق بك العظم، وكان للجمعية (١٣) فرعاً بالبلاد العربية، وأوكلوا لمحب الدين افتتاح فرع لها باليمن من العثمانيين الصالحين.

وواصل محب الدين طريقه لليمن، فوصلها في (٢٧/١١/١٩٠٧م)، وهناك حرص على التواصل مع اليمنيين والتعرف على أحوالهم، وفعلاً استطاع في وقت سريع التعرف على مجموعة من الضباط العرب الذين أبعدوا لليمن عقوبة لهم على رفضهم للظلم والاستبداد، وعلى رأسهم قائد الحُديدة البكباشي شوقي بك المؤيد العظم، وأسسوا فرعاً لجمعية الشورى العثمانية، بعد اطلاعهم على قانونها وصحيفتها الصادرة بالعربية والتركية، وأصبح هؤلاء الضباط ينشرون فكر الجمعية باليمن.

وهناك تعرف محب الدين إلى القاضي الشرعي وأصله من مسلمي بعض الجزر في البحر الأبيض، فحرص على تحبيبه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، فمحب الدين كان يسعى للإصلاح الشامل وعلى جميع الأصعدة.

ومن اليمن كان يواصل المراسلة مع رفاقه في جمعية النهضة بدمشق وجمعية

الشـورى بالقـاهرة، ويتـابع مسـيرة الإصـلاح في دمشـق والقـاهرة والـيمن، ولمـا أعلـن السلطان عبد الحميد إعادة العمل بالدستور سنة (١٩٠٨م) تجاهـل قائـد الـيمن ذلـك، في محاولـة لإبقـاء الحـال عـلى مـا هـو عليـه، واسـتغلال جهـل النـاس وبُعـد الـيمن عـن العاصمة بعدم تغيير الواقع.

لكن محب الدين أقنع رفاقه بالقيام باحتفال علني بعـودة الدسـتور وفـرض ذلـك على القيادة، وفعـلاً تـم إطـلاق المـدافع والصـواريخ فرحـاً بعـودة الدسـتور وأسـقط في أيدي القادة.

في تلك المرحلة كان هـدف الكثير مـن المصـلحين: العمـل عـلى محاربـة الاسـتبداد والضـعف، ولم يكـن هنـاك تفكـير عنـد المصـلحين العـرب؛ وخاصـة المسـلمين مـنهم بالانفصال عن الدولة العثمانية، بل غايتهم تقويتها وإصلاحها، ولم تكـن التمايـزات قـد ظهرت ولم يكن هناك وضوح في الخيارات الأيديولوجية، وذلك حين فـرض الدسـتور فرحت جمعية الشورى العثمانية، واندمجت في جمعية الاتحاد والترقي؛ والتي كانت تمسك بمفاصل الحكم في إستنبول.

من المهم هنا الانتباه إلى أن مسـاوئ جمعيـة الاتحـاد والترقـي لم تظهـر إلا بعـد سـنة (١٩١٠م) تقريبـاً، وبشـكل متـدرج، حتـى وصـلت إلى مرحلـة إلغـاء الخلافـة سـنة (١٩٢٤م)، ومن هنا يجـب الحـذر مـن إطـلاق الأحكـام بشـكل اعتبـاطي دون مراعـاة للزمان والظروف.

ومن نشاطات محب الدين بالحُدَيدة: قيامه بتجديد وتطوير المدرسة الأميرية فيهـا، فقد طلب من زملائه في جمعية الشورى التطوع للتدريس مجانـاً للطلبـة، وحـث التجـار

على التبرع بأحذية وأقمشة لتوفير زي مدرسي للطلبة، ونظم محب الدين للطلبة بعض الأناشيد، ووفر لهم عسكريّاً ينظم لهم بعض الألعاب الرياضية والتمارين، فارتفع عدد الطلبة من (٣) إلى (٣٠٠) في أسبوعين.

وكان محب الدين يؤمن أن المعلم هو المسؤول الأول وبشكل كبير عن نقل الأمة من حالة التخلف والجمود إلى حالة الرقي والتقدم؛ ولذلك اهتم في العديد من مقالاته بالتركيز على هذه القضية، وألّف فيها كتابه «إصلاح الأزهر»، كما أنه شارك في تجربة السيد رشيد رضا بإقامة مدرسة الدعوة والإرشاد؛ والتي كانت تهدف لإعداد الدعاة والمعلمين، لكن لم يكتب لها الاستمرار طويلاً؛ حيث أسند إليه رشيد رضا تدريس مادة طبقات الأرض (الجيولوجيا).

ثم عمل محب الدين على إنشاء مطبعة وجريدة تنهض باليمن ثقافيّاً، فحث زملاءه على تأسيس شركة مساهمة لهذا الغرض، وفعلاً وافق على ذلك مجموعة من الناس، وقام محب الدين بمخاطبة شركات آلات الطباعة للحصول على (كتالوجاتها)، لكنه لم يتمكن من إتمام المشروع بسبب مطالبة جمعية النهضة العربية له بسرعة العودة لدمشق لإصدار صحيفة باسم (النهضة العربية).

وفي اليمن -بعد عودة الدستور- سعى محب الدين للصلح بين الدولة العثمانية والإمام يحيى (حاكم اليمن)، وذلك بإقناع الطرفين أن العداء كان بسبب الظلم، وبما أن الامور تغيرت فلنفتح صفحة جديدة بين الطرفين، يطلق الإمام ما لديه من جنود عثمانيين أسرى وهم (٣٠٠) أسير، وتعترف الدولة للإمام بوضعية مماثلة لوضعية شريف مكة في الشؤون الدينية، وللدولة سائر الشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية، وفعلاً تم الاتفاق، واستمر هذا الحال إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وبعد سنة تقريباً غادر محب الدين اليمن عائداً إلى دمشق، وترك خلفه فيها بصمات قوية وظاهرة، وهي تحتاج إلى بحث أعمق عمّا آلت له بعد سفره، ويجب أن نتذكر أن محب الدين فعل كل هذا وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره!

العودة إلى دمشق:

وعن خططه لهذه المرحلة: "كانت النية أن يعمل على تجديد نشاط جمعية النهضة العربية، وأن يصدر في دمشق صحيفة باسم الجمعية، وأن يكون ذلك في داخل نطاق الدستور العثماني وقوانينه"، لكنه فوجئ بـ "أن الدولة تأبى أن تعترف بعنوان جمعية النهضة العربية، لأن كلمة العربية غير مرغوب فيها من الدولة العثمانية، وأجبروا الجمعية على أن تجعل اسمها: (جمعية النهضة السورية)"، وكانت هذه من إرهاصات خلاف محب الدين ورفاقه العرب مع الاتحاديين، خاصة حين ساءت الأحوال في كل الدولة العثمانية بسبب سياسات الاتحاديين المنحرفة.

وبعد أشهر معدودة من عودته لدمشق قام بكتابة مقالات لمجلة فكاهية ساخرة ومنتقدة للأحوال الفوضوية بعد إعادة العمل بالدستور العثماني سماها عمال المطبعة: (طار الخرج)، فاستاءت الحكومة من هذه المجلة، وبحثت عن الكاتب والناشر لها، فنبهه أصدقاؤه في الحكومة لضرورة المغادرة؛ فسافر لبيروت، ومن ثم أرسلوا له رسالة طالبوه بالسفر لإستنبول حتى لا تقبض عليه السلطات.

بقي هناك بضعة أشهر حتى علمت حكومة سوريا بوجوده بالعاصمة، فلاحقته، فلم يجد بدّاً من الهرب للقاهرة -الواقعة آنذاك تحت حكم الإنجليز-، حتى لا تطاله يد حكومة الاتحاد والترقي؛ الذين كانوا شركاءه!

الاستقرار في القاهرة:

وصل القاهرة في (أغسطس - آب ١٩٠٩م)، وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة محب الدين وتستمر معه (٦٠) عاماً، يظهر فيها الجانب الثقافي والإعلامي أكثر من الجانب السياسي؛ الذي سار فيه محب الدين إلى أن وصل لطريق مسدود، فتركه غير متأسف عليه!

وهنا سنتناول سيرة محب بشكل موضوعي، حتى نمتلك صورة متكاملة لجهود محب الدين الإصلاحية، والتي توزعت على المجالات السياسية والتعليمية والثقافية والصحفية.

نشاطه السياسي في الجمعيات والأحزاب:

لم يشارك محب الدين في كثير من الجمعيات والأحزاب التي ظهرت في زمانه، بل كان غالباً في قيادتها، وبل ويشغل منصب أمين السر الذي يحتفظ بالوثائق والمراسلات، ولقد كان محب الدين منظماً في إدارة هذه الملفات والوثائق وتصنيفها وحفظها، بحيث أن مكتبته الشخصية وأرشيفه كانا المصدر الأساسي لعدد من الطروحات الجامعية عن تلك الحقبة من تاريخ العرب والمنطقة.

مر معنا أن محب الدين تعرف على فكرة الجمعيات والأحزاب في حلقة دمشق الكبرى بزعامة شيخه طاهر الجزائري، وكانت جمعية النهضة العربية التي أسسها وهو طالب بإستنبول سنة (١٩٠٦م) أول جمعية له، ثم انضم سنة (١٩٠٦) لجمعية الشورى العثمانية، وفتح لها فرعاً باليمن؛ والتي اندمجت بجمعية الاتحاد والترقي، لكن سرعان ما ظهر له ولغيره حقيقة الاتحاديين فأصبح عدواً لهم.

وبعد استقراره بالقاهرة شارك في تأسيس حزب اللامركزية العثماني عام

(١٩١٣م)؛ والذي رأسه رفيق العظم ومن قياداته رشيد رضا، وأصبح محب الدين عضواً بمجلس الإدارة وكاتم سره الثاني.

وفي نفس الوقت كان ممثل جمعية (العربية الفتاة)؛ التي تأسست في بيروت، ثم في باريس سنة (١٩٠٩م)، وكان بمثابة صوتها في حزب اللامركزية العثماني، وقد كان محب الدين هو الذي استحصل موافقة الحزب على المشاركة في المؤتمر العربي الأول في باريس سنة (١٩١٣م)؛ والذي نظمته (العربية الفتاة) بشكل غير مباشر، وقد أصدر محب الدين كتابا خاصّاً عن المؤتمر نشر كملحق في جريدة المؤيد، وقد كان للمؤتمر تأثير قوي على حكومة الاتحاد والترقي؛ لدرجة أنها حكمت بالإعدام على كل من شارك بالمؤتمر، وفعلاً نفذ الإعدام بحق كثير منهم حتى سمي المؤتمر بمؤتمر الشهداء!

وهذا الموقع المركزي المتقدم مكن محب الدين من الاتصال بالكثير من الجمعيات الإصلاحية والشخصيات الوطنية في العديد من البلاد العربية، وساعدته على محاربة مخططات الاتحاديين الأتراك والمستعمرين الأوربيين؛ من خلال هذه الصلات كان رجالات الإصلاح يسندون المهام السياسية والإصلاحية لرفاقهم في الجمعيات والأحزاب في أي موقع يحصل به شاغر، وهذا يفسر تعدد الدول التي يظهر بها نشاط لمحب الدين وأمثاله في تلك الحقبة من الزمان.

وعند نشوب الحرب العالمية الأولى رأى قيادات حزب اللامركزية وجمعية العربية الفتاة أن مصلحة العرب عدم الدخول في الحرب إلى جانب طرف ضد طرف، وتقرر إرسال مندوبين للزعماء العرب لمفاوضتهم في ذلك، وتم تكليف محب الدين بالسفر إلى الخليج العربي والاجتماع بأمير نجد والإحساء الأمير عبد العزيز آل سعود، وزعيم العراق السيد طالب النقيب لتلك الغاية، فسافر سنة (١٩١٤م) ومعه دليل وهو طالب

من الخليج يدرس بمدرسة الدعوة والإرشاد التي أسسها السيد رشيد رضا، فركبا من السويس لعدن، ومنها إلى بومباي بالهند، ثم يعودان للخليج وينزلان بالكويت وينطلقان للأمير عبد العزيز، وكان هذا يعد أيسر طرق المواصلات آنذاك، ولكن القوات البريطانية راقبتهم من بومباي، وقبل نزولهم من الباخرة بالكويت تم اعتقالهما ونقلهما للبصرة، وبقي محب الدين معتقلاً سبعة شهور، وقد استغل هذه الخلوة الإجبارية بالمطالعة؛ من خلال تعاطف شرطي عراقي كان يستعير له الكتب من مكتبة أديب عراقي.

وفي أثناء اعتقاله أوفدت العربية الفتاة الشيخ كامل القصاب لمصر، ومن ثم عاد لسوريا وسافر للحجاز، وهناك ساهم في انطلاق الثورة العربية ضد الاتحاديين؛ الذين كانوا لا يراعون المصالح العربية، واحتاج الشريف حسين لمن يساعده على توطيد حكمه؛ فاستعان برجالات العرب، وأشار عليه الشيخ القصاب بإحضار محب الدين ليتولى الجانب الاعلامي، وهو ما سنفصله في عمله الصحافي -بعد قليل-.

ولكن محب الدين ورجالات العربية الفتاة لم يجدوا أن الحسين يسعى معهم لنهضة عربية شاملة، بقدر حرصه على عدم سلب الأتراك حكم الحجاز منه، ولذلك سافر لدمشق سنة (١٩١٩)، وهناك طلب منه الأمير فيصل ومن الشيخ القصاب أن يعملا على تسليح الشعب ريثما يسافر لفرنسا للتفاوض معها.

وفعلاً قاما بتأسيس اللجنة الوطنية العليا، والتي نظمت الناس ودربتهم وسلحتهم بما تيسر، ولما عاد الأمير فيصل بغير ما ذهب به، وقام القائد الفرنسي بالزحف لاحتلال دمشق؛ قاد الخطيب والقصاب الناس للمقاومة، ولكن القوة لم تكن متكافئة، ولا القيادة متحمسة، فلم يكن من جدوى لإطالة المقاومة، فهرب محب

الـدين للقـاهرة، وهـذا كـان نهايـة عملـه السـياسي تقريبـاً، وتوجهـه للعمـل الإعلامـي والثقافي، فالخلافة أُلغيـت والـبلاد العربيـة احتلـت، ولكـن محـب الـدين واصـل دعمـه للجمعيات والجماعات الإسلامية كجمعية الشبان المسلمين وجماعة الإخوان المسلمين.

إنشاء المكتبة السلفية:

عقب وصوله للقاهرة سنة (١٩١٩م) وبثمن منزل له في دمشق كان قـد باعـه قـام بتأسـيس المكتبـة السـلفية سـنة (١٣٢٧ هـ)، وذلـك لـ "نشر النـادر المنتقـى مـن كتـب السلف، والنافع المرتضى من المؤلفـات العصريـة عربيـة أو معربـة"، وشـاركه في المكتبـة صهره عبد الفتاح قتلان، ثم تمكنا من تأسيس مطبعة خاصة للمكتبة سنة (١٣٤٠هـ)، وساهمت المكتبة السلفية ومطبعتها ببعث نهضة ثقافية متميزة؛ من خلال اعتنائها بـنشر المفيد من الكتب، وجوْدة الطباعة والتصحيح لما تطبع.

وأشار محب الدين في أحد مقالاته بمجلة الفتح أنه قام بفـتح فـرع للمطبعـة بمكـة المكرمة، وذلك في عهد الملك عبدالعزيز، ولكننا لا نعرف شيئاً عن تفاصيل هذا الفرع.

ومن خلال سجل مطبوعاتها لسـنة (١٣٤٩هـ) نجـد تنوعـاً كبـيراً في مطبوعاتهـا، فبجوار العديد من كتب التراث الشرعي واللغـوي نجـد أنهـا نشرت كتبـاً في الأخـلاق والتزكيـة تراثيـة ومعـاصرة، ونجـد العديـد مـن الكتـب الحديثـة والتـي تـدحض شـبه المستشرقين والملاحدة ومن تأثر بهم، ونجد المكتبة السلفية هي التـي نشرت كتـب كبـار مثقفي القرن العشرين أمثال: الأديب مصطفى صادق الرافعي، والعلامـة أحمـد تيمـور باشا، والشيخ محمد بخيت المطيعي -مفتي مصر-، والشـاعر أحمـد أبـو شـادي، ونجـد المكتبة السلفية نشرت كتباً مترجمة في قضايا مهمة ككتاب «مقالة في المنهج» لـديكارت، و«مذكرات غليوم الثاني أمبراطور ألمانيا»، ودوّن فيه أفكاره بعد الحرب العالمية الأولى.

وكذلك اهتم محب الدين بنشر الروايات والقصص الأدبية بشكل ملحوظ، وبعضها مترجم من الإنجليزية والفرنسية والتركية، بل إن محب الدين نفسه قام بترجمة رواية لكاتبة تركية تدعى خالدة أديب وروايتها باسم (قميص من نار)، تصف فيها جهود الترك لرد عدوان اليونانيين على غرب الأناضول، مما يدل على سعة أفق محب الدين وإدراكه المبكر لدور الرواية والقصة في الجيل الحاضر، وهو الوعي الذي غاب عن أجيال السلفية المعاصرة، بسبب تفريطهم في التواصل مع أعلامهم المعاصرين بالتعرف عليهم ودراسة تجاربهم، والله المستعان.

ولم تكن المكتبة والمطبعة مقرّاً للعمل فقط، بل كانت مركز قيادة فكرية وإشعاع حضاري؛ فقد كانت مكاناً يتجمع فيه المخلصون كالشيخ الخضر حسين وتيمور باشا وكرد علي ومحمود وأحمد شاكر، لبحث الأحداث والمستجدات، ومن ثم إطلاق المبادرات.

ففي المكتبة السلفية كان مولد مجلة الفتح للتصدي لموجة الإلحاد، وفي المكتبة السلفية كان انطلاق فكرة جمعية الشبان المسلمين، وفيها كان تأسيس مجلة الإخوان المسلمين، وغيرها من المبادرات النافعة، ويصفها الأستاذ أنور الجندي بأنها "نبع القلوب الصادقة، تردها من الشباب فئة قليلة الصبر على ضيم ينزل بالأمة العربية من ظلم الاستعمار".

وكان من رواد المطبعة السلفية: الأستاذ حسن البنا -مؤسس الإخوان المسلمين- والذي تردد على المطبعة من سنة (١٩٢٧م) يستفيد من معارف وخبرات الخطيب، وقد ساهمت هذه المعرفة في البنا وفي جماعته الإخوان المسلمين، وبقي الخطيب يستقبل

الشباب الإسلامي وشباب الإخوان في مطبعته ويوليهم عنايته؛ كما يحدثنا المستشار عبدالله العقيل.

وبقي محب الدين لآخر يوم في حياته يواصل عمله بالمكتبة والمطبعة، بل نقل المكتبة والمطبعة لبناء جديد فيه بيته أيضاً؛ حتى يحافظ على وقته من الضياع بالذهاب والإياب، وليسهل عليه التأخر فيها لإنجاز الأعمال، ويقوم بمهام من يغيب من العمال.

وقد أوصى محب الدين أولاده بالحفاظ على المكتبة والمطبعة وعدم تقسيمها بين الورثة، وأن يكمل أبناؤه من بعده المهمة بنشر العلم والمعرفة، وهي لا تزال قائمة لليوم على ضعف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دخوله عالم الصحافة:

حين جاء محب الدين للقاهرة أول مرة من إستنبول سنة (١٩٠٩) عرّفه شيخه طاهر الجزائري على العلامة أحمد تيمور باشا، ثم طلب منه أن يسعى لمحب الدين للعمل في صحيفة المؤيد التي يصدرها شيخ الصحافة المصرية الشيخ علي يوسف، وذلك لكون تيمور باشا مساهماً في شركة المؤيد التي تصدر الصحيفة.

هذا التصرف من الشيخ طاهر كان له بالغ الأثر على تطوير قدرات محب الدين الصحفية والإعلامية، وكذلك بالغ الأثر على إخراج شخصية إعلامية فذة تنصر المشروع الإسلامي في الصحافة وتحمله على كتفها أكثر من (٤٠) سنة.

وهو -أيضاً- يدل على نفاسة معدن الشيخ طاهر الذي يحرص دوماً على شخصية طلابه وتلاميذه، ويسعى لتطويرهم وشق الطريق لهم ليكونوا مشاعل نور وهداية، في تطبيق حي لمعنى التربية والرعاية والأستاذية -رحم الله الجميع-.

وقسم محب الدين عمله؛ ففي الصباح في جريدة المؤيد حتى الواحدة بعد الظهر، وبعدها يذهب للمكتبة السلفية يشرف عليها، حيث في الصباح يعمل بها شريكه وأخو زوجته عبد الفتاح قتلان.

وقد لقي محب الدين كل التشجيع والدعم من الشيخ علي، واستفاد منه فائدة عظمى في أسرار العمل الصحفي، بقي يشيد بها ويذكرها محب الدين طيلة حياته، وترقى محب الدين في المؤيد فأصبح يمكنه أن ينشر ملحقاً للصحيفة بعد العصر، فقد نقل سكنه ليكون قريباً من مبنى المؤيد، فإذا جاءت أخبار عاجلة أرسلها له العمال، فيعمل منها ملحقاً صغيراً، يطبع فوراً وينزل للسوق دون الرجوع للشيخ علي، بل كان الشيخ علي يرسل خادمه يشتريه من الباعة كباقي القراء!

ومن على صفحات المؤيد قام محب الدين بالتحذير من خطر التبشير بين المسلمين، فترجم هو ومساعد اليافي مقالة مسيو لوشاتليه، والتي نشرت بعنوان: "الغارة على العالم الإسلامي"، فأحدثت ضجة كبيرة، وقد تولى محب الدين الرد على مقالات المبشرين التي حاولت التنصل من ذلك.

كما أن محب الدين قام بكتابة العديد من المقالات التي تفضح سياسة الاتحاد والترقي في البلاد العربية، مما عزز الحركة العربية في سوريا والعراق ضد جرائمهم.

وهنا لا بد من بيان أن العروبة عند محب الدين لم تكن تنفصل عن الإسلام بأي شكل من الأشكال، ولذلك فإن تسرع البعض لاتهام محب الدين بالغفلة أو العمالة هو ظلم صريح، فمحب الدين يعتبر العربي الذي يتخلى عن أخلاق الإسلام ليس عربيّاً أصلاً، ولأنه حارب انحراف القوميين حين كشفوا الغطاء عن عدائهم للإسلام، كما

حارب الاتحاديين حين عادوا العرب والإسلام، كان محب الدين يقول: "اللغة والدين والتشريع القومي، والإدارة الوطنية: هدية الخالق لخلقه في عشرات الألوف من السنين، ولا يزال أثر هذه الهدية الإلهية دائماً ما دامت هذه المقومات الأربعة تسير مع حاجة الأمة بحسب الأجيال".

واستمر محب الدين فاعلاً في عالم الصحافة في مسيرة طويلة جدّاً، ومرّ معنا أنه بدأ الكتابة بالترجمة من التركية لمجلة ثمرات الفنون في بيروت، ثم كتب العدد اليتيم من مجلة (طار الخرج)، وعلى إثره هرب من سوريا، وتنقل حتى استقر بالقاهرة سنة (١٩٠٩م)، ثم عمل بالمؤيد والتي كانت علامة فارقة في حياته، وقال عنها: "وقد استفدت من أساليبه الصحفية، ومن خطته الإسلامية، ما أنا مدين له به ما دمت حيّاً، فالمؤيد كانت مدرستي الأولى في هذه الصناعة"، وبقي فيها حتى أغلقت في سنة (١٩١٣م)، ومن خلال صحيفة المؤيد حصل محب الدين على الشهرة العالمية الواسعة.

ثم لما قامت الثورة العربية الكبرى سنة (١٩١٦م) طلبه الشريف حسين لمكة المكرمة بناء على توصية من الشيخ كامل القصاب؛ ليؤسس جريدة القبلة لتكون لسان حكومة الحجاز، وفعلاً أسس محب الدين مجلة القبلة، ورأس تحريها ثلاث سنوات، وأسس -أيضاً- المطابع الأميرية بمكة المكرمة، ثم استأذن بالسفر لدمشق سنة (١٩١٩م)، وتولى تحرير مجلة العاصمة؛ والتي أصدرتها حكومة الأمير فيصل، من العدد (٤٧)، وفي هاتين المجلتين كانت غالب مقالاته تدعوا لحقّ العرب في الحكم، وضرورة الحكم الدستوري، ورفض أطماع الاستعمار والاتفاقات الدولية.

ولما وجد أن اختيارات الشريف حسين وولده الأمير فيصل السياسية قصرت عن

مطالب محب الدين ورفاقه من المثقفين والقادة، وأنهم قد قبلوا بعقد اتفاقات مع القوى الأوروبية دون مشاورة مع القوى الشعبية؛ فرفض محب الدين ورفاقه الاحتلال الفرنسي لدمشق، وقاوموا الاحتلال الفرنسي من خلال تأسيسهم اللجنة الوطنية العليا، وبسبب تفوق قوات الاحتلال اضطر محب الدين للهرب مرة ثانية للقاهرة، فعاد لها سنة (١٩٢٠م).

فأعاد محب الدين افتتاح المكتبة السلفية؛ والتي أغلقها عند سفره للحجاز، والتحق بصحيفة الأهرام حتى سنة (١٩٢٥م)، والأهرام من أقدم الصحف العربية وأهمها في ذلك العصر، وهي علمانية التوجه إذ أسسها أخوان مسيحيان لبنانيان سنة (١٨٧٦م)، وكانت تجربة جديدة لمحب الدين تعرف فيها على مجالات أخرى في عالم الصحافة.

ثم أسس محب الدين مجلته الأولى (الزهراء)، وهي مجلة أدبية شهرية، استمرت تصدر (٥)سنوات (١٩٢٤ - ١٩٢٩)، وكانت تهدف لنشر فكره الإصلاحي القائم على مزج الأصالة بالتحديث؛ من خلال المرونة في الاقتباس من الآخرين من وسائل القوة ونظم الإدارة والتخصص في العلوم والأعمال، مع الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وسجايانا القومية ولساننا الأصيل.

وقد توقفت الزهراء بسبب تحول الأوضاع العامة، وضرورة وجود منبر إعلامي للمشروع الإسلامي يخاطب الشباب والرأي العام لمقاومة التيارات السياسية والثقافية الدخيلة، وترخيص الزهراء لا يسمح بذلك.

وهنا جاء دور ظهور مجلة الفتح سنة (١٩٢٦م)، وذلك بعد تداعي دعاة

الإصلاح بطلب من العلامة أحمد تيمور باشا بخطورة موجة الإلحاد التي تنتشر بين الشباب عقب إلغاء الخلافة وسياسات أتاتورك المحاربة للإسلام، وعقد اللقاء بالمطبعة السلفية وحضره الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر لاحقاً، وتقرر إنشاء جمعية لمقاومة ذلك، ولكن لأن الخطر أسرع من ذلك وأهمية الاتصال بالرأي العام والشباب المثقف؛ فتقرر أيضاً إنشاء مجلة لهذا الغرض.

ورغم أن الحصول على ترخيص لصحيفة إسلامية كان أشبه بالمستحيل -وكأن التاريخ يعيد نفسه-؛ فقد أخذ تيمور باشا على عاتقه ذلك، وفعلاً قام بترخيص الفتح وجمعية الشبان المسلمين لهذه الغاية وهي: مقاومة التغريب وموجة الإلحاد، وهذه من المآثر المجهولة لتيمور باشا.

بقيت الفتح تصدر أكثر من (٢٠) سنة (١٩٢٦-١٩٤٨) وبلغت أعدادها (٨٨٤)، تحمل هم الدفاع عن الإسلام وقضايا المسلمين في كل مكان، وقد نشرت المشروع الإسلامي، وكونت وعي الكثير من الأجيال، وصنعت الكثير من قادة الحركة الإسلامية المعروفين اليوم، وقلّ أن تجد أحد المشاهير اليوم لم يكتب في الفتح في مطلع شبابه، وكانت الفتح تصل لكثير من بلاد العالم، وكانت تتميز بأخبارها الخاصة؛ حيث كان يراسلها المخلصون من كل مكان، ومن مراسلي الفتح كان الأستاذ حسن البنا نفسه في مطلع شبابه.

وكان محب الدين قد صنع أرشيفاً دقيقاً للمراسلات التي تأتيه بحسب الموضوعات والشخصيات، مكنته من القيام بحملات قوية للدفاع عن قضايا المسلمين، وقد تعرض للاعتقال (٣) أيام بسبب مقال كتبه عن أتاتورك، وفي سنواتها

الأخيرة اهتمت الفتح كثيراً بقضية فلسطين، وعملت على توعية الناس بخطورة الزحف اليهودي، وقد حذر العرب والمسلمين من إقامة دولة إسرائيل قبل (١٣) سنة من وقوع الكارثة، ذلك أنه كان يرى غفلة العرب وهمة اليهود لتطبيق مخطط بازل الصهيوني!

وصدق الحسن الغزالي حين أنشد في الفتح وصاحبها:

تلك السنون لقيت من إعناتها	ما يذهل الآساد عن أجماتها
قد جبتها و(الفتح) في يمناك من	نور أضأت بها دجى ليلاتها
أسطارها تغزو النفوس بلاغة	وهدى وتغزو الغي في جنباتها

لم تتوقف الفتح إلا بعد ضغوط كبيرة منها: ارتفاع سعر الورق (٤٠) ضعفاً، وانقطاع المواصلات، ومنع نشر الإعلانات القضائية التي تدر دخلاً للمجلات، وينقل أبو الحسن الندوي عن الخطيب قوله: "أوقفتها من يوم أصبح حامل المصحف في هذا البلد مجرماً يفتش ويعاقب!"، وذلك عقب هزيمة العرب مع دولة اليهود.

وفي سنة (١٩٢٩) طلب منه صديقه الجزائري الشيخ إبراهيم أطفيش المساعدة في الحفاظ على مجلته المنهاج؛ والتي كانت مهددة بالإغلاق، بسبب تعثر صدورها لعوائق مالية وإدارية، فحولها محب الدين لجريدة أسبوعية بعد أن كانت نصف شهرية، وذلك رغبة منه بالحفاظ عليها، لما لها من دور في مكافحة التبشير والاستشراق؛ خاصة في بلاد المغرب، لكنها لم تصمد وبعد سنتين أوقفت.

وأثناء عمله بالفتح طلب منه حسن البنا المساعدة في إنشاء جريدة أسبوعية لجماعة الإخوان المسلمين، وكان رأس مالهم لإصدار الجريدة جنيهان! وطلبوا من محب الدين

أن يرأس التحرير الجريدة ويطبعها بالمطبعة السلفية، وقد قبل محب الدين ذلك، فصدرت في سنة (١٩٣٣م)، وبقي يرأسها ثلاث سنوات.

وقد واصل محب الدين الكتابة في العديد من الصحف والمجلات التابعة لجماعة الإخوان، فكتب في جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية منذ صدورها عام (١٩٤٦م)، وفي مجلة الشهاب؛ والتي أصدرها حسن البنا سنة (١٩٤٧م)، ومجلة (المسلمون) التي أصدرها سعيد رمضان سنة (١٩٥٢م).

وفي سنة (١٩٥٢م) عين محب الدين رئيس التحرير لمجلة الأزهر بقرار من صديقة الشيخ الخضر حسين؛ والذي أصبح شيخ الأزهر، وكانت افتتاحياته تعد الزاد للشباب المسلم الدارس في الأزهر؛ كما يقول المستشار العقيل، وبقي يرأسها ست سنوات.

هذه كانت مسيرة محب الدين مع الصحافة محرراً وناشراً ورئيساً للتحرير وكاتباً، وهي مسيرة حافلة بالعطاء والبركة، وقد تميز أسلوبه بالسلاسة والمباشرة والبعد عن التعقيد والزخرفات اللغوية، وهو صريح وجريء في عرض أفكاره على القارئ، وهو شديد التمسك بمبادئه وشديد الدفاع عنها، ولا يجامل فيها أحداً، حرص على الوصول لأوسع شريحة من الناس ولم يقتصر على مخاطبة النخب، ولذلك كان يلجأ للكتابة بطريقة خطابية تخاطب القارئ بشكل شخصي.

ومقالات محب الدين تنوعت بين المقالات الحماسية للدفاع عن العروبة والإسلام، وبين المقالات الأدبية التي تذكر بعظمة الإسلام وحضارته ومآثر الأجداد، وبين المقالات التي تعالج الواقع وتقترح الحلول لها، وهي تحتاج أن تجمع من بطون المجلات ويعاد بثها في الناس فإنها تحوي خبرة ورؤية نحتاجها اليوم بشدة.

ولقد لخص محب الدين اهتمامه بالصحافة والتعليم فقال: "إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة، فهما اللتان كونتا رجالنا وجماهيرنا -كما نرى-، ولن نتقي شر الانحلال الذي نتوقع أن ينزل بنا ما لم تكن لنا مدارس وصحف مؤسسة على جلاميد من الإيمان بالهداية المحمدية لا تزعزها الزلازل".

جمعية الشبان المسلمين:

تقدم معنا دعوة تيمور باشا المخلصين لمقاومة موجة التغريب والإلحاد، وذلك عبر إنشاء جمعية ومجلة، فكانت المجلة هي الفتح، وأما الجمعية فكانت جمعية الشبان المسلمين، والتي سعى تيمور باشا لترخيصها بما له من مكانة وشأن، ولكن التنفيذ والرعاية كان من نصيب محب الدين، حيث انتخب (١٢) طالباً جامعيّاً منهم: العلامة عبد السلام هارون، والعلامة محمود شاكر أبا فهر، والعلامة عبدالمنعم خلاف، عملوا بصمت وسرية حتى استقطبوا (٣٠٠) عضو من الجامعات، وذلك حتى يتجنبوا مهاجمة الكُتاب بالصحف الذين يعارضون المشروع الإسلامي، وبعدها أعلنوا عن تأسيس الجمعية سنة (١٩٢٧م)، ففوجئوا بها جمعية كبيرة لم يمكنهم عمل شيء ضدها.

وكان هدف الجمعية: مقاومة الإلحاد والتغريب وشبهات المستشرقين، والدعوة لمكارم الأخلاق، والتعامل المرن مع الحضارة الغربية باقتباس النافع والمفيد، وتقديم البديل للشباب لقضاء وقت فراغهم في أنشطة رياضية مفيدة، وكان للجمعية دور ملموس في الشباب المصري، ومن أعضائها: حسن البنا، قبل إنشائه جماعة الإخوان، وكانت مجلة الفتح بمثابة الناطق الإعلامي للجمعية؛ فتنشر أخبارها وندواتها.

وقد امتنعت الجمعية عن العمل بالسياسة حتى تحافظ على نفسها، وتتمكن من الانتشار، ولذلك فتحت فروعاً خارج مصر، كان منها (٢٠) فرعاً في فلسطين، تعاون

معهـا الشيـخ عـز الـدين القسـام في مدينـة حيفـا، وفتحـت لهـا فـروع في دمشـق والهنـد والباكستان والبوسنة وأوروبا، حتى قدر عدد أعضائها بمليون عضو.

لكن تحولاً طرأ على الجمعية أخرجها عـن مقصدها، ويبدو أن ذلك كان بتأثير الاحتلال، وأصبحت تقتصر على الأنشطة الرياضية، وهو ما ساء محب الدين وأغضبه، إذ كان يهدف منها: أن تكون المؤسسة الأولى للإسلام في مصر، تحتاج الجمعية لدراسة معمقة تستخرج عبرها وفوائدها، إذ أنها ظلمت ولم تعط حقها من الدراسة والبحث.

خلاصة خبرته في الدعوة إلى الله U:

كان محب الدين يرى أن الإسلام الصحيح لن ينتشر في عالم الناس إلا بثلاث خطوات:

١ - تفرغ أهل العلم من الأزهريين والجامعيين لتتبع قواعد الإسلام واستقصائها وحصرها، وتحري فقه سلف الأمة لهذه القواعد؛ والتي سعوا بها وتنزيلها على واقعنا بفهم وعلم.

٢ - العمل بذلك وتربية المسلم لنفسه على العمل بسنن الإسلام وقواعده في نفسه وبيته وأسرته ومحيطه.

٣ - الدعوة إلى ذلك بإخلاص وحسن نية وإتقان.

ولعل هذه الخطوات هي التي يعبر عنها العلامة الألباني بقوله: "التصفية والتربية"، وقد كان بينهما علاقة، ولذلك قام محب الدين بتقديم الطبعة الأولى من كتاب الألباني «آداب الزفاف».

موقفه من غزو الشيعة لمصر:

برغم سلفية محب الدين واطلاعه على كتب ابن تيمية منذ نشأته إلا أنه لم يتعرض لنقد الشيعة في مقالاته؛ لعدم وجود الداعي لذلك، لكن بعد أن قرر الشيعة غزو بلاد السنة عبر إرسال دعاة شيعة لمصر؛ كأبو عبدالله الزنجاني، ثم عبدالكريم الزنجاني، وثالثهم الشيخ محمد تقى القمي؛ الذي أرسله المرجع الشيعي حسين البروجردي، وقام بتأسيس دار التقريب في القاهرة سنة (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م).

رفض محب الدين فكرة التقريب وحاربها، ذلك أن محب الدين والشيخ الخضر حسين ناقشا أبو عبدالله الزنجاني في أسس التقريب والموقف من «صحيحي البخاري ومسلم»، فتبين له أنه شيعي جلْد، جاء لنشر التشيع لا للتقريب، وذلك أن محب الدين كان ينادي بالتقريب بين أهل المذاهب في المواقف المشتركة لا تقريب المذاهب نفسها؛ لاستحالة ذلك!

وركز على أن المشكلة هي في المذهب الشيعي الذي يحتوي على عقائد كفرية تطعن بالقرآن والكريم والصحابة وأمهات المؤمنين، وكان يحاجج من يقبل بدعوة التقريب بقوله: "لماذا لم يسعَ الشيعة لإنشاء دار تقريب في طهران أو قم أو النجف أو جبل عامل أو غيرها من مراكز الدعاية للتشيع؟!"، وقد أعلن رأيه بصراحة ووضوح وكتب كتابه «الخطوط العريضة لبيان أسس دين الشيعة الإثني عشرية»، وكتب مقالات رد فيها على قبول حسن البنا بمبدأ التقريب مع الشيعة.

الخاتمة

بقي محب الدين يجاهد بقلمه وعلمه حتى الرمق الأخير، فقد توفي في المستشفى ومعه مسودات المجلد الثالث عشر من كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وذلك سنة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، فرحمه الله رحمة واسعة.

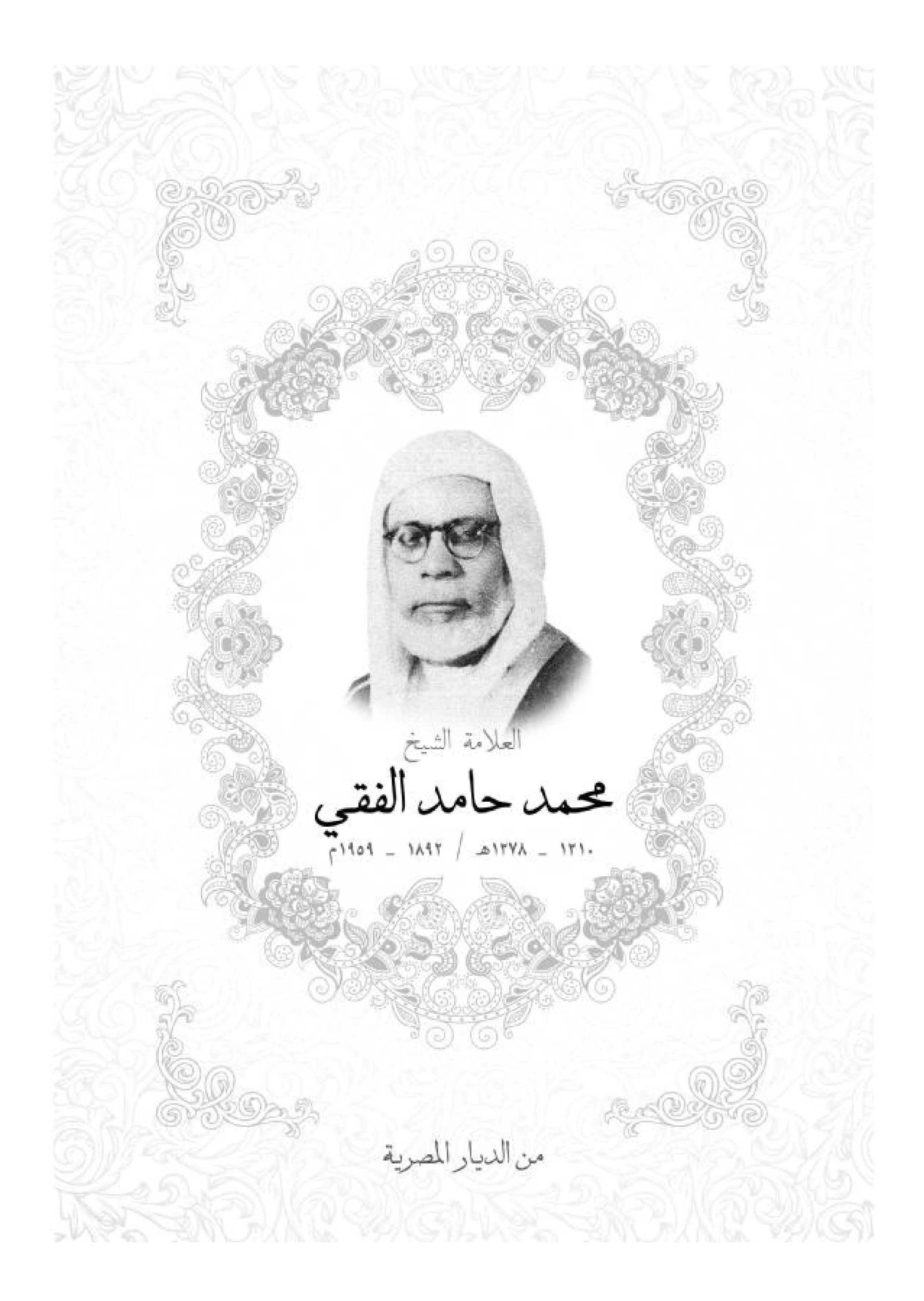
مراجع للتوسع:

١ - «محبّ الدين الخطيب، حياته بقلمه»، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي، (١٩٧٩م).

٢ - فهرس المكتبة السلفية سنة (١٣٤٩هـ)، المطبعة السلفية.

٣ - «محب الدين الخطيب، أفكاره وجهوده في الإصلاح الإسلامي»، سعد مناور، رسالة جامعية غير منشورة.

٤ - «قضايا الإصلاح والنهضة عند محب الدين الخطيب»، رغداء محمد أديب زيدان، رسالة جامعية غير منشورة.


العلامة الشيخ
محمد حامد الفقي
١٣١٠ ـ ١٣٧٨هـ / ١٨٩٢ ـ ١٩٥٩م
من الديار المصرية

٢٠- العلامة محمد حامد الفقي

(١٣١٠-١٣٧٨هـ/ ١٨٩٢-١٩٥٩م)

تمهيد

العلامة محمد حامد الفقي هو مؤسس جماعة أنصار السنة النبوية بمصر، وهو العالم المحقق لتراث أئمة السلف، والمجاهد والمصلح والساعي لنهضة هذه الأمة، وأحد أئمة الحرم المكي برهة من الزمن، والعجيب أنه لم يحظ بترجمة وافية رغم أنه من المعاصرين، وأسس جماعة كبيرة لا تزال قائمة ونشيطة، ولكن هناك تقصير منها في حق رموزها وعلمائها، أتمنى أن تتلافها الجماعة بأسرع وقت.

مولده ونشأته:

ولد محمد حامد (وهو اسم مركب) الفقي بقرية نكلا العنب سنة (١٣١٠هـ-١٨٩٢م) بمركز شبرا خيت، بمديرية البحيرة في مصر، وكانت أسرته متدينة متعلمة، فوالده الشيخ سيد أحمد عبده الفقي ممن درس بالأزهر، ولكنه لم يكمل دراسته، وهو من زملاء الأستاذ محمد عبده، بل سكن وإياه في غرفة واحدة، وكانت والدته الوحيدة في القرية التي تحفظ القرآن وتجيد القراءة والكتابة، وكان له إخوة درسهم أبوه في الأزهر.

بدأ الفقي بحفظ القرآن على والده، وختمه وهو ابن اثني عشر عاماً، والذي علمه مبادئ الفقه -أيضاً- بحيث تهيأ للدراسة بالأزهر.

الدراسة بالأزهر:

كان والده قد وجه أولاده ليدرس كل واحد منهم مذهباً فقهيّاً، فجعل الابن الأكبر مالكيّاً، وجعل الثاني حنفيّاً، والثالث شافعيّاً، وأراد أن يدرّس الرابع وهو الشيخ محمد حامد الفقي المذهب الحنبلي، لكن الأزهر قبله في رواق الحنفية؛ فدرس المذهب الحنفي.

التحق بالأزهر في عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، وعلى طريقة الأزهر في ذلك الوقت، درس كتاب «مراقي الفلاح» في الفقه، وكتاب الكفراوي في علم النحو، وطريقتهم هي: أنه متى أتقن الطالب فهم الكتاب انتقل منه لغيره، وهكذا انتقل في سنته الثانية لدرس كتاب الشيخ خالد في النحو، وكتاب ملا مسكين في الفقه، ثم في السنة الثالثة درس علم المنطق، وفي الرابعة درس علم التوحيد، ثم درس في الخامسة مع النحو والفقه علم الصرف، وفي السادسة درس علوم البلاغة ودراسة الحديث والتفسير.

وقد نشأ الفقي -كغالب طلبة الأزهر- على عقيدة المتكلمين، وانغمس في الطرق الصوفية، يقول الفقي: "ولقد كنت في حياتي الأولى سالكاً مع السالكين، وملبساً مع الملبسين، ومخرفاً مع المخرفين، وداعية إلى البدعة والجاهلية، وعبادة الموتى والخشب والنصب مع الداعين".

حتى قيض الله U فلاحاً بسيطاً ينير له الطريق، وذلك في قصة مؤثرة بليغة يرويها لنا الشيخ حماد الأنصاري -أحد تلاميذ الفقي في مكة المكرمة-:

تعرف الفقي على منهج السلف والتوحيد:

يحكي الشيخ حماد الأنصاري Z : "اجتمعتُ معه عام (١٣٦٧هـ)، جئته وهو

يدرّس «تفسير ابن كثير» عند باب علي بالمسجد الحرام، وكان عمري لا يتعدى الثانية والعشرين، وبعدما انتهى الدرس وصلّينا العشاء، قلت للشيخ: يا شيخ أنا عندي سؤال؟ كيفَ صرتَ موحداً وأنت درست في الأزهر (وأنا أريدُ أن أستفيد والناس يسمعون).

فقال: والله إن سؤالك وجيه! أنا درست في الأزهر، ودرست عقيدة المتكلمين التي يدرسونها، ثم ذهبت إلى بلدي لكي يفرحوا بنجاحي، وفي الطريق مررت على فلاح، ولما وصلت عنده، قال: يا ولدي اجلس على الدكّة .. وكان عندهُ دكة إذا انتهى من العمل يجلس عليها، وجلست على الدكة وهو يشتغل، ووجدت بجانبي على طرفِ الدكة كتاب، فأخذت الكتاب ونظرت إليه ... فإذا هو كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» لابن القيم؛ فأخذت الكتاب أتسلى به، ولما رآني أخذت الكتاب وبدأت أقرأ فيه .. تأخر عني ... آخذ فكرة عن الكتاب.

وبعد فترة من الوقت جاء وقال: السلام عليكم يا ولدي، كيف حالك؟ ومن أين جئت؟ فأجبته عن سؤاله، فقال لي: والله أنت شاطر، لأنك تدرجت في طلب العلم حتى توصلت إلى هذه المرحلة؛ ولكن يا ولدي أنا عندي وصية.

فقلتُ: ما هي؟

قال الفلاّح: أنت عندك شهادة تعيشك في كل الدنيا في أوربا في أمريكا، في أي مكان، ولكنها ما علمتك الشيء الذي يجب أن تتعلمه أولاً.

قلتُ: ما هو؟!

قال: ما علمتك التوحيد!

قُلتُ لهُ: التوحيد!!

قال الفلاّح: توحيد السلف.

قلتُ لهُ: وما هو توحيد السلف؟!!

قال لهُ: انظر كيف عرف الفلاّح الذي أمامَك توحيد السلف، هذه هي الكتب: كتاب «السنة» للإمام أحمد الكبير، وكتاب «السنة» للإمام أحمد الصغير، وكتاب «التوحيد» لابن خزيمة، وكتاب «خلق أفعال العباد» للبخاري، وكتاب «اعتقاد أهل السنة» للحافظ اللالكائي.

وعد له كثيراً من كتب التوحيد، وذكر الفلاح كتب التوحيد للمتأخرين، وبعد ذلك كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيِّم.

وقال: أنا أدلك على هذه الكتب؛ إذا وصلت إلى قريتك ورأوك وفرحوا بنجاحك لا تتأخر ارجع رأساً إلى القاهرة، ادخل (دار الكتب المصرية) ستجد كل هذه الكتب التي ذكرتُها كلها فيها، ولكنها مكدّسٌ عليها الغبار، وأنا أريدك تنفض ما عليها من الغبار وتنشرها". [باختصار من «المجموع» للشيخ حماد الأنصاري (١/ ٢٩٤-٢٩٧)].

وفعلاً عاد الفقي للقاهرة، وبحث عن هذه الكتب ونفض عنها الغبار، وطالعها وآمن بما فيها من الحق، وكان الفقي محبّاً للقراءة يعكف الساعات الطوال على الكتب ينهل منها ويتعلم، فعكف على كتب التفسير والحديث ينهل من علومها ودررها، واستفاد كثيراً بمطالعة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأصبح ينشر هذه الكتب فيما بعد بالتحقيق والطباعة والتعليم والدعوة والكتابة.

وكان هذا الفلاح من تلاميذ الشيخ محمد عبدالحليم الرمالي -خريج الأزهر-؛ والذي كان من دعاة التوحيد والسنة، وأسس جماعة الاعتصام بهدي الإسلام سنة

(١٩٢١م) بدمياط، وقد توثقت الصله بينه وبين الشيخ الفقي، وأصبح يرأس هيئة علماء أنصار السنة المحمدية التي تكونت سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م).

وقد فتحت هذه الكتب للفقي الباب للتعرف والتعلم على يد أعلام السلفية في عصره، بجوار دراسته الأزهرية، فقد استفاد الفقي من السيد رشيد رضا والأستاذ محب الدين الخطيب خاصة، وكان يكرر دوماً لمن يحدثهم "أستاذنا رشيد رضا"، وأيضاً عمل الفقي بالمكتبة السلفية التي أسسها محب الدين الخطيب، واستفاد منها كثيراً، ويتضح هذا من مقارنة مجلته الأولى (الإصلاح) في مكة بمجلة (المنار) لرشيد رضا، حيث صدرها بتفسير القرآن، وكان ينقل بعض مقالات الفتح وأخبارها ويعزو إليها، وأشاد في مجلة الإصلاح بتأسيس جمعية الشبان المسلمين التي كان محب الدين فاعلاً فيها وأمين سرها، وحين توقفت المنار بوفاة رشيد رضا سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٥م)، أنشأ الفقي مجلة الهدي الإسلامي، وأكمل مقالات تفسير القرآن من حيث انتهى رضا.

وقد بدأ الفقي في هذه المرحلة بالتعرف على حملة منهج السلف في مصر، ونسج العلاقات والصداقات التي ستستمر حتى الموت، ومن أهم هؤلاء: طلبة مدرسة الدعوة والإرشاد؛ التي أسسها رشيد رضا، والذين سيصبح أكثرهم من رموز جماعة أنصار السنة المحمدية لاحقاً.

ومن هذه العلاقات: تعرفه على السفير الأول للملك عبد العزيز بن سعود في مصر: الشيخ فوزان الفوزان، يقول الفقي في مجلة الهدي النبوي: "تعرفت عليه بواسطة أخي في الله الشيخ محمد ملوخية المدني في عام (١٣٢٨هـ)، إذ كنت طالباً في الأزهر

وكنا نذهب إليه كل يوم جمعة، فنصلي معه الجمعة، ثم يكرمنا بواجب الضيافة، ثم بعد ذلك يزودنا بالمعلومات والكتب العلمية".

وقد توثقت العلاقة بينهما ولم تنقطع أبداً، بل نجد الشيخ الفوزان يوصي عند وفاته في القاهرة عام (١٣٧٣هـ) بأن يتولى الشيخ حامد الفقي غسله وتكفينه والصلاة عليه.

وبواسطة الفوزان تعرف الفقي على علماء السعودية ووجهائها من آل الشيخ وغيرهم؛ الذين كانوا يزورون مصر، ومن ثم تعرف على الملك عبد العزيز نفسه، ولعل ذهابه للسعودية لاحقاً كان بسبب الفوزان.

وهكذا انتقل الفقي من عالم المتكلمين والتصوف لأنوار الوحي من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ثم بدأ ينصح لأصدقائه ومعارفه، فالتف حوله عدد من الأصدقاء والزملاء، وجعلوه شيخاً لهم رغم أن سنه لم يتجاوزعندها ثمانية عشر عاماً، وكان ذلك سنة (١٩١٠م) بعد أن أمضى ست سنوات من دراسته بالأزهر، وبقي على هذا المنوال حتى تخرج من الأزهر عام (١٩١٧م)، وكان عمره عندها (٢٥) سنة، ومن شيوخه بالأزهر والذين لهم مشرب إصلاحي: شيخ الأزهر مصطفى المراغي، والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ الشرشابي.

الفقي والدعوة للتوحيد:

كان الفقي إنساناً إيجابيّاً، اختار أن يسير على منهج الأنبياء بالدعوة والإصلاح بعد تخرجه من الأزهر، يقول الفقي: "وكان من حق هذه النعمة وأداء شكرها: أن أقف حياتي لإرشاد الضال وهداية التائه، وإزالة الحجب عن القلوب، وإظهار الحق للناس قدر طاقتي في ثوبه الجميل، وبيان مكائد شياطين الجن والإنس التي كادوا بها للإسلام

وأهله؛ حتى يحذرها إخواني من المسلمين كما حذرتها".

فانطلق يدعو في المساجد والمقاهي للتوحيد، فقد عُين إماماً وخطيباً لمسجد شركس ثم مسجد هدارة بمنطقة عابدين بالقاهرة، فبث من على منبريهما دعوة التوحيد والسنة، وأيضاً كان يذهب للمقاهي التي كانت أماكن تجمع للمتعلمين وغيرهم، فكان يحدثهم عن الإسلام وعقيدته، وكان له درس مع زملائه في قهوة علي قاسم، ولما كان الفقي خطيباً مفوهاً يشد سامعيه وعالماً موفقاً فقد وفقه الله والتف حوله عدد من الناس يتعلمون عليه الإسلام، وبقي معهم يواجه البدع والخرافات والجهالات.

يقول الشيخ أبو الوفاء درويش: "كان يفسر آيات الكتاب العزيز، فيتغلغل في أعماقها، ويستخرج منها درر المعاني، ويشبعها بحثاً وفهماً واستنباطاً، ويوضح ما فيها من الأسرار العميقة والإشارات الدقيقة والحكمة البالغة والموعظة الحسنة.

ولا يترك كلمة لقائل بعده! بعد أن يحيط القارئ أو السامع علماً بالفقه اللغوي للكلمات وأصولها وتاريخ استعمالها، فيكون الفهم أتم والعلم أكمل وأشمل".

والشيخ الفقي بنشاطه هذا انتقل بالدعوة السلفية خطوة للأمام في المجتمع المصري، فقط كانت السلفية موجودة بين العلماء والدعاة والمفكرين في الأزهر وفي الجمعيات والمجلات، ولكن الفقي نزل بها للشارع وللناس البسطاء في المساجد، وقد جرّ عليه هذا مشاكل كثيرة، لكنه صبر عليها وصمد في وجهها بتوفيق الله، حتى استطاع مع لفيف من إخوانه بعد (١٠) سنوات من تخرجه من الأزهر والدعوة الفردية تكوين جماعة أنصار السنة المحمدية.

وأيضاً في هذه المرحلة كان له مساهمة إعلامية بنشر بعض المقالات في الصحف والمجلات، مثل: مقالاته بمجلة الفتح سنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) ردّاً على طه حسين

وأعوانه، ودفاعاً عن القرآن الكريم، وتوطدت علاقاته بعلماء وشيوخ الأزهر، فحين وقع خلاف بين الشيخ رشيد رضا وبين الشيخ يوسف الدجوي الصوفي الذي هاجم بشكل شخصي رضا في مجلة (نور الإسلام) التابعة للأزهر سنة (١٣٥١هـ)، وجرت معاتبات ووساطات للإصلاح بينهما، كان رسول مفتي مصر الشيخ عبد المجيد سليم لرشيد رضا هو الشيخ حامد الفقي، مما يدل على مقدار حضوره بين هؤلاء العلماء الكبار.

تأسيس جماعة أنصار السنة المحمدية:

بقي الفقي مجتهداً في الدعوة إلى التوحيد والسنة في كل مكان ينزل فيه، فعقب تخرجه من الجامعة أصبح إماماً لمسجد شركس ومسجد الهدارة في منطقة عابدين، فاجتهد على نشر الدعوة وتعليم الناس وإرشادهم، ولقي في سبيل ذلك الكثير من العقبات والمعيقات لكنه ظل ثابتاً على مبادئه السنية، حتى تيسر له في سنة (١٩٢٦م) تأسيس جماعة أنصار السنة المحمدية، في منطقة عابدين بالقاهرة، بمعونة عدد من زملائه وإخوانه.

والذي دعا الفقي لهذا القرار استشرافه لمستقبل الدعوة، وأنها إن بقيت مرتبطة بشخصه فهذا سيحد من انتشارها، وخاصة بعد أن أوقف الشيخ عن الدعوة بمسجد الهدارة، بسبب وشاية الحاسدين والمغرضين من أصحاب البدع والضلالات، حيث أيقن ضرورة تكوين جماعة تحمل الدعوة، وذلك بعد أن كثر عدد أتباعه، وأصبح أصحاب البدع مستائين من دعوته، فرأى أن ينتقلوا لمكان خاص بهم، لا يمكن منعهم منه، ابتعاداً عن ضوضاء المقاهي التي ضاقت بهم.

ويبدو أن الشيخ الفوزان -سفير السعودية- شجع على هذه الفكرة، فها هو

الفقي يقول: "ففي داره وبيده غرست أنصار السنة، وفي داره وبيده ترعرعت أنصار السنة، حتى كانت يوم موته Z قرة لعينه".

وفعلاً استأجر الفقي داراً بمنطقة عابدين قرب قصر الملك، ويحدثنا الشيخ محمد القاضي عن نشأة الجماعة سنة (١٩٢٦م) فيقول: "صليت الجمعة في أقرب مسجد وهو جامع شركس، فإذا بإمام طلق اللسان، قوي الحجة، واسع الاطلاع، يقول كلاماً لم أعهده من قبل في خطباء المساجد! فكأن كلامه السهم ينفذ إلى القلب، فأعجبت به ولم أنقطع عن صلاة من الصلوات ولا درس من الدروس.

وفي هذه المدة رأيت بعضهم يقفون أمام المسجد بعد صلاة العشاء، ويتحدثون في أمر إنشاء جمعية، فكانت فكرة طيبة قوبلت بالسرور، ثم خطوا بعد ذلك خطوة أخرى وأنشئت الدار في (ديسمبر ١٩٢٦)، ففرح الكل بذلك فرحاً عظيماً، واعتبروها نصراً من الله الذي ينصر من يشاء".

ويرى بعض الباحثين أن الفقي اختار هذا الاسم للجماعة تأثراً برشيد رضا الذي كان يستخدم هذه العبارة، وبدأ الشيخ مع إخوانه بالدعوة من خلال أنصار السنة المحمدية، ولكن تأسيس الجماعة لم يوقف المكائد ضده وضد دعوته، بل حاول بعض كبار موظفي قصر عابدين تحريض الناس ضده، ووصل الحال بهم لإغراء أحد السذج لقتله، ولكن الله نجاه!

وقد كانت الخطوة إضافة جديدة للدعوة السلفية في مصر؛ حيث أنها جمعت شمل كثير من دعاة السنة والتوحيد بمصر؛ سواء كانوا قد أسسوا جمعية خاصة، أو لهم نشاط فردي، فبعد تأسيس دار أنصار السنة انضم إليها بقية الدعاة، وأصبح مقر عابدين

المركز العام.

ففي خارج القاهرة تأسس فرع دمياط؛ والذي كان بالأصل جمعية الاعتصام بهدي القرآن التي أسسها الشيخ محمد الرمالي، وفرع الإسكندرية؛ الذي أسسه الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، وفرع سوهاج؛ الذي أسسه الأستاذ أبو الوفاء درويش، وفرع الحوامدية؛ الذي أسسه الشيخ محمد أحمد عبدالسلام.

ولكن بعد سنتين انتقل الشيخ للسعودية، حيث عهد إليه برئاسة إدارة النشر بمكة المكرمة، مما أدخل الجماعة في مرحلة من الركود.

الفقي في الحجاز:

هناك في الحجاز وعلى قلة بقائه إذ لم يمكث سوى ثلاث سنوات تقريباً؛ إلا أنه ترك بصمة قوية لا تزال لليوم آثارها في السعودية، يكفي منها قول العلامة محمد صالح ابن عثيمين عن الفقي: "أستاذنا"، وكانت إقامته هناك سبباً لتوسيع دائرة علاقاته بعلماء المملكة ومن هؤلاء مثلاً: الشيخ السعدي؛ الذي استمرت العلاقة بينهما مدة طويلة، يقول الفقي بهذا الصدد في مقاله (عرفت الشيخ السعدي) في رثائه له: "لقد عرفت الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المحقق؛ الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق؛ فيمشي وراءه، لا يلوي على شيء"، وقد كان بينهما مراسلات بلغت (٥٠) رسالة.

قام الفقي في الحجاز بعدد من الأنشطة الدعوية والإصلاحية، منها: إنشاؤه أول مجلة إصلاحية نصف شهرية في العهد السعودي، وهي مجلة "الإصلاح" سنة (١٣٤٧هـ)؛ والتي رفعت شعار: (صحيفة دينية علمية اجتماعية أخلاقية)، ورغم أنها لم تعمر سوى سنة ونصف تقريباً إلا أنها تركت أثراً كبيراً على المجتمع السعودي آنذاك،

واستقبلها العلماء والأمراء بالبشر والترحاب.

وقد كان إنشاء المجلة رغبة من الفقي طرحها على الملك عبد العزيز الذي رحب بالفكرة، وقد بين الفقي في افتتاحيته للمجلة أن سبب اقتراحه شعوره بالدور الكبير للصحافة في نشر الإصلاح والدعوة الصحيحة بين الناس، وأهمية ذلك في محاربة الفساد والضلال المنتشر، وأن المجلات القائمة بالإصلاح لا تزال لا تغطي الدور المطلوب من ناحية الانتشار والمهام.

وقد رحب السيد رشيد رضا بصدور المجلة، وأثنى عليها في المنار، وهذا يدل على مركزية دور الإعلام في تفكير الفقي الإصلاحي، وقد كان الفقي يكتب أغلب مواد الإصلاح، وشارك في الكتابة عدد من زملائه المصريين، كالشيخ عبد الظاهر أبو السمح؛ الذي كان قد سبقه للحجاز وأصبح إماماً للحرم المكي، وأيضاً كتب في "الإصلاح" عدد من علماء المملكة وغيرهم.

وأيضاً في الحجاز كان للفقي دروس ومحاضرات في الحرم المكي والمعهد الشرعي بمكة، بل وقد تولى الإمامة في الحرم المكي بعض الوقت بالنيابة عن الشيخ عبد الظاهر أبو السمح.

عودته للقاهرة وقيادة جماعة أنصار السنة المحمدية من جديد:

بعد سفر الفقي للحجاز ضعف نشاط الجماعة، وتبدل مقرها ثلاث مرات، ولكن بقي أعضاؤها على عهد شيخهم يترقبون أخباره وينتظرون عودته، ولما جاءت بعض النسخ من مجلته "الإصلاح" الحجازية، فرحوا بها جدّاً، وتخاطفوها فيما بينهم، ولما رجع إليهم سنة (١٣٤٩هـ) عاودوا الالتفاف حوله من جديد، ومضوا في دعوتهم للتوحيد والسنة.

ويمكن إجمال هذه المسيرة في المحطات التالية:

© تطوير الجماعة وتفعيلها:

فبدأ الفقي بالعمل على بعث الجماعة من جديد، ووضع لها قانوناً تسير عليه، وتواصل مِن جديد مع دعاة السنة في مصر؛ الذين كان لكل منهم نشاط في ناحيته ومحافظته، وأصبح هذا النشاط ينظم للجماعة كمركز وفرع من فروعها، وأيضاً كانت هناك جولات على المدن والقرى للدعوة وكسب أنصار جدد؛ مما زاد في عدد أنصار الجماعة، وأصبح مركز عابدين هو المركز العام للجماعة، وتكونت فروع جديدة بالقاهرة، وكان أول فرع لها هو فرع القبة ثم فرع الجيزة، ثم فرع مصر الجديدة، وبعد أن كان أعضاؤها نفراً محدوداً بلغوا ألف عضو.

© تكوين هيئة علمية للجماعة:

حيث قام الفقي بتكوين هيئة شرعية علمية لجماعة أنصار السنة سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م)، كان على رأسها: الشيخ عبد الحليم الرمالي، وضمت في عضويتها: الشيخ أحمد شاكر، الشيخ محمد عبد السلام القباني، الشيخ عبد الوهاب عيسوي، الشيخ محمد محمد مخيمر، الشيخ عبد الرزاق عفيفي، الشيخ إبراهيم عبد الباقي، الشيخ محمد حمدي، الشيخ عبد الحميد عبد السلام، والشيخ الفقي.

ومن رقي أخلاق الفقي: حفظه للود لشيخه الرمالي الذي كان سبباً في هدايته وتعرفه على التوحيد والسنة، برغم أن الكثيرين قد لا يعرفون الرمالي في ذلك الزمان ولا في هذا الزمان، ولكنه خلق الوفاء والصداقة المخلصة؛ التي يجب أن يتحلى بها دعاة الحق دوماً.

© تأسيس مجلة الهدي النبوي:

وفي سنة (١٣٥٦هـ/ مارس ١٩٣٦م) صدر العدد الأول من مجلة الهدي النبوي؛ لتكون لسان حال جماعته، والمعبرة عن عقيدتها والناطقة بمبادئها، لخص الفقي غرضه الإصلاحي من هذه المجلة فقال في افتتاحية العدد الأول: "واعلم أنه لا يعود بالمسلمين سيرتهم الأولى، ويرد إلى قلوبهم شجاعتهم وغيرتها؛ إلا تضافر أيدي أولئك النفر الوسط المهتدين، وجمع قواهم، ونهوضهم إلى انتشال من اجتالتهم الشياطين، والعمل على إظهار محاسن الإسلام.

ولقد أصبح ذلك العمل غير ميسور على وجهه الأكمل إلا بواسطة الصحف التي تنتشر في البلاد، وتدخل على كل أمير وعظيم وحقير وكبير وصغير، فإنشاء الصحف الإسلامية بلسان أولئك المصلحين من أنجع الوسائل في هذا الزمان لمعالجة أمراض المسلمين الدينية والأخلاقية، ولطالما تمنت نفسي أن إصدار صحيفة دينية علمية تضم صوتها إلى صوت المصلحين، وتدعو إلى الحق والرشاد والصلاح، ولقد حقق الله الأمنية، وهو المستعان، فلقد أخرجت جماعة أنصار السنة المحمدية مجلتها المباركة (الهدي النبوي) لتحقيق ما سبق ذكره من معالجة الأمراض والأدواء التي تنخر جسم المجتمع الإسلامي في هذا العصر والله ولي التوفيق".

وفي نفس الوقت لا بد أن نتنبه إلى أن الفقي أراد إكمال مسيرة مجلة المنار التي توقفت بموت رشيد رضا بإصدار الهدي النبوي في نفس العام، ويدل على هذا: قول الفقي في بداية العام السادس من مجلة الهدي النبوي: "نشر السيد رشيد رضا Z في العدد الأخير من المجلد (٣٤) من المنار هذا البرنامج الذي وضعه لمجلته الغراء:

تفسير القرآن بطريقة تبين أحقية الإسلام وجماله وكماله وصلاحه لكل زمان.

شرح حديث رسول الله ﷺ، وبيان صحيحه وضعيفه وزائفه.

دفع الشبهات وحل المشكلات، وذلك يكون في باب الفتاوى.

نقد المطبوعات التى فيها أخطاء علمية أو دينية ضارة.

بيان البدع والخرافات والتقاليد والعادات التي شوهت من جمال الإسلام.

الأدب والأخلاق، لأن أدب النفس واللسان أكبر أنصار الدين على التهذيب وتكوين الأخلاق". ا. هـ

ولمناسبة دخول (الهدي) في عامها السادس رأينا أن ننشر هذا البرنامج، ويظهر أن طريق الإصلاح الحق لكل داع إلى سلوكها واحدة، فقد كانت مجلة المنار هي المثل الأعلى فيما دعا إليه صاحبها -رضوان الله عليه-، ثم قفتها مجلة الهدي مِن أول نشأتها من السير على هذا المنهج والحمد لله.

ولعلها توسعت في بعض بنوده بما لم تداينها فيه مجلة أخرى".

ومن هنا رأينا الفقي يواصل مسيرة رشيد رضا في تفسير القرآن الكريم، فرشيد رضا توفي عند الآية (١٠١) من سورة يوسف، وقام الشيخ محمد بهجت البيطار بإكمال تفسير سورة يوسف، ثم قام الشيخ الفقي بإكماله فبدأ بتفسير سورة الرعد ثم إبراهيم ثم الحجر فالنحل، ومات بعد أن فسر إحدى عشرة آية من سورة الإسراء في مجلة الهدي النبوي، وكانت آخر آية فسرها هي: قوله تبارك وتعالى: { وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً } [الإسراء: ١١]، وقد فسرها Z في العددين (٦ و٧) لسنة (١٣٧٨هـ) في حوالي (٢٢) صفحة.

وتابع التفسير من بعده الشيخ عبد الرحمن الوكيل، ثم الشيخ سيد رزق الطويل؛ كما أخبر بذلك الأستاذ فتحي عثمان -وكيل جماعة أنصار السنة والخبير بتراثها وعلمائها-، وما أجمل أن تشيع هذه الروح الجماعية التكاملية بين العلماء والعامة فتنهض بها الأمة وتسعد!

وتنوعت مقالات المجلة بين القضايا الشرعية والأدبية والاجتماعية والسياسية، وكان لقضية فلسطين حضور بارز على صفحاتها، وكذلك أحوال البلاد الإسلامية.

وكانت (الهدي النبوي) تتشرف بمقالات عدد من الأعلام، وعلى سبيل المثال لا الحصر: الشيخ أحمد محمد شاكر، الأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ محيي الدين عبد الحميد، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ أبو الوفاء محمد درويش، والشيخ صادق عرنوس، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والشيخ خليل هراس، الشيخ محمود شلتوت.

وقد تولى الفقي رئاسة تحرير (الهدي النبوي) منذ نشأتها حتى وفاته، وفي سنة (١٣٧٠هـ) عهِد مجلس إدارة الجماعة للشيخ أحمد شاكر بتولي منصب مدير التحرير بالمجلة، لكنه لم يستمر بسبب عودته للقضاء.

وكانت (الهدي النبوي) توزع في مصر وخارجها، وكانت سفيرَ الجماعة للعالم الإسلامي، وأصبح لها مشتركون وأنصار من بلاد عديدة، كتب الفقي في افتتاحية السنة الثانية من المجلة: "ولقد لقيت مجلة الهدي النبوي في عامها الماضي تعضيضاً ومساعدة على نشرها وإذاعتها، وترويجاً في الأوساط المختلفة ما لم تكن تحلم به؛ حتى لقد كانت تنفد بعض أعدادها في أسبوع واحد وذلك بهمة إخواننا أنصار السنة

المحمدية المنتشرين الآن -بحمد الله- في نواحي كثيرة من مصر والسودان والحجاز ونجد والشام والهند وجاوا والعراق والمغرب، كثر الله سوادهم وأيدهم بروح من عنده، وجزاهم عنا أحسن الجزاء".

وفي السنة الثانية عشرة من عمرها كانت تطبع (٢٥٠٠) نسخة، منهم (٦٠٠) مشترك من خارج مصر، وهو رقم كبير بمقاييس ذلك الزمان.

© تأسيس مطبعة أنصار السنة:

مع زيادة نشاط الجماعة أنشأ الشيخ الفقي مطبعة السنة المحمدية لنشر كتب السلف؛ وبوجه خاص كتب ابن تيمية وابن القيم.

محطات متفرقة من حياة الفقي:

¤ شكّل نشر العلم والدعوة للتوحيد الشغل الشاغل له Z ، وقام بنشر الكثير من كتب السلف؛ وخاصة ابن تيمية وابن القيم، وكذلك علماء الدعوة النجدية، وقائمة كتبه في ذلك تطول، وهي مشهورة.

وقد تسببت تلك الجهود المباركة بقيام أهل البدع بحربه بالباطل؛ كأحمد وعبد الله الغماري وعبد الفتاح أبو غدة، ووقعت له قصة ضخمة حين طبع كتاب «رد الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على بشر المريسي» سنة (١٣٥٨هـ)، فقام بعض أهل الضلال -وخاصة عبد المجيد اللبان ويوسف الدجوي- بالتشنيع على الشيخ في الصحف والمجلات؛ حتى أصبحت قضية كبيرة، وتم تحويلها لجماعة كبار العلماء بالأزهر وعلى رأسها: الإمام الأكبر الشيخ المراغي؛ للنظر في الكتاب.

ولم ينتظر أهل الضلال تقرير هيئة العلماء بل أشاعوا أن الفقي سوف تُسحب منه شهادته العالمية الأزهرية، مما أثار قلق إخوانه، إلا أن قرار اللجنة كان في صالح الشيخ

الفقي، ولكن أعداءه لم ييأسوا وأعادوا إثارة الموضوع حتى صدر تقرير ثانٍ يميل لهم، وحسماً للخلاف طلب شيخ الأزهر من الشيخ محمد شلتوت كتابة تقرير ثالث ينهي به القضية، فكتب تقريراً فند به التقرير الثاني وختمه بقوله: "كان أولى بنا بدل أن نقرأ هذا التقرير الذي ينظر في مقدمة الناشر (الفقي) نظرة تخرجها عن واقعها، وتحولها عما أراده منها صاحبها؛ كان أولى بنا أن نقرأ تقريراً آخر في الكتاب وما تضمنه من الآيات والأحاديث، وما فيه من انحراف؛ لينبه على هذا كله ويناقش فيه، ويبين للناس وجهه الحق، ثم يطلب من الجماعة العمل على إلزام ناشر الكتاب بنشر هذا البيان.

وقد سبق مثل ذلك يوم أريد نشر الكتاب تاريخ بغداد، فوجد فيه طعن باطل على الإمام الأعظم أبي حنيفة ﷺ، فصودر الكتاب حتى وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير مفتي الديار المصرية تعليقاً في تفنيد ما جاء في الكتاب خاصّاً بالطعن على أبي حنيفة، وإلزام ناشر الكتاب بنشر هذا التعليق معه، وكان هذا سبباً في الإفراج عن الكتاب.

إلا أن جماعة كبار العلماء لو فعلت هذا لقامت بواجبها من غير أن يؤول عملها بأنها تصادر حرية التأليف والنشر.

لهذا أقترح على الجماعة الموقرة أن تصرف النظر عن هذه المسألة لئلا تثير مشاكل لا فائدة للإسلام والمسلمين من إثارتها، لا بالنسبة إلى الكتاب، ولا بالنسبة إلى ناشر الكتاب".

هكذا أسدل الشيخ شلتوت الستار على القضية لصالح الفقي، وهذا مثال على ما كان يعانيه الفقي وإخوانه في سبيل نشر التوحيد والسنة ونقض الشرك والبدعة في ذلك الزمن.

ويقول الشيخ صفوت نور الدين -الرئيس السادس لجماعة أنصار السنة- عن بعض ما كان يعانيه الفقي في دعوته للتوحيد من بعض مشايخ الضلال: "كان الشيخ عبد ربه سليمان في درسه يقول: (الجاحد الشقي)، يعني به: الشيخ حامد الفقي، فيسمع تلامذته هذا الكلام فيأتون للشيخ حامد ويسمعون؛ فيجدون أحاديثه هي: قال الله، وقال الرسول، يدعو بدعوة التوحيد، فالكثير منهم ممن جاء لأنصار السنة جاء بهذا السبيل"!!

¤ كانت له صلات واسعة بالعلماء والدعاة؛ وخاصة أهل التوحيد والسنة منهم والوجهاء والساسة في عصره في مصر وخارجها، فكانت له علاقات واسعة بالأزهر وشيوخه وعلمائه؛ خاصة الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ مصطفى المراغي والشيخ شلتوت والشيخ محمد شاكر -وكيل الأزهر ووالد المحدث أحمد شاكر-، حيث كان يحضر دروسهم ويزورهم، ويستضيفهم لإلقاء المحاضرات في جماعة أنصار السنة، ويدون بعض دروسهم وينشرها في مجلة الهدي النبوي، ويستكتبهم في مجلة أنصار السنة المحمدية.

¤ وكانت له علاقات بدعاة التوحيد والسنة خارج مصر مثل: الشيخ محمد بهجة البيطار؛ الذي كان أول مفتٍ لمجلة الهدي النبوي، حيث ترسل له الاستفتاءات ليجيب عنها من دمشق.

وكان للفقي تواصل مع الشيخ نسيب الرفاعي، وكذلك مع الشيخ الألباني؛ حيث كان شابّاً حين طلب منه الفقي المساعدة في نسخ وتحقيق رسالة «العقود» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وطبعت باسمهما معاً، قال الفقي في مقدمته: "فكتبت إلى الأخ

السلفي البحاثة الشيخ ناصر الدين الأرنؤوطي بدمشق أطلب إليه معاونتي في العثور على نسخة أخرى، فكتب إلي أن عند آل الشطي الأمجاد نسخة جيدة سليمة، فأرسلت إليه النسخة بالطائرة، فراجعها مراجعة دقيقة، وكمل مواضع النقص فيها، وعندئذٍ اطمأننت إلى أني أستطيع أن أخرج الكتاب النفيس باسم «نظرية العقد»".

كتب هذا في (شوال سنة ١٣٦٨هـ/ أغسطس ١٩٤٩م)، وحين جاء الألباني لمصر رتب له محاضرة في دار أنصار السنة.

وكانت للفقي صلات جيدة بأهل الحديث في الهند، فضلاً عن علاقاته القوية بالسعودية وعلمائها.

¤ جهاده: يقول عنه الشيخ عبد الرحمن الوكيل: "لقد ظل إمام التوحيد (في العالم الإسلامي) والدنا الشيخ محمد حامد الفقي Z أكثر من أربعين عاماً مجاهداً في سبيل الله.

ظل يجالد قوى الشر الباغية في صبر، مارس الغلب على الخطوب، واعتاد النصر على الأحداث، وإرادة تزلزل الدنيا حولها، وترجف الأرض من تحتها، فلا تميل عن قصد، ولا تجبن عن غاية، لم يكن يعرف في دعوته هذه الخوف من الناس، أو يلوذ به، إذ كان الخوف من الله آخذاً بمجامع قلبه.

كان يسمي كل شيء باسمه الذي هو له، فلا يُدهن في القول ولا يداجي ولا يبالي، ولا يعرف المجاملة أبداً في الحق أو الجهر به، إذ كان يسمي المجاملة: نفاقاً ومداهنة، ويسمي السكوت عن قول الحق: ذلّاً وجبناً".

وكانت له مشاركة في الجهاد ضد الاحتلال البريطاني لمصر قبيل الحرب العالمية الثانية؛ إذ كان يحرّض الناس على المقاومة، وكان يطبع ويوزع البيانات ضد الاحتلال

سرّاً، وأسس جماعة (أنصار فلسطين) للجهاد ضد اليهود.

قال الفقي عن إلغاء المعاهدة مع بريطانيا: "فإليكم ما سجلته في رسالتي التي أرد بها على شيخ الأزهر: "لقد ألغت الحكومة مشكورة هذه المعاهدة المشئومة التي عقدتها مصر مع إنجلترا الفاجرة، ونحن أنصار السنة نؤيد هذا الموقف الشجاع الجريء؛ الذي استطاعت به حكومة مصرية أن تقول للإنجليز: لا، أيها الطغاة الغاصبون، لن نستكين بعد اليوم لذلة، ولن نمكن نير ظلمكم من أعناقنا مرة ثانية.

ولكن يجب أن تبرم القلوب عهداً مع الله أن لا تخون عهده، وأن تكون النفوس له وحده في العبودية والجهاد، ولقد نبذنا في قوة وعزة محالفة الإنجليز؛ فلنعاهد الله أن ننبذ الحلف مع الشيطان، فنحن نؤيد الحكومة كل التأييد، ونعتبر من لا يؤيد ذلك ليس خائناً للوطن فحسب بل قبل ذلك خائناً لله ودينه ورسوله".

¤ لم تقتصر دعوته على مصر، فبسبب وجود الأزهر الذي يستقبل الطلبة من مختلف البلدان، فقد تأثر بدعوة الشيخ الفقي عدد من الطلبة الذين نشروا فكر أنصار السنة المحمدية في بلادهم، وأسسوا جماعة أنصار السنة في بلادهم؛ كما في السودان ووأرتيريا وأثيوبيا والصومال وليبريا وتايلند.

قال سعد صادق في بيان تأثير دعوة الفقي: "لم ينحصر تأثير دعوة الشيخ حامد داخل دائرة مصر ومدنها وقراها فحسب ... بل تجاوزها إلى خارج الحدود المصرية، تجاوزها في إفريقيا إلى السودان وإرتريا والصومال، وفي الشام: سوريا والعراق والأردن ولبنان وفلسطين، وفي آسيا إندونيسيا وسيام.

بل لا نكون مغالين إذا قلنا: إن تأثير هذه الدعوة امتد إلى بعض دول أوروبا في أمريكا ولندن وفرنسا وسويسرا؛ حيث توجد هناك جاليات مسلمة تسامعت بدعوة

الشيخ عن طريق من يسافرون إلى تلك المدن الأوروبية في مهمات عملية وعلمية، وعن طريق مجلة الهدي النبوي؛ التي كانت تصل إلى تلك البلاد ويقرأها كثير من المتعطشين إلى معرفة العلم الصحيح النابع من القرآن والسنة".

وفاته:

توفي Z فجر (الجمعة ٧ رجب ١٣٧٨هـ، الموافق ١٦ يناير ١٩٥٩م) على إثر عملية جراحية، فبعد أن نجحت العملية أصيب بنزيف حاد، وعندما اقترب أجله طلب ماء للوضوء ثم صلى ركعتي الفجر بسورة الرعد كلها، وبعد ذلك طلب من إخوانه أن يُنقل إلى دار الجماعة؛ حيث توفي بها.

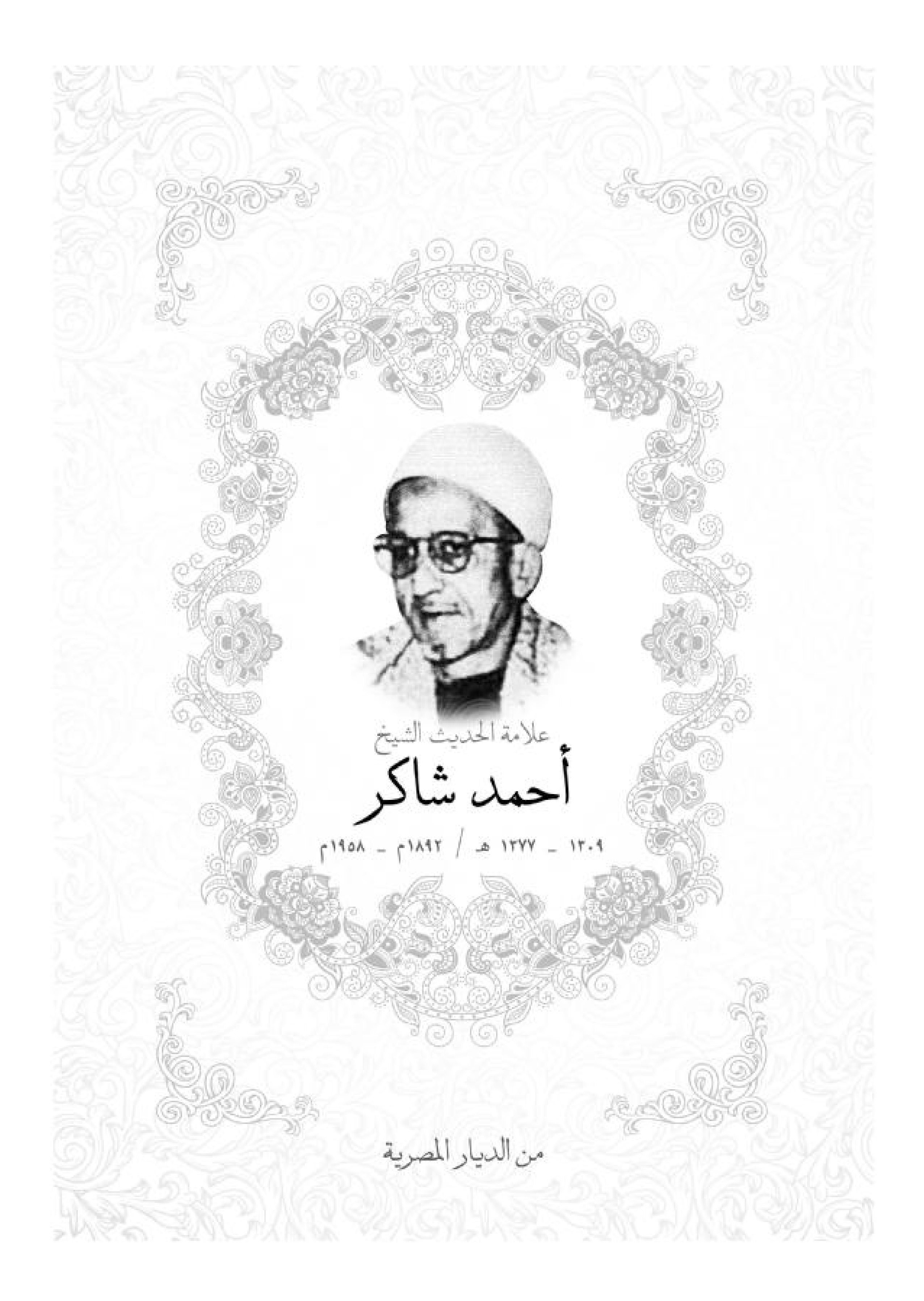
مراجع للتوسع:

١- «جماعة أنصار السنة المحمدية»، د. أحمد محمد الطاهر، دار الهدي النبوي بالقاهرة ودار الفضيلة بالرياض، ط ١، (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م).

٢- «جهود الشيخ محمد حامد الفقي في تفسير القرآن الكريم»، محمد عاطف التاجوري، مكتبة السنة النبوية، القاهرة، ط ١، (١٤٣٣هـ-٢٠١٢م).

٣- «العلامة محمد حامد الفقي، رائد الدعوة السلفية»، الأستاذ فتحي أمين عثمان، -وكيل أنصار السنة المحمدية-، غير منشور.




علامة الحديث الشيخ
أحمد شاكر
١٣٠٩ - ١٣٧٧ هـ / ١٨٩٢م - ١٩٥٨م
من الديار المصرية

٢١- علامة الحديث الشيخ أحمد شاكر

(١٣٠٩-١٣٧٧هـ/ ١٨٩٢-١٩٥٨م)

تمهيد

برغم شهرته الواسعة جدّاً، وتأثيره الكبير، ومؤلفاته الكثيرة إلا أن المعلومات عن حياته شحيحة جدّاً، هذا وهو لم يُتوفى إلا منذ (٥٠) عاماً، وفي القاهرة أكثر البلاد حركةً وصخباً، مما يؤكد وجود خلل عميق جدّاً في دراسة وترجمة رموز الإصلاح السلفيين المعاصرين.

وهذا القصور يعيق مسيرة النهضة من خلال عدم مراكمة التجارب والتعلم من دروسها وعِبرها، فنبقى دوما نبدأ من جديد دون تقدم يذكر!

ولكنني علمت أن الشيخ أشرف عبد المقصود يقوم حاليّاً بإعداد أطروحة دكتوراه عن الشيخ المحدث أحمد شاكر، وذلك بعد أن عهد إليه أسامة ابن الشيخ أحمد شاكر قبل وفاته بالكثير من النسخ الأصلية لكتب الشيخ والعديد من أوراقه الخاصة، فنتمنى له التوفيق، وأن يسد هذه الثغرة في حقه Z .

مولده ووالده:

ولد الشيخ أحمد شمس الأئمة أبو الأشبال -كما سماه أبوه -في القاهرة سنة (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م)، لعائلة من أشراف الصعيد، وقد كان أبوه محمد شاكر من العلماء المعروفين، أما والدته فكانت ابنة أحد أئمة العربية في ذلك الزمان، وهو الشيخ

هارون عبد الرزاق، جد المحقق المعروف عبد السلام هارون، مما كان له أبلغ الأثر على حياته.

وكان للشيخ محمد شاكر الأثر الأكبر على شخصية ولده المحدث أحمد شاكر، فهذه العلاقة استمرت منذ ولادة أحمد الابن البكر، والذي رحل معه للسودان ثم عادا للإسكندرية، ثم استقرا بالقاهرة، وبقيا في نفس البيت حتى توفي Z سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م).

ولِفهم جوانب عديدة من شخصية المحدث أحمد شاكر لا بد من استعراض سريع لشخصية والده الشيخ محمد شاكر:

فهو من مواليد سنة (١٢٨٢هـ/١٨٦٦م)، حفظ القرآن ودرس بالأزهر على كبار الشيوخ آنذاك، ولما بلغ (٢٥) سنة من عمره (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) عهد إليه بأمانة الفتوى مع شيخه العباسي المهدي، مما يدل على نبوغه وعلمه.

وبعدها بسنوات عهد إليه بتولي القضاء سنة (١٣١١هـ/ ١٨٩٤م)، فعين نائباً لمحكمة مديرية القليوبية، وبقي (٦) سنوات في القضاء، فرأى حال القضاء المزري وحاجته للإصلاح، وعرض على شيخه المفتي إصلاح القضاء، والخروج عن مذهب أبي حنيفة للمذاهب الفقهية الأخرى في بعض المسائل للحاجة الماسة لذلك؛ من خلال الواقع العملي الذي عايشه في القضاء، إلا أن شيخه رفض ذلك وبشدة.

ولكنه لم ييأس، وكتب تقريراً حول واقع القضاء وطرق إصلاحه، وقدمه للشيخ محمد عبده -مفتي الديار المصرية- سنة (١٨٩٩م)، وهو الأمر الذي سيكرره أحمد شاكر لكن مع الملك عبد العزيز بن سعود سنة (١٩٤٩م)، -وقد كان تقريراً خاصّاً لم ينشر إلا من سنوات قليلة بتحقيق الشيخ أشرف عبد المقصود-.

وفعلاً تطابقت رؤية الشيخ الشاب محمد شاكر مع رؤية المفتي محمد عبده، ولكن يبدو أن الأوضاع لم تكن لتسمح له بالتغيير المطلوب في القطاع القضائي في مصر، ولذلك زكّى المفتي محمد عبده الشيخ محمد شاكر لتولي منصب قاضي قضاء السودان سنة (١٩٠٠م)، والتي كانت الأمور فيها أكثر قابلية للإصلاح بسبب انتهاء الثورة المهدية وتهدم القوانين والحكومة والقضاء، مما يجعل البناء الجديد لا يتطلب هدماً!

وفعلاً قام الشيخ محمد شاكر ببناء القضاء على أسس جديدة، تفادى فيها عيوب القضاء في مصر، وقد اقتبس القضاء المصري بعض هذه الإصلاحات فيما عرف بلائحة سنة (١٩١٠م)، وبعضها دخل من خلال القانون رقم (٢٥) لسنة (١٩٢٠م).

وفي السودان لم يقتصر عمله على القضاء وإصلاحه فحسب، بل كان يتابع ويراقب بشدة استقلالية القضاء، وعدم التعدي عليه من الاحتلال البريطاني، وأيضاً تصدى لأية محاولة للتهوين من الحكم الشرعي والتنقص من حكمه ومقاصده، وهو النهج الذي سار عليه أحمد شاكر فيما بعد، وفي السودان -أيضاً- الشيخ محمد شاكر درّس العلم في المسجد، وشرح «صحيح البخاري».

ثم جاءه التكليف بالعودة للإسكندرية سنة (١٩٠٤م)، وتولّي مشيخة العلماء فيها، وتأسيس معهد تابع للأزهر؛ فقام بنهضة علمية هناك، وجعل تعليم العلوم العصرية إجبارياً للطلبة وليس اختيارياً؛ كما في الأزهر نفسه، وذلك بهدف إنشاء جيل من طلبة الأزهر قوي في معتقده وفقهه، وعارف بواقع أمته، لقيادتها للمجد.

وبعد سنوات عاد للقاهرة، وشغل منصب وكيل الأزهر في (١٩٠٩م)، ولما أنشئت هيئة كبار العلماء سنة (١٩١١م) كان من ضمن الفوج الأول حتى وفاته،

فسعى في تطوير الأزهر بما يستطيع، ولكنه اصطدم ببعض العقبات، ولما تأسست سنة (١٩١٣م) الجمعية التشريعية (مجلس الشوري) طلب من صديقه رئيس الوزراء أن يعين فيه؛ حتى يتحرر من أعباء الوظيفة التي تقيد أصحاب الآراء الحرة ودعاة الاجتهاد.

وقد كانت له مشاركات في الصحف والمجلات، ولما قامت ثورة (١٩١٩م) شارك فيها، بل قاد الأزهر وأهله للمشاركة فيها، وقد عرضت عليه مشيخة الأزهر سنة (١٩٣٣م) فرفضها؛ حتى لا يكون ألعوبة بين السياسيين!

هذه كانت أبرز المحطات من حياة الشيخ محمد شاكر؛ والتي سنرى أنها انعكست كثيراً في حياة ولده أحمد شاكر.

تعلمه ودراسته:

من صغره تعهده أبوه بتعليمه مبادئ القراءة والكتابة، ثم حفظ القرآن الكريم، ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل أبوه إلى السودان ليكون قاضي القضاة هناك، وأدخله أبوه كلية غوردون بمدينة الخرطوم لما أنشأت سنة (١٩٠٢م)، فدرس بها (٤) سنوات، وكلية غوردن بدأت كمدرسة ابتدائية تتبع بريطانيا، ثم تطورت حتى أصبحت جامعة الخرطوم بعد الاستقلال سنة (١٩٥٦م).

وقد كان لهذه السنتين تأثير في شخصية أحمد شاكر، بالجمع بين التعليم الشرعي والتعليم المادي، وهي القضية التي وعيها أحمد شاكر عن والده؛ ففي مقال له بمجلة المقتطف سنة (١٩٣٩م)، ذكر ما ورد تحذير والده في تقريره لمشيخة الأزهر سنة (١٣٢٢هـ)، عن خطورة اختصاص أبناء الأثرياء والوجهاء والساسة بالتعليم المادي، وعدم مرورهم على التعليم الشرعي، وأن مآل ذلك ظهور طبقة من المسؤولين لا

معرفة شرعية لهم، وانزواء العلماء بعيداً عن شؤون المجتمع، وضرب مثلاً بنفسه وكيف أن والده ضمه للتعليم الشرعي في الإسكندرية بعد أن كان في السنة الرابعة بكلية غوردن بالخرطوم.

ولذلك نجد أحمد شاكر يعلّم أولاده وبناته لاحقاً في المدارس العصرية مع تعهده لهم بالرعاية والتوجيه.

وفي سنة (١٩٠٤م) طُلب من والده العودة للإسكندرية لإنشاء معهد شرعي تابع للأزهر، فيدخله أحمد شاكر، وهناك يتعلم على يد الشيخ محمود أبو دقيقة -عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف-، فحبب إليه الفقه والأصول حتى تمكن منهما، كما دربه على ركوب الخيل، وكان أبوه قد أقر في مناهج المعهد دراسة العلوم العصرية، وبهذا توسعت مدارك الفتى أحمد شاكر.

وقد درس أحمد شاكر وإخوته على والدهم «تفسير النسفي» و«تفسير البغوي»، ودرس عليه -أيضاً- «صحيح مسلم»، و«سنن الترمذي»، وبعضاً من «صحيح البخاري»، ودرس «جمع الجوامع» و«شرح الإسنوي على المنهاج في أصول الفقه»، وكتاب «الهداية» في الفقه الحنفي، كما شرح لهم دروساً في البيان والمنطق.

ولم يكن والده يدرسهم الفقه المذهبي بل كان يناقش كلام المذهب ويخالفه؛ إذا خالف الدليل الشرعي، وهذا بتأثير من تجربته في القضاء وأن الجمود على المذهب ليس بصواب، ومن هنا نشأ أحمد شاكر متحرراً من التعصب الفقهي، كما كان لوالده الفضل في توجيهه لدراسة السنة النبوية منذ سنة (١٩٠٩م).

قال أحمد شاكر في مقدمة كتاب «الرسالة» للشافعي: "وقد يفهم بعض الناس من كلامي عن الشافعي أني أقول ما أقول عن تقليد وعصبية، لما نشأ عليه أكثر أهل العلم

من قرون كثيرة؛ من تفرقهم أحزاباً وشيعاً علمية، مبنية على العصبية المذهبية، مما أضر بالمسلمين وأخرهم عن سائر الأمم، وكان السبب في زوال حكم الإسلام عن بلاد المسلمين، حتى صاروا يحكمون بقوانين تخالف دين الإسلام، خنعوا لها واستكانوا، في حين كان كثير من علمائهم يأبون الحكم بغير المذهب الذي يتعصبون له ويتعصب له الحكام في البلاد.

ومعاذ الله أن أرضى لنفسي خلة أُنكرها على الناس! بل أبحث وأجد، وأتبع الدليل حيثما وجد، وقد نشأت في طلب العلم وتفقهت على مذهب أبي حنيفة، ونلت شهادة العالمية من الأزهر الشريف حنفيّاً، ووليت القضاء منذ عشرين سنة، أحكم كما يحكم إخواني بما أذن لنا بالحكم به من مذهب الحنفية.

ولكني بجوار هذا بدأت دراسة السنة النبوية أثناء طلب العلم، من نحو ثلاثين سنة، فسمعت كثيراً وقرأت كثيراً، ودرست أخبار العلماء والأئمة، ونظرت في أقوالهم وأدلتهم، لم أتعصب لواحد منهم، ولم أحِد عن سنن الحق فيما بدا لي، فإن أخطأت فكما يخطئ الرجل، وإن أصبت فكما يصيب الرجل.

أحترم رأيي ورأي غيري، وأحترم ما أعتقده حقّاً قبل كل شيء وفوق كل شيء.

فمن هذا قلت ما قلت واعتقدت ما اعتقدت في الشافعي Z ".

وبعد سنوات قليلة في الإسكندرية ترحل العائلة للقاهرة، ليتولى أبوه منصب وكيل الأزهر، وذلك سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، وفي القاهرة ينضم لركب الطلبة في الأزهر، مما فتح أمامه آفاق القراءة والتحصيل والاتصال بالعلماء والالتقاء بهم؛ سواء كانوا من علماء الأزهر أم من المترددين على القاهرة.

فدرس على العلامة عبد الله بن إدريس السنوسي -محدث المغرب-، وقرأ عليه، فأجازه برواية الكتب الستة، واتصل بالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -صاحب «أضواء البيان»-، وأحمد بن الشمس الشنقيطي، وشاكر العراقي، والعلامة طاهر الجزائري، والأستاذ محمد رشيد رضا، والشيح جمال الدين القاسمي، والشيخ سليم البشري -شيخ الجامع الأزهر-، وقد أجازوه بمروياتهم.

وكانت تلك هي خطواته الأولى للإمامة في علم الحديث وبلوغ مرتبة إمامة الحديث في مصر لا ينازعه فيها أحد، وقد تخرج من الأزهر في سنة (١٩١٧م) بحصوله على الشهادة العالمية.

ومن نتائج هذه الدراسة والالتقاء بالعلماء الكبار: أن كانت شخصية أحمد شاكر شخصية متكاملة، فوالده عالم أزهري لكنه واسع الأفق، وقد رافقه في عدد من البلاد والمدن، وبقيت صلته بوالده حتى وفاته، وقد كان والده شخصية علمية وسياسية، فنشأ أحمد مدركاً لمجريات الأحداث في مصر وتطوراتها، وهو ما صرح به أسامة أحمد شاكر من أن تحليلات جدّه السياسية تجاه مصر وفلسطين كانت صائبة، وقد أثرت على شخصية أحمد شاكر وولده أسامة؛ الذي مُنع سنة (١٩٤٧م) من كتابة رسالة ماجستير عن القضية الفلسطينية، في جامعة فؤاد الأول -التي أصبحت تسمى بعد ثورة (يوليو ١٩٥٢م): جامعة القاهرة-، واقترحوا له موضوعاً بعنوان: (البترول وأثره في التنافس السياسي والإقتصادي بين انجلترا وروسيا في إيران)!! لكنه رفض إكمال الدراسة لما تربى عليه من عزة وكرامة.

وأيضاً استفاد أحمد شاكر من عدد من كبار علماء ومصلحي العصر من بلاد

ومشارب شتى، ولذلك أصبحت له مشاركة في الشأن العام، وفي الصحافة والمجلات، وفي تأسيس جماعة أنصار السنة المحمدية، وذلك من خلال هذه الخلطة والدراسة والمصاحبة، قال أحمد شاكر في مقدمته لتحقيق رسالة «المسح على الجوربين» للقاسمي:

"فإن أستاذنا عالم الشام محمد جمال الدين القاسمي Z ألف رسالة نفيسة في المسح على الجوربين، طبعت في دمشق سنة (١٣٣٢هـ)، وقد قرأتها وأخذت منها علماً جمّاً، وروحاً قويّاً في ذلك العهد البعيد، حين كنا في مطلع الشباب، متشوقين إلى العلم الصحيح؛ علم الكتاب والسنة، وكنا أحرص ما نكون على كتب السلف الصالح وكتب من نهج منهجهم من المتأخرين؛ الذين يستمسكون بالهدي النبوي، ويتبعون الدليل الصحيح؛ دون تعصب لرأي وهوى، ودون جمود على التقليد.

وكان في مقدمة من سار على النهج القويم: أستاذنا القاسمي Z . وقد زار مصر قبل وفاته، وكنت ممن اتصل به من طلاب العلم، ولزم حضرته، واستفاد من توجيهه إلى الطريق السوي والسبيل القويم".

وهذا يكشف لنا عن أهمية دراسة خريطة العلاقات بين العلماء والمصلحين السلفيين في مطلع القرن العشرين، وكيف أن تأثيرهم لم ينحصر ببلدانهم التي أقاموا فيها.

عمله بالقضاء:

بعد تخرجه من الأزهر اشتغل بالتدريس لمدة أربعة أشهر في مدرسة عثمان ماهر، ثم عمل في القضاء، وترقى في مناصبه حتى اختير نائباً لرئيس المحكمة الشرعية العليا، وأحيل إلى التقاعد سنة (١٣٧١هـ/١٩٥١م)، وذلك بعد أن عمل بالقضاء (٣٠) سنة، ثم فتح مكتباً للمحاماة.

وعمله بالقضاء جعله قريب الصلة من الناس وقضاياهم، وكذلك تنقله بين المدن في حياته القضائية، فجعل له ذلك معرفة بتنوع المجتمع المصري، ويظهر هذا جليّاً في مقالاته التي عالج بها كثيراً من قضايا الناس وهمومهم.

وأيضاً عمله بالقضاء جعله وثيق الصلة بالشأن العام، وكيف تدار بلاد المسلمين من قبل المحتلين، ومن قبل الأنظمة المحلية التي جاءت بعد الاحتلال، ولذلك كان إصلاح القضاء شغله الشاغل بإرجاعه لحكم الشريعة.

جهوده العلمية:

الشخصية المعروفة والمشهورة للشيخ أحمد شاكر هي: شخصية العالِم والمحقق؛ وخاصة في علم الحديث، ولكن هذا فيه ظلم للحقيقة ولشخصية الشيخ أحمد شاكر! ومن أجل توضيح ذلك يمكن أن نقسم جهوده العلمية لثلاثة أقسام:

١- تحقيق بعض عيون التراث الأدبي العربي والإسلامي، ولذلك كانت تحقيقاته في سلسلة ذخائر العرب، التي طبعتها دار المعارف من التحقيقات الهامة في اليقظة الأدبية المعاصرة، مثل: «إصلاح المنطق» لابن السكيت، و«الأصمعيات»، و«المفضليات»، حققها مع ابن خالته الأستاذ عبد السلام هارون.

إضافة إلى عدد آخر من كتب الأدب واللغة والشعر؛ كـ «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، و«لباب الآداب» لابن منقذ، و«الشرع واللغة».

٢- جهود متميزة في خدمة العلوم الشرعية؛ كالفقه والأصول والعقيدة والتفسير والسيرة والتراجم والنوازل العصرية، وتتنوع هذه الجهود بين تحقيق النص بحرفية عالية؛ كعمله على كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي، وبين التحقيق والتعليق؛ كعمله على «المحلى» لابن حزم، وبين التصحيح والفهرسة والشرح؛ ككتاب «الخراج» ليحيى

ابـن آدم، ونشر بعـض الكتـب المهمـة؛ ككتـاب «التوحيـد والأصـول الـثلاث» لابـن عبد الوهاب، و«الحموية والتدمرية» لابن تيمية، والاختصـار؛ كاختصـار «تفسـير ابـن كثير»، وبين التأليف المستقل؛ ككتابه القيم «نظام الطلاق في الإسلام»، و«كلمة الفصل في قتل مدمني الخمر»، وهناك أمثلة كثيرة في هذه الأنواع المختلفة لا مجال لسردها.

وبهذا يتبين لنا ضخامة الجهد العلمي الـذي اضطلع بـه أبـو الأشبال في مسـيرته العلمية.

٣- جهوده المتميزة في علم الحديث؛ والتـي اشـتهر بهـا، ولقـد أحيـى الشـيخُ علـم الحديث في مصر، وأصبح له منهج خاص في توثيق الرواة، وُصف بنـوع مـن التسـاهل مع الرواة.

وحتى في مؤلفات علم الحديث تنوعت جهوده بـين إخـراج وتحقيـق بعـض كتـب مصطلح الحديث؛ كـ «ألفيّة السيوطي»، و«ألفيـة العراقـي»، و«الباعـث الحثيـث»، وقـد أضافت تعليقات الشيخ شاكر للكتاب قيمة علمية عالية.

ثم عمل على تحقيق أحاديث بعض كتب أمهـات الإسـلام؛ كـ «تفسـير الطـبري»، والذي حقق منه (٩) مجلدات، وعمل على إخراج كتب الأحاديث بطبعة علمية محررة؛ كعمله على «سنن الترمذي»، و«مختصر سنن أبي داود»، و«صحيح ابن حبان».

وأما درة التـاج في أعمالـه الحديثيـة بـل أعمالـه كلهـا فهـو: اشـتغاله بخدمـة «مسـند الإمام أحمد»؛ حيـث قضى في خدمـة هـذا الكتـاب قرابـة (٤٨) سـنة! فهـو قـد بـدأ سـنة (١٩١١) في قراءته وكتابة مسودات يراجعها ويعدلها، حتى طبع أول مجلد من «المسند» سنة (١٩٤٣م)، أي: بعد (٣٢) سنة! ولما توفي سـنة (١٩٥٩) كـان قـد طبـع منـه (١٦) مجلداً.

فـ «المسند» هو كتاب عمره الذي عمل فيه، وهو يقوم بعمله القضائي وبقية أعماله العلمية السابقة وبقية أعماله الإصلاحية الأخرى؛ التي سنذكرها من كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات، والزيارات الدعوية، وغير ذلك.

وهذا العمل في «المسند» يوضح بعضاً من شخصية أبي الأشبال، فهو ينبئ عن شخصية لها هدف واضح محدد هو: خدمة «المسند» ليصبح حقيقة إماماً للناس، كما كان يتمنى الإمام أحمد نفسه Z ، ولذلك عكف على دراسته وخدمته هذه السنوات الطويلة دون ملل أو فتور.

ونستشف من هذا الجهد الكبير في وضع الفهارس العلمية المحررة عن عقلية مبتكرة فذة، تعشق الإبداع والاجتهاد، وتملك رؤية كلية للقضايا، ولذلك كانت فهارسه متعددة الأغراض وملبية لحاجة معظم الناس من الفقهاء والمحدثين، اسمع إليه وهو يقول عن فهارسه: "وقد قرأت من أجل هذا الفهرس كل فهارس كتب السنة، وكتب الفقه، وكتب السير، وكتب الأخلاق، ؛ التي تيسر لي الحصول عليها، ثم ضممت كل شبه إلى شبه، وكل شكل إلى شكله، وتخيرت في ترتيبها أقرب الطرق إلى عقل المحدث والفقيه".

وأيضاً يكشف عمل شمس الأئمة أحمد شاكر عن رؤية إصلاحية علمية عصرية؛ فيقول: "والمقصد الأول من هذا كله: تقريب الإفادة من هذا «المسند» الجليل إلى الناس عامة، وأهل الحديث خاصة؛ حتى يصلوا إلى ما في السنة النبوية من كنوز قد يعسر عليهم الوصول إليها".

وهذا الهدف -بتيسير وصول الناس للسنة النبوية- هدف سام وغاية نبيلة، ولا أدري هل تأثر الشيخ الألباني بها فجعل مشروع حياته "تقريب السنة بين يدي الأمة"؟

وأخيراً فإن الشيخ أحمد شاكر يقدم لطلبة العلم درساً عالياً في التواضع والوفاء والصداقة حين ذكر في مقدمته أن صديقه الطبيب السيد أحمد أحمد الشريف هو الذي حثه وشد من عزمه للتعليق على أحاديث «المسند» من جهة الضعف والصحة، وهذا يدل على أمانة علمية راقية، تحتاج الأجيال المعاصرة إلى الاقتداء بها.

وفي مدح هذا الجهد العظيم قال الشيخ حامد الفقي: "هذا العمل العظيم حقّاً ليس وليد القراءة العاجلة، أو إزجاء الفراغ فيما يلذ ويشوق ويسهل، وإنما هو نتاج الكدح المتواصل، والتنقيب الشامل، والتحقيق الدقيق...

وقد أنفق فيه صديقي نحو ربع قرن من الزمان، لو أنفقه في التأليف أو في نشر الكتب الخفيفة لكان لديه منها الآن عشرات وعشرات، ولجمع منها مالاً جزيلاً، وذكراً جميلاً، ولكنه آثر السنة النبوية وتقريبها لطالبيها على كل ذلك، فحقق الله أمله، وبارك في عمله".

علاقة الشيخ بجماعة أنصار السنة المحمدية:

لا يعرف كثير من الناس أن الشيخ أحمد شاكر كان من أركان جماعة أنصار السنة المحمدية، وهذه العلاقة ترجع إلى زمن تأسيسها، فالشيخ أحمد شاكر والشيخ حامد الفقي رفيقا درب طويل في الدعوة للسنة ومنهج السلف، وصداقتهما استمرت قريباً من (٥٥) سنة، وقد يكون السبب في عدم شيوع علاقة أحمد شاكر بجماعة أنصار السنة المحمدية هو: عمله القضائي؛ الذي كان يحول بينه وبين استلام ما يستحقه من مناصب قيادية فيها.

وهذا يتبين من خطاب استقالته من رئاسة مجلة الهدي النبوي؛ والتي قال فيها:

"حضرة صاحب الفضيلة أخي في الله الشيخ محمد حامد الفقي -رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية-.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

عهد إلي مجلس إدارة الجماعة -بحسن ظنه- أن أقوم بالإشراف على تحرير مجلة (الهدي النبوي) ابتداء من أول العام الهجري الحاضر (المحرم ١٣٧٠هـ)، وقد قمت بما عهد إلي فيما استطعت -والحمد لله-، ثم جاء ظرف جديد: أن صدر حكم من مجلس الدولة يوم الخميس الماضي (٢٠ رجب ١٣٧٠هـ/ ٢٦ إبريل ١٩٥١م) بإلغاء القرار الصادر من وزارة العدل بإحالتي إلى المعاش، وبذلك صرت مستمراً بمنصبي القضائي.

وتعرفون ويعرف المجلس الموقر ما للمناصب القضائية من الحساسية التي قد تنافي مباشرة القاضي لعمل صحافي متصل، ولذلك أجدني مضطراً إلى الاعتذار عن الإشراف على تحرير المجلة.

شاكراً لكم ولمجلس الإدارة ما لقيت من تعاون وعطف، راجياً أن ترفعوا اسمي من عنوان المجلة، ابتداء من العدد القادم (عدد شعبان ١٣٧٠هـ)".

قد يستغرب البعض من هذا الخطاب الذي يشكل نموذجاً مثاليّاً للعمل الجماعي والإداري الشرعي؛ والذي يصدر من قامات علمية عالية، إنها الحقيقة الغائبة عن كثيرين من أن الدعوة السلفية المعاصرة لم تنتشر وتظهر إلا بجهود ضخمة من علمائها المصلحين، وبواسطة اتخاذهم الأسباب من إنشاء المؤسسات الدعوية والمدارس والصحف والمجلات والأحزاب، والمشاركة في الشؤون العامة.

الشيخ أحمد شاكر كان عضواً مؤسساً لجماعة أنصار السنة المحمدية من بدايتها، كما يؤكد الشيخ فتحي عثمان وكيل الجماعة، ولذلك كان أحمد شاكر من أعضاء هيئة علماء الجماعة التي تأسست سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م)، ولما أحيل أحمد شاكر إلى التقاعد في عام (١٣٧٠هـ) انتهزت الجماعة هذه الفرصة لتسند إليه رئاسة مجلتها (الهدي النبوي)، فكتب أبو الأشبال في مقدمة العدد الأول لسنة (١٣٧٠هـ) يقول: "وهذه هي السنة الخامسة عشرة لمجلة (الهدي النبوي»، وهي تسير على هُدًى، موفَّقة إلى الخير -بعون الله-، داعية إلى الحق، إلى كتاب الله وسنة رسوله، متبعة مذهب السلف الصالح ﷺ، لا تفرقُ بها السبل عن سبيل الله.

وقد رأى إخواني أعضاء مجلس إدارة جماعة أنصار السنة، ومعهم أخي ورفيقي وزميل العمر في الدعوة الحقة الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقي -رئيس الجماعة ورئيس تحرير المجلة-؛ أن يعهدوا إليَّ بالإشراف على تحريرها وإصدارها، تفضلاً منهم؛ ليكون لي شرف الإشراف العلمي معهم فيما هم بسبيله".

ولم تقتصر علاقة الشيخ أحمد على الهيئة العلمية ورئاسة تحرير المجلة، بل كانت له مقالات متعددة في مجلة الجماعة، منها: (القول الفصل في مس المرأة) عدد رمضان (١٣٥٦هـ)، و(الإنصاف فيما جاء في البسملة من الاختلاف) عدد صفر (١٣٥٨هـ)، و(عبد العزيز فهمي وعداؤه للعربية) عدد ذي القعدة، وذي الحجة (١٣٦٣هـ)، و(مقتل مالك بن نويرة) عدد المحرم (١٣٦٥هـ)، وتكشف لك هذه العناوين عن سعة أفق الشيخ والمجلة في طرح هذه القضايا في ذلك الزمن المبكر.

ولعل من أهم مقالات الشيخ في مجلة الجماعة: المقالات التي كتبها في زاويته الثابتة بعنوان: (كلمة الحق)، والتي عرفها الشيخ أحمد شاكر بقوله: "باب (كلمة الحق) وهو

باب جعلته خاصّاً بي، أقول فيه كلمة الحق في شئون المسلمين كلها، ما وجدت لقولها سبيلا"، وقد طُبعت في كتاب مستقل لاحقاً.

وأيضاً حين منع حسين سري باشا -رئيس الوزراء في عهد الأحكام العرفية البريطانية على مصر- الشيخ شاكر من إلقاء محاضرة بجمعية الشبان المسلمين بعنوان "الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين بمصر"، سنة (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، دون أن تطلع السلطات على مضمون المحاضرة؛ تولت جماعة أنصار السنة المحمدية طباعة المحاضرة في مطابعها، كما سجل ذلك ولده أسامة في كتابه «أعلام العصر» عن جده وأبيه وعمه، وسجله الشيخ في مقاله (ولاية المرأة القضاء-مرة أخرى).

وهذا كله يؤشر بوضوح عن الدور الرائد الذي قامت به جماعة أنصار السنة المحمدية، والمهام التي اضطلعت بها بخلاف ما يشيعه خصومها عنها من محدودية الهدف والدور.

وكان لأحمد شاكر دور آخر في جماعة أنصار السنة وهو: تقديم المحاضرات وإدارة الندوات، كما فعل في ترتيبه لمحاضرة لأحد الشباب الذين لفت كتابه «الحرب الحديثة وما تلقيه على مصر والشرق العربي من دروس» نظر أحمد شاكر في مكتبة الخانجي سنة (١٩٤٣)، فوجد فيه رؤية عميقة، ونفساً صادقاً، فبحث عن المؤلف حتى عثر عليه، وراسله رغم أنه محامٍ وهو شاب صغير، فجاءه واستقبله ورتب له محاضرة بدار جماعة أنصار السنة.

وكتب أحمد شاكر عن هذه القصة مقالاً بعنوان: (نابغة الشباب الأستاذ رياض محمود مفتاح)، يحسن أن نقف معه بعض الوقفات:

© في البداية أصل المقال هو: كلمة أحمد شاكر في مقدمة محاضرة رياض مفتاح،

وهذا من تواضعه وحسن خلقه.

© اكتشـاف الطاقـات وإبرازهـا خصيصـة لا يقـدر عليهـا إلا الكبـار؛ خاصـة إذا كانت مع مَن هو أصغر سناً، وهذا يـدل عـلى سـمو وعلـو مكانـة ونفسـية أحمـد شـاكر؛ والذي جعل العنوان: "النابغة"، وهذا منهج يحسن الاقتداء به في تقديم الأذكياء.

© مما قاله أحمد شاكر في المقـال والتقـديم مفتخـراً: "وأنـا الـذي عرّفتـه إلى رئيسـنا الشيخ محمد حامد الفقي"، ما أجمل التواضع بين العلماء!

© وبعد أن نقل أحمد شاكر بعض عبارات النابغة ريـاض مفتـاح في كتابـه، والتـي تـدور حـول ضرورة العـودة لإسـلامنا في نهضـة الأمـة لا اعـتماد المنـاهج الغربيـة، وأن الإسلام منهج شامل لصلاح البشرية؛ أخبر أنه حين عثر عـلى عنوانـه أرسـل لـه رسـالة فاتحة للتعرف قال فيها: "إنك كتبت في قضية نعمل من سـبيلها منـذ أكثـر مـن عشريـن سنة؛ حتى لقد كـدنا أن نضـعف، ودعَوتـه أن يضـع يـده في يـدنا، وأن يكـون قائـدنا في جهادنا يبث فينا من عزيمته القوية الفتية، ويرشدنا بما وفقه الله إليه من علم ونور".

يا الله كم كان الشـيخ أحمـد شـاكر مخلصـاً لقضـيته وهدايـة أمتـه ورفعتهـا! لم يكـن يبحث عن المجد والصفوف الأولى، كان يبحث عن القوي الأمين، فهلّا سرنا على دربه الإصلاحي؟!

ولا بد من التنبيـه عـلى أن الخـلاف الـذي وقـع بـين الشـيخين أحمـد شـاكر وحامـد الفقي كان خلافاً علميّاً، اشتط القول فيه قليلاً، ثم سرعان ما تصافى الشيخان، ولم يؤثر على علاقتهما، بل لقد توفيا بعده بسنوات معدودة وهما على أخوة ووفاق X .

جوانب من دوره الإصلاحي:

² مر معنا أن الشيخ مارس القضاء، وبسبب ذلك عمل على إصلاحه، مواصلاً طريق والده، ولم يقتصر ذلك على مصر، بل كتب في ذلك إلى الملك عبد العزيز آل سعود، وذلك للعلاقة الوثيقة التي كانت بينه وبين الدولة السعودية.

ومِن عمله في إصلاح القضاء تأليفه لكتاب: «الطلاق»، وذلك لأن الطلاق مشكلة اجتماعية ضخمة، تعاني منها كثير من مجتمعات المسلمين، وهذا الكتاب دليل واقعي وعملي على أن منهج التمسك بالكتاب والسنة وفهم السلف هو الكفيل بتقديم الحلول الصحيحة والسليمة لواقع الأمة، قال أبو الأشبال عن منهجه فيه: "إنما هي أبحاث علمية حرة، على منهج أبحاث المجددين الصادقين؛ من السلف الصالح -رضوان الله عليهم-".

وقال عنه رفيق عمره حامد الفقي: "فهذا بحث طريف، عالج فيه أخي في الله الأستاذ العالم المحقق، المجتهد (ومحدث مصر) السيد أحمد محمد شاكر: موضوعاً خطيراً، وحل به مشكلاً اجتماعيّاً، طالما ضاقت منه الصدور، وحرجت به نفوس.

ولقد كان يفكر في أمثال هذه المسائل من نيف وعشرين سنة".

² الشيخ أحمد شاكر يحرص على الاجتهاد في نوازل العصر، ولذلك من القضايا التى اهتم بها: مسألة الشهور العربية واعتماد الحسابات الفلكية، ورغم أنه كان في صغره رافضاً لاعتماد الحسابات، ومؤيداً لوالده في ذلك، وكتب رسالة في هذا الصدد، إلا أنه حين تعمق في بحثها غير رأيه، وأعلن تراجعه بوضوح في كتابه «أوائل الشهور العربية»، في أمانة علمية يشكر عليها، وفي خطوة عملية لاعتماد العلم الصحيح في كافة مناحي الحياة.

² كان الشيخ واضحاً في رفض القوانين الوضعية، وأنها تصادم الشريعة، ولا يجوز القبول بها، وله عدة مقالات وخطب ومحاضرات وكتب حول ذلك، منها: «تحكيم القوانين»، و«الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين بمصر»، و«حكم الجاهلية»، وكان للشيخ منهج واضح وراسخ مع مقاومة هذه القوانين، وذلك بنبذ العنف والاغتيالات، فهو يقرر أن: "الإسلام يكره العنف والهوج، وهو بجانب هذا يحتقر الجبن والذل، ويرفض من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض"، ولذلك رفض الشيخ وأدان اغتيال رئيس الوزراء النقراشي نهاية سنة (١٩٤٨م)، وكتب مقاله القوي: "الإيمان قيد الفتك"، ويبدو أن المقال تسبب في تهديد الشيخ بالاغتيال، فتمّ وضع حراسة على بيته!

والمنهج الذي ارتضاه شاكر لإعادة تحكيم الشريعة يتمثل بما قاله في محاضرة/ كتاب: «الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين بمصر»، سنة (١٩٤١م)؛ من اتخاذ خط التدرج بسن القوانين الإسلامية المتحررة من جمود المذاهب الفقهية؛ من خلال القضاة ورجال القانون، وإقرار ذلك بالقنوات الرسمية؛ كالبرلمان وغيره، يقول أحمد شاكر: "فالخطة العملية فيما أرى: أن تختار لجنة قوية من أساطين رجال القانون وعلماء الشريعة لتضع قواعد التشريع الجديد، غير مقيدة برأي، أو مقلدة لمذهب؛ إلا نصوص الكتاب والسنة".

وبعد عشر سنوات أعاد الشيخ التأكيد على هذا الرأي والسبيل لتحكيم الشريعة، فنقل في مقاله: "ولاية المرأة القضاء-مرة أخرى"، -(الهدي النبوي) عدد ربيع أول (١٣٧٠هـ)- ما كان كتبه من قبل في كتابه «الشرع واللغة»: "وبينت لهم السبيل الذي نسلكه؛ إنه السبيل الدستوري السلمي: أن نبث في الأمة دعوتنا، ونجاهد فيها ونجاهر

بها، ثم نصاولكم عليها في الانتخابات، ونحتكم إلى الأمة.

ولئن فشلنا مرة فسنفوز مراراً، بل سنجعل من إخفاقنا في أول أمرنا، مقدمة لنجاحنا، بما يحفز من الهمم، ويوقظ من العزم".

وكان قد قال في كتابه «الشرع واللغة»: "ضعوا القوانين على الأساس الإسلامي: الكتاب والسنة، ثم افعلوا ما شئتم، فليحكم بها فلان أو فلان، لسنا نريد إلا وجه الله".

هذا هو منهج الشيخ أحمد شاكر في الإصلاح لتحكيم الشريعة.

تكريم الشيخ:

كان الشيخ موضع حفاوة من العلماء والفضلاء في حياته وبعد مماته، ففي حياته كانت له صِلات وطيدة بكبار العلماء في غالب البلاد، وكانت فتاواه واجتهاداته موضع قبول وترحاب.

وقد تم تكريمه بعد وفاته؛ فقد مُنح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في مصر، سنة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، وفي السعودية تم منحه جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود التقديرية لخدمة السنة النبوية، في دورتها الثانية (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

وفاته:

توفي الشيخ في ذي القعدة (١٣٧٧هـ/ يونيو ١٩٥٨م) -رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في جنته-، والحمد لله رب العالمين.

مراجع للتوسع:

١- «من أعلام العصر»، أسامة أحمد شاكر، بدون ناشر، ط١، (٢٠٠١م).

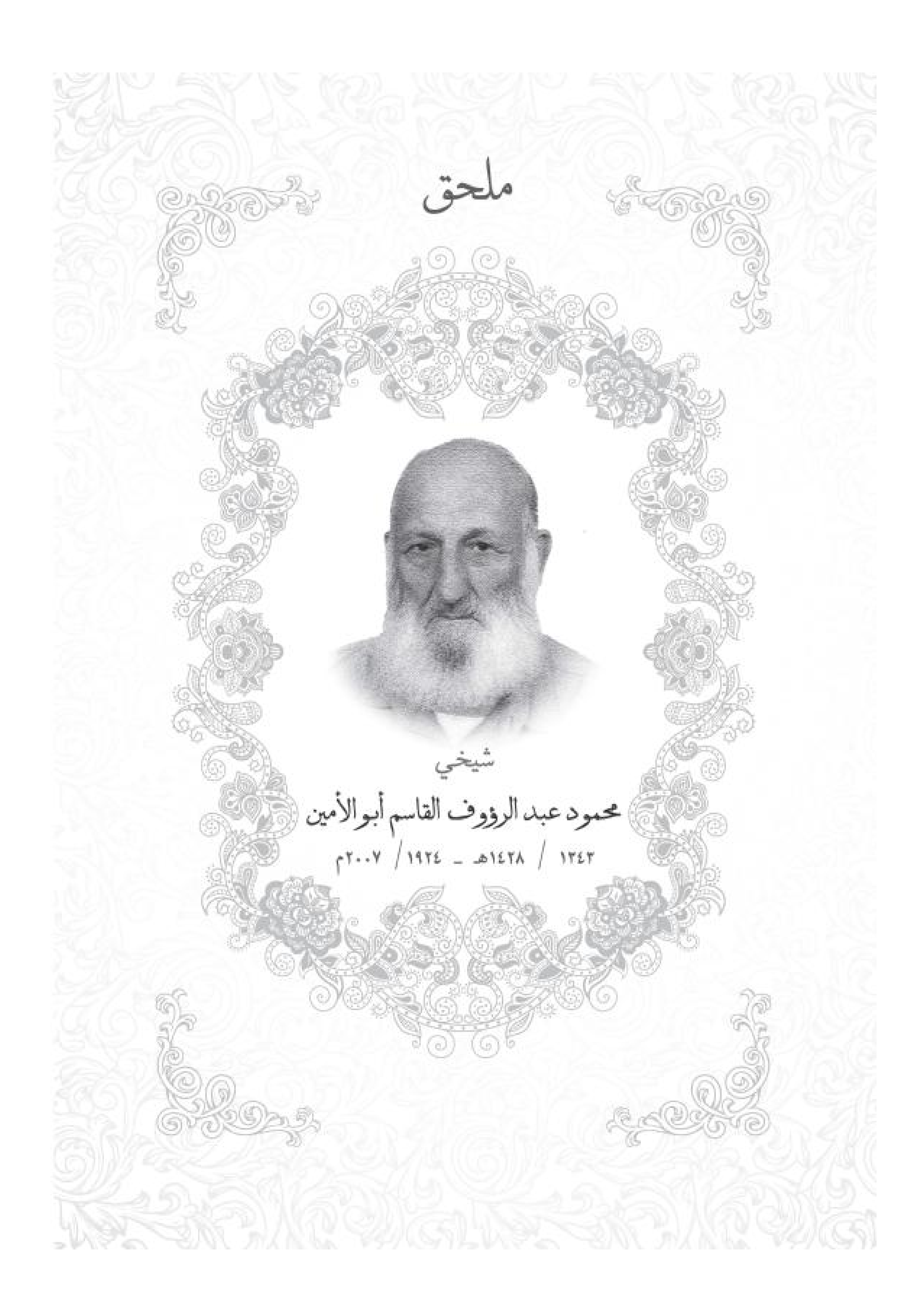
٢- «الصبح السافر في حياة العلامة أحمد شاكر»، رجب بن عبد المقصود، دار ابن

كثير، الكويت، ط١، (١٩٩٤م).

٣- «الثمار الشهية والتراجم الذكية لعلماء أنصار السنة المحمدية وإخوانهم»، الشيخ فتحي أمين عثمان، دار ابن عباس، مصر، ط١، (٢٠١١م).

٤- «جماعة أنصار السنة المحمدية»، د. أحمد محمد الطاهر، دار الفضيلة، السعودية، ط ١، (٢٠٠٤م).

٥- «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، د. محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، (١٩٩٥م).



ملحق

شيخي

محمود عبد الرؤوف القاسم أبو الأمين

١٣٤٣ / ١٤٢٨هـ ـ ١٩٢٤/ ٢٠٠٧م

٢١- الأُستاذ محمود عبد الرؤوف القاسم[(١)]

(١٣٤٣/ ١٤٢٨هـ- ١٩٢٤/ ٢٠٠٧م)

حين قابلته أول مرة قبل عشرين عاماً كنت ما أزال في المرحلة الثانوية، في حين كان الشيب هو الذي يواجهك في لحيته البيضاء؛ إذ قد تجاوز الستين من عمره، وصحبته طوال هذه الأعوام العشرين متعلماً ومستفيداً منه، ومن ثم محاوراً ومناقشاً فيما بعد.

وطوال هذه الرحلة كنت أدخل معه عوالم جديدة من الفكر والتاريخ والعلم، كيف لا وأنا حصلت على كنز من العلم والمعرفة! فقلَّما يتاح في حاضرنا للشباب مخالطة الشيوخ من العلماء والمثقفين أصحاب التجربة الواسعة والخبرات المتنوعة والمعارف الموسوعية.

الأستاذ محمود عبد الرؤوف القاسم، والمشهور بلقب: أبو الأمين، أصله من نابلس، وأخواله من الأكراد.

ولد في درعا، وعاش في دمشق، واصل دراسته في الفيزياء بفرنسا ما أتاح له التجول في أوروبا بشقيها، وزار روسيا، وبعد عودته من فرنسا ذهب في إعارة للعمل في الكونغو مدرساً، قبل أن يعود إلى الشام، ومن ثم يهاجر كحال الكثيرين إلى الأردن عبر لبنان.

---

(١) كنت كتبت هذا المقال عند وفاته Z ، وأحببت إعادة نشره هنا من باب الوفاء له، ولعل الله أن ييسر لي جمع سيرته من أحبابه وتلاميذه في القريب العاجل.

كان الأستاذ أبو الأمين نموذجاً حيّاً يعيش بيننا لكثير من الشخصيات التي نسمع عنها في التاريخ، فهو قد نشأ يتيماً، ومن ثم فقد فارق منزله ليكمل دارسته الابتدائية، فسكن وحيداً في غرفة بقرية أخرى، واستمرت هذه الوحدة معه حتى وفاته Z يوم الثلاثاء (٢٠/١١/٢٠٠٧) بعد العصر، عن عمر (٨٣) عاماً، لم يتزوج فيها، وكان يعتمد فيها على نفسه في أمور حياته الخاصة، فكان عصامياً من الطراز الأول في تعليم نفسه وتثقيفها وتدبير أمورها.

كنت حين تجالسه تشعر أنك تجالس رجلاً قادماً من عمق التاريخ؛ لأنه كان من القلة التي تحيط بالتاريخ وخفاياه، كما أنك كنت تدهش من سعة معلوماته ومعارفه التي لا تقتصر على علم الشريعة، بل كم ناقش من الباحثين في موضوعات علمية تخصصية، وتشهد بذلك كتبه في الإعجاز العلمي في القرآن.

ومع قلة ذات يده إلا أنه كان كريماً سخيّاً مع إخوانه وطلابه، ما أزال أذكر مرة أحضر له فيها بعض المحبين هدية من السجاد والفِراش، وبعد يومين زاروه فلم يجدوها عنده، فلما سألوه قال: "أعطيتها فلاناً، عنده عائلة وهو أحوج بها مني".

كانت مطالعته موسوعية، وساعده على ذلك حبه للقراءة، وعمله أمين مكتبة لثانوية الكواكبي بدمشق.

وإذا قلت أنه قرأ أغلب ما طبع في الخمسينيات والستينيات لا أبالغ! بل كان يقرأ بالإنجليزية والفرنسية أيضاً.

وفي مسيرته الحافلة عرف الكثير من الشخصيات العامة والمهمة؛ على اختلاف مشاربها ومذاهبها، كما عايش الكثير من الأفكار والحركات المختلفة، مما جعله صاحب نظرة ثاقبة ورؤية حكيمة.

إن مما استفدته منه -وهو كثير- مبدأ: القراءة طريق العلم، والعلم مفتاح الحل لمشاكلنا، وكم كان يجيب على سؤالي ما هو الحل؟ بجواب: القراءة، فرسخ حب القراءة في قلبي وعقلي، وزاد أن جعله موسوعيّاً، وكان يؤكد علينا كثيراً: "اقرأ الكتاب أكثر من مرة".

كان يحدثنا عن كتب مهمة مفقودة، فكنت إذا زرت بلد أبحث له عن بعضها في المكتبات، ووفقت أكثر من مرة في الحصول على بعضها، فكان فرحه بها يفوق فرحة الأب بمولود جديد.

علَّمنا أن نأخذ من الكاتب معلومته دون رأيه، فإن الكاتب قد يكون مخطئاً في رأيه، فلا نقع أسرى رأيه، فأكسبنا ملكة نقدية موضوعية، علمنا أن الأسئلة هي ما نحتاجها لا الإجابات المحفوظة من دون تمحيص.

كان يحب النقاش والحوار رغم أنه في عمر أجدادنا، كان يقبل المعلومة الجديدة ويصوب رأيه إذا ظهر له الحق بدليله، كم كان يفرح إذا جاءه أحدنا بمعلومة جديدة؛ لأنه في سنواته الأخيرة لم يعد يمكنه صحيّاً مواصلة القراءة والبحث؛ رغم أنه لم يتوقف عن الكتابة أبداً؛ ولو كتابة أسطر قليلة.

بقي حتى لحظة وفاته، معلماً وناصحاً لمن حوله؛ فقد توفي وهو يوجه أحد جيرانه الطيبين لما هو أحسن في تصرف معين.

له عدد من المؤلفات القيمة والنادرة في مجالها منها:

١ - كتابه الأهم: «الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ»، وطبع في (٩٠٠) صفحة من الحجم الكبير.

يعد كتابه هذا عمدة للباحثين في هذا المجال لا يستغنى عنه، بل حدثني بعض

الباحثين المختصين بالتصوف أنه حين قرأ كتاب «الكشف» استغرب كثيرون من النصوص الواردة فيه عن مراجع الصوفية المعتمدة؛ لأنهم طالعوها ولا يذكرون وجودها أو مرورها عليهم، يقول بعضهم: "فلما راجعت مقولاته فإذا هي صحيحة، وعجبت كيف استخرجها وعميت علينا؟".

٢- كتابه «مصر ليست مصر»، وهو بحث في الإعجاز القرآني من جهة علم التاريخ والجغرافيا.

وهو جانب تندر الكتابات فيه، فمعلوم أن علوم الجغرافيا والتاريخ بخاصة ما يتعلق بمنطقتنا تستند إلى مفاهيم «الكتاب المقدس»، وقد ثبت اليوم بطلان هذه المفاهيم، كما في أبحاث الدكتور كمال الصليبي وغيره، أو بعض المؤرخين الغربيين؛ ككيث وايتلام -أستاذ الدراسات الدينية، ورئيس القسم بجامعة استيرلنج، صاحب كتاب «اختلاق إسرائيل القديمة»-.

وقد كانت محاولة الدكتور الصليبي في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» أن يستخرج نظرية أخرى لكن بالاعتماد على نصوص التوراة، وهو ما رفضه الأستاذ أبو الأمين، لأن التوراة الموجودة اليوم محرفة، ومن أدلة تحريفها: مخالفتها للواقع التاريخي والجغرافي.

لذلك قام الأستاذ أبو الأمين بالاعتماد على نصوص القرآن الكريم لتحديد موقع قصة موسى عليه السلام ومصر، وقد توصل إلى تحديد مكان مصر القرآن أنها: تقع قرب البحر الأحمر، جنوب مدينة العقبة، وشمال مدينة تبوك.

واشتمل الكتاب على أبحاث إضافية؛ كتحديد مكان مدينة إرم، وحقيقة طوفان نوح عليه السلام، ومكان سفينته.

٣- جاء كتابه «قتلوا من المسلمين مئات الملايين» ليسلط الضوء على جرائم مروعة ومجازر رهيبة تعرض لها المسلمون دون أن تلقى العناية الكافية، وهي جرائم الأنظمة الماركسية والشيوعية والاشتراكية بحق دماء المسلمين وأرضهم.

فنشر إحصائيات نادرة عن أعداد المسلمين في العديد من الدول التي تعرضت إلى الاحتلال الماركسي، وكم تناقصت هذه الأعداد الضخمة بعد سنوات قليلة من احتلال الماركسيين لها بواسطة المجازر الجماعية الرهيبة.

توصل أبو الأمين في كتابه هذا إلى أن الشيوعية قد قتلت من المسلمين أكثر من (٢٠٠) مليون مسلم في أقل من (٨٠) سنة! وما تزال هذه الجرائم الماركسية والشيوعية قائمة بحق المسلمين ولا تجد تغطية إعلامية مناسبة؟!

إن فضائع (أبو غريب) و(غوانتنامو) لا تعادل شيئاً بحق ما يجري للمسلمين اليوم في الشيشان أو جمهوريات آسيا، أو ما يتعرض له المسلمون في الصين أو تايلند وغيرها!

فمن المسؤول عن تغييب حق هؤلاء المسلمين؟ ومن المستفيد من ذلك؟

وله كتب أخرى في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

رحم الله الأستاذ محمود عبد الرؤوف القاسم، وأسكنه فسيح جناته.

فهرس المحتويات